

القرآن الكريم

تأليف
محمدة زينة الزوزة

الكتاب الإسلامي

الْقُرْآنُ الْمُبَشِّرُ

تأليف
محمد عزة ووزرة

المكتب الإسلامي

الطبعة الثالثة

١٣٩٩ - ١٩٧٩

حقوق الطبع محفوظة للكتب الإسلامي
لصاحبه
زهير الشاويش

الكتب الإسلامي
للطباعة والنشر

بيروت: ص.ب (٣٧٧) - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيًا: إسلاميًا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف: ١١١٦٣٧ - برقيًا: إسلامي

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ
نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ *

(سُورَةُ التَّوْبَةِ (٢١-٢٢))

« صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ »

فصول ومواد الكتاب

١- مقدمة الكتاب . وفيها بحث في دواعي تأليف الكتاب وتنبيهات على مايقع فيه المبشرون من سوء فهم وسوء استيعاب للقرآن .

٢- الفصل الاول

التوراة والانجيل واسفار العهد القديم والعهد الجديد في القرآن والواقع .

اولاً : وصف لاسفار العهد القديم وتاريخها ومحتوياتها
ثانياً : وصف لاسفار العهد الجديد وتاريخها ومحتوياتها .
ثالثاً : تنبيه على مايقع فيه المبشرون من سوء فهم وسوء تفويل لاحاديث تدوين القرآن.

٣ - الفصل الثاني

اولاً : مسألة كتابية القرآن وكتابية الدعوة الاسلامية في العهد المبكر .
ثانياً : زعم الانقلاب الشامل للنبي صلى الله عليه وسلم واساليبه في العهد المدني .
ثالثاً : مزاعم في صدد صفة الرسول عليه السلام وتنبيه على ما في هذه المزاعم من سوء فهم وسوء تفويل للنصوص القرآنية .
رابعاً : زعم قومية الدعوة الاسلامية وعروبيتها دون عمومها ولكونها ليست انسانية ولا عالمية

خامساً : زعم بدائية الدعوة الاسلامية وسليبتها وكونها عملية ولا اخلاقية .
سادساً : مزاعم متنوعة في نظم القرآن .
سابعاً : صفات المسيح وادعاه عليهما السلام في القرآن .
ثامناً : حالة اليهود والنصارى في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة للكتاب

قرأت في صيف سنة ١٩٦٨ أربعة كتب مطبوعة في مطبعة حريصا البولسية في لبنان لمبشر مسمى نفسه (الأستاذ الحداد)^(١) بعنوان مشترك هو (دروس قرآنية) مع عناوين أخرى لكل كتاب ، والأول يحمل الرقم (١) وعنوانه الخاص (الإنجيل والقرآن) وعدد صفحاته (٤٢٢) ، والثاني يحمل الرقم (٢) وعنوانه الخاص (القرآن والكتاب) وعدد صفحاته (٢٧٩) والثالث يحمل الرقم (٣) في نفس عنوان الثاني ويظهر أنه تكملة له ، لأن أرقام صفحاته بدأت بالرقم ٢٨٠ ، واستمرت إلى ١٠٧٦ فيكون عدد صفحاته (٧٩٦) ، والرابع يحمل الرقم (٤) وعنوانه (نظم القرآن والكتاب) وصفحاته (٢٠٢) .

وقد كتب الحوري لكل من كتبه الأربعة مقدمة بريئة الظاهر ، وفيها دعوة إلى التفاهم وتبادل الثقة بين المسلمين والنصارى ، لأنهم يدينون بدين كتابي متحد المصدر والمبادئ والأهداف .

غير أنه حشا كتبه بأقوال وبيانات وروايات وتحليلات عن القرآن ومحتوياته ونظمه ولغته وتوثيقه . وعن شخصية النبي محمد ﷺ وسيرته ورسالته

(١) علمت أن اسمه الكامل يوسف الياس الحداد ، وبلبس بزة الحوارنة المسيحيين .

وصلتها بأهل الكتاب ، وبتعدد أكثر باليهودية والنصرانية وكتبها فيها الغريب العجيب المذهل من التخرص والتعسف والتجني والمجازفة وتحريف الكلام واللعب بالألفاظ ، وعدم للتورع عن أقوال فيها افتراء وسوء أدب نحو القرآن ورسول الله وكتاب وحيه وأصحابه الأولين وتابعيه ونسبة الدس والزيادة في القرآن اليهم .

والخوري مطلع على كتب تفسير المسلمين وما كتبه علماء وكتاب المسلمين من كتب في مختلف العصور أيضاً ، ويستشهد أحياناً كثيرة بما جاء فيها ، غير أنه جرى على يتر ما ينقل واللعب فيه حيث جهل تلك مهمة كما ظهر لي يقيناً مما نقله عن كتي « القرآن المجيد » و « عصر النبي ﷺ » ويثته قبل البعثة ، و « سيرة الرسول ﷺ » التي ينقل عنها كثيراً حيث أورد روايات منها أوردتها فيها للتفنيد ، فرواها دون تفنيدي لها وحيث أورد بعض شروحي وتعليقاتي على بعض المواضع ناقصة أو مبتورة ، وفعل مثل هذا إزاء كتب اسلامية أخرى . وقد جرى كذلك على إبراز أقوال وروايات ضعيفة وإهمال ما في موضوعها من أقوال وروايات قوية مما ثبت لي من المقارنة بين ما نقله عن بعض المصادر الإسلامية وبين ما ورد في هذه المصادر .

ومما جرى عليه أنه حين يستشهد بالآيات القرآنية - وهو يفعل هذا كثيراً - يقطع آية من سياق أو جملة من آية ويحمل أو يغفل بقية السياق أو الآية مع أنه يكون في ما أهمله وأغفله توضيح أو تنمة أو استدراك بسبيل تأييد ما يريد زعمه من أفكار ودعاو وأحكام ، وكثيراً ما يفعل مثل ذلك في إبراد آية أو جملة في سورة وإهمال ما في السورة الأخرى من توضيح أو تنمة أو استدراك متجاوزاً بهذا وذاك ما هو مقور طبيعي من التكامل والترابط القرآني ^(١) .

(١) سياق التفهيم عليها في مناجلتها .

كذلك ، ما جرى عليه أنه يجازف بجازفة عجيبة بل يجراً جرأة عجيبة فيها كثير من التنطع والتنطع في تأويل الآيات والعبارات القرآنية وإهمال ظروفها ومقاماتها بدون هند ولا منطقي ، ودون أي اهتمام بما يقوله المفسرون وعلماء اللغة والقرآن أو يوردونه في صدها من أقوال وحجج وروايات قوية وصحيحة ، وأنه يتصيد تأويلات لبعض المفسرين وأقوالاً لبعض المؤلفين يظنها متساقطة مع هواه ومزاعمه فيبرزها ويهمل غيرها بما هو أقوى منطقاً أو سنداً أو حجة أو شهرة . وحينئذ يفهمه النص القرآني ولا يستطيع تحريف معناه وألفاظه ومقامه يباحر إلى وصفه بأنه مدسوس أو مزبد أو مقحم .

- ٣ -

وهو يستهدف من كل ذلك تبشيراً مسيحياً من ناحية ، وتوهيناً للقرآن والرسالة المحمدية من ناحية ، مناقضاً بذلك مقدمات كتبه التي ظن أنها قد تكون طعماً للقارئ وستاراً يستر بها هواه وهدفه مع أنه لا يلبث أن يظهر أنه ستار شفاف لا يستر شيئاً حيث يصدق عليه قول من قال : يعطيك من طرف اللسان حلالة ويروغ منك كما يروغ الثعلب أو :

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب وفي كتبه أقوال وتبيعات ودعاو كثيرة عن التوراة والإنجيل وما يسميه « الكتاب المقدس » الذي يعني مجموعة أسفار العهد القديم والعهد الجديد . وكثيراً ما يدير أقواله على اعتبار أن القرآن يعترف بالتوراة والإنجيل وأن ما فيها حجة له ولأهل الكتاب على القرآن والمسلمين .

- ٤ -

كل ما تقدم مع ما كنت أطلع عليه من مثله في كتب المبشرين والمستشرقين جعلني أكتب هذه البحوث لأوضح فيها مدى مفهوم التوراة والإنجيل في القرآن ثم في الواقع ، ومدى مفهوم وواقع أسفار العهد القديم

والعهد الجديد أولاً ، ولأرد ثانياً على المزاعم والدعاوى والأقوال والتأويلات والافتراءات والتطعات التي يسوقها بقصد التجريح والتهوين والتشكيك والتي يزعم أنه يستند فيها إلى القرآن وعلماء المسلمين ، وأوضح الأمر على وجه الحق الصحيح في كل ذلك إن شاء الله دون أن أقصد جدلاً مقابلاً لأنني أعرف أن ذلك لا طائل منه مع الحوري الحداد وأمثاله الذين يتخذون الجدل والمحاكة واللعب بالألفاظ ديدناً ومهنة ، وإنما بقصد إظهار الحق والحقيقة والدفاع عنها وتبني أهل القرآن إليها ، وقد كبر من أراد أن يتذكر من غيرهم ، ولا سيما أن الرسالة المحمدية القرآنية رسالة إنسانية عامة رشحا الله تعالى لتكون دين الإنسانية العام بنص آيات عديدة أوحى الله بها في سياق الرد على الكفار من أهل الكتاب والمشركين الذين انبروا للصد عنها ومناواتها محاولين اطفاء نور الله وانطوى فيها من المبادئ والأحكام والقواعد والتفنيات ما فيه امتجابه وحل لكل مطلب إيماني واجتماعي وشخصي وسياسي وسلوكي بما فيه كل سعادة البشر ورفيهم وعزتهم وأمنهم وسلامتهم وحرمتهم حيث يكون الدفاع عنها خدمة للبشرية كافة .

ولقد كان من توفيق الله وتسديده أن حار ما كتبناه بحوثاً مفيدة في حد ذاتها لأي قارئ في صدد محتويات القرآن ونظمه وترتيبه ولغته ، وفي صدد شخصية الرسول ﷺ وسيرته ، وفي صدد سيرة انتشار الإسلام بين العرب وسائر الناس ، وفي صدد التوراة والانجيل وأسفار العهد القديم والجديد .

ونحن نعرف أن علماء كثيرين من المسلمين في القديم والحديث كتبوا جهوداً على مزايم متنوعة للقسس والرهبان من النصارى والأخبار من اليهود والمبشرين المستشرقين المحرفين للكلام عن مواضعه بسبيل الاعتراض على عقائد المسلمين وتأيد عقائدهم ، غير أن الحوري الحداد نحا في كتبه منحنى جديداً وجعل القرآن سنداً له في ما كتبه لصالح أهل الكتاب وكتبهم وبخاصة النصارى وضد القرآن ورسول القرآن وأهل القرآن ، فصار من

المفيد والواجب أن يكتب هذا الكتاب للرد فيه على ذلك الحق الجديد .

- ٥ -

ولقد تعرض القرآن الكريم والرسول محمد ﷺ للعظيم ودين الاسلام والمسلمين لمناوئات ودسائس كثيرة منذ فجر الدعوة من قبل فئات متنوعة وبخاصة من قبل بعض رجال الدين اليهودي والنصراني على ما حكته آيات القرآن الكريم ثم روايت السيرة والتاريخ في مختلف الأدوار والأقطار ، ولكن الله تعالى الذي رشح الاسلام كما قلنا ليكون دين البشرية العام وليظهره على الدين كله أحبط وما يزال يحبط تلك الدسائس والمناوئات . وينصر دينه ويعززه ويأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون بما عبرت عنه سورة الصف هذه (وإذا قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا ساحر مدبين . ومن أضل ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسَلَ رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وآيات سورة التوبة هذه : (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم مباهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا لهما واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسَلَ رسوله بالهدى ودين الحق

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَاْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . والآية الأخيرة صريحة بأنها تحتوي مشهداً عياناً واقعياً بما كان يبذله كثير من الرهبان والأحبار من المناورات والصد عن الإسلام بسبيل الاحتفاظ بمنافعهم المادية ...

- ٦ -

والحوري الحداد وأمثاله أذكى من أن يجهلوا أنهم أعجز من أن ينالوا من القرآن والرسالة الإسلامية ورسولها العظيم ، وهم يعرفون أن كفار مكة قبل أن يؤمنوا وكفار اليهود والنصارى الذين غلبت عليهم أنانياتهم ومنافعهم فعموا عن نور الحق عن حمد قد قالوا من الأقوال عن القرآن والنبي ورسالته أكثر مما يقوله الحوري وأمثاله مواجهة لصاحب الرسالة . وقد رواه القرآن عنهم بدون أي تخرج ، لأنه لا يقوم على أي أساس صادق وصحيح وأتفه وأهون من أن يشير حرجاً وإشكالاً ، وردده عليهم رداً ساحقاً ثم استمر القرآن ينزل ، واستمر رسول الله بضطلع بهيمته العظمى بكل عزيمة وتصميم وتأييد من الله تعالى حتى أظهر الله دينه على الدين كله في جزيرة العرب ، وأخذ يمتد في حياته إلى ما وراءها وانتشر يعمده في مشارق الأرض ومغاربها ، وفاق في انتشاره كل دين ، وما يزال مستوراً في الانتشار ومتفوقاً على غيره في كل مجال ومنافسة . وليس تفوق الذين يعتقدون بعض الأديان الأخرى على المسلمين عدداً ناقضاً لذلك ، لأنه ناتج عن الوراثة والبيئة وحسب وليس من التنافس بينها وبينه .

- ٧ -

والحوري وأمثاله أذكى كذلك من أن يظنوا أنهم بمثل هذه الكتب

يستطيعون أن يؤثروا على المسلمين وبشكركم في قراَنهم ورسولهم ودينهم
وهم يقرأون في القرآن كثيراً من مثل أقوالهم وتنطعاتهم وبما حكاهم
والرد القوي السالح عليها ، بل هم يعرفون أن هذه الكتب لن يكون
لها رواج وقراء بين جمهور المسلمين ، والمتبادر أنهم إنما يكتبونها بقصد
تشويه القرآن والرسالة المحمدية وتهوينها في نظر بني ملهم لإبقاء لهم على
ما هم عليه ليطولوا مطاياهم يركبونها وبقراً يحلبونها ومدار منافع ومآرب
يجنونها كما وصفت آية التوبة أمثالهم الأقدمين (إن كثيراً من الأَجَارِ
والرَهْبَانِ لَيَا كَلُونِ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ
اللهِ) .

وهم فيما نعتقد في نفس الوقت عملاء ومطايا للعاقدين من رجال الدول
الغربية الاستعمارية الدينين والسياسيين التي كان وظل أسلافهم يتضامنون
مع أسلافهم ضد الاسلام والمسلمين منذ حركة الفتح الاسلامي الأول ثم في
الحروب الصليبية ثم في المحاولات الاستعمارية الحديثة والتي كانت وما تزال
ترى في الاسلام والمسلمين القوة الطاردة لها من الشرق والمناضة ضدها
كل ما أرادت أن تتسلط على بلادهم وتستعمرها فتبذل جهودها المتنوعة
وتحرك عملاءها ومطاياها من رجال دين وسياسة لتحطيم هذه القوة ما استطاعت
إلى ذلك سبيلاً .

ولكن هذه القوة ستظل بإذن الله أقوى منهم جميعاً ، وسوف يغلب
الحق فيها على كل باطل ويبدد نور هداها ظلمات الجهل والضلال والغفلة
والغباء في أوساط هذه الملل عاجلاً أو آجلاً حتى يصدق ويتحقق وعده الله
وإنه لا يخلف وعده (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ
فَيَمْكَنُ فِي الْأَرْضِ) وإن مثل الكلمة الطيبة - وهي كلمة الحق ونور
الهدى الاسلامي - كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل
حين بإذن ربها ، وإن مثل الكلمة الخبيثة - وهي كلمة الضلال والباطل

والكفر برسالة خاتم النبیین محمد ﷺ وبقرآنه الذي هو خاتم كتب الله والمهيمن عليها - كالشجرة الحبيثة ليس لها في الأرض قرار ، وتبحث منها بأوفى قوة وجهد ^(١) .

- ٨ -

وكم يحجز في النفس ويثير فيها أشد مشاعر الحزن والاشمئزاز أن يستنفذ الحوري الحداد وأمثاله من أذكىاء ونباه الكتائبين جهودهم الزائفة التي لا يسندوها حق ولا منطق ولا عقل ولا نص في الصد عن الدين الإسلامي وتجربيع قرآنه ونبيه العظيمين متمسكين بالقشور دون اللباب ، وبالعرض دون الجوهر ، غير متورعين عن البذاءة والغثاثة والصغار والافتراء ، ولا متأثرين بتقدم الأدب الانساني والحضارة الانسانية والتفكير الانساني ، ولا مرتدين عن المكابرة والمهارة والمحاكمة والخروج عن نطاق الأدب والحق والمنطق ، ولا منصاعين للحق والمنطق والضمير ، ولا سيما أنهم يعرفون أن الرسالة الاسلامية متفقة في المصدر والمبادئ والأصول مع ما يعتقدون من كتب الله ورسوله ، وأنها تحترمها وتدعو إلى وحدة الله تعالى وتقرئها وإلى جماع مكارم الأخلاق ، وأسباب سعادة البشر في الدنيا والآخرة . وكان الأولى بهم والاحبى أن يمدحوا حذو من شاهدوا أعلام النبوة عياناً من بني ملهم وفوحوا وابتهجوا وآمنوا وصدقوا وبكوا وخشعوا لتحقيق وعد الله في صدد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وقرآنه الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل على ما حكاه القرآن في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ - (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاسِعِينَ لَهُ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

(١) اقرأ آيات سورة إبراهيم ٢٤ - ٢٧ وآية سورة المائدة ٤٨ .

أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ مَرِيعُ الْحِسَابِ . .)
(آل عمران : ١٩٩) .

٢ - لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُسْتَأْذِنِينَ الزَّكَاةَ
وَالْمُسْتَأْذِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ مُنْتَزِعِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)
(النساء : ١٦٢) .

٣ - (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ
وَالَّذِينَ أَتَمَرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّا تَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَيْسِيْنَ وَرَهْبَانَا وَأَنَّهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَوَرَّىٰ أَعْيُنُهُمْ
تَفْيِضٌ مِنَ الدَّمْعِ بِمَا عُرِفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ
الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَقَامَهُمُ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) (المائدة : ٨٣ - ٨٦) .

٤ - (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)
(الرعد : ٣٦) .

٥ - (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ
سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا وَعْدُ رَبَّنَا لَمَقْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
يَسْكُتُونَ وَيَبْزِيهِمْ خُشُوعًا) (الإسراء : ١٠٧ و ١٠٨) .

وإذا كثروا لا يستطيعون أن يتفكروا من رواسيهم ويتغلبوا على أفتياتهم
ومآربهم ويروا نور الحق الساطع السني في الدعوة الإسلامية وقوانينها وسيرة
رسولها كما فعل الذين حكمت الآيات موقفهم الرائع العياشي فإن عليهم على
الأقل أن يرفعوا عن محاولاتهم الفاجرة العاجزة .

والسلام على من اتبع الهدى ، والله أكبر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

٥ رجب ١٣٨٩

١٩٦٩/٩/١٥

دمشق الشام

المؤلف

الفصل الأول

التوراة والانجيل وأسفار العهد القديم والجديد في القرآن والواقع

- ١ -

إن الحوري يستشهد بالقرآن على صحة التوراة والانجيل وأسفار العهد القديم والانجيل المتداولة التي يسميها هو ومن على ملته «الكتاب المقدس» وعلى عدم طروء تبديل وتحريف عليها وعلى عدم احتمال ذلك ، ويعول على ذلك في مقارناته ودروسه القرآنية تعويلاً لا يثبت على نقد وتمحيص ، وفيه كثير من المفارقات والنقائص ، فصار من الواجب بدء الكتاب بفصل نشرح فيه الأمر على ضوء القرآن والواقع .

إن من أم ما يورده الحوري في صدد دعاويه المذكورة من آيات القرآن هو هذه الآيات :

١ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .) [البقرة : ١٢١] .

٢ - وَكَيْفَ نَحْكُمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا مُحْكَمٌ اللَّهُ مُّمٌ يَقُولُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَتَوْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ نَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا

بِآيَاتِي هَذَا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .
وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ
تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ . وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ مَهْدًى وَنُورٌ
وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ
وَلِيُحْكَمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . [المائدة : ٤٤ - ٤٦] .

٣ - وَلَوْ أَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ
سِبْطَانِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مِنَ التَّوْرَةِ لَكُنَّا عَنْهُمْ وَفُوقَهُمْ وَمِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ
مَا يَعْمَلُونَ . [المائدة : ٦٥ و ٦٦] .

٤ - (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيُزِيدَنَّهُ
كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .) [المائدة : ٦٧] .

ونعلق تعليقاً عاماً وعاجلاً ، وهو أن كل ما يمكن أن تعنيه وتفيده
هذه الآيات هو أن التوراة والإنجيل اللذين ذكر القرآن أن الله تعالى
أنزلهما وآتاها موسى وعيسى عليهما السلام كانا موجودين في أيدي اليهود
والنصارى في زمن النبي ﷺ ، ثم ندخل في التفصيل فنقول :

- ٢ -

أولاً - في صدد التوراة وأسفار العهد القديم :

١ - إن كلمة (التوراة) عبرانية تعني التعليم أو الشريعة ، وهي معربة بصيغة عربية فصحة ، والمتبادر أن التعريب سابق لنزول القرآن ، وأن اللفظ القرآني جاء كما كان مستعملاً قبل نزول القرآن للدلالة على الكتاب الذي احتواه التعليم ، أو الشريعة الموسوية الموحاة من الله تعالى .

٢ - إن كلمة (التوراة) وردت في القرآن ثمانى عشرة مرة ، واحدة في سورة مكية ، وباقيها في سور مدنية ، ومنها ما فيه دلالة صريحة على أن القصد منها هو كتاب الشريعة الموسوية المنزل من الله تعالى كما ترى هذه الآيات :

آ - كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَإِن تَلَّوْهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [آل عمران : ٩٣] .

ب - آيات المائدة ٤٣ - ٤٥ و ٦٥ و ٦٦ و ٦٨ التي أوردناها قبل . ومنها ما جاء في سياق الجدل مع اليهود في ملة إبراهيم عليه السلام ، أو في سياق ذكر كتب الله المنزلة إطلافاً ، أو في سياق حكاية قول عيسى عليه السلام بأنه مصدق للتوراة كما جاء في الآيات التالية :

آ - نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ .. [آل عمران : ٤٣] .

ب - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. [آل عمران : ٦٥]

ت - وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. [الصف : ٦] .

ومنها ما جاء في خطاب رباني مطلق في صدد تعليم عيسى عليه السلام التوراة بالإضافة إلى الإنجيل أو خطاب رباني لعيسى عليه السلام في الصدد نفسه كما جاء في هذه الآيات :

آ - وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ..
[آل عمران : ٤٨] .

ب - إِذْ آتَيْنَاكَ يَرْوَحَ الْقُدُسِ تَكَلَّمَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ..
[المائدة : ١١٠] .

ومنها ما جاء في آية احتوت تقريراً بأن صفات النبي ﷺ مكتوبة فيه وتنوياً بالذين يتبعونه ، لأنهم يحدونه مكتوباً فيه ، كما ترى في آية سورة الأعراف المكية هذه وهي التي قلنا : إنها المرة الوحيدة التي ورد فيها ذكر التوراة في السور المكية : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الأعراف : ١٥٧) .

ومن الجدير بالتنبيه أن كلمة التوراة لم ترد في القرآن مقرونة بذكر موسى عليه السلام ، وأن ما جاء مقروناً باسمه هو ألفاظ (الكتاب) و (الألواح) كما ترى في الآيات التالية :

آ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ..
[البقرة : ٨٧] .

ب - وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى
ثوراً وهدي للناس .. [الأنعام : ٩١] .

ت - ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة . [هود : ١٧] .

ث - ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه . ولولا
كلمة سبقت من ربك لفضي بينهم ولهم لفي شك منه
مريب .. [هود : ١١٠] .

ج - وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً
لكل شيء .. [الأعراف : ١٤٥] .

ح - ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي
نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ..
[الأعراف : ١٥٤] .

ويلحظ أن وصف (هدى ونور) الذي وصف به التوراة في آية
سورة المائدة (٤٤) قد وصف بها (الكتاب) أيضاً كما جاء في آية
سورة الأنعام (٩١) حيث يمكن القول : إن الكتاب يعني التوراة .

- ٣ -

وواضح من الآيات القرآنية أن المقصود القرآني من كلمة (التوراة)
هو الكتاب المنزل من الله تعالى على موسى عليه السلام المحتوي للمبادئ
والتعاليم والتشريعات والأحكام والحدود الربانية . واستعمال اللفظ مفرداً
يسوغ القول إنه كتاب واحد وإن كان لا يمنع هذا أن يكون ذا
فصول عديدة .

هذا في حين أن المتداول اليوم والذي يسمى (التوراة) ويسمى أيضاً
باسم (العهد القديم) هو مجموعة ضخمة من أسفار عديدة منفصل بعضها
عن بعض ، وبأسماء مختلفة ، وعددها عند فريق من الكتابيين النصارى

(الطبعة البروتستانتية) تسعة وثلاثون وعند فريق آخر منهم (الطبعة الكاثوليكية) ستة وأربعون^(١) وهي عائدة إلى حقب عديدة بدءاً من تاريخ خلق الكون وآدم وحواء ونوح وطوفانه وأولاده وأنسابهم إلى إبراهيم وذريته إلى موسى وبعده إلى أوائل عصر عيسى عليهم السلام . وأسلوبها مزيج من السمة الدينية والتاريخية ، منها ما تغلب عليه السمة الدينية التي منها التشريع والوصايا والأحكام والطقوس والأوامر والنواهي الأخلاقية والاجتماعية والأمرية والإنذار والتبشير والابتهاال والتسبيح والحكمة والمواعظ ، ومنها ما تغلب عليه السمة التاريخية وأولها (سفر التكوين) وهو الذي يحتوي خبر خلق الكون وآدم وحواء ونوح وإبراهيم وأولادهم ، وليس فيه دلالة على أنه من وحي الله تعالى ، وإن كان فيه حكاية كلام منسوب إلى الله وحكاية لما كان من اتصالات بين الله والأنبياء المذكورين فيه ! وليس فيه دلالة على أنه من تبليغ موسى أو إملائه أو تبليغ وإملاء شخص آخر ! . وفيه ما قد يفيد أنه كتب بعد موسى وبأسلوب الحكاية أو بأفلام عديدة لما فيه من تناقض ، وفيه أقوال وأفعال ووصايا ومواقف منسوبة إلى الله وأنبيائه يتنزهون عنها ، ومن ذلك على سبيل المثال سماح الله لنسل إبراهيم وإسحاق ويعقوب بتدمير وإبادة شعوب أرض كنعان وغيرها والاستيلاء على بلادهم وأملاكهم بالقوة والدم ، وحرمان بكر إبراهيم وأولاده الآخرين وحرمان بكر إسحاق من إرث أبويهم لحصره في بني إسرائيل ، واحتيال يعقوب على أبيه ، ومضاجعة أحد أبناء يعقوب وهو

(١) هناك من يحصر تسمية (التوراة) بالأسفار الخمسة الأولى من أسفار العهد القديم وهي أسفار التكوين والخروج والأخبار والعدد وتثنية الاشتراح . انظر تاريخ سورية للطران الدبس الجزء ٢ المجلد ٣ ص ١١٠ - ١١٦ والمشهور أن طائفة السامرة لا تعترف إلا بهذه الأسفار وتسميها التوراة أيضاً .

من الأسباط لإحدى زوجات أبيه ، ومضاجعة بنات لوط مع أبيهم الخ الخ .
وفي هذا السفر وعود منسوبة إلى الرب لإبراهيم وإسحاق ويعقوب في صدد ملك أرض كنعان وغيرها فيها تضارب وتناقض واستدراكات ، فقد ذكر في إصحاحه الثاني عشر أن الرب قال لإبراهيم حينما قدم إلى أرض كنعان لأول مرة - والمستفاد من عبارات السفر والأسفار الأخرى أن أرض كنعان هي القسم المتوسط من فلسطين - (لنسلك أعطي هذه الأرض) وقال له في تَجَلٍّ ثانٍ كما جاء في الإصحاح الثالث عشر (انظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً إن جميع الأرض التي تراها لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد) فتطور القول من قسم من فلسطين إلى جميع فلسطين ، ثم جاء في الإصحاح الخامس عشر (في ذلك اليوم بت الرب مع إبراهيم عهداً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) وفي الإصحاح السابع عشر تراجع عجب حيث جاء فيه معزواً إلى الرب خطاباً لإبراهيم (وأعطيك أرض غربتك لك ولنسلك من بعدك جميع أرض كنعان ملكاً مؤبداً وأكون لهم إلهاً) . وبعد ولادة إسماعيل جاءت إبراهيم بشارة بولادة إسحاق في الإصحاح (١٧) وجاء مع البشارة عن لسان الرب أن عهده في صدد تملك الأرض يكون لإسحاق ونسله من بعده دون بكره إسماعيل ، وفي الإصحاح ٢٥ خبر تزوج إبراهيم من زوجة جديدة اسمها قطورة وولادة أولاد له منها وقد جاء في السفر أن إبراهيم أعطى جميع ماله لإسحاق فقط مع هبات عابرة لأولاده الآخرين دون تملك أرض . وفي نفس الإصحاح خبر مباركة الله لإسحاق دون غيره من إخوته - وفي الإصحاح (٢٦) خبر تجلي الرب لإسحاق وقوله له إنني أعطيك ولنسلك هذه الأرض) . وفي الإصحاح (٢٧) خبر احتيال يعقوب على أبيه الذي شاخ وعمي وتقديبه نفسه بأنه بكره عيسو لأن إسحاق طلب من عيسو أن يصنع له طعاماً من صيده ليباركه وخبر

مباركة إسحاق ليعقوب على اعتبار أنه عيسو وقوله له بأنه يكون سيداً على إخوته ويسجد له بنو أمه ، ولقد عرف إسحاق الحيلة ولكنه قال لعيسو : إن أخاه قد أخذ البركة والعهد دونه . وفي الإصحاح ٢٨ خبر تجلي الرب ليعقوب وقوله له (أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق والأرض التي أنت قائم عليها لك أعطيها ولنسلك ويكون نسلك كثرة في الأرض وتنمو غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً) وهكذا يكون السفر قد سجل ملك أرض كنعان تارة وملك أراض شاسعة أخرى من شرقها وجنوبها وشمالاً تارة لإبراهيم ، وهو الجد الثالث الأعلى لبني إسرائيل ثم استدرك فسجل اختصاص إسحاق ابنه دون سائر أبنائه ودون بكره إسماعيل بذلك ، وهو الجد الثاني لبني إسرائيل . ثم استدرك فسجل اختصاص يعقوب ابن إسحاق دون ابنه الثاني بذلك بطريق الاحتيال ، ثم ثبت ذلك بعد انكشاف الاحتيال . وكل هذا من دون ريب مفتعل لاختصاص بني إسرائيل دون غيرهم . و (إسرائيل) هو الاسم الثاني ليعقوب مما يتزده الله عنه ، وتأثر بما وقع من أحداث بعد خروج بني إسرائيل من مصر وطروهم أرض فلسطين وسيرة حياتهم فيها .

ولقد جاء في الإصحاح (٢٦) من هذا السفر مثلاً (ذكر أبي مالك ملك فلسطين في جوار) في سياق خبر سكنى إسحاق بن إبراهيم في أرض هذا الملك . كما ذكر في هذا الإصحاح عبارة (الفلسطينيين) أكثر من مرة ، وسكنى إسحاق تخمن في القرن التاسع عشر قبل الميلاد . والجماعات التي عرفت بالفلسطينيين وصارت فلسطين تدعى باسمهم إنما طرأت على جنوب فلسطين من جزر البحر الأبيض المتوسط في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وقد ذكروا مراراً في الأسفار الأخرى في سياق النضال بينهم وبين بني إسرائيل بعد ما طرأ هؤلاء على فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، فالنسبة متأثرة بالواقع ، والسفر يكون قد كتب في هذا الظرف ،

أي : بعد أحداث إبراهيم وإسحاق ويعقوب وذريتهم في فلسطين التي ذكرت في السفر بنحو سبعة قرون ...

وفي الإصحاح (٤٠) من السفر حكاية قول ليوسف وهو أنه خطف من أرض العبرانيين ، والأرض التي خطف منها يوسف لم تكن تعرف بأرض العبرانيين وإنما بأرض كنعان ، ولم يكن فيها في ظرف وجود يوسف فيها من العبرانيين إلا يعقوب وذريته ، وصارت تعرف بأرض العبرانيين مرة وبأرض إسرائيل مرة بعد ما طرأ بنو إسرائيل على فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ويكون في هذا المثال ما في المثال السابق من دلالة على تأثر كتابة سفر التكوين بوقائع وأحداث بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وكون هذا السفر قد كتب بعد الأحداث المذكورة فيه بقرون عديدة . ولو أردنا الاستقصاء لأوردنا أمثلة أخرى ولكننا نكتفي بما تقدم .

وهذا لا يمنع أن يقال : إن ما جاء في هذا السفر من أحداث قديمة هو ذكريات كانت متداولة فيها الفث والسمين والخيال والحقيقة والصدق والكذب ، ولا يبعد أن يكون بعضها منقولاً عن مخطوطات ونقوش قديمة عينا أو محرفة وزيادة أو نقصاً .

وفي هذا السفر عبارة صريحة تدل دلالة قاطعة على تأثر تدوينه ومدونه بأحداث بني إسرائيل حينما طرأوا على أرض كنعان ونشب العداء والحرب بينهم وبين الكنعانيين . ففي إصحاحه التاسع ما يلي : (ابتدأ نوح بحوث الأرض وغرس كرماً ، وشرب من الخمر فسكر ، وتكشف داخل خبائه ، فرأى حام أبو كنعان سوءة أبيه ، فأخبر أخويه وهما خارجاً . فأخذ سام ويافت رذاة وجعلاه على منكبيهما ومشيا مستدبرين فغطيا سوءة أبيهما وأوجهما إلى الورا وسوءة أبيهما لم يرياها ، فلما أفاق نوح من خمره علم ما صنع به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان . عبداً يكون لعبيد اخوته .

وقال تبارك الرب إله سام : وليكر كنعان عبداً له . يرحب الله لياث يسكن في أخبية أخيه سام ، ويكون كنعان عبداً له) ويستفاد من وصف حام بصفة (ابنه الصغير) أنه لم يكن تزوج وولد له كنعان ، وكنعان ليس هو على كل حال الذي رأى سواة نوح ، وهو ليس ولد حام الأوحد بل هو رابع ولد له بالترتيب حيث ذكر قبله كوش ومصرايم وفوط كما جاء في الإصحاح العاشر من السفر ، فتسجيل السفر اللعنة على كنعان غير المذنب وغير الوحيد من أبناء حام والذي لم يكن قد ولد بعد يدل دلالة قاطعة على ما ذكرناه .

وهذا السفر يذكر أن إبراهيم الذي هو حسب ما ورد فيه جد بني إسرائيل من ذرية سام . فيكون التسجيل المذكور من هذه الناحية توكيداً للافتعال من حيث إن فيه تسجيلاً لدعاء نوح بأن يكون كنعان عبداً لسام .. وبأني في الترتيب بعده أسفار (الخروج) و (الأحبار) الذي يسمى أيضاً باسم (اللاويين)^(١) و (العدد) و (تثنية الاشتراع) . وهي عائدة إلى حقبة حياة موسى ، وتتضمن حكاية أحداث هذه الحقبة مع كثير من التشريعات والتعليمات والوصايا الأخلاقية والاجتماعية والقضائية والأمرية والمعاشية والصحية والطقسية والكهنوتية والإنذارات والتبشيرات بأسلوب الحكاية أيضاً ، وسفر (الأحبار) وحده مقصور على التشريعات والتعليمات والوصايا والإنذارات والتبشيرات المذكورة والأخرى مزيجية من ذلك ومن التاريخ ، وليس فيها ما يفيد أنها من إملاء موسى ، أو أنها كتبت في عهده ، بل فيها ما يفيد أنها كتبت بعده ، وبأقلام عديدة ، وفي أزمنة مختلفة ، وتأثرت

(١) (الأحبار) تعني الكهان . وكهان بني إسرائيل م حسب النصوص عصوران في سبط لاوي الذي ينسب موسى وهرون إليه . ولذلك سمي هذا السفر باسم اللاويين أيضاً . وكهان بني إسرائيل من نسل هرون لأن موسى لم يعقب .

بالوقائع والاحداث بعد موسى ، واختلطت الحقائق فيها بالخيال والمبالغات والمفارقات والاكاذيب ، ونسب فيها إلى الله ورسله ما يتزهون عنه من أقوال وأفعال ووصايا ومواقف .

ومن ذلك على سبيل المثال الامر بتدمير وإبادة شعوب أرض كنعان والاستيلاء على بلادهم ونهب حلي المصريين ، وعدم قبول بعض الشعوب في دين الله ، وانحرافات دينية وأخلاقية وسلوكية منسوبة إلى موسى وهارون وداود وسليمان ، وحصر النواهي والأوامر والتشريعات في بني إسرائيل وإباحة مخالفتها مع غيرهم الخ الخ .

ولقد جاء بعض ما في بعضها مكرراً في البعض الآخر مع كثير من التباين أحياناً زيادة أو نقصاً أو عبارة أو موضوعاً ، وفي بعضها المتأخر ما ليس في البعض الآخر المتقدم مما فيه الدلالة الحاسمة على أنها كتبت بأقلام عديدة ، وفي أزمنة مختلفة واستقى كتابها مادتهم من مصادر مختلفة من روايات وذكريات متداولة على اللسان ، ومن مخطوطات ومنقوشات قديمة متباينة ، فيها الغث والسمين والحقيقة والخيال والصدق والكذب والمبالغات والحرافات . ولقد جاء مثلاً في الإصحاح الثاني عشر من سفر العدد هذه العبارة (وكان موسى رجلاً حكيماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض) في سياق خبر معاقبة أخيه وأخته له ، ولا يمكن أن يكون كاتب هذه العبارة وبالتالي كاتب السفر قد كتبها إلا بعد موسى بمدة ما ، ولقد جاء في الإصحاح الأخير من سفر تثنية الاستراع ذكر موت موسى ودفنه في الوادي في أرض مؤاب وقد قال الكاتب بعد ذلك (ولم يعرف قبره إلى يومنا هذا) حيث يفيد أن كتابة الجملة وبالتالي كتابة السفر إنما كانت بعد وفاة موسى بمدة طويلة . ولقد ورد في الإصحاح (١٧) من هذا السفر هذه العبارة (إذا دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك وملكتها وسكنت فيها فقلت أقيم علي ملكاً كسائر الأمم الذين حولي فأقم

عليك ملكاً يختاره الرب إلهك ... الخ) وهذا حادث وقع فعلاً بعد موت موسى بنحو مئتي سنة ونتيجة لما وقع على بني إسرائيل من غزوات وضربات وبعد مراجعات ومجادلات بينهم وبين كاهنهم الأكبر صموئيل ، وإنذار هذا إياهم وتحذيره لهم على ما ورد في سفر صموئيل الأول الذي تسميه الطبعة الكاثوليكية الملوك الأول بما فيه في الحقيقة تسجيل للحادث بعد وقوعه ، وبما يدل على أن السفر قد كتب بعد وقوع الحادث بمدة ما .

وفي الإصحاح الأول من سفر العدد حكاية أمر الله لموسى بإحصاء المعدودين من الذكور (أي الذين يصح تجنيدهم للحرب كما هو المستفاد من سياق الكلام) من أبناء العشرين فما فوق من أبناء بني إسرائيل الذين خرجوا معه من مصر إلى سيناء باستثناء سبط لاوي الذي لا يدخل في الإحصاء لانه مكرس للكهانة ولا يجند ، وقد بلغ هذا العدد ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين ، فإذا أضفنا إلى هذا الرقم ثلثه على الأقل للذين هم دون العشرين من الذكور ثم إذا أضفنا إلى الحاصل مثله للثلاث وإذا قدّمنا عدد أفراد سبط لاوي بالمقارنة مع عدد الأسباط الأخرى بمائة ألف على الأقل ظهر أن عدد بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر إلى سيناء مليون ومائتا ألف .

والمبالغة الكبيرة في هذا الرقم صارخة يجعل كذبه أمراً يقينياً بالنسبة لسكان الأرض عامة ، وسكان مصر خاصة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ويبرز الخيال الواسع في تأليف السفر .

ولقد ورد في سفر الأخبار مثلاً إنذار بما وقع فعلاً على بني إسرائيل بعد موسى بمدة طويلة من غزوات وضربات خارجية ، ومن إجلاله وتشيت شمل بين الأمم ، ومن وعد بتحنين قلب الرب وإرجاعهم مرة أخرى ، وجمع شملهم بعد التبديد والتشتيت ، وهو ما تم فعلاً بعد السبي بما لا يعقل

أن يذكر إلا بعد وقوعه ، ومثل هذا الانذار متكرر في سفر تثنية
الاستراع أيضا .

وبأني بعد الأسفار الخمسة بما السمة التاريخية عليه غالبية أسفار يوشع
والقضاة وراعوث وصموئيل الأول وصموئيل الثاني (السفران الأخيران
بسميان في الطبعة الكاثونية) (الملوك الأول والملوك الثاني) والملوك الأول
والملوك الثاني (وهذان بسميان في الطبعة المذكورة الملوك الثالث والملوك
الرابع) وأخبار الأيام الأول وأخبار الأيام الثاني وعزرا ونحميا واستير
وطوبيا ويهوديت (والسفران الأخيران من زوائد الطبعة الكاثوليكية
وترتيبها قبل سفر استير) وسفر المكابيين الأول وسفر المكابيين الثاني
(وهذان الأخيران من زوائد الطبعة الكاثوليكية وهما في الترتيب آخر
أسفار العهد القديم) . وتؤرخ هذه الأسفار سيرة بني إسرائيل من بعد
موسى إلى ما بعد سبي بابل إلى زمن الحكم اليوناني قبل الميلاد المسيحي .
وقلنا : إن السمة التاريخية غالبية عليها لأنها لا تخلو بدورها من سمة دينية
وعظية وإنذارية ! . ونشاط أنبياء وتبليغاتهم عن الله تعالى الخ . وتفتج
الحقائق فيها بالخيال والمبالغات والمفارقات والأكاذيب ، وفيها دلالات كثيرة
على أنها كتبت بعد مدة من الأحداث والوقائع المذكورة فيها ، وأنها
نأثرت بها ، وأنها كتبت بأقلام متعددة ، وفي أزمنة مختلفة ، ولقد جاءت
حكاية الأحداث في بعضها مبينة لما جاء في بعض آخر أو مناقضة له ،
أو زائدة عليه أو ناقصة فيه بما يدل على ذلك ، بل وفي بعضها ما ذكر
في أسفار التكوين والخروج والعدد مع نقص وزيادة ومبينة ، وكل هذا
يسوغ القول : إن كتابها استقوا مادتهم من مصادر مختلفة متباينة قد يكون
منها الروايات المتداولة على الألسن ، ومخطوطات قديمة فيها ما فيها من غث
وسمين وكذب وصدق وحقيقة وخيال وخرافة ، ولقد جاء في الإصحاح
الثالث من أخبار الأيام الأول مثلاً سلسلة أسماء ملوك يهوذا إلى آخرهم ،

وفي الإصحاح التاسع منه ما فعله نبوخذ نصر ملك بابل الذي قتل صدقيا آخر ملوك يهوذا (وسي يهوذا إلى بابل لأجل خيانتهم) . وفي الإصحاح السادس والثلاثين من سفر أخبار الأيام الثاني هذه الجملة (وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس نبه الرب روح كورش فأطلق نداء في كل مملكته قائلاً : إن الرب أعطاني جميع ممالك الأرض وأوصاني أن أبني له بيتاً في اورشليم التي في يهوذا) مما فيه دلالة قاطعة على أن سفر أخبار الأيام الأول كتب في نهاية دولة يهوذا ، والثاني بعد السبي ، ولقد ذكر سفر الملوك الثاني (الرابع في الطبعة الكاثوليكية) سيرة ملوك دولتي إسرائيل ويهوذا إلى نهايتهما ، بما في ذلك نفس نبوخذ نصر لدولة يهوذا ، وسي اليهود إلى بابل كما ذكر بعض أحداث جرت بعد السبي أو عقبه مما فيه دلالة قاطعة على أنه كتب بعد نهاية دولة يهوذا فضلاً عن احتمال كتابته بعد السبي وهو ما نرجحه . ولما كان هذا السفر هو امتداد واستمرار لسيرة ملوك دولتي إسرائيل ويهوذا التي بدء بها في السفر الأول ، فالكلام المذكور ينسحب على هذا أيضاً كما هو المتبادر .

ولا تخلو الأسفار الأخرى من التي تؤرخ بعض أحداث ما قبل السبي من دلائل وقرائن ماثلة تسوغ القول : إنها كتبت بعد السبي مثلها .

والأسفار العائدة إلى حقبة ما بعد السبي قد كتبت بأسلوب الحكاية ، وليس فيها دلالة على أنها كتبت بإملاء أو أقلام الأشخاص التي تحمل أسماءهم ، والمتبادر أنها كتبت بأقلام كتاب آخرين بعد موت هؤلاء الأشخاص جدة ما ، وقد يكون الكتاب قد استقوا مادتهم من الروايات المتداولة أو من مخطوطات قديمة ، فأدى ذلك إلى امتزاج الحقيقة بالخيال والصدق بالكذب والمبالغات في هذه الأسفار .

وإلى جانب هذه الأسفار أسفار عديدة أخرى تعود كذلك إلى حقبة ما بعد موسى وإلى ما بعد السبي ، أو إلى أوائل عصر المسيح تغلب

عليها السمة الدينية بأسلوب الانبهارات والتسيبحات والمواظ والحكم والإنذار والتبشير والرؤى على السنة أصحابها الذين يغلب أن يكونوا أنبياء ، وهي المزامير والأمثال والجامعة ونشيد الاناشيد ، ونبوءة أشعيا ، ونبوءة أرميا ، ومراثي أرميا ، ونبوءة باروك (وهذا من زوائد الكاثوليكية) ، ونبوءة حزقيال ، ونبوءة دانيال ، ونبوءة هوشع ، ونبوءة يوثيل ، ونبوءة عاموس ، ونبوءة عزيرديا ، ونبوءة ميخا ، ونبوءة فحوم ، ونبوءة حبقوق ، ونبوءة صفينا ، ونبوءة حجابي ، ونبوءة زكريا ، ونبوءة ملاخي (ومعظمها أو كلها رؤى رآها أصحابها في منامهم أو في يقظتهم ومع سمها الغالبة المذكورة ، فإنها تمثل ناحية هامة من تاريخ وحياة بني إسرائيل السياسية والاجتماعية والثقافية ، وفي بعضها نذب وعربل على ما حلّ في بني إسرائيل . وتنبيد بأخلاقهم وانحرفاتهم السابقة والراهنة بأسلوب قارع .. وتناقض مع ذلك بتبشيرهم بالعلو ، وإنذارات قاصمة بل شتائم قارعة للأمم والبلدان التي سيطها الله عليهم بسبب انحرفاتهم على ما ذكرته الأسفار المذكورة أيضاً ، وهذا من تناقضاتها ، وفيها ما يدل على أنها كتبت بعد موت أصحابها بمدة طويلة بأقلام كتاب آخرين من ذكريات ومسموعات ومحفوظات متداولة ، وأنها تأثرت بالاحداث التي وقعت بعد الاشخاص المنسوبة إليهم ، فلا يصح أخذها على حالتها ، ويجب ملاحظة كل ذلك أثناء النظر فيها .

ولقد ورد مثلاً في الإصحاح الخامس والاربعين من سفر نبوءة أشعيا الذي يستفاد من عباراته أنه عاش في عهد ملوك يهوذا (عزيا ويوثام وأحاز وحزقيا) اسم كورش ملك الفرس الذي تغلب على مملكة بابل ، وفيه هذه الجملة خطاباً لسبي اليهود في بابل الذين سبهم إليها نبوخد نصر (اخرجوا من بابل واهربوا من أرض الكلدانيين) بما فيه الدلالة القطعية على أن هذا السفر كتب بعد السبي وبالتالي بعد وفاة أشعيا المنسوب إليه بمدة طويلة ، وزيد عليه ما لا يمكن أن يكون أشعيا كتبه أو قاله .

ولقد ورد في سفر حزقيال الذي يستفاد منه أنه من رجال سبي بابل ، وعاش ومات في السبي تنديدات قارعة بأخلاق بني إسرائيل وأحوالهم وانحرافاتهم قبل السبي وفي أثنائه ، وتذكير بما سلطه الله عليهم من هوان وشتات واضطهاد وتدمير يسبب ذلك ، وفيه في الوقت نفسه تنديد باللام التي سلطها الله عليهم ، وإنذارات قارعة لها ، وتقرير بأن الله سوف يعيد بني إسرائيل إلى تخومهم الاولى في أرض ميعاد آبائهم ، ويجمع شتاتهم ، ويرأف بهم ، وينصرهم بما فيه تناقض واضح . ولقد عاد بعض المسيبين فعلاً بعد موت حزقيال بمدة ما ، وتطورت أحوالهم ، وصار لهم كيان جديد حيث يرجع أن هذا التناقض أثر من آثار ما أثاره التطور الجديد في بني إسرائيل بعد العودة من السبي ، وأن أقلاماً أخرى بعد السبي قد لعبت دوراً في صياغة السفر ، أو في تجديد صياغته .

ولا تخلو الاسفار الاخرى من مثل ذلك وأكثر حيث يمكن القول : إنه دخل تحريفات متنوعة على هذه الاسفار المنسوبة إلى أنبياء من بني إسرائيل لغايات سياسية . ومن بين الاسفار العائدة إلى ما بعد موسى سفران لا يبدو لهما صلة بتاريخ حياة بني إسرائيل وهما سفرا (أيوب) و (نبوة يونان) . والاول يتضمن سيرة النبي أيوب المذكورة في القرآن بإشارات خاطفة ، ولكنها متطابقة إجمالاً وقد قال عنه السفر : إنه كان في أرض عوص ، والثاني هو سيرة يونان بن امتاي في نينوى ، وهو على الأرجح النبي يونس المذكورة سيرته في القرآن بإشارات خاطفة ومتطابقة إجمالاً مع ما جاء في هذا السفر ، والآثار الإسلامية تسميه (يونس بن متى) والكلمتان تعريب لكلمتي (يونان ابن امتاي) .

وهناك سفران آخران فيها مواظ وحكم . وهما (الحكمة) و (يشوع ابن شيراخ) وهما من زوائد الطبعة الكاثوليكية ، ولا يبدو فيها ما يدل على أن لهما صلة بحياة وتاريخ بني إسرائيل .

وحق سفر المزامير الذي هو ابتهالات ودعوات لا يخلو من دلائل على أن منه ما تأثر بأحداث وقعت بعد عهد داود بمدة طويلة .

- ٤ -

وواضح من كل ما تقدم أن اسم (التوراة) المذكورة في القرآن ، والتي يلتزم المسلمون بالإيمان بأنها من كتب ربهم ، أو الكتاب الذي آتاه الله لموسى عليه السلام لا يمكن أن يصدق على مجموعة أسفار العهد القديم ، ولا على أي سفر منها .

ولقد جاء في الإصحاح (٢٤) من سفر الخروج أول الأسفار الأربعة العائدة إلى حقبة موسى عليه السلام ، والذي فيه خبر رسالته إلى فرعون وخروج بني إسرائيل من مصر وحياتهم في سيناء هذه العبارة :

بعد ذكر خبر صعوده إلى الطور وتلقيه كلام الله (فجاء موسى وقص على الشعب جميع كلام الرب وجميع الأحكام فأجابته الشعب بصوت واحد وقالوا : جميع ما تكلم به الرب نعمل به ، فكتب موسى جميع كلام الرب ، وبكر في الغداة ، وبني مذبحاً في أسفل الجبل ، ونصب اثني عشر نصباً لاثني عشر سبط إسرائيل ، وبعث قتيان بني إسرائيل فأصعدوا محرقات ، وذبحوا ذبائح سلامة من العجول للرب ، فأخذ موسى نصف الدم وجعله في طسوت ورش النصف الآخر على المذبح ، وأخذ كتاب العهد ، فقرأ على مسامع الشعب ، فقالوا : كل ما تكلم الرب به نفعله ونأتم به ، فأخذ موسى الدم ورشه على الشعب ، وقال : هوذا دم العهد الذي عاهدكم الرب به على جميع هذه الأقوال) . ولقد ذكر سفر توراة موسى ثلاث مرات في سفر تثنية الاشتراع وهو رابع الأسفار التي تؤرخ حقبة موسى ، وفيه تكرار لكثير مما جاء في الأسفار السابقة ولا سيما التاريخية مع الإنذار والتبشير ويقصد التذكير كما فيه تشريعات لم تذكر في تلك الأسفار . ولقد جاء في إصحاحه السابع عشر هذه العبارة : (إذا دخلت الأرض

التي يعطيك الرب إلهك وملكتها وسكنت فيها من هنا الأصل فقلت : أقيم علي ملكاً كسائر الأمم حولي ، وجلس على عرش ملكه ، فليكتب له نسخة من هذه التوراة في سفر من عند الكهنة اللاويين ، ولتكن عنده يقرأ فيها كل يوم من أيام حياته لكي يعلم كيف يتقي الرب ويحفظ كلام هذه الشريعة) وفي إصحاحه (٣١) هذه العبارة : (وكتب موسى هذه التوراة ، ودفعها إلى الكهنة بني لاوي حاملي تابوت العهد) ثم هذه العبارة (ولما فرغ موسى من رقم كلام هذه التوراة في سفر بتمامه أمر اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا هذا السفر ، واجعلوه إلى جانب عهد الرب إلهكم في التابوت ، فيكون ثم عليكم شاهداً ، لأنني أعلم تمردكم وقسوة قلوبكم ، فإنكم وأنا في الحياة معكم اليوم قد تمردتم على الرب فكيف بعد موتي) .

فهذه النصوص تفيد قطعاً أن موسى عليه السلام كتب تبليغات الله ووصاياه وتعاليمه في كتاب اسمه التوراة ، وسلمه للكهنة ليضعوه في تابوت العهد ، وهذا التابوت صندوق كان يحفظ فيه الآثار المقدسة ، ويوضع في المعبد على ما هو المتبادر .

وعهد الرب المذكور آنفاً في عبارة السفر يمكن أن يكون ألواح الحجارة التي كتب الله عليها بعض وصاياه على ما جاء في سفر الخروج حيث جاء في إصحاحه (٢٤) (قال الرب لموسى : اصعد إلى الجبل ، وأقم هنا حتى أعطيك لوهي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم) وفي إصحاحه (٣١) هذه العبارة (ولما فرغ من مخاطبة موسى على طور سيناء دفع إليه لوهي الشهادة لوحين من حجر مكتوبين بإصبع الله) وفي إصحاحه (٣٢) هذه العبارة (ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده ، لوحان مكتوبان على جانبيهما . من هنا ومن هناك . كانا مكتوبين ، واللوحان هما صنعة الله ، والكتابة هي كتابة الله منقوشة على اللوحين) وقد ذكر هذا الإصحاح خبر غضب موسى حين رأى العجل

الذي صنعه بنو إسرائيل في غيابه ، ورميه اللوحين وكسرها في أسفل الجبل وفي الإصحاح (٣٤) من هذا السفر خبر أمر الله لموسى بأن ينحت لوحين كالأولين ليكتب عليهما الكلام الذي كان على اللوحين الأولين اللذين انكسرا ، ففعل وصعد إلى الجبل ، وأقام عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين (كلام العهد الكليات العشر) ونزل وهما في يده .

وواضح من العبارات أن اللوحين هما غير سفر التوراة الذي كتبه موسى وفيه كلام الله الذي سمعه ، وأنها سميا العهد ، ووضعها في التابوت ، وسمي بتابوت العهد وأن ذلك كان قبل أن يكتب موسى كلام الله الذي سمعه في سفر التوراة ، فلما كتبه أمر بوضعه مع الألواح في التابوت .

وفي الإصحاح الثامن من سفر الملوك الأول (الثالث في الكاثوليكية) ما يفيد أن سفر التوراة قد فقد قبل سليمان حيث ذكر أنه لم يكن في تابوت العهد الذي نقله سليمان من مدينة داود إلى المعبد الجديد الذي أنشأه إلا اللوحان الحجريان .

ولقد ذكر في إصحاحات سفر صموئيل الأول المسمى في الطبعة الكاثوليكية الملوك الأول أن الفلسطينيين هاجموا الإسرائيليين في زمن الكاهن الأكبر على في عهد القضاة ، وضربوهم وهزموهم ، وأخذوا تابوتهم ، وبقي عندهم سبعة أشهر ، ثم أعادوه إليهم على عجلة تجرها بقرتان ، لأنهم ابتلوا بالبواسير ، وظنوا أن ذلك بسبب أخذهم تابوت إله إسرائيل . وقد أشير إلى هذه الحادثة إشارة مقتضبة في آيات سورة البقرة هذه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَيْنَا فَلَمَّا كُتِبَ

عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .
 وَقَالَ لَهُمْ نَسِيَهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا
 قَالُوا أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ
 مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ
 وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ نَسِيَهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ
 يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ
 آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لَّكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ مَّؤْمِنِينَ (٢٤٦ - ٢٤٨) فمن المحتمل أن يكون
 السفر قد فقد من التابوت في هذا الظرف حيث يكون الفلسطينيون
 قد فتحوه فعبثوا فيه ، ولم يبق فيه إلا اللوحان .

ومن العجيب أن الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الملوك الثاني -
 الرابع في الطبعة الكاثوليكية - ذكر خبر العثور على سفر التوراة في
 بيت الرب أثناء ترميمه في زمن الملك يوشيا ملك يهوذا حيث جاء فيه :
 إن الملك أرسل كاتبه إلى الكاهن الأكبر حلقيا لدفع أجور العمال ،
 وإن الكاهن قال للكاتب : إني وجدت سفر التوراة في بيت الرب ،
 ودفع السفر للكاتب فقراء ، وأتى به إلى الملك ، فأخبره الخبر ، وقرأه
 له) . والخبر كما قلنا عجيب ، لأن السفر كان في تابوت العهد ، ولما فتح
 التابوت لم يكن فيه ، فهل يكون حلقيا هو كاتب السفر من جديد من
 ذاكrote ، أو من قراطيس كانت متداولة ، أو كان لديه نسخة عنه ، وقد
 ذكر في الإصحاح أن الخبر أثار الملك حتى مزق ثيابه فرحاً ، وأقام
 احتفالات عظيمة في مناسبته .

ولقد جاء في الإصحاح السابع من سفر عزرا الذي يؤرخ طرفاً من
 حقبة عودة جماعة من المسيبين من بابل إلى أورشليم أن عزرا كان كاتباً

ماهوراً في توراة موسى التي أعطاهها الرب إله إسرائيل ، فبذل له الملك ارتخشستا كل ما طلب ، وأصعده إلى أورشليم ، وأمره بإقامة حكم إلهه ، وشرائع إلهه وشرعية الملك ، ثم جاء في الإصحاح الثامن من سفر نحميا الذي يؤرخ كذلك طرفاً من الحقبة المذكورة آنفاً أن الشعب العائد اجتمع في ساحة المعبد ، وطلب من عزرا إحضار سفر توراة موسى ، فأخضروه ، وأخذ يتلوه أمام الجماعة . ولا يمكن الجزم بما إذا كان عزرا كان يحفظ التوراة غيباً ، وكتب السفر من ذاكرته أم كان يحتفظ بنسخة من التوراة التي يمكن أن تكون نسخة من التوراة التي قال حلقيا السكاهن : إنه وجدها في بيت الرب .

ولقد قلنا : إن آيات البقرة (١٢٩) وآل عمران (٩٣) والمائدة (٤٣ - ٤٥) و (٦٦ - ٦٨) والأعراف (١٥٧) التي أوردناها قبل تسويع القول : إن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام التي فيها أحكام الله ووصاياه كانت متداولة في أيدي اليهود في زمن النبي ﷺ . وقد تكون هي التي ذكر خبر وجودها في زمن الملك يوشيا في سفر الملوك الثاني ، وخبر تلاوتها من قبل عزرا في سفر نحميا أو نسخة عنها ، فظلت متداولة إلى زمن النبي ﷺ .

وبديهي أنها شيء غير أي سفر من أسفار العهد القديم المتداولة اليوم ، ولم تصل إلى عهدنا حيث تكون فقدت أثناء ما كان يقع على اليهود من ضربات وتشريد ، وكان فقدها نهائياً^(١) .

(١) هناك مصادر قديمة ذكرت ما كان يتعرض له كتب وقراطيس اليهود الدينية من مصادرة وتخریق . نقل عنها المطران الدبس بعض الأحداث من هذا الباب في كتابه تاريخ سورية (المجلد الثالث والجزء الثاني) من ذلك أنه نشب مرة مناوشات بين اليهود والحامية الرومانية في زمن القيصر اغسطوس فنهب الرومان الهيكل ودينسوه ، وأحرقوا ما فيه من أوراق . ومن ذلك أن الوالي الروماني في عهد القيصر كلود سير حملة لمطاردة اليهود في القرى وأن أحد الجنود عثر على أسفار موسى فحرقها على مرأى الجمهور اليهودي .

ولقد قلنا قبل : إن في أسفار الخروج والعدد وثنية الاشتراع تبليغات ووصايا كثيرة متنوعة مبلغة من الله تعالى لموسى ، وإن سفر الأخبار قاصر على ذلك ، وإن كلها أو جلها جاء بأسلوب الحكاية ، وبينها تباين في الأسلوب والعبارات ، وفي بعضها ما ليس في الآخر ، وفيها أقوال وأفعال منسوبة إلى الله ورسوله يتنزهان عنها بحيث يمكن القول : إن كتابها استقروا ما كتبوه من مصادر متنوعة ، وإن كل واحد كتب ما كتبه مستقلاً عن الآخر ، وفي ظرف وزمن غير الآخر ، وإنهم لم ينقلوا ما فيه من تبليغات لموسى عليه السلام معزوة إلى الله تعالى من سفر توراة موسى مباشرة ، وبحيث يمكن القول : إن ما جاء فيها مما يجوز أن يكون في أصله من هذا السفر قد سجله كتابها من روايات ومحفوظات ومدونات شئت بما ذكرناه من تباين وتناقض واختلاف وتحريف ، ولا يمكن والحالة هذه اعتبارها بديلة عن توراة موسى المفقودة التي هي وحدها التي يحترمها المسلمون وفيها أحكام الله ووصاياه المبلغة لموسى بدون تناقض وتباين ومفارقات وتحريفات . ولا يصح تبعاً لذلك من الوجهة العلمية والواقعية إطلاق اسم (التوراة) عليها ومن قبل المسلمين بنوع خاص ، ففي هذا الإطلاق تجوز كبير فضلاً عن التجوز الأكبر في إطلاقه على مجموعة أسفار العهد القديم .

ونستطرد إلى القول : إن في القرآن قرائن عديدة تساعد على القول : إن الأسفار الخمسة الأولى من أسفار العهد القديم المتداولة اليوم وأسفاراً أخرى مما يأتي بعدها في الترتيب والتي فيها سيرة بني إسرائيل بعد موسى كانت موجودة في أيدي اليهود في زمن النبي ﷺ .

ومن هذه القرائن التشابه بين ما ورد في القرآن من قصص خلق آدم وحواء ، وخروجها من الجنة وابني آدم ونوح وإبراهيم ولوط ويعقوب

ويوسف وإخوته وبين ما ورد من ذلك في سفر التكوين^(١) .

ومن ذلك التشابه بين ما ورد في القرآن من قصص موسى وفرعون وسيرة بني إسرائيل في حياة موسى ، وبعض الشرائع الموسوية وبين ما ورد في أسفار الخروج والأخبار والعدد وتثنية الاشتراع^(٢) .

ومن ذلك التشابه بين ما ورد في القرآن من قصص أيوب ويونس وبين ما ورد من ذلك في سفري أيوب ويونان^(٣) .

ومن ذلك ما ورد في القرآن من قصص طالوت الذي تسميه الأسفار (شاول) وجالوت وداود وسليمان وحروب بني إسرائيل مع جالوت وقومه وإقامة بني إسرائيل ملكاً لهم ، وقصة الحصين مع داود بسبب فتنة افتتن بها ، وملك سليمان وزيارة ملكة سبأ له ، ورسالة النبي إلياس في

(١) قصة آدم جاءت في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء وطه وس . وقصة ابني آدم في سورة المائدة . وقصص نوح وإبراهيم ولوط ويعقوب ويوسف وإخوته وردت في سورة البقرة وآل عمران والأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والنحل روم والأنبياء والمؤمنون والشعراء والصافات والذاريات والقمر ونوح بأساليب متنوعة حسب ما اقتضته حكمة التنزيل ورأته وافياً للقصد الذي نزلت له والذي هو التمثيل والتذكير والوعظ والإنذار والتبشير والعبرة . وبكلمة أخرى تدعم الرسالة المحمدية وليس للسرد التاريخي .

(٢) قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل وردت في سورة البقرة وآل عمران والأعراف ويونس وهود والإسراء روم وطه والشعراء والنمل والقصص والسجدة والزخرف والجاثية والدخان والطور والقمر والنازعات ، في نطاق الأساليب والمقاصد المذكورة آنفاً .

(٣) قصص أيوب ويونس وردت في سورة يونس والأنبياء والصافات وس والقلم في النطاق والأساليب المذكورة كذلك ...

حدد عبادة البعل والإشارة إلى تدمير دولتي اليهود^(١) . وبين ما ورد من ذلك في أسفار صموئيل والملوك وأخبار الأيام . وليس ما يمنع أن تكون الأسفار الأخرى المتداولة اليوم مما كان متداولاً بين أيديهم في زمن النبي ﷺ بطبيعة الحال ، ويمكن القول بجزم أن مزامير داود كانت من جملة ذلك ، لأن القرآن قد ذكرها باسم الزبور^(٢) .

على أن هناك أشياء كثيرة وردت في القرآن من هذه القصص ولم ترد في الأسفار المتداولة ، ومنها ما ورد في القرآن والأسفار متغايراً في الجزئيات ، بل وفي الصور المهمة معاً ، فليس في سفر التكوين مثلاً ما ورد في القرآن من أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم ، وعصيان إبليس ، والموسوس لآدم وحواء في الجنة هو الحية في حين أنه في القرآن إبليس ، وليس في هذا السفر ما في القرآن من قصص إبراهيم مع قومه وتخريبه لأصنامهم ، ونظرته في النجوم ، وحجابه مع قومه ، ومحاولتهم إحراقه في النار ، وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله المحرم ، أي : مكة ، واشتراك إبراهيم وإسماعيل في بناء الكعبة .

وليس في هذا السفر ما في القرآن من محادثة بين نوح وابنه الكافر ، وعدم ركوب هذا في السفينة وغرقه ، ومحادثة نوح مع الله تعالى في ذلك .

وليس في السفر ما في القرآن من قزيق امرأة العزيز قميص يوسف ، ولا كلام النسوة ، ودعوة امرأة العزيز إياهن وتقطيعهن أيديهن .
وليس في أسفار الخروج والعدد وتثنية الاشتراع التي فيها قصص

(١) هذه القصص وردت في سور البقرة والإسراء والأنبياء والنمل والصفات ومن في نطاق الأساليب والمقاصد المذكورة .

(٢) ذكر الزبور ككتاب آتاه الله لداود في سورتي النساء والإسراء . وسفر المزامير ينسب جل المزامير لداود .

موسى وفرعون وبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر وحياتهم في سيناء
مما في القرآن من خبر سحرة فرعون ، والتفاف الثعبان لحبلهم وعصيم
وسجودهم وإيمانهم ، ومحاورتهم مع فرعون ، ولا غرق فرعون وجنوده
حينما خرجوا لمطاردة بني إسرائيل ، والقرآن يذكر أن الشخص الثاني الذي
أراد موسى أن يبطش به هو عدو في حين أن سفر الخروج يذكر
أنه عبراني .

والقرآن يذكر أن الذي صنع العجل لبني إسرائيل هو السامري في
حين أن هذا السفر يذكر أنه هارون ، والقرآن يذكر موقفاً لمؤمن من
آل فرعون ، وموقفاً آخر لناصح نصيح موسى بالخروج وليس هذا وارداً
في أي سفر ، والقرآن يذكر أن بنات رجل مدين اثنتان في حين أن
هذا السفر يذكر أنهن سبع ، وليس في أي سفر ما ورد في القرآن
من محادثة بين فرعون وهامان لأجل بناء صرح لبطع إلى إله موسى ..
وليس في هذه الأسفار ما ورد في القرآن من خبر أمر موسى قومه
بذبح البقرة ومحاورته معهم ، ولا أمر الله لهم بدخول الباب سجداً ،
ومخالفتهم لهذا الأمر ، ولا خبر عدوانهم في السبت ومسحهم قرده ، وليس
في الأسفار التي تذكر قصص داود وسليمان ما ورد في القرآن من تسخير
الله الشجر والطير والحديد لداود ، وتسخير الريح والجن والطير لسليمان ،
ولا قصة الهدهد ولا كتاب سليمان للملكة سبأ وإسلامها ، وإحضار عرشها
بلمحة البصر من قبل الذي عنده علم من الكتاب ، ويلمح بعض الفروق
في جزئيات ما ورد في القرآن وما ورد في سفري يونا وأيوب أيضاً .

ونذكر هذه الأمثال من قبيل التمثيل لا الاستقصاء ، فهناك نقاط
وأمر كثيرة أخرى في صدد آدم وابنيه ونوح وإبراهيم ولوط ويوسف
وإخوته وموسى وفرعون وبني إسرائيل وداود وسليمان وطالوت وردت

في القرآن ولم ترد في الأسفار ، أو وردت في القرآن مباينة قليلاً أو كثيراً لما ورد في الأسفار .

ونحن نعتقد أن ما ورد في القرآن ، ولم يرد في الأسفار المتداولة ، أو ورد فيها مبايناً لما ورد فيه قد ورد في أسفار أخرى كانت متداولة بين أيدي اليهود لم تصل إلينا ، وهذه ظاهرة تثبتها الأسفار المتداولة التي ورد فيها أسماء أسفار عديدة ليست بين الأسفار المتداولة .

ففي الإصحاح (١٢) من سفر أخبار الأيام الأول مثلاً هذه الجملة (وأمر رجبام الأولى والأخيرة أما هي مكتوبة في أخبار شمعيال النبي وعدو الرائي) . وفي الإصحاح (١٥) من سفر يوشع هذه الجملة (فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر) وفي الإصحاح (١١) من سفر الملوك الأول - الثالث في السكاوليكية هذه الجملة (وأما بقية أخبار سليمان وجميع ما عمل ووصف حكمته فهي مكتوبة في سفر أخبار سليمان) . وفي الإصحاح التاسع من سفر أخبار الأيام الثاني هذه الجملة (وبقية أخبار سليمان الأولى والأخيرة مكتوبة في كلام ناتان النبي ونبوءة أخيا الشيلوني ورؤى عدو الرائي) . وفي الإصحاح (٢٧) من أخبار الأيام الأول هذه الجملة (ولم يدون العدد في سفر أخبار الأيام للملك داود) .

فأسفار شمعيال وعدو وياشر وأخبار سليمان وناتان وأخيا وأخبار الأيام للملك داود ليست بين الأسفار المتداولة اليوم ، يضاف إلى هذا أن كثيراً ما جاء في أسفار الملوك هذه الجملة (وبقية أمور الملك . فلان .. أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام للملك يهوذا أو للملك إسمرائيل) وليس بين الأسفار ما يحمل هذه العناوين ، وليس في أسفار أخبار الأيام المتداولة شيء مما أريد إرجاع الكلام إليه ، والعبارة تفيد أنه كان لكل ملك من ملوك دولتي يهوذا وإسمرائيل أسفار باسم أسفار ملوك إسرائيل وأسفار ملوك

يهودا ، وأخبار أيام ملوك إسرائيل ، وأخبار أيام ملوك إسرائيل .

وفي الجزء الضخم من أجزاء كتب الحوري الحداد المرقم برقم (٣) الذي فيه استعراض لجميع سور القرآن تنبيهات كثيرة إلى أن ما ورد في القرآن مما لم يرد في الأسفار ، أو ورد فيه مبيناً لما ورد فيها قد ورد في كتاب التلمود ، أو في أجزاء تفسير اليهود للتلمود ، والأسفار المعروفة باسم مدراس كما ورد في القرآن .

والمعروف يقيناً أن التلمود كتب بعد الميلاد المسيحي وقبل بعثة النبي ﷺ ، والكتب الأخرى منها ما كتب في هذه الحقبة ، ومنها ما كتب بعدها . وعلى كل حال فالمتبادر أن يكون كتابها قد استقوا ما أوردوه مما هو متطابق مع القرآن ومباين للأسفار المتداولة من أسفار وقراطيس وروايات قديمة . ولقد كان القرآن يتلى علناً ويسمعه اليهود ، ولم يرو أنهم اعترضوا ، أو كذبوا ما ورد في القرآن مما لم يرد في الأسفار المتداولة اليوم ، أو ورد فيها مبيناً لما ورد فيه مما فيه قرينة أو دلالة على أنهم يسمعون أموراً متداولة بينهم ، أو مذكورة في قراطيس عندهم ، بل وفي القرآن شهادة لهم صراحة ولأهل الكتاب والعلم الذين هم من عدادهم بصحة القرآن وكونه منزلاً من الله تعالى وفرهم به وإيمان من استطاع أن يتفقت من عقده ومآربه منهم بالقرآن ، والنبي ﷺ كما جاء في هذه الآيات :

١ - وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ صَرِيعُ الْحِسَابِ .. [آل عمران : ١٩٩] .

٢ - لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ

وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا .. [النساء : ١٦٢] ،

٣ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ .. [الأنعام : ٢٠] ^(١)

٤ - أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أٰبَتَغْيِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْنَا الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .. [الأنعام : ١١٤] .

٥ - الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ .. [الأعراف : ١٥٧] .

٦ - وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ .. [الرعد : ٣٦] .

٧ - قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ، وَيَجِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكَبُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا .. [الإمراء : ١٠٧ - ١٠٩] .

٨ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .. [القصص : ٥٢ و ٥٣] .

٩ - وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. [العنكبوت : ٤٧] .

وفي الآيات فضلاً عن دلالتها التي أردناها دلالة على أن أهل الكتاب الذين منهم اليهود سمعوا من القرآن ما يتطابق مع عقائدهم ، وكونه

(١) هذه الآية في سلسلة في حق اليهود .

يدعوهم إلى الإيمان به وبالرسول الذي أنزل عليه ، فاستجابوا وآمنوا .
وعلى كل حال فما تقدم يسوغ القول : إن أسفاراً وقراطيس كثيرة
فقدت ولم تصل إلينا وليس هذا شأن سفر التوراة وحده .

- ٦ -

ولقد تصدى الحوري في كتبه بأساليب ومناسبات عديدة ومتنوعة
بدءاً من كتابه رقم ١ لمسألة التحريف والتبديل في التوراة والانجيل ليرد
بذلك على المسلمين الذين يقولون : إن اليهود والنصارى حرفوا أو بدلوا
فيها استناداً إلى آيات قرآنية عديدة منها ما يلي :

١ - أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ .. [البقرة : ٧٥] .

٢ - فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتِيبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ
هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا
كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .. [البقرة : ٧٩] .

٣ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى
مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ
وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .. [البقرة : ١٥٩] .

٤ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُشْتَرُونَ
بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ
الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ
عَلَى النَّارِ . ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَأَنَّ الَّذِينَ

اِخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .. [البقرة : ١٧٤-١٧٥] ^(١) .

٥ - وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . [آل عمران : ٧٨] ^(٢) .

٦ - مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارَاعِنَا لَيْئًا بِالسِّنِينَ وَمَا نَحْنُ فِي الدِّينِ .. [النساء : ٤٦] .

٧ - قَبِيهَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . [المائدة : ١٣] .

٨ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .. [المائدة : ١٥] .

٩ - يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْهُمْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ .. [المائدة : ٤١] .

١٠ - وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَاتِيهِمْ قُرْآنًا مَكِينًا وَمَنْ خَفِيَ عَنْهُمْ يُكْفَرُ بِهِ .. [الأنعام : ٩١] .

(١) و (٢) الآيتان من سياق في حق اليهود .

وقال كلاماً طويلاً متكرراً خلاصته : إن التوراة ^(١) كلام الله ، والقرآن صريح بأن كلام الله لا يبدل حيث جاء في سورة الأنعام هذه الجملة : (وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ .. الآية ٣٤) وهذه الجملة : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ .. الآية ١١٥) وفي سورة الكهف هذه الآية : (وَآتَيْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ .. ٢٧) فيكون التحريف فيها مستحيلًا بنص القرآن ، وإن القرآن قد نوه بالتوراة وما فيها من نور وهدى ، وطلب من اليهود إقامتها ، وقال لهم : إنهم ليسوا على شيء حتى يقيموها كما جاء في آية سورة المائدة ٤٤ و ٦٨ ونوه بالذين يتلون حق تلاوتها في آية سورة البقرة ١٢١ وإن كل هذا يدل على أنها كانت في زمن النبي كما أنزلها الله بدون تحريف وتبديل .

وبما قاله : إن القرآن أمر النبي باستشهاد أهل الكتاب ، وبإعلان التطابق بين القرآن والكتب المنزلة على أنبياء الله السابقين والتي كانت في أيدي أهل الكتاب ، فلا يمكن أن يكون ذلك لو كان القرآن يريد أن يقول : إن ما في أيديهم منها محرف ، ثم صرف كلمة (التحريف) المنسوب إلى اليهود إلى معنى تحويل وتأويل الآيات التوراتية بغير معناها وقصدها تصحيحين ..

- ٧ -

وتعليقاً على ذلك نقول :

١ - إن (كلمات الله) التي في آيات الأنعام والكهف لا تعني كلام الكتب الإلهية أو ألفاظها ، وإنما تعني تقدير الله وحكمه وقضائه ، وقد كنا نظن أن هذا لا يغيب عن الحوري .

(١) كلامه يشمل التوراة والإنجيل ، ونحن هنا ندير الكلام على التوراة فقط .

٢ - إن البشر هم الذين يكتبون ألفاظ وحروف كتب الله تعالى على القراطيس والرقوق ، ويحفظونها في صدورهم ، ولا يمكن أن يكابر عاقل في جواز وقوع أخطاء منهم حيناً يكتبونها ، وحيناً يقرؤونها من حفظهم ، فيبدلوا ويغيروا فيها سواء أكان ذلك بقصد أم بغير قصد ، وهذا ما يقع لكل الناس في كل وقت من مسلمين ونصارى ويهود وغيرهم ، وقد وقع منا كثيراً على كثرة ما قرأنا القرآن ، وحفظناه وكتبناه ، ولا بد من أنه وقع للغوري ، وكنا نظن أن هذا لا يغيب عنه ، ولا يخل هذا في حقيقة بقاء كلام الله تعالى المنزل على رسله في كتبه محتفظاً بصحته حكماً ولو أخطأ الناس في كتابة ألفاظه على الورق والقراطيس ، وفي تلاوته من ذاكرتهم ، وبدلوا وغيروا فيه .

٣ - إن كلمة (التحريف) في أصلها تعني تغيير وتبديل الحروف والألفاظ ، ومع ذلك فمن الممكن التسليم بصواب القول : إنها قد تكون بمعنى صرف الكلام عن حقيقة مداه ، وتأويله بغير القصد الحق الصحيح ، غير أن هذا ليس ذا جدوى في الصدد الذي يساق فيه بعد الواقع المشروح في الفقرة السابقة الذي لا يمكن أن يكابر فيه عاقل ، والذي يسوغ التقرير بحتم بأن كلمات التوراة يمكن أن يخطئ كاتبوها حيناً يكتبونها على الورق ، وقارئوها حيناً يتلونونها من ذاكرتهم فيغيروا ويبدلوا .

٤ - ولقد سلمنا استدلالاً بما في بعض الآيات القرآنية بأن التوراة التي احتوت ما بلغه الله لموسى من وصايا وتشريعات موجودة في زمن النبي ﷺ ، وقد نوه القرآن بها حقاً ، ووصفها بأن فيها نوراً وهدى ، وطالب بالاحتكام إليها ، وطالب اليهود بإقامتها والالتزام ما فيها ، ونوه بالذين يتلونونها حق تلاوتها ، وكل هذا قد يفيد أنها كانت في زمن النبي بدون تحريف وتبديل .

ويجعلنا هذا متفقين في ذلك مع الخوري الذي يذكره في معرض التدليل،
ويكون استشهاد القرآن بها وبأهلها في محله .

غير أن هذا ليس من شأنه أن يمنع أن يكون اليهود في زمن النبي
وقبله كانوا حينئذ ينسخون التوراة من أصلها ، وحينئذ يتلونوها من ذاكرتهم
يخطئون في كلمات كثيرة ، أو ينسونها ، أو يخفونها أو يكتُمونها ، وكل
هذا قرره القرآن عنهم ، ولا ينبغي أن يكون أي حل للشك في أن ذلك
كان نتيجة لوقائع ومشاهد يقينية .

على أن سفر توراة موسى مفقودة فيكون الكلام في أمره هو في
صدد شيء لم يعد موجوداً منها كان من أمر ، ولم يعد إثبات صحته وعدم
تحريفه وتبديله موضوع نظر وجدل إثباتاً ونقياً .

- ٨ -

ولقد تساءل الخوري بعد أن توهم بغباء وصفاقة أنه أثبت استحالة
تحريف وتبديل التوراة استناداً إلى القرآن الذي قرر أن لا مبدل لكلمات
ربه وهي من كلام الله عما إذا كان هناك تحريف وتبديل في الكتاب
المقدس . وهذا الاصطلاح حديث على كل حال ، ويطلقه النصارى على
مجموعة أسفار العهد القديم ، ومجموعة أسفار العهد الجديد معاً المتداولة بين
الأيدي اليوم ، وقد حاول أن يسحب ما قاله من استحالة التحريف والتبديل
في التوراة التي كانت موجودة في زمن النبي ﷺ والذي فنداه على
الكتاب المقدس الذي منه مجموعة أسفار العهد القديم ، وكرر ما ساقه
بسبيل إثبات عدم تحريف التوراة ، وكلامه يفيد بصراحة أنه يقصد
الأسفار المتداولة ، وقد زاد على ذلك قوله - وهذا يؤيد القصد - إن
هذه الأسفار كانت مكتوبة على رقوق قديمة قبل النبي بمدة طويلة ،
ولمّا قد طبعت نقلاً من الرقوق طبقاً لأصلها فلا يمكن أن يكون قد
قد طراً عليها تبديل أو تحريف ، أو زيادة أو نقص في زمن النبي وقبله

وبعده ، وجميع نسخها التي وصلت إلى عندنا متائلة وهذا يدعم ذلك .
وجواباً على هذا التساؤل نقول : إن شأن هذه الأسفار ليس كشأن
التوراة أصلاً وواقعاً ، فالتوراة قد كتبتها موسى عليه السلام حسب
ما تلقاها من الله تعالى ، وسلم سفرها للكهان ليوضع في تابوت العهد ،
وظل هذا السفر ينسب إليه ، ويسمى باسمه في حين أن الأسفار كما قلنا
قبل : قد كتبت بأقلام مجهولة متعددة في أزمنة مختلفة .

وقد كتبت بعد الأحداث التي سجلت فيها بمدة طويلة ، وفيها كثير
من التباين والتناقض ، والمبالغات والمفارقات والأكاذيب ، وقد نسب
فيها إلى الله ورسله ما يتنزهون عنه .

وما جاء فيها مما هو من تبليغات الله تعالى لموسى عليه السلام ليس
منقولاً من سفر توراة موسى بدليل ما فيها من هذه الصفات ، فلا يكون
ذلك بديلاً عن هذا السفر ، وما جاء فيها منسوباً إلى الأنبياء الآخرين
وإلى الله تعالى عن طريقهم ليس من إيمانهم ، وفيه من تلك الهنات الشيء
الكثير أيضاً ، وقوله : إنها كانت مكتوبة على رقوق قديمة قبل النبي ﷺ
بئات السنين ، وإن المطبوع منها هو نسخة مطابقة لهذه الرقوق التي لا تزال
موجودة ، ولم يطرأ عليها تبديل وتحريف ، لا يفيد إلا إثبات كون التشويحات
والهنات التي هي عليها كانت قديمة بقديم الرقوق ولا يمنع في ذات الوقت
أنه كان هناك قراطيس وأسفار لم تصل إلينا - وهو ما يقوم الدليل القطعي
عليه من نصوص الأسفار ذاتها - ولا يمنع أنه كان نسخ عديدة للأسفار التي
وصلت إلى عهدنا بينها تباين وتناقض ، فتداولت جميعها على ما فيها من ذلك ،
ثم ضاع بعضها أو انطمر أو أبيد قصداً ، فظل ما وصل إلى عهدنا منها ،
فطبع طبقاً للأصل الذي كان في تلك الرقوق القديمة على علاته وثغراته .
وتداول نسخ عديدة للكتاب الواحد في زمن الخط قبل الطباعة ، ووقوع
أخطاء من النساخ طفيفة أو كبيرة ، وسقوط شيء من النسخ ، وضياعه

أمر واقع ، والأمثلة على ذلك لانتحى في المخطوطات العربية وغير العربية ، ولقد عثر أخيراً على مخطوطات قديمة في أحد كهوف البحر الميت منها بعض فصول من سفر أشعيا قال الخبراء الذين قارنوها مع فصول السفر المتداول المطبوع أن بينها فروقاً كثيرة .

وهناك حقائق مشهورة واقعية لا تتحمل مرء تتمثل في فروق ومباينات وزيادات ونقص في نصوص وعدد الأسفار المطبوعة التي تتداولها طوائف اليهود والنصارى . من ذلك ما بين ما يتداوله ويعترف به السامريون الذين يدينون بالدين الموسوي ، وما يتداوله ويعترف به اليهود وما يتداوله ويعترف به طوائف اليهود المختلفة ، وما بين ما يتداوله ويعترف به طوائف النصارى المختلفة . حيث ثبت بعضهم ما ينكروه الآخر ، وحيث يوجد في بعض ما لا يوجد في الآخر ، وحيث يرد في بعض ما يتعارض مع الآخر ، ومعنى هذا أن الرقوق القديمة المنقولة عنها متباينة ، فطبع ما وصل منها إلى زمن الطباعة متبايناً أصلاً وترجمة .

ولقد اقتبس الإمام ابن قيم الجوزية وهو من رجال القرن الثامن الهجري ومات سنة (٥٧٥١ هـ) أي قبل ستة قرون وثلاث في كتابه « دليل الحيارى » فقرات عديدة من أسفار دانيال وأشعيا حرفياً ، لأنه وضعها بين أقواس ، وفيها بشارات قوية الصراحة ببعثة النبي محمد ﷺ ، وهذه الفقرات ليست موجودة حرفياً في الأسفار المذكورة في نسخة (الكتاب المقدس) الموجودة في يدنا المطبوعة في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٥١ م ولا يمكن أن يكون الإمام قد اخترعها أو حرفها ، وليس من تفسير لذلك إلا أنه كان هناك نسخ عديدة لهذه الأسفار في بعضها ما ليس في الآخر ، وأن ما نقل عنه الإمام قد باد أو أيد .

وفي نسخة (الكتاب المقدس) المذكورة آنفاً أسفار عديدة ليست موجودة في نسخة (الكتاب المقدس) المطبوعة في المطبعة البروتستانتية

وغير معترف بها بالتالي عند البروتستانت حيث يوجد في الأولى أسفار طوبيا ويهوديت والحكمة ويسوع بن سيراخ ونبوة باروك وسفرا المكابيين .
ولست هذه موجودة في الطبعة البروتستانتية وفيها كذلك أسفار فيها فصول غير موجودة في نفس الأسفار الموجودة في النسخة البروتستانتية ، وفيها فصول يذكر في رأسها أن أصلها العبراني قد ضاع ، وأنها منقولة عن ترجمة يونانية له ، أو أنها غير واردة في النسخة العبرانية ، ولا في نسخة أحد من المترجمين ، وإنما وردت في النسخة العامة .

وفي كل ذلك أمثلة مؤيدة لما قلناه يمكن أن يجد المستقصي أمثلة أخرى من بابها ^(١) .

وكل ما تقدم يجعل تشميل تعبير (الكتاب المقدس) الذي يطلقه النصارى على مجموعة أسفار العهدين القديم والجديد لجميع ما جاء في أسفار العهد القديم غير أمين ، وفيه تجوز كبير ، ويجعل محاولة الحوري نفي التعريف والتشويه والإبادة والضياغ عنها متافئة .

وهذا القول لا ينقض ما قلناه قبل من احتمال صحة نسبة بعض ما جاء في بعض هذه الأسفار إلى الله ورسله ، غير أن هذا لا يسوغ إطلاق ذلك التعبير على جميع محتويات الأسفار كما هو المتبادر .

وفي القرآن آيات عديدة تعكس على ما يتبادر منها بقوة ما كانت في نصوص الأسفار التي كان اليهود يتداولونها في زمن النبي ، سواء منها التي وصلت إليها أم لم تصل من تباين وتناقض وتشويه ، وما كانت بينهم نتيجة لذلك من اختلاف على النصوص والتأويل من شكوك وتعدد مذاهب

(١) في المجلدين الثالث والرابع من تاريخ سورية للديس أمثلة كثيرة على ما طرأ على أسفار العهد القديم والعهد الجديد من طوارئ واضطراب وترجمات عن أصول مفقودة .

وتنازع كان يصل أحياناً إلى القتال^(١) ، وما كان من تلاعبهم فيها حيث كانوا يخفون ما يريدون ويظهرون ما يريدون وفقاً لأهوائهم ، ويجاولون تقديمها بصفتها كتب الله ، ولم تكن كذلك .

ومن هذه الآيات ما مر إيراده وهي آيات البقرة ٧٥ و ٧٩ و ١٥٩ و ١٧٣ - ١٧٦ وآل عمران ٧٨ والنساء ٤٤ والمائدة ١٣ و ١٥ و ٤١ والأنعام ٩١ ومنها هذه الآيات :

١ - كان الناس أُمّةً واحدةً فبعثَ اللهُ النبيّين مُبشّرينَ ومُنذرينَ وأنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اختلفوا فيه وما اختلفَ فيه إلا الذين أوتوه من بعدِ ما جاءتهم اليّناتُ بغياً بينهم فهدى اللهُ الذين آمنوا لِمَسْأَلِ اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ هُدي من يشاءُ إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [البقرة : ٢١٣] .

٢ - تلكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمُ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْيّناتِ وَأَيّدناه بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ ما أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءتهم اليّناتُ وَلَكِنْ اختلفوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ ما اختلفوا وَلَكِنْ اللهُ يَفْعَلُ ما يُريدُ .. [البقرة : ٢٥٣] .

٣ - ألمَ تَرَ إلى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلِمُونَ شَيْئاً . انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ

(١) والفتن والحروب الدموية التي كانت بين الصدوقيين والفريسيين في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد نتيجة للخلافات والتأويلات المذهبية دأبل على ذلك . انظر كتاب يوسفوس اليهودي المكتوب في القرن الأول بعد الميلاد وانظر كتابنا « تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم » الطبعة الجديدة من ٣٣١ وبعدها .

الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِنَّهَا مُبِينٌ .. [النساء : ٤٩ و ٥٠] .

٣- وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. [يونس : ٩٣] .

٤- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ..
[هود : ١١٠] .

٥- يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ .. [المؤمنون : ٥١ - ٥٣] ^(١) .

٦- إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْضِي عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي
هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ..
[النمل : ٧٦ و ٧٧] .

٧- مَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوْحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَقَرَّقُوا إِلَّا
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا
الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .. [الشورى : ١٣ و ١٤] .

ولا يمكن أن تكون هذه الآيات إلا صورة صادقة عيانية تعكس

(١) هذه الآيات جاءت تعقيباً على الأنبياء نوح وموسى وهارون وإن
مريم والإشارة إلى غيرهم عليهم السلام .

ما كان عليه أمر الأسفار التي كان يتداولها اليهود من اختلاف وتناقض وتباين وتحريف .

ويؤول الحوري كما قلنا قبل عبارات التحريف في الآيات القرآنية بمعنى صرف نصوص الكتب عن مقصدها الحق الصحيح ، ومع أن الكلمة في أصلها هي بمعنى تغيير وتبديل الحروف والألفاظ ، فإن وصف اليهود بها بالمعنى الذي يريد تأويلها به يعني فيما يعنيه أنهم كانوا يختلفون في فهم النصوص ، ويحاولون تأويلها تأويلاً بعيداً عن الحق والصواب ، وقد يصح أن يقال : إنهم كانوا يدنون هذه التأويلات المحرفة في قراطيس ، ويتداولونها ، وأسفار التلمود والمدراس هي من هذا الباب على الأرجح .

على أن في آيات من هذه الآيات صراحة لا يجوز المكابرة فيها حيث تفيد أنهم كانوا يختلفون في النصوص وفيما بين أيديهم من أسفار ، وكانوا في شك منها ، وكانوا يخفون ويكتمون منها ما يشاؤون ، ويبدون ما يشاؤون وفق أهوائهم ، وينسبون كتباً ليست من كتب الله وكلاماً ليس من كلام الله إلى الله كذباً وافتراءً وخداعاً وهو ما ينطبق على معظم الأسفار المتداولة اليوم .

ومن عجيب أمر الحوري أنه يحاول الاستناد إلى القرآن ، وهو يقرأ آيات القرآن التي أوردناها وبخاصة آيات البقرة ٧٩ وآل عمران ٧٨ ، ثم لا يبالي أن يفعل ما حكى القرآن أن اليهود كانوا يفعلونه ، فيقدم هذه الأسفار ككتب إلهية وككلام إلهي ، وينعتها بالكتاب المقدس ..

- ١٠ -

ومن طرائف الحوري وصف كُتّاب الأسفار المتداولة بكتّاب الوحي ! والمتبادر أنه اقتبس هذا من تاريخ الوحي النبوي الحمدي الذي يذكر أنه كان للنبي ﷺ كتاب وحي يكتبون ما يوحى إليه من قرآن فور نزوله وفي الاقتباس مفارقة عجيبة ومقارنة متهاقة ، فكُتّاب الأسفار الحسية

الأولى كتبوها بعد مومى بمدة طويلة وليست من إملائه ، وهذا شأن الأسفار الأخرى التي كتبت بعد الأحداث التي تضمنتها وموت الأشخاص المنسوبة إليهم بمدة طويلة ، كذلك على ما نهينا عليه من قبل ، وقد دونوها من محفوظات الناس ومسموعاتهم المتداولة أجيالاً بعد أجيال ، وربما من قراطيس أخرى وصلت إليهم ولم تصل إلينا ، وشيبت بالخيال والمفارقات والمبالغات والمتناقضات والأكاذيب على الله ورسله ، فكيف يصح لعاقل أن يصفهم بأنهم كتاب الوحي قياساً على كتاب وحي النبي ﷺ الذين إنما كانوا يدونون ما يوحى إلى النبي فوراً .

- ١١ -

ونتكلم الآن عن الإنجيل فنقول :

١ - إن الكلمة يونانية معربة ومعناها ، البشارة ، والمتبادر أن التعريب والاستعمال للدلالة على كتاب النصارى المقدس كانا سابقين لنزول القرآن .

٢ - إن الإنجيل قد ذكر في القرآن اثني عشرة مرة ، وقد جاء ذكره مقروناً بعيسى عليه السلام في بعضها ، وفي الآيات التي ذكر فيها مقروناً باسمه صراحة بأن الله تعالى آتاه له وعلمه إياه كما ترى في الآيات التالية :

آ - وَيُعَلِّمُهُ^(١) الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. [آل عمران : ٤٨ ، ٤٩] .

ب - وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ [المائدة : ٤٦] .

ت - إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ

(١) الضمير عائد إلى عيسى عليه السلام الذي ذكر قبل هذه الآية باسم المسيح .

وَكَهَلَا وَإِذَا عَلَّمْتِكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ..
[المائدة : ١١٠] .

وفي سورة آل عمران آيات ذكر فيها أن الإنجيل (أنزل) كما
ترى فيما يلي :

آ - نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ
الْفُرْقَانَ .. [آل عمران : ٣ ، ٤] .

ب - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ
التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. [آل عمران : ٦٥] .

وفي سورة مريم آية تحكي قول عيسى عليه السلام بأن ربه آتاه
الكتاب ، وجعله نبياً ، وهي : (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ
وَجَعَلَنِي نَبِيًّا .. : ٣٠) .

وفي سورة المائدة آيات تنسب الإنجيل إلى أهله كما ترى فيما يلي :
آ - وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ يَمَا أُنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ
يَحْكَمْ يَمَا أُنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .. ٤٧

ب - وَلَوْ أَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ
سِيبَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ .. ٦٤ ، ٦٥ .

ت - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .. ٦٨

- ١٢ -

وتقتضي هذه النصوص أن الإنجيل كتاب واحد أنزله الله ، أو أوصى

به ، أو علمه لئيه عيسى عليه السلام ، فيه تبليغات وأحكام ووصايا ربانية ، هذا في حين أن النصارى اليوم يعترفون ويتداولون أربعة أناجيل هي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، ويسمون المجلد الذي يضمها مع سفر اسمه (سفر أعمال الرسل) وأربع عشرة رسالة من بولس إلى أهل بلاد عديدة وأشخاص وإلى العبرانيين ، ثم رسائل بطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا باسم العهد الجديد . مع اعترافهم بأسفار العهد القديم في نصوص يتداولونها وضمهم إليها مع أسفار العهد الجديد باسم جامع هو (الكتاب المقدس) .

وهناك خلاف في عدد رسائل العهد الجديد وأصحابها عدا الأناجيل الأربعة حيث إن الطبعة البروتستانتية لا تثبت بعضها ولا تعترف به في حين أن الطبعة الكاثوليكية تثبتها جميعها وتعترف بها ، والنصارى يعولون على هذه الرسائل تعويلاً لا يقل عن الأناجيل ، لأن فيها شرحاً للعقائد والتعاليم النصرانية التي لم ترد في الأناجيل بصراحة وقطعية .

ونريد هنا أن نقتصر في البحث على الأناجيل لان اسم الإنجيل هو المذكور في القروآت ومتداول في الواقع ، وهذا فوق مهم بالنسبة للتوراة ، فليس هناك كما قلنا قبل سفر اسمه التوراة ، وقد كان وفقد ، وتداول هذا الاسم وإطلاقه على أسفار العهد القديم أو بعضها من باب التجوز ويزيد في قوة هذا الفرق أن اسم الإنجيل كشيء منسوب إلى عيسى عليه السلام ورد في بعض الأناجيل التي يعترف بها النصارى على ما سوف نذكره بعد .

- ١٣ -

والأناجيل الأربعة صريحة بأنها كتبت بعد عيسى عليه السلام لتحتوي قصة حياته ورسائله وتعاليمه وأقواله ونهايته ، وبأنها كتبت بعد توفيه بمدة ما ، وهناك من يذكر أنها كتبت خلال ستين سنة بين سنة ٣٧ و ٩٨

بعد الميلاد .

وهناك أولاً خلاف في ظروف ولغات وأشخاص كتاب الأناجيل الأربعة ، ومتى" صاحب أدل لاناجيل من تلامذة المسيح أو حواريه الاثني عشر على ما تذكره الروايات التي تذكر أيضاً أنه كتب إنجيله بعد ١٢ سنة من توفي المسيح بالعبرانية ، وفي رواية بالقرطانية ، ثم ترجم إلى اليونانية ، وظلت الترجمة اليونانية هي المعروفة دون الأصل المفقود حتى ظن أن اليونانية هي الأصل الوحيد له ، وبعض الروايات تذكر أن الذي ترجمه إلى اليونانية هو يوحنا .

ومرقس صاحب ثاني الاناجيل تلميذ لبطرس في رواية ، ومن الرسل الاثني والسبعين الذين انتدبهم السيد المسيح للبشارة في رواية . وبما تذكره الروايات أنه كتب انجيله في روما حينما رحل اليها مع بطرس ، وقد كتبه باليونانية مع بعض عبارات باللاتينية ، وتروي بعض الروايات أن كاتب إنجيله هو بطرس نفسه ، وقد عزاه إليه .

ولوقا صاحب الإنجيل الثالث طبيب من انطاكية ، وقد كتب إنجيله باليونانية لينقل الى صديق له اسمه ثاوفلس ما سمعه من سيرة المسيح . ويوحنا صاحب الإنجيل الرابع مختلف في شخصيته حيث يروي أنه يوحنا بن زبدي أحد تلامذة المسيح الاثني عشر أو حواريه كما يروي أنه شخص آخر ، وقد كتب إنجيله في آخر حياته وبعد الأناجيل الثلاثة الأولى .

وبين الأناجيل الأربعة تطابق ما في كثير من الأقوال المعزوة إلى عيسى عليه السلام وتعاليمه وسيرة حياته ومعجزاته مع اختلاف في الصيغة والأسلوب والعبارات . غير أن بينها اختلافات عديدة أيضاً ، ففي بعضها ما ليس في بعض آخر ، وفي بعضها ما يتباين مع ما في البعض الآخر ، وهذا وذاك ملموحان في الأحداث والجزئيات والكليات ، وفي بعضها ما يلح بقوة أنه من بنات الخيال أو التوهم أو شيب بكثير من المبالغة ،

حتى إن بعض الباحثين يقطعون بكذب بعض محتوياته أو على الأقل بأنها من تزيينات الأوهام . ويبدو من كل هذا أن كتابها سجلوا ما كتبوه من الروايات والمسموعات والمنقولات والتوهّمات التي يقع فيها عادة مباينات ومناقضات وزيادة ونقص ، ومبالغة وكذب مقصود وغير مقصود وخداع رؤية وسماع ، ولو كان العهد قريباً ، وليس فيها أية دلالة على أن شيئاً مما فيها من إملأه عيسى عليه السلام مباشرة ، وألوهية عيسى مثلاً لم تذكر بصراحة إلا في إنجيل يوحنا ، وقد لحظ دارسو هذا الانجيل بخاصة آثار الفلسفة اليونانية الجديدة فيه ، وهذا ما جعلهم يتوقفون في رواية كون كاتبه هو يوحنا الحواري بن زبدي ، ويذهبون إلى أنه شخص يوناني من القرن الثاني متأثر بتلك الفلسفة .

وعلى كل حال فالتباين والتناقض والمبالغة والتوهّمات فيما جاء في الأناجيل الأربعة من أقوال وأفعال وصور وأحداث يجعل قول من يقول إنها كتبت بإلهام الله في غير محله البتة ، لأن الله تعالى لا يمكن أن يلهم الشيء وضده ونقيضه والكذب والحيال والأوهام .

وإلى ما تقدم فإن هناك روايات تذكر أن عدد الأناجيل كثير ، والعدد الذي نذكره يتراوح بين العشرين والسبعين .

ومن الأناجيل التي قرأناها غير الأربعة إنجيل برنابا ، وبرنابا ذكر في الأسفار الملحق بالأناجيل الأربعة كأحد رسل المسيحية بعد المسيح مباشرة ، ومن الأناجيل التي قرأنا خبرها أناجيل الطفولة والولادة ومريم وإنجيل السبعين وإنجيل مرقيون وإنجيل ديصان وإنجيل التذكرة وإنجيل سرين . ولقد كان النصارى فرقاً عديدة ، فكان لكل فرقة إنجيل يختلف عن إنجيل الفرقة الأخرى قليلاً أو كثيراً .

ومن الجدير بالذكر أن الأناجيل الأربعة التي يقال : إنها كتبت بين سنتي ٣٧ و ٩٨ لم يذكر خبرها أي أثر تاريخي قبل سنة ٢٠٠ م ثم أخذت

المصادر تذكرها ، غير أنه ليس هناك ما يثبت علمياً أن النصوص المتداولة هي نفس النصوص التي كتبت لأول مرة بقطع النظر عما بينها من تناقض تباين وما فيها من هنات وثغرات .

والنصارى يقولون عن غير الأناجيل الأربعة : إنها منجولة ودخيلة ومزورة ، وقالوا عن إنجيل برنابا : إنه مزور في زمن الإسلام أو بقلم مسلم على ما قرأناه في بعض كتبهم ، ولم نطلع على أقوال لهم عن زمن الأناجيل الأخرى التي يصفونها بتلك الاوصاف ولا عن واضعها ومزورها وكيفية ذلك .

وفي القرآن أمور عن عيسى عليه السلام ليست واردة في الأناجيل الأربعة على ما سوف نشرحه بعد ، ونعتقد أنها كانت واردة في أناجيل أخرى حيث يمكن القول : إن من تلك الاناجيل ما كتب قبل الإسلام وفي إنجيل برنابا تطابق كثير مع ما ورد من ذلك في القرآن ، وقول النصارى : إن هذا الإنجيل مزور بقلم مسلم لا يحل المشككة ، لأن ما في القرآن منه يقتضي أن يكون مكتوباً في مدونات سابقة على القرآن كما هو المتبادر .

ولقد قرأنا في بعض كتب الحوري الحداد أن من جملة الأناجيل المنجولة إنجيلاً آخر لم ي في مبيانات كثيرة لانجيله المعترف به ، حيث يبدو من هذا أنه كان للأناجيل المعترف بها أيضاً نسخ عديدة فيها مبيانات لنسخ أخرى منها وبخاصة للمعترف بها التي استقرت العقائد والمسلّمات النصرانية عليها ، ومن المحتمل أن يكون الأناجيل الأخرى مثل ذلك .

ولقد مرت النصرانية والنصارى بدور اضطراب واضطهاد عصب في كنف الامبراطورية الرومانية التي كان لها السلطان في فلسطين وبلاذ الشام ومصر وشمال أفريقية والأناضول والأقسام الشرقية الجنوبية من أوروبا مدة ثلاثة قرون . ولا شك في أنه كان لذلك أثر في اضطراب الروايات

والكتابات عن حياة المسيح وأقواله وأفعاله ونهايته .

ولقد ذكرت بعض المصادر القديمة التي تعود إلى القرن الثاني بعد الميلاد أنه وقع تبديلات كثيرة في الأناجيل التي كان يتداولها النصارى الأولون . بل إن في بعض رسائل بولس إشارة إلى أن هناك من كان يحاول تحويل انجيل المسيح ويقلبونه ويحرفونه ^(١) .

وحينما نشب خلاف بين علماء ورجال الدين المسيحي في القرون الأربعة الأولى - واستمر لما بعدها وما يزال - في صدد المسيح وأمه وروح القدس والله عز وجل والأقانيم النخ ، وصاروا فرقاً عديدة ، وأخذوا يتراشقون بالتهمة ، ويكذب بعضهم بعضاً صار لكل فريق أناجيل وقراطيس مباحنة للأخرى ، وصار كل فريق يقول : إن ما في يد الفريق الآخر من ذلك مزور ومحرف على ما سوف يأتي شرحاً أوفى له في مناسبة أخرى

وعلى كل حال فإن الواضح مما تقدم أن الأناجيل الأربعة المتداولة المعترف بها لا يمكن أن يصدق عليها ، ولا على أي واحد منها تسمية الإنجيل القوائية والوصف الذي وصف القرآن الإنجيل به ، ولا يصح أن ينسب أي منها لله والمسيح ، ويجب أن يظل يذكر اسم مؤلف كل إنجيل مع إنجيله منسوباً إليه .

- ١٤ -

على أن آيات سورة المائدة ٤٧ و ٦٥ و ٦٧ وسورة الأعراف ١٥٧ التي أوردناها قبل قد تفيد أن الإنجيل الذي آتاه الله عيسى وعلمه إياه ، وأنزله عليه ، وفيه أحكامه وتعاليمه ووصاياه والذي أمر القرآن أهله بالحكم بما جاء فيه ، وقال لهم : إنهم لبسوا على شيء حتى يقيموا أحكامه مع ما أنزل الله إليهم كان موجوداً في أيدي النصارى حين نزول القرآن .

ولقد جاء في الإصحاح الأول من إنجيل مرقس هذه العبارة (وبعد

(١) انظر الإصحاح الأول من رسالة بولس إلى أهل غلاطية في العهد الجديد .

ما أسلم يوحنا أتى يسوع إلى الجليل ليكرز بالإنجيل ملكوت الله قائلاً قد تم الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل . وفي الإصحاح السادس عشر من هذا الإنجيل هذه العبارة (قال لهم - أي المسيح عليه السلام - اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها) . وجاء في الإصحاح الأول من رسالة بولس إلى أهل رومة هذه العبارة (فإن الله الذي أعبدته بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي بأنني لم أزل أذكركم) . وجاء في الإصحاح التاسع في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتوس هذه العبارة (بصرت للضعفاء كضعيف لأربيع الضعفاء صرت للكل كل شيء لأخاص على كل حال قوماً ، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل) ولقد أشرنا إلى ما جاء في رسالة بولس إلى أهل غلاطيه وهذا نص ما جاء في صد الإنجيل المسيح (إني أعجب كيف تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر وإن لم يكن إنجيل آخر لكن قوماً يبلبونكم ويريدون أن يقبلوا إنجيل المسيح) .

فهذه العبارات تفيد أنه كان هناك إنجيل منسوب إلى الله وإلى عيسى . كان عيسى يبشر به فعلاً . ومن الجائز أن يكون ظل موجوداً متداولاً إلى زمن النبي ﷺ ، وأنه هو الذي كان القرآن يعنيه ، وما دام أنه لا يوجد الآن إنجيل يصدق عليه وصف القرآن ، فلا مناص من القول : إنه قد فقد في ظرف ما كما فقد سفر توراة موسى الذي كان موجوداً هو الآخر يقيناً . بنصوص الأسفار ، ثم بنصوص القرآن كما ذكرنا قبل .

ولقد يكون في الأناجيل المتداولة المعترف بها أشياء مما تلقاه عيسى عليه السلام من ربه ، أو احتواه الإنجيل الذي آتاه الله ، وعلمه إياه ، وأنزله عليه ، غير أنها لا يمكن أن تكون من وجهة نظر القرآن والمنطق والواقع بديلة عنها ، لأنها ليست هي أولاً ، ولأن فيها ما لا يمكن أن

يكون من ذلك الانجيل ، ومن ذلك على سبيل المثال سيرة عيسى عليه السلام منذ ولادته إلى نهايته ، وليس فيها إلى ذلك أشياء كثيرة وردت في القرآن ، ويقتضي أن تكون في ذلك الانجيل . ومن ذلك على سبيل المثال عدم ورود أوصاف الرسول النبي الأمي بصراحة في أي منها وهو ما ذكرت آية سورة الأعراف (١٥٧) أن النصارى يجدونها مكتوبة عندهم في التوراة والانجيل . ومن ذلك ما ذكر في آيات قرآنية عديدة بصراحة قاطعة بأن عيسى عبد الله ونبي من أنبيائه ، وأنه جاء مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، وداعياً إلى عبادة الله وحده ربه ورب العالمين جميعاً كما ترى فيما يلي :

١ - لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ .. [المائدة : ٧٢] .

٢ - قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا كُنتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا .. [مريم : ٣٠ - ٣٣] .

٣ - وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .. [الزخرف : ٦٣ و ٦٤] .

٤ - وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا

سخره مُبين .. [الصف : ٦] .

وقد يكون في الأناجيل المتداولة المعترف بها عبارات يمكن تأويلها بما يتفق مع التقريرات القرآنية الواردة في هذه الآيات ، غير أنها ليست صريحة صراحة قاطعة ، والنصارى يؤولونها تأويلاً يجعلها غير متفقة مع هذه التقريرات .

- ١٥ -

وفي القرآن قرائن قد تدل على أن الأناجيل المتداولة اليوم ، والمعترف بها كانت موجودة في أيدي النصارى بالإضافة إلى إنجيل الله المنزل على عيسى الذي كان يبشر به ، ويدعو اليه ، ومن ذلك قصة بشارة زكريا ومريم التي وردت في إنجيل لوقا دون غيره يبيحى عليه السلام للأول والمسيح عليه السلام للثانية ، والمطابقة لما ورد من ذلك في سورتي آل عمران ومريم مطابقة كبيرة . فقد جاء في الإصحاح الأول من الانجيل المذكور (كان في أيام هيروودوس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وامراته من بنات هارون اسمها اليصابات ، وكانا كلاهما بارين أمام الله سائرين في جميع وصايا الرب وأحكامه بغير لوم ، ولم يكن لهما ولد لأن اليصابات كانت عاقراً ، وكانا كلاهما قد تقدما في أيامها ، وبينما كان يكهن في نوبة فوقته أمام الله أصابته القرعة على عادة الكهنوت أن يدخل هيكل الرب ويبخر ، وكان كل جمهور الشعب يصلي خارجاً في وقت التبخير ، فتراه له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور ، فاضطرب زكريا حين رآه ووقع عليه خوف ، فقال له الملاك : لا تخف ياكوريا فإن طلبتك قد استجيت ، وامراتك اليصابات ستلد ابناً فتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح وابتهاج ، ويفرح كثيرون بمولده ، فإنه يكون عظيماً أمام الرب ، ولا يشرب خمراً ولا مسكراً ، ويمتلئ من الروح القدس ، وهو في بطن أمه ، ويرد كثيرون من بني إسرائيل إلى الرب إلههم ، وهو يتقدم أمامه

بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء ، والعصاة إلى حكمة
 الأبرار ، وبعد الرب شعباً كاملاً ، فقال زكريا للملاك : بم أعلم هذا
 فأني أنا شيخ وامرأتي قد تقدمت في أيامها ؟ فأجاب الملاك وقال له :
 أنا جبريل الواقف أمام الله ، وقد أرسلت لأُكلمك وأبشرك بهذا ،
 وها إنك تكون صامتاً فلا تستطيع أن تتكلم إلى يوم يكون هذا ،
 لأنك لم تصدق كلامي الذي سيم في أوانه . وكان الشعب منتظرين
 زكريا متعجبين من إبطائه في الهيكل ، فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ،
 فعلموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل ، وكان بشير إليهم ، وبقي أبكم ، فلما
 تمت خدمته مضى إلى بيته . ومن بعد تلك الأيام حبلت اليصابات امرأته ،
 فاخبت خمسة أشهر قائلة : هكذا صنع بي الرب في الأيام التي نظر إليّ
 فيها ليصرف عني العار بين الناس . وفي الشهر السادس أرسل الملاك جبريل
 من قبل الله إلى مدينة في الجليل تسمى قاصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل
 اسمه يوسف من بيت داود واسم العذراء مريم ، فلما دخل إليها الملاك
 قال : السلام عليك يا ممتلئة نعمة ، الرب معك مباركة أنت في النساء ، فلما
 رآته اضطربت من كلامه ، وفكرت ما عسى أن يكون هذا السلام ،
 فقال لها الملاك : لا تخافي يا مريم ، فإنك قد نلت نعمة عند الله ، وها أنت
 تحبلين وتلدن ابناً ، وتسمينه يسوع ، وهذا سيكون عظيماً وابن العلي يدعى
 وسيعطيه الرب الإله عرش داود أبيه ، ويملك على آل يعقوب إلى الأبد ،
 ولا يكون للملكه انقضاء ، فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا
 لا أعرف رجلاً ؟ فأجابها الملاك وقال لها : إن الروح القدس يحل عليك
 وقوة العلي تظلك ، ولذلك فالقدوس الموعود منك يدعى ابن الله ، وها إن
 اليصابات نسيتك قد حبلت هي أيضاً بابن في شيخوختها وهذا الشهر هو
 السادس لتلك المدعوة عاقراً ، لأنه ليس أمر غير ممكن لدى الله . فقالت مريم :

وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ١٠ - ٢١) . وفي سورة آل عمران هذه الآية (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٥) وهي متطابقة مع كلام الملك لمريم ومن ذلك معجزات إحياء الموتى ، وشفاء العميان والبرص المذكورة في الأنجيل الأربعة ، وفي سورتي آل عمران والمائدة ، وقد ورد في السورة الأولى (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ . وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْبِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٤٩) ومن ذلك استجابة الحوارين لدعوته المذكورة في سورة آل عمران والمائدة والصف وفي الأنجيل أيضاً . ومن ذلك عشرات الآيات الواردة في الأنجيل الأربعة التي تحكي أقوالاً عن لسان عيسى عليه السلام متطابقة إجمالاً وصراحة حيناً وضمناً حيناً مع ما حكته عن لسانه آيات عديدة في سور عديدة مكية ومدنية من كونه إنما أرسل من قبل الله ، وأنه يدعو إلى الله وحده ربه ورب الناس جميعاً ، وأن الصالح هو الله وحده ، وأن ما يفعله ويقول هو ما أمره الله به ، وأنه لا يفعل ولا يقول شيئاً لم يأمره الله به . وأن الناس يجب أن يصلوا إلى الله وحده ، وأن يتجهوا إلى الله وحده ، وأن يطلبوا ما يريدون من الله وحده . برغم ما يحاول النصارى صرفها عن معانيها المتطابقة مع روح الآيات القرآنية ، وتأويلها بما يتطابق مع عقائدهم ومسلكتهم المستقرة نقيجة لقرارات المجامع المقدسة التي أخذت تنعقد من حين لآخر منذ أواسط القرن الرابع بعد الميلاد في ظل الإمبراطورية الرومانية بعد اعتناق ملوكها

للنصرانية ، والتي كانت تنعقد لبحث الاختلاف في تأويل الأناجيل وفي شخصية عيسى عليه السلام والروح القدس والأب الذي كان ينجم بين علمائهم (١) .

- ١٦ -

وفي القرآن تقارير وأقوال عديدة عن عيسى عليه السلام وحياته ومعجزاته ليست واردة في الأناجيل المعترف بها ، ومن ذلك طلب الحواريين من عيسى أن يلمس من الله إنزال مائدة من السماء والحادثة التي جرت بينه وبينهم مما حكته آيات سورة المائدة هذه (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء فكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ... ١١٢ - ١١٥) ومن ذلك إلقاء الخاض مريم إلى جذع النخلة وشكواها والحادثة بينها وبين ابنها الوليد والحادثة بينها وبين قومها مما حكته آيات سورة مريم هذه (فأجاءها الخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني ميتة قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فنناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك مريباً . وهزني إليك يجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلبي واشربي وقرب عينا فإما ترين من البشر أحداً . فقولي إنني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً .

(١) سيأتي مزيد من الشرح لهذه المسألة .

فَأَتَتْ قَوْمَهَا لَحْمِيَّةً قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا .
يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا
فَأَمَّا آتُ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ..
(٢٩ - ٣٣) . ومن ذلك ما حكته آيات سورة آل عمران من نذر أم مريم
لما في بطنها ، وكفالة زكريا لمريم ، وما كان يجده عندها من الرزق
واختصامهم على كفالتها كما ترى فيها (إِذْ قَالَتْ امْرَأَةٌ عِصْرَانِ رَبِّ
إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا
مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا
زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ
يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٥-٣٧) و (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَهُمْ
يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤) . ومن
ذلك ما ذكرته آية آل عمران ٤٩ التي أوردناها آنفاً ، والتي حكى فيها قول
الله تعالى لمريم أن عيسى يكلم الناس في المهد ، وأنه يخلق من الطين كهياة
الطير فينفخ فيه ، فيكون طيراً بإذن الله ، وينبئهم بما يأكلونه وما يدخرونه .
والذي نعتقده أن ما ورد في القرآن مما لم يرد في الأنجيل المتداولة
اليوم ، أو مما لم يرد فيها بصراحة قطعية قد ورد في قراطيس وأناجيل كانت
متداولة في أيدي النصارى أو بعض فرقهم ، وضاعت أو أريدت فيما ضاع أو أريد .
فآيات القرآن كانت تتلى جهره على الناس ، ويسمعا النصارى ، وقد
آمن الذين سمعوها مباشرة من النبي ﷺ بالنبي والقرآن ، واعترفوا بأن

ما يسمعونهُ حق ، كما جاء في آيات عديدة ، منها ما ذكر فيها النصارى بصراحة ، ومنها ما ذكر فيها أهل العلم وأهل الكتاب الذين كان النصارى من عدادهم ، ومنها آيات مكية ، ومنها آيات مدنية كما نرى فيما يلي :

١ - وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .. [آل عمران : ١٩٩] .

٢ - وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَيِّنٌ مِنْهُمْ قَسْبُ صَيْدٍ وَرُهْنَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا آتَا لَا تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَتَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلْنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ .. [المائدة ٨٢ و ٨٣ و ٨٤] .

٣ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . [الأنعام : ٢٠] .
٤ - أَفَعَيِّرُ اللَّهُ آبَتَيْيَ حَكِيمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .. [الأنعام : ١١٤] .

٥ - الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. [الأعراف : ١٥٧] .

٦- وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ..
[الرعد : ٣٦] .

٧- قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا^(١) . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا .. [الإمراء : ١٠٧ - ١٠٩]

٨- وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ^(٢) يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ^(٣) .. [القصص : ٥١ - ٥٥] .

(١) المتبادر أن هذه الجملة بسبيل حكاية تقرير أهل العلم أن الله قد وفى بوعدِه فأرسل محمداً الذي بشر به عيسى عليه السلام والذي يجحدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل كما ذكر في آية سورة الصف « ٦ » وآية سورة الأعراف « ١٥٧ » .

(٢) الضمير عائد إلى القرآن الذي ذكر في السياق الذي قبل الآيات اقرأ آيات القصص ٤٨ - ٥٠ .

(٣) المتبادر المستلهم من هذه الجملة أن الكتابيين الذين نرجح أنهم نصارى حينما أعلنوا تصديقهم وإيمانهم بالنبي والقرآن عانهم كفار قریش أو ويخوم فأجابوم بما أجابوم دون مبالاة بقوة الكفار وضعفهم ، وهذا يجعل القول إن هذه الآيات مكية هو الأوجه خلافاً لبعض الروايات التي تذكر أنها مدنية .

٩ - وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ^(١) [العنكبوت : ٤٣] .

والأنجيل الأربعة تذكر أن عيسى عليه السلام قد صلب ومات ثم
قام ، ولكن القرآن ينفي ذلك في هذه الآيات (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا
الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ
مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ
رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ^(٢) . [النساء : ١٥٧ و ١٥٨] .

وآخر الآية الأولى من الآيتين يفيد بقوة أن هذا الأمر كان في
زمن النبي ﷺ ممتداً إلى قبله موضوع جدل وشك بين فرق النصارى
وأن الوهم والظن كانا من أسس ما يروى من ذلك .

وهذا الأمر من الأمور الخلافية الهامة بين القرآن والأنجيل الأربعة .

(١) الضمير عائد إلى الكتاب الذي أنزل الله على محمد كما هو المتبادر .

(٢) يحاول الحوري الحداد تأويل نفي القرآن لصلب عيسى وقته بأنه
بسبيل تكذيب ما تخيله اليهود ، أو شبه لهم بأنهم لاشوا وجود المسيح بالمرّة
وليس بسبيل تكذيب صلبه وقته فعلاً ، لأنه قام حياً بعد موته ودفنه وارتفع
إلى السماء ، وجلس على عرش الله على ما جاء في العبارة الانجيلية ، ويقول : إنه بهذا
يتم التوفيق بين عبارة آيات النساء وعبارة آية آل عمران (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَيَّ ... ٥٤) والمحاولة متهافئة ، فالمفسرون يحمون على أن النفي هو نفي للحادث
من أصله ، وتقرير كون الذي وقع عليه الحادث غير المسيح الذي شبه لهم أنه
هو ، وهذا الفهم الإسلامي ليس موضع أي خلاف من لدن النبي صلى الله عليه
وسلم ، ونفي الصلب والقتل معاً مما يدعمه ، أما آية آل عمران فتأويلها : أن الله
رفعه بعد توفيه في الدنيا ، وليس من ضرورة لأن يكون ذلك بالصلب والقتل
المذكورين . وبهذا التأويل يكون توافق بين الآيتين .

ونعتقد أن ما قرره القرآن من هذا الأمر ، ومن الأمور الأخرى التي ذكرناها قبل قد ورد في القراطيس والأنجيل التي لم تصل إلينا ، وكانت متداولة في زمن النبي ﷺ .

وفي إنجيل برنابا تطابق كبير مع ما ورد في القرآن . وإذا سلمنا جدلاً أن هذا الإنجيل مزور فيبقى ما في القرآن من تقارير قائمة تدل على أنها كانت واردة في قواطيس وأنجيل كانت متداولة في أيدي النصارى على كل حال .

والمتبادر أن النصارى رأوا أن يستقروا على الأنجيل الأربعة التي كانت أوصارت أكثر انسجاماً مع المسلمات والعقائد التي استقروا عليها نتيجة للمجامع المقدسة مع تأويل مالا ينسجم معها تأويلاً فيه التوفيق مع ذلك ، وهملوا ويبيدوا ما استطاعوا بما يصفونه بالدخيل والمنحول والمزور ، وما كان فيه مطابقة صريحة لما جاء في القرآن عن عبودية عيسى الله وكونه نبياً من أنبيائه ، وكونه إنما دعا إلى الله وحده ربه ورب جميع الناس ، وتبشيره من بعده برسول اسمه أحمد وتبليغه بما أوحى إليه الله من صفات هذا الرسول ، وتسجيله لها في الإنجيل الذي آتاه الله وعلمه إياه .

- ١٧ -

ويطبق الحوري أقواله التي أوردناها في بحث التوراة في صدد كون التوراة كلام الله ومن المستحيل أن يكون طراً عليها تبديل وتغيير بنص القرآن الذي يقرر أن لا مبدل لكلمات الله ، وكون ما جاء في القرآن من عبارات التحريف لا تعنى تبديلاً حرفياً ، ولكون استحالة التبديل شاملة للكتاب المقدس الذي منه الأسفار المتداولة اليوم ولا سيما أنها منقولة عن رفوق قديمة مكتوبة قبل بعثة النبي ﷺ بمئات السنين على الإنجيل ، ومن ثم على الأنجيل الأربعة التي يعترف بها النصارى التي هي من جملة كتبهم المقدس .

وما قلناه في صدد كل ذلك في الفقرات ٦ و ٧ و ٨ يقال بنهاية في صدد الإنجيل والأنجيل وأقوال الحوري المائل الشامل ، وبحسن بالقارىء أن يعيد قراءة هذه الفقرات .

فمن جهة أن الحوري تحمل في تأويل معنى (لا مُبدَلَ لِكَلِمَاتِ الله الوارد في القرآن وهو في الوقت نفسه لا يمنع أن يخطئه البشر بقصد أو بغير قصد في كتابة كلام الله حينما يكتبونه على الورق ، أو في تلاوته حينما يتلونه من ذاكرتهم ، ولا يخل هذا ببقاء كلام الله في كتبه محتفظاً بحقيقة صدقه وصحته ، ومن جهة أن إنجيل الله أو إنجيل عيسى الذي كان موجوداً إلى زمن النبي ﷺ على ما تلهمه آيات القرآن هو غير الأنجيل المتداولة التي ليست بديلة عنه ، وهو مفقود غير موجود فلم يبق طائل ، ولا معنى للتصدي لإثبات تبديل وتحريف فيه أو نفيه ، ومن جهة أن في الأنجيل المتداولة التي يعترف بها النصارى والتي هي من جملة (الكتاب المقدس) حسب اصطلاحهم المستحدث ثباتاً واختلافاً وثغرات ، وفيها مالا يتطابق مع القرآن من زيادات ونقص ، وكونها طبق أصل الرقوق القديمة لا يثبت إلا أنها كانت على حالتها الحاضرة منذ القديم ، ولا يمنع أنه كان هناك غيرها فيه تطابق مع القرآن ، ولا يمنع أنه كان منها نسخ متغايرة متباينة أيضاً وضاع كل ذلك ، أو أيد فلم يبق إلا المتداول المعترف به أو الذي يقال عنه : إنه مزور مثل إنجيل برنابا .

ونقول بالإضافة إلى ما تقدم : إن من المتبادر أن هذه الآيات القرآنية .

١ - كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ .. [البقرة : ٢١٢] .

٢ - تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ
اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ
مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنْ
اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .. [البقرة : ٢٥٣] .

٣ - وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي تَكْذِيبٍ مِنْهُمْ مَا لَهُمْ بِهِ
مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا .. [النساء : ١٥٧] .

٤ - وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا
حَظًّا بِمَا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ
تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ
نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ .. [المائدة : ١٤ و ١٥] .

٥ - ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ
مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. [مريم : ٣٤ - ٣٧] .

٦ - شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَالْأُولَىٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ

رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لِّقَضِي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . [الشورى : ١٣ و ١٤] .

٧ - وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأَيِّنْ أَكُمُ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .. [الزخرف : ٦٣ - ٦٥] .

٨ - ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُؤْسِلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .. [الحديد : ٢٧] .

نقول : إن هذه الآيات تعكس كما هو المتبادر ما كان في نصوص الأناجيل التي كان يتداولها النصارى في زمن النبي ﷺ ما وصل إلى عهدنا منها وما لم يصل - باستثناء إنجيل عيسى عليه السلام - من تباين وتناقض واختلاف وتشويه ، وما كان نتيجة لذلك بينهم من اختلاف في التأويل ، وشكوك وظنون وتعدد مذاهب وتنازع يصل إلى حد الاقتتال ، وما كان من تلاعب فيها حيث يخفون ما يريدون إخفائه ، ويظهرون ما يريدون إظهاره ، ولا يمكن أن تكون هذه الآيات إلا صورة صادقة عيانية لما كان عليه أمر الأناجيل والأسفار والقراطيس التي كان يتداولها النصارى .

ولقد سمع النصارى الذين كانوا في بيئة النبي ﷺ وبعض من جاء من الخارج من وفودهم القرآن ، والتقوا بالنبي ﷺ ، وآمنوا وصدقوا بالقرآن والرسالة المحمدية ، واعترفوا أن ما يسمعون هو الحق المتطابق لما عرفوه ، وأن رسالة الرسول محمد ﷺ هي تحقيق لما وعد الله على ما حكته الآيات

العديدة التي أوردناها في الفقرة (١٥) ، فسقطت كل حجة يتبجح الحوري وأمثاله ، وكل تحمل يتمحله عناداً ومكابرة وغباء .

ولقد شمل كلام الحوري الذي أوردناه في بحث التوراة من أن كتاب أسفار العهد القديم هم كتاب وحي لكتاب الأناجيل المتداولة وملحقاتها الأخرى في العهد الجديد ، ولقد علقنا على هذه الدعوى المنهاتة في بحث التوراة فتكتفي بهذه الإشارة دون الإعادة .

ونقول هنا ما قلناه في بحث (التوراة) وهو أن كل ما تقدم في هذا البحث يجعل تشميل تعبير (الكتاب المقدس) لجميع ما احتوته الأناجيل الأربعة المتداولة اليوم في صورتها الموصوفة غير أمين ، وفيه تجوز كبير ، ويجعل محاولة الحوري نفى التحريف والتشويه والإبادة والضياع منهاتة ، ولا ينقض هذا ما قلناه في سياق الكلام وهو احتمال صحة نسبة بعض ما احتوته الأناجيل إلى الله تعالى ورسوله عيسى عليه السلام ، فإن هذا لا يسوغ تشميل ذلك التعبير لجميع ما فيها .

- ١٨ -

ولقد قرأنا في ملحق لجريدة النهار البيروتية المؤرخ في ١٩٦٥/١/١ بحثاً بتوقيع الأب يوسف دره ينطوي على زعم طريف ومضحك ، وقرأنا تفصيلاً أوسع لهذا الزعم في الكتاب رقم (٢) من كتب الحداد (١) (الكتاب القرآن) وخاص بالأناجيل ، وفاقع الطرافة والغرابة جداً ، وفيه من المفارقة أشد مما في اقتباس اصطلاح (كتاب الوحي) وإطلاقه على كتاب الأناجيل ، فقد أورد الحداد بعض الأحاديث المروية عن النبي

(١) اسم الحوري الحداد هو الأب يوسف ، ولا ندرى هل هو نفسه صاحب مقال ملحق النهار ، ونحن نرجح ذلك لأن ما جاء في كتاب الحوري الحداد تفصيل لما جاء في الملحق .

ﷺ التي فيها خبر نزول القرآن على سبعة أحرف ، وأورد بعض أقوال المفسرين وعلماء القرآن التي لا يستند كثير منها بل أكثرها إلى إسناد وثيقة متصلة بالنبي أو علماء أصحابه وتابعيهم ، ولا تعدو أن تكون من باب الاجتهاد والتخمين الشخصي ، والتي من جملتها أن المسلمين اختلفوا في كتابة المصحف في زمن عثمان ، ثم اتفقوا على كتابته على حرف واحد وإسقاط أو إهمال ما عداه ، فتمسك الحوري بهذا القول على غموضه ، وترك الأقوال الموضحة له ، ثم حمله مالم يحمله وقال فض فوه : إنهم بذلك أضاعوا علينا معرفة ما كان في الحروف الستة الأخرى من مبانيات ومناقضات واختلافات بالنسبة إلى الحرف الذي أثبتوه ، واقتصروا عليه في حين أن الأنجيل نزل على أربعة أحرف تمثلت في أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، ولم يكن فيها ما يخشاه النصارى من تناقض وتباين فاحتفظوا بها كما نزلت كشهادات متعددة على صحة الإنجيل ، ووحدة جوهره ، واتفاق معانيه مع اختلاف ألفاظه ، والشرع العالمي الديني والمدني لا تقوم صحته على شهادة واحدة ، وهكذا يكون لصحة الإنجيل أربع شهادات بينما ليس للقرآن إلا شهادة واحدة (١) .

وهكذا تجر المفارقة في القياس إلى الزعم صراحة أو ضمناً إلى القول : إنه كان للقرآن سبع نسخ مختلفة في العبارات والترتيب والتبويب والألفاظ والسور والسياق والأحكام والمشاهد مثل الأنجيل الأربعة ، وينسى الهوى القائلين أن هذه الأنجيل ليست إلا ترجمة لحياة عيسى عليه السلام كتبها أناس بعده سماعاً ورواية ، وليس فيها ما يدل على أن فيها شيئاً من إملائه مثل القرآن الذي هو من إملاء النبي محمد ﷺ مباشرة ، وأنها ليست بأربعة بل أضعاف أضعاف هذا العدد ، وأن هناك من الدلائل ما يدل على كونها

(١) العبارة الأخيرة جاءت في الملحق النهار .

أكثر من أربعة بصورة قاطعة وما يدل على أنها لم ترو كل ما ألقاه عيسى عليه السلام وبلغه ، ولا كل ما كان من مشاهد حياته ومعجزاته فضلاً عما فيها من الثغرات العديدة على مانبها عليه قبل بحث يكون في ذلك الزعم سخوية بالعقول والحقائق وجراً غيبة على الحق والمنطق .

وهذا فضلاً عن أنه لم يقل أحد من المسلمين أن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف هو اختلاف وتعدد في النصوص . والذي أجمع عليه أئمتهم أن ذلك كان لتيسير قراءة القرآن بأداء وهجاء وإملاء مختلف عن بعضه بعض الشيء حسب اختلاف قدرة الناس وقابليتهم وبسبب اختلاف اللهجات والأداء عندهم ، وأن كبار أصحاب رسول الله رأوا أن يكتبوه بهجاء لغة قريش ولهجتها وإملائها ، لأنها اللغة التي نزل بها القرآن .

وإذا كان بعض العلماء أولوا معنى الأحرف السبعة باختلاف في الألفاظ مع اتفاق في المعاني ، فليس في أي مما روى عنهم أن هذا كان يعني أنه كان للقرآن أو ألفاظ القرآن نصوصاً عديدة ، وإنما الذي يعنيه أنه كان ترخيصاً بإبدال كلمة بكلمة في معناها على أن لا يكون فيها مضادة ولا مغايرة .

ونصوص الأحاديث المروية في صدد نزول القرآن على أحرف سبعة وروحها تؤيد كون القصد من ذلك هو تيسير قراءة القرآن حسب استطاعة القارئ ، وكل ما فيها هو ترخيص بتلاوة كلمة بدل كلمة بمعناها دون أصدادها وهذا ما استند إليه قول من قال بجواز اختلاف الألفاظ أو تأويل الأحاديث بذلك على ما ذكرناه آنفاً . وهذه هي الأحاديث المروية عن النبي ﷺ :

١ - روى الشيخان عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » .

٢ - روى مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي بن كعب قال : أتى

جبريل النبي ﷺ ، فقال : « إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة : فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيتها حرف قروا عليه فقد أصابوا » وفي رواية الترمذي ولفظه « يا جبريل إني بعثت إلى أميين ، منهم العجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط . قال : يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف . »

٣ - روى الأربعة عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله أقرأها ، فكادت أن أهجل عليه ثم أمهلت حتى انصرف ، ثم لبته بردائه ، فبحث به رسول الله فقلت : يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتها فقال : « أرسله . اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التي سمعتها فقال رسول الله : هكذا أنزلت ، ثم قال لي : اقرأ فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه . »

٤ - روى مسلم عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد فدخل رجل يصلي ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل رجل آخر ، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضى الصلاة ، دخلنا جميعاً على النبي ﷺ فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل هذا فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما رسول الله ، فقرأ ، فحسن النبي شأنهما ، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيتني ضرب في صدري ، ففضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فوقاً ، فقال لي : « يا أبي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه أن هوّن على

أمّتي ، فرد إليّ الثانية اقراءه على حرفين ، فردت إليه أن هوّن على أمّتي ، فرد إليّ الثالثة : اقراءه على سبعة أحرف ، فلك بكل ردة رددتها مسألة تسألها ، فقلت : اللهم اغفر لأمتي ، اللهم اغفر لأمتي ، وأخرت الثانية ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم .

والخوري الحداد يهول في مدى الحديثين المرويين عن عمر وأبي في القراءات المخالفة لقراءتها التي سمعها وفي جواب النبي ﷺ لهما ، ويستخرج من ذلك أن القراءات كانت مختلفة اختلافاً كبيراً في النصوص أيضاً مع أن نصوص الحديثين وروحها تلهمان بكل قوة أن الاختلاف إنما كان في الأداء واللهجة .

وهناك أحاديث من هذا الباب أقل رتبة ، وفيها بعض زيادات ، ولكن ليس فيها كذلك المعنى الذي يتخيله الخوري وأمثاله .

منها حديث رواه الإمام أحمد عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، على أي حرف قرأتم أصبتم فلا تمادوا ، فإن المراء فيه كفر » وحديث رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي طلحة قال : قرأ رجل عند عمر فغير عليه فقال : قرأت على رسول الله فلم يغير عليّ ، قال : فاجتمعوا عند رسول الله ، فقرأ أحدهما على النبي فقال له : « أحسنت » قال : فكأن عمر قد وجد في نفسه من ذلك ، فقال له النبي : « إن القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذاباً أو عذاباً مغفرة » وحديث رواه أبو يعلى عن المنهال قال : بلغنا أن عثمان قال يوماً وهو على المنبر : اذكر الله رجلاً سمع النبي قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف » إلا قام ، فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا أن رسول الله قال ذلك ، فقال عثمان : وأنا أشهد معهم . وحديث رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، المراء في القرآن كفر - ثلاث مرات - فما

علمتم فافعلوا به وما جهلتم فردوه إلى عالمه ، وفي رواية « أنزل القرآن على سبعة أحرف . عليمًا حكيمًا . غفوراً رحيمًا » وحديث رواه أيضاً الإمام أحمد عن أبي بكرة ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : « أتاني جبريل وميكائيل عليهما السلام فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف واحد ، فقال ميكائيل : استزده ، قال : اقرأ القرآن على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف ما لم تخطم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب برحمة » وزاد في رواية أخرى « كقولك : هلم وتعال ، أي : كاستعمال لفظ : « هلم » بدلاً من لفظ « تعال » واللفظان في معنى واحد . وواضح أن كل ما يرخص به الحديثان هو إبدال كلمة بكلمة من بابها ومعناها وحسب ، وهما مع ذلك ليسا من الأحاديث الصحيحة .

وهناك أحاديث أخرى من باب هذه الأحاديث ومداها لم تتر ضرورة لإثباتها ، لأن المقصود يحصل بما أوردته .

ولقد روى ابن كثير عن ابن جرير الطبري قولاً جاء فيه : « إن الشارع رخص للأمة التلاوة على سبعة أحرف ، ثم لما رأى الإمام عثمان بن عفان اختلاف الناس في القراءة ، وخاف من تفرق كلماتهم جمعهم على حرف واحد وهو هذا المصحف الإمام ، وقد استوسقت له الأمة على ذلك بل أطاعت ، ورأت أن فيما فعله الرشد والهداية ، وتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له ونظراً منها لأنفسها ولمن بعدها من ستر أهل ملتها حتى درست من الأمة معرفتها وانعفت آثارها ، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة فيها لدورها وعفو آثارها إلى أن قال : فإن قال من ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة قرأهموها رسول الله وأمرهم بقراءتها ؟ قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر لإيجاب وفرض ، وإنما كان أمر بإباحة ورخصة ، لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من تقوم بنقله الحجة ، ويقطع خبره العذر ، ويزيل

الشك من قراءة الأمة ، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين - إلى أن قال - فأما ما كان من اختلاف القراءة رفع حرف ونصبه وجوره ، وتسكين حرف ونحركه ، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة ، فمن معنى قول النبي ﷺ « أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » بعزل لأن المرء في مثل هذا ليس بكفر في قول أحد من علماء الأمة ، ولقد أوجب بالمرء في الأحرف السبعة الكفر كما تقدم .

والحوري يستند في تقريراته بأن الأحرف السبعة هي نصوص متعددة ، وأن عثمان رضي الله عنه أسقط ستة منها ، وجمع الأمة على واحد منها فقط ، فضاعت على الناس معرفة ما بينها من تباين وتغاير على أقوال الطبري هذه ، ولكنه لا ينقلها بتمامها . ومع أن روح الأحاديث ونصوصها تظل أقوى دلالة على أن المقصود بقراءة القرآن على سبعة أحرف هو تيسير القراءة على مختلف فئات الناس ، فإن كل ما أراد الطبري تقريره في ما قاله هو أنه كان اختلافاً في القراءة وليس تعدداً في النصوص فأريد جمع الناس على قراءة واحدة . ولا يمكن أن يكون قصد غيرها ، لأن هذا هو الذي يستفاد بصراحة من الأحاديث التي تروي ظروف كتابة مصحف عثمان والتي هي من الصحاح ، والتي لا بد من أن الطبري يعرفها . وقد ذكرت أن سبب كتابة مصحف عثمان هو اختلاف القراءة نتيجة للاختلاف في طريقة الكتابة ، وأنه أمر بكتابة المصحف بطريقة كتابة لغة قريش ، وأن مصحفه هو منقول في ألفاظه وآياته وترتيبه عن مصحف أبي بكر الذي كان على الترتيب الذي رتبته النبي ﷺ ، وأنه أبقاه على ترتيبه دون أي تغيير ، وهذه نصوص الأحاديث في ذلك .

١ - روي البخاري والترمذي عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ،

خافزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ^(١) . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وزاد الترمذي في روايته حيث جاء فيها « فاختلفوا في التابوت والتابوة فقال القرشيون بالاول وقال زيد بالثاني فرفعوا اختلافهم إلى عثمان فقال : اكتبوه بالتابوت فإنه نزل بلسان قريش » ^(٢) وهذه الزيادة تدل بكل صراحة وقوة على أن الاختلاف إنما كان اختلافاً على طريقة الكتابة ، وليس على الألفاظ والنصوص فضلاً عن الترتيب .

٢ - روى البخاري عن عبد الله بن الزبير قال : قلت لعثمان (والسدين) يَتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها قال : يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه عن مكانه ^(٣) .

(١) في الحديث الصحيح المروى عن ظروف كتابة مصحف أبي بكر جاء هذا الخبر (فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر) انظر التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٤ ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ذكره ص ٢٩ و ٣٠ و ٣١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦ .

والمقصود من الآية الأخرى هذه الآية من سورة البقرة أيضاً (والذين يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) . وهذه الآية في ترتيب السورة قبل الآية السابقة ، والحديث يفيد أن عثمان لم يجوز أن لا يكتب في المصحف آية منسوخة ^(١) ، والتزم المصحف المرتب في زمن النبي ﷺ ، ولم يغير من ترتيبه شيئاً ، فلا يصح أن يظن ظان أن عثمان والحالة هذه يمكن أن يكون أجاز إسقاط نصوص وألفاظ وإثبات نصوص وألفاظ .

٣ - روى الترمذي عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم أن عدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثني ففرقتم بينهما ولم تكتبوا بينهما بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتوها في السبع الطوال ^(٢) . ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ بما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ^(٣) فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها مناه ، فقبض رسول الله ﷺ ، ولم يبين لنا أنها منها ، فلذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم فوضعتها في السبع الطوال . والحديث يفيد

(١) روى أبو داود عن ابن عباس (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن متاعاً إلى الحول غير إخراج) قد نسخ بآية الميراث ، وأجل الحول بأربعة أشهر وعشراً . المصدر السابق من ٥٦ .

(٢) المثاني اصطلاح يطلق على السور المتوسطة التي تقل آياتها عن المئة ، والمثني على السور المتوسطة التي آياتها مئة أو أكثر قليلاً ، والطوال على السور التي تزيد آياتها كثيراً عن المئة .

(٣) المقصود بذوات العدد التي تكون آياتها كثيرة جداً .

أن سورة الأنفال كانت توضع في زمن النبي ، وتقرأ في ترتيب المصحف قبل سورة براءة مباشرة ، وأن عثمان التزم ترتيب النبي ﷺ في السور كما التزمه في الآيات .

وهكذا يكون وعد الله المعجز المنطوي في آية سورة الحجر هذه (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) قد تحقق ، فصحف عثمان الذي يتداوله المسلمون من لدن عثمان هو طبق مصحف أبي بكر ، وهذا المصحف قد جمع كل ما تركه النبي ﷺ قرآنًا غير منسوخ وغير مرفوع ، وهو مرتب وفق ترتيب النبي ﷺ آيات في سور ، وسور في ترتيب المصحف .

والروايات تذكر أن عثمان أرسل نسخاً من المصحف المنسوخ بالإملاء القرشي إلى الأقطار ، وأمر بالنسخ عنه وإحراق ما في أيدي الناس من مصاحف ، وفعل هذا بطبيعة الحال في المدينة أيضاً فتم ذلك ، ولو كان في أيدي المسلمين في المدينة ، وفي الأقطار الواسعة التي تنشروا فيها في عهده من مشارق الأرض ومغاربها مصاحف مبيّنة في الآيات والترتيب والكتابات لمصحف عثمان لظهرت ، في حين أنه لم يظهر مصحف ما مابين ، ولم يرو أنه كان في اليهود التي بعده شيء من ذلك قط . وعمال عثمان لا يمكن أن يكونوا قد مشطوا كل بيت في كل بادية وقرية ومدينة فأحرقوا ما كان فيه من مصاحف ، وما دام أنه لم يظهر مصاحف مبيّنة فيكون المسلمون قد أطاعوا أمر الخليفة طوعاً وديناً . ولا يمكن أن يكون هذا إلا إذا لم يكن بين مصحفه والمصاحف المتداولة مبيّنات في غير الإملاء والكتابة ، ولا سيما أن فريقاً غير يسير من أهل الأمصار بل ومن المدينة قد نعموا على عثمان ، وثاروا عليه وقتلوه ، وصارت بسبب ذلك حروب دموية بين علي وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية رضي الله عنهم ، وامتدت آثارها إلى ما بعدهم ، فكان يقتضي أن يحتفظ المخالفون الناقمون على عثمان بمصاحفهم المبيّنة قديماً وإيماناً ..

وهذا يظهر تفاهة قول الخوري : إن عثمان لو لم يحرق المصاحف لكنا

وقفنا على كثير من المباينات في الآيات والألفاظ والترتيب . وإذا كان من شيء يحسن التنبيه إليه بالإضافة إلى ما تقدم ، فهو أن المتبادر أن ما جاء في بعض الأحاديث والأقوال السابقة من تسويغ إبدال كلمة بكلمة غير مضادة ومناقضة لها ، أو تقديم كلمة على كلمة بدون إخلال بالمعنى إنما هو بالنسبة لمن يتلو القرآن من ذاكرته ، وليس لمن يتلوه من المصحف ، فمصحف أبي بكر هو نفس ما تركه النبي ﷺ قرآنًا بألفاظه ، وفي نفس ترتيبه للآيات والسور . ومصحف عثمان إنما كان نسخة عنه بطريقة كتابة قریش وصار هو الإمام الوحيد لجميع المصاحف ، فلم يبق حل للقول بسواغ تبديل كلمة بكلمة ، أو تقديم أو تأخير في التلاوة فيها ، ولم يبق حل للقول بسواغ الاختلاف في التلاوة إلا في حدود القراءات السبع أو العشر التي هي أساليب قراءة مختلفة شيئاً ما بعضها عن بعض في الأداء وفي قراءة كتابة مصحف عثمان غير المنقط في أصله ، وعلى النحو الذي كتب في زمنه .

وليست خلافات في الألفاظ فضلاً عن الآيات .^(١)

واقعد أشار الحوري إلى ما في القرآن من آيات فيها ما يفيد وقوع نسخ وتبديل في القرآن ، وتساءل عما إذا كان هذا لا يتناقض مع نص آية الحجر والوعد القرآني بحفظ القرآن . وهذا تمحل متهافت ، ففي القرآن حقاً آيات قد تفيد ذلك مثل آية سورة البقرة هذه (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) وآيات سورة النحل هذه (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) .

غير أن هذا ليس من شأنه أن يخل بذلك ، فالقصد الرباني في آية سورة

(١) شرحنا ذلك في كتابنا « القرآن المجيد » اقرأ ص ١٢٦ - ١٠ .

الحجر - والله أعلم - هو حفظ القرآن المستقر غير المرفوع والمبدل بأمر الله ، وهو الذي تحقق .

وهناك رواية تذكر أن الحجاج كتب مصحفاً ، فضخم الحوري هذه الرواية ، وسماه (الإصدار الثالث للقرآن) ليوم أن الحجاج غير وبدل في مصحف عثمان مع أن كل ما تفيد الرواية أن الحجاج أمر أو وافق على وضع نقاط للحروف وتصحيح كتابة بعض الألفاظ دون أي تبديل وتغيير في مصحف عثمان . ومع ذلك فالرواية غير وثيقة ، وقد كذبها جمهرة علماء القرآن وفندوها .^(١) ويمكن أن يضاف الى ذلك أنه كان ناقمون ومحاربون كثيرون . منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها للحجاج والدولة الأموية ، ولا يمكن قطعاً أن يكون الحجاج وعمال دولة الامويين قد تتبعوا كل ما في أيدي المسلمين بما فيهم هؤلاء الناقمون المحاربون من مصاحف وأبادوها ، وحلوم على مصحف الحجاج ، وليس هناك أي مصحف يخالف مصحف عثمان المتداول في ترتيبه وآياته وسوره .

ولقد قامت بعد دولة الامويين الشامية الدولتان العباسية والفاطمية ، وشمل سلطانهما القسم الأعظم مما كان تحت حكم الامويين في المشرق والمغرب ، وكانت كلتاها ناقمتين حاقدتين على الدولة الاموية والحجاج ومجتهدين في تشويه سيرتهما وهدم ما أسماه ، وكان من أهم ما يقتضي أن يفعلوه كشف ما زعم أن الحجاج فعله ، وإعادة الأمر الى نصابه ، ولم ترو الروايات شيئاً ما في هذا الصدد ، وفي هذا تكذيب حاسم لذلك الزعم . والحوري يجعل كتاب « الإلتقان » من مصادره الرئيسية في مسألة الأحرف السبعة ، وفي هذا الكتاب طائفة كبيرة من أقوال العلماء وتعليقاتهم في صدد ومدى أحاديث الأحرف السبعة ، وبقطع النظر عن كون هذه

(١) انظر كتابنا «القرآن المجيد» وكتاب « البرهان في علوم القرآن » للزركشي .

الأقوال والتعليقات لا تعدو عن أن تكون اجتهادات شخصية ، فإن الحوري يبرز ويرجع منها ما يكون متفقاً مع هواه ، وما قد يفيد أن الاختلاف كان في الألفاظ والنصوص ، ويحمل منها ما هو متسق أكثر مع الأحاديث والمنطق ، ولقد قال : إن أكثر العلماء على أن الأحرف السبعة تعني اختلاف الألفاظ مع اتفاق المعاني ، وهذا غير صحيح . وكتاب « الإتيان » في متناول الجميع ، وأكثر الأقوال الواردة فيه هي في تأكيد معنى كون القصد من الأحرف السبعة هو التيسير بسبب اختلاف طرائق القراءة والكتابة .

وهذه طائفة من أقوالهم حيث جاء في أحدها : (إنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بل التيسير والتسهيل والسعة ، ولفظ السبعة يطلق على ارادة الكثرة في الآحاد كما يطلق لفظ السبعين على ارادة الكثرة في العشرات والسبعمئة على ارادة الكثرة في المئات) وهو ما قصده القرآن بهذه الألفاظ على ما تلهمه روح الآيات التي وردت فيها ^(١) ومن ذلك قول أحد العلماء (إن المراد وجوه قرآت الكلمة التي تحتل كتابتها قرآت عديدة مثل كلمة « عبدا الطاغوت » التي يمكن أن تقرأ ، أو يجوز أن تقرأ : « عبدا الطاغوت » ، أو « عبدا الطاغوت » . ومثل كلمة « كتب » التي يمكن أن تقرأ أو يجوز أن تقرأ : « كتاب » أو « كتب » . ومثل كلمة « علم » التي يمكن أن تقرأ أو يجوز أن تقرأ « عالم » . ومثل كلمة « بعد » التي يمكن أن تقرأ أو يجوز أن تقرأ « باعد » أو « بعد » . ومثل كلمة « يعلمون » التي يمكن أن تقرأ عند فقدان القرنية بالياء أو التاء في أولها . ومثل كلمة « يستبش »

(١) من ذلك (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) و (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن نستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) . فالمتبادر أن المراد هو الكثرة . والله تعالى أعلم .

التي يمكن أن تقرأ أو يجوز أن تقرأ « يتبين ، وأمثال ذلك ، لأن حروف
 المد لم تكن تكتب كلها مع الكلمات كما أن الحروف لم تكن تنقط .
 ومن ذلك إجازة بعض العلماء تقديم وتأخير في الجملة مثل (وجاءت
 مكورة الموت بالحق) حيث يجوزون قراءتها « وجاءت مكورة الحق بالموت ،
 ومثل (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) حيث يجوزون قراءتها « إن
 الله لا يهدي من هو كافر كذاب ، ومثل (يطبع الله على قلب كل
 متكبر جبار) حيث يجوزون قراءتها : « يطبع الله على كل قلب متكبر
 جبار ، ومن ذلك قول أحد العلماء : (إن الرخصة وقعت في الزمن الأول ،
 لأن أكثر الناس لم يكونوا يكتبون ويقرؤون ، ولم يكونوا يعرفون رسم
 الحروف ومخارجها) . ومن ذلك قول أحد العلماء (ما يقع من اختلاف
 قراءة الأفراد والتثنية والتذكير والتأنيث وتصريف الأفعال من ماض
 ومضارع ومخاطب وغائب واختلاف الإعراب باختلاف المواقع هو الذي
 فيه الرخصة) ومن ذلك قول أحد العلماء (إن المقصود من الرخصة أداء
 الكلمة الصوتي من إمالة وترقيق وتفخيم وادغام وإظهار وإسباع ومد وقصر
 وتشديد وتخفيف وتلين دون تغيير في المعنى والصورة واللفظ) ومن ذلك
 قول أحد العلماء (إن المقصود هو الترخيص بقراءة الكلمة على وجهين أو
 ثلاثة أو سبعة تيسيراً وتمهيناً) ومن ذلك قول أحد العلماء (إن المسلمين
 قد أجمعوا على تحريم إبدال آية بآية) ومن ذلك قول أحد العلماء (إن
 جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين قالوا : إن المصاحف العثمانية
 مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة وأنها جامعة للعرضة الأخيرة
 التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها لم تترك منها حرفاً .) ومن ذلك

قول أحد العلماء (إن أصحاب رسول الله ﷺ لما رأوا أن الناس يختلفون في قراءة الكلمات أجمعوا على كتابتها على ما جاء في المصحف العثماني ، وعلى ما تحققوا أنه القرآن المستقر في العرصة الأخيرة ، وتركوا سوى ذلك ، وأن ما يقرأه المسلمون فيه هو الذي كان يقرأ في العام الذي قبض فيه النبي ﷺ ، وإن زيد بن ثابت الذي كتب مصحف أبي بكر كان كاتب وحي رسول الله ، وأنه شهد العرصة الأخيرة ، وكتبها لرسول الله ، وقرأها عليه ، وكان يقرئ الناس بها حتى مات ، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في تدوينه وجمعه ، وولاه عثمان كتابة المصاحف التي كانت طبقاً لمصحف أبي بكر وترتيبه) وقد ثبت بالحدِيثين المرويين عن عبد الله بن زبير وابن عباس عن عثمان رضي الله عنهم جميعاً أن ترتيب مصحف أبي بكر الذي نقلت عنه المصاحف التي نسخت بأمر عثمان كان ترتيب النبي ﷺ .

ونحن نعرف أن هناك روايات كثيرة تذكر أن آيات وسوراً كانت تلى ولم تكتب في مصحف عثمان ، وأنه كان لبعض أصحاب رسول الله مصاحف مغايرة في ترتيب سورها لترتيب هذا المصحف ، وأنه كان لبعض أصحاب رسول الله مصاحف خلت من المعوذتين والفاطحة ، ومصاحف فيها سورتان اسم إحداهما الحفد وثانيتهما الخلع ، ومصاحف فيها كلمات مباينة في معناها دون معناها لما في هذا المصحف ، وأن النبي توفي ولم تكن الآيات مرتبة في السور والسور مرتبة في المصحف ، وأن كل هذا قد تم بعده في زمن أبي بكر ثم عثمان ، وإن آيات لم تكن موجودة زيدت وآيات كانت موجودة رفعت لأغراض سياسية .

ولقد اهتم الحواري لإبراز ذلك والارتكاز عليه وعلى الأقوال المرجوحة الأخرى ليدعم رأيه وهواه في حين أن كل تلك الروايات لم ترد في

كتب الأحاديث المعتبرة ، بل ولا الأقل رتبة من هذه الكتب ، وهناك
أحاديث عديدة وثيقة الاسناد وواردة في الكتب المعتبرة تنفيها وتثبت أن
القرآن كان يكتب فور نزوله ، وأن آياته رتبت في سورها وسوره في
المصحف حسب المتداول في زمن النبي ﷺ وإرشاده ووحى ربه ، وأن
أبا بكر وكبار أصحاب رسول الله إنما حرروا النسخة تامة بعد انقطاع
الوحي بوفاة النبي ﷺ احتوت كل ما تركه النبي قرآنًا مستقرًا غير منسوخ
وغير مرفوع نقلًا عن القراطين المكتوبة المرتبة في زمن النبي والمحفظة
في الصدور بنفس الترتيب النبوي لتكون إمامًا يرجع إليه ، وأن مصحف
عثمان قد كان مطابقًا لمصحف أبي بكر في ألفاظه وترتيب آياته وسوره ،
وكل ما كان هو توحيد رسم الكلمات وإملائها وتهجيها حتى يكون للمسلمين
مصحف موحد ينقلون عنه . وقد أوردنا بعض الأحاديث الوثيقة ، وهناك
أحاديث أخرى ، وهناك بالإضافة إليها دلالات قرآنية تؤيد ذلك تأييداً
قويًا ، وقد أوردنا كل ذلك في كتابنا القرآن المجيد^(١) ولا يمنعنا من نقله إلا
خشية التطويل .

ومن العجيب أن الحوري الحداد ينقل عن كتابنا ما أوردناه من
الروايات المرجوحة دون الراجعة الوثيقة ، ولا يورد تعليقاتنا التي فندنا بها
الروايات المرجوحة ، وانتهينا بها إلى الحقائق ، لأن ذلك لا يوافق هواه الذي
يبرزه ، ويركز عليه مهما كان متهاقًا وزائفًا

ومن العجيب مرة أخرى أن الحوري يسوق في كتبه كثيرًا مما ورد

(١) ص ٥٢ - ١١٨ و ٢٦٥ - ٢٧٥ .

في كتابنا المذكور وفي كتابنا عصر النبي وسيرة الرسول ﷺ بسبيل تدعيم بعض تعليقاته ، ويبدو أنه يعول عليها كثيراً وإن كان يحرف أقوالنا عن مقاصدها على ما سوف نشرحه بعد . وبصفنا بأننا من أنفذ مفسري العصر الحديث للقرآن (١) . ولقد قرأ ولا شك ما أوردناه من براهين ودلائل وتعليقات وتوجيهات في صدد ما نحن فيه ، فيها على ما نعتقد المقنع لكل من يريد القناعة ، فكان عليه لو أراد الحق والحقيقة أن يقف عنده ، ولكنه لم يفعل ، لأنه لا يريد حقاً ولا حقيقة ، وإنما يريد الباطل والتمحل بسبيله . (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) صدق الله العظيم .

(١) نحن لا نذكر وصفه للاعتزاز ولكن لإلزامه وإفحامه .

الفصل الثاني

تمهيد

لا نريد أن نتعقب الحوري الحداد في كل ما أورده في كتبه ، فهذا أمر يطول ويميل من جهة ، ولا جدوى منه إزاء الحوري وأمثاله الذين يتخذون الجدل والمحاكة واللعب بالألفاظ والمكابرة التي يغذيها الهوى ديدناً بل منهنة ، وإنما نريد أن نقف عندما تُتصدى له من مسائل رئيسية متصلة بالقرآن الكريم والنبي ﷺ ، والرسالة الإسلامية وصلتها بأهل الكتاب وكتبهم متوهماً أو على الأصح موهماً قراءه أنه يستند فيما يسوقه إلى القرآن - لنكشف عما وقع فيه من أخطاء وتخرصات وأوهام وافترآت وغشاة ووقاحة وسوء أدب في هذه المسائل .

فأولاً (كتابية القرآن والدعوة الإسلامية في العهد المكي)

- ١ -

لقد بدأ الحوري يتصدى لهذا الأمر في كتابه الأول ، وأورد فيه كثيراً من الآيات القرآنية للتدليل على ما أراد قوله ، ثم كرر ذلك في مناسبات عديدة وأساليب مختلفة في كتبه الأخرى .

وحصل ما أراد قوله : إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابية إنجيلية توراتية مسيحية يهودية ، وإن القرآن نسخة عربية من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين ومقتبس منها ، وإنه كتابي توراتي إنجيلي يهودي نصراني في موضوعه ومصادره وقصصه وجدله وإن

محمداً كان متأثراً الى أبعد الحدود باليهود والنصارى واليهودية والنصرانية والتوراة والانجيل والكتاب المقدس منسجماً مع كل ذلك أشد انسجام حتى كأنه واحد منهم مع غلبة المسحة المسيحية . وان دعوته كانت قاصرة على مشركي العرب ، ولم تحمل طابع استقلال ذاتي عن الطابع التوراتي الإنجيلي إلا في آخر العهد المكي ، وكانت كل قوته واستشهاداته وجداله بالتوراة والانجيل واليهود والنصارى ، وكان البروز في الدور الأول من هذا العهد الذي تمثله سور القرآن الأولى إلى الرابعة والأربعين التي هي سورة مريم للمسيحية ، ثم صار في الدور الثاني الذي تمثله سور القرآن من الخامسة والأربعين إلى السادسة والستين لبني إسرائيل ، ثم كان عهد التردد والاستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب في آخر العهد ، لأن يهود الطائف ردوه رداً غير جميل إلى أن استقر في المدينة ، فوجد طريقه المستقلة في التنزيل والدين ، وانقلب انقلاباً شاملاً كاملاً ، انقلاباً في الدعوة ، فقد دخلت السياسة الدين ، وانقلاباً في الداعية الذي أصبح رجل دولة وحرب ، وانقلاباً في طريقة الدعوة لقتال المشركين إلى أن يؤمنوا والكتائب حتى يخضعوا للجزية ، وانقلاباً في الأسلوب حيث كان بالحكمة والموعظة الحسنة فصار بالقتال والجهاد . ولقد جمع الدين الكتائب ومحمداً في مكة ففرقتهم السياسة في المدينة .

ويسوق الحوري على كل ما يزعمه آيات من القرآن ، ولكنه يؤولها تأويلاً متفقاً مع هواه مهما كان في تأويله تعسف وزيف وتمحل وتهافت وتناقض . وبأخذ آية ليدل بها على عهد ، ويجعل ما فيها دلالة شاملة لجميع السورة ، ويمحل آيات مكية فيها ما يظهر تعسفه وزيفه وتمحله وتناقضه وتهافته بغباء الشخص الذي يظن أن القرآن في يده وحده وهو مالك زمامه وتأويله فإذا ما ساق آية أو أولها كان في ذلك فصل الخطاب ، ولم يعد لغيرها ولغيره محل . وحينما يفحسه النص القرآني ولا يستطيع أن يتصرف

به بمثل ذلك يسارع إلى الزعم بأنه مدسوس أو مزيد أو مقحم ،
متمهماً أو على الأصح موهماً قراءه أنه يستند في ما يسوقه ويقرره
إلى القرآن .

- ٢ -

والحق المستلم من القرآن المكى المدعم بالقرآن المدني ولا يتحمل
أي مرء ولا مكابرة أن الله تعالى كان يرسل رسله إلى الأمم ، وينزل عليهم
كتبه ليبينوا لهم طريق الحق والهدى والرشاد في شؤون الدين والدنيا
فاذا ما انحرفوا عنها نتيجة اختلاف أصحاب النفوذ الديني والسياسي فيهم
ومآربهم وبغيتهم أرسل رسلاً آخرين لينذروا ويبشروا ويصححوا الانحراف
ويدعوا إلى طريق الحق والرشاد .

ولقد كان موسى وعيسى عليهما السلام النبيين الرسولين الرئيسيين لليهود
والنصارى من جملة هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله وأنزل عليهم
كتبه ، فانحرف أتباعهم بعدهم ، واختلفوا ، فاقتضت حكمة الله وسنته
إرسال سيدنا محمد ﷺ رسولاً جديداً على فترة من الرسل وأنزل عليه
كتاباً جديداً هو القرآن ، ليكون بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله يأذنه ومصراعاً
منيراً لجميع الناس ومن جملتهم اليهود والنصارى الذين انحرفوا واختلفوا .

فالدعوة المحمدية هي حقاً وصدقاً دعوة كتابية لا على اعتبار أنها
توراتية انجيلية ، ولكن على اعتبار أنها مستندة إلى كتاب سماوي أوحى
الله به إلى رسوله محمد ليدعو الناس جميعهم إلى الله وحده ويبشروهم وينذرهم
ويبين لهم بوحى الله وتنزيله طريق الهدى والحق والصلاح والرشاد في
أمور الدين والدنيا ولتصحح ما وقعوا فيه هم وأهل الكتاب السابقين من
الجملة من انحرافات واختلافات بغياً بينهم ويهدي إلى الحق في ذلك كله .

كما جاء في آيات مكية ومدنية عديدة أوردنا معظمها في الفصل السابق مثل آيات البقرة ٢١٣ والمائدة ١٢-١٦ و١٩ والأعراف ١٥٧ و١٥٨^(١) ومنها آيات سورة النحل هذه (تَالِهٍ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَآلِهِمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . ٦٣ و ٦٤)

وواضح من الآيات بكل صراحة وقطعية أن الرسالة المحمدية هي رسالة جديدة ذات شخصية مستقلة جاءت لدعوة الناس جميعاً ومن حملتهم اليهود والنصارى وتبشيرهم وإنذارهم ، وحل الخلافات ، وتصحيح الانحرافات التي وقعوا فيها ، وإن من التمثل والتهافت ، بل من الهراء أن يقال : إنها توراتية إنجيلية ، أو يهودية نصرانية ، أو منبثقة عن ذلك ، أو صورة منه استناداً إلى القرآن .

- ٣ -

يضاف إلى هذه الآيات آيات كثيرة جداً في القرآن المكي تسبغ الشخصية الذاتية المستقلة على القرآن وعلى الرسالة المحمدية ، وترشحها لاستيعاب الملل الأخرى من كتابية وغير كتابية ، ولتكون دين الانسانية العام الخالد بأسلوب قوي نافذ وحاسم ، وتكشف عما في دعوى الحوري من تمحل وتهافت كما ترى هذه السلسلة :

١- قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ . [الأنعام : ١٩] .

(١) لم نر ضرورة لإعادة إثباتها ، ويحسن بالقارئ أن يقرأها ثانية أثناء قراءته هذا البحث من الفصل السابق ومن المصحف الشريف .

٢- المص. كِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ .. [الأعراف : ١- ٣] .

٣- الر. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عَنْهُمْ رَبُّهُمْ .. [يونس : ١ و ٢] .

٤- الر. كِتَابُ الْحَكِيمَتِ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَفَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .. [هود : ١- ٣] .

٥- الر. كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . [إبراهيم : ١] .

٦- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .. [النحل : ٤٣ و ٤٤] .

٧- إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .. [الإسراء : ٩] .

٨- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا . وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُوتَ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا .. [الكهف : ١- ٥] .

٩ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ
مُشْفِقُونَ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ..
[الأنبياء : ٤٨ - ٥٠] .

١٠ - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ .. [الأنبياء : ١٠٧]

١١ - تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ
نَذِيرًا .. [الفرقان : ١] .

١٢ - إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. [النمل : ٧٦ و ٧٧] .

١٣ - شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا
مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ
مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَاكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
كِتَابٍ وَأُْمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنُنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَالَّذِينَ الْمَصِيرُ .. [الشورى ١٣ - ١٥] .

١٤ - وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ
بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِمَّن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

تَغْيَا يَنْتَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ . ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .. [الجاثية : ١٦ - ١٨] .

١٥ - وبسلك في هذه السلسلة آيات الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ وآيات
النحل ٦٣ و ٦٤ التي أوردناها قبلها . والآيات تمثل مختلف أحوار التنزيل
المكي منذ عهد مبكر من العهد المكي .

ونحن إذ نورد هذه السلسلة على طولها ، ونشير إلى آيات أخرى من
بها أوردناها قبل ، فإنما نوردتها لأن فيها نصواصاً معينة ، وإلا فإن القرآن
المكي جميعه ومنذ بدء تنزيله إلى نهاية العهد المكي يعبر في كل فصل من
فصوله وآية من آياته وسورة من سورته تعبيراً لا يمكن أن يتحمل أي
مراء عن الشخصية المستقلة الجديدة للرسالة المحمدية القرآنية ، وهذا بديهي
إلى درجة أن التنبيه إليه يكاد يكون من تحصيل الحاصل ، سواء أفي
ما يوجه فيه الخطاب إلى النبي ﷺ ، أم إلى الناس على اختلاف فئاتهم
وملهم ومواقفهم ، وعلى اختلاف صور الخطاب ، أم ما فيه تفريرات متنوعة
أخرى عن الكون ، والحياة الأخروية ، والمبادئ الإسلامية على اختلافها
وتبشيراً وإنذاراً ، وترغيباً وتذكيراً . وتمثيلاً وموعظة وقصصاً .. الخ الخ .
ويكفي المراء أن يستعرض السور المكية حسب ترتيب نزولها حتى يتبين
له هذه الحقيقة الكبرى والبدئية .

والحوري الحداد هم كثيراً لإبراز ما في القرآن المكي من شهادات
أهل الكتاب وأهل العلم للنبي ، واستشهادهم وأمر النبي بذلك على ما سرف
نشرحه بعد ، وقد فاته أن هذا أيضاً تعبير عن شخصية الرسالة المحمدية
القرآنية المستقلة وجدها .

ويسوق الحوري آيات سورة الأنعام هذه (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ قَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى
وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بَلِقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ
مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا
أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ
لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى
مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَى وَرَحْمَةً فَمَنْ
أَظْلَمُ مِنْ كَذِبِ آيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٤ - ١٥٧) .
وآية سورة فصلت هذه (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا
فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هَدَى
وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى
أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ٤٤) وآية سورة الشورى هذه
(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى
وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ .. ٧) وآية سورة
الأحقاف هذه (وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ .. ١٢) ويقول : إن القرآن نسخة عربية
لما سبقه من الكتب وحسب ، ولا نذار العرب فقط .

والقول الأول هذان أكثر من أي شيء آخر ، ولا محصل له إلا
قصد التقليل من شأن القرآن ككتاب جديد مستقل ، فالكلمة جمعت بين
الجنس وليس بين المحتوى ، وكتب الله متطابقة في المصدر والمبادئ ،
وهذا ما عنته جملة (مُصَدِّقٌ لِمَا يَنْبَغِيهِ) التي جاءت عن القرآن ،

وجاءت أيضاً عن الإنجيل في آية سورة المائدة هذه (وَفَقِينَا عَلَى آثَارِهِمْ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَصْداً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمَصْداً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٤٦) .

وفي سورة المائدة آيات مهمة جداً للدلالة على الشخصية القرآنية المختلفة في مداها ومحتواها مع التطابق في المصدر والمبادئ مع ما قبل كما ترى فيما يلي : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٥ و ١٦) و (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا آفَآكُم فَاصْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٤٨) وجملة (وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ) تعني أن القرآن هو ضابط لصحة نسبة ما في أيدي أهل الكتاب من كتب منسوبة إلى الله ، أو من نسخ التوراة والإنجيل فإكان فيها متناقضاً في المبادئ والأصول مع القرآن لا تكون نسبته إلى الله صحيحة .

وآيات سورة النحل هذه (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا

فيه وَاعْدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٣ و ٦٤) وآيات سورة النمل هذه (إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْضِي عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٦ و ٧٧) تحتوي نفس الدلالة .

وكل ما تقدم يثبت زيف قول الحوري الأول ونهايته . أما أن القرآن هو لإنذار العرب فقط ، فإن في القرآن المكي آيات كثيرة منها ما هو تحتوي تقريراً حاسماً بأن الرسالة المحمدية وفرائدها لإنذار جميع الناس من عرب وغير عرب بما فيهم أهل الكتاب ، وإذا كان في بعض الآيات تخصيص للعرب السامعين ، فهذا مما اقتضته مواقف الدعوة ، أو كون العرب أول من وجهت إليهم وخوطفوا بها .

- ٥ -

وفي القرآن المكي آيات عديدة تذكر ما وقع فيه أهل الكتاب من اختلافات وانحرافات ، وتعدد مذاهب وأحزاب بأسلوب فيه تنديد وتثريب أو تنبيه كما ترى في الآيات التالية :

١ - وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. [يونس : ٩٣] .

٢ - وَاقْدِرْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .. [هود : ١١٠] ^(١)

(١) في سورة الأحقاف آية مماثلة لهذه الآية اقتضتها حكمة المناسبة والسياق في السورة .

٣- إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. [النحل: ١٢٤] .

٤- فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ . أَمِيعَ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُ تَوْنُنَا لَكِنَّ الظَّالِمُونَ النَّيْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .. [مريم: ٣٧ و ٣٨] ^(١) .

٥- فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا .. [مريم: ٥٩ و ٦٠] ^(٢) .

٦- إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَاتَّقُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ .. [الأنبياء: ٩٢ و ٩٣] ^(٣) .

٧- يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَامْتَلُوا صَالِحًا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ

(١) هذه الآيات جاءت بعد آيات فيها قصة ولادة عيسى وخطابه للومه عقب ولادته .

(٢) هذه الآيات جاءت بعد ذكر الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام .

(٣) هذه الآيات جاءت بعد ذكر الأنبياء موسى وهارون وإبراهيم وإسحق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وذو النون وزكريا ويحيى ومريم وابنها .

فَوَرِحُونْ .. [المؤمنون : ٥١ - ٥٣] ^(١) .

٨ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. [السجدة : ٢٣ - ٢٥] .
٩ - فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ .. [الزخرف : ٦٥] ^(٢) .

١٠ - ويسلك في هذه السلسلة آيات سورة الشورى ١٣ - ١٤ وسورة الجاثية ١٦ - ١٧ التي أوردناها قبل .

فالقول : إن القرآن والنبي والرسالة المحمدية كانت منسجمة مع اليهودية والنصرانية ، ومع اليهود والنصارى في العهد المكي وكانها منهم لا يمكن أن يتسق مع عقل ومنطق وواقع والقرآن المكي يذكر في هذه الآيات ما كان عليه اليهود والنصارى من خلاف وانحراف وتعدد أحزاب وتقطع أمور ، والقول الحق والحالة هذه هو ما ذكرناه قبل ، وهو أن القرآن ومحمد ﷺ رسالة ربانية جديدة جاءت لتصحيح ذلك وهداية الناس إلى ما هو الحق ، ومن جملتهم اليهود والنصارى .

- ٦ -

ومن الحق أن نذكر أن الحوري لم يفقه ما في هذه الآيات من هدم لدعواه ، وإظهار ما فيها من زيف وتمحل ، فأنكر بعضها وتمحل في

-
- (١) هذه الآيات جاءت بعد سلسلة أنبياء وإشارة إلى أنبياء آخرين بدون أسماء . ومن ذكرت أحمأوم نوح وموسى وهارون وابن مريم وأمه .
(٢) هذه الآية جاءت بعد ذكر عيسى ورسالته ودعوته إلى عبادة الله وحده ربه وربهم .

بعضها ، وكان في بعض أقواله مية النية والأدب ، شديد الصفاقة والغثاثة كما يبدو مما يلي :

١ - لقد قال في صدد آية النحل (١٢٤) : إنها والسياق التي قبلها والذي ذكر ملة إبراهيم مقعمتان على السياق ، لأنها تشير إلى خلاف وصدام بين النبي وبني إسرائيل وليس شيء من ذلك بينها في الدور المكي ولأن ملة إبراهيم إنما كانت من شعارات المدينة ، ولم تذكر في القرآن المكي .

والخوري كاذب في القولين ، فليس في الآية إشارة إلى صدام بين النبي وبني إسرائيل ، وإنما فيها تقرير لواقع المخوف واختلاف تاريخي لهم قبل البعثة وحسب ومثل هذا التقرير تكرر في القرآن المكي وملة إبراهيم ذكرت في آيات مكية أخرى منها آيات سورة الأنعام هذه (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّيَ هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٧٨ و٧٩) وهذه (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٦١) .

٢ - وقال في صدد آيات سورة مريم ٣٤ - ٤٠ : إنها مقعمة على السياق من المدينة ، لأنها مخالفة للروي ، ونائية عن موقف القرآن المكي الودي العام نحو النصارى ، وكلام الخوري متهافت ، فقد جاءت الآيات بمثابة تعقيب على أقوال عيسى عليه السلام لقومه عقب ولادته حينما حملته أمه وأنت به إليهم المقررة لحقيقة شخصيته ورسالته ، فكان هذا سبب اختلاف الروي ، وفي النظم القرآني المكي أمثلة كثيرة لذلك ، وما فيها هو حكاية حال واقع النصارى بعد عيسى عليه السلام ، وتعدد أحزابهم في صدد شخصيته ورسالته بما كان مشهوراً مشهوداً قبل البعثة .

وفي استعمال الحوري للكلمة (نابية) سوء أدب وسوء فهم من ناحية ثانية ، فمن سوء أدبه أنه يصف كلام الله بهذا الوصف ، ومن سوء فهمه أنه يصف بهذا الوصف أيضاً التنديد الذي احتوته الآيات بالذين كفروا برسالة عيسى عليه السلام وكانوا في كفرهم ظالمين ، وأن يعتبر ذلك موقفاً غير ودي إزاء النصارى ، ولقد قال : إنه موقف مناقض لموقف القرآن المكي الودي إزاءهم في حين أنه ليس في القرآن المكي مثل هذا الموقف الذي يزعم الحوري أن الآية تنقذه بصراحة . ويصل الحوري إلى ذروة غيائه حين يغفل عن أن موقف القرآن المدني إزاءهم أشد صراحة وقوة في باب الثناء والتنويه ، فليس في القرآن المكي مثل هذه الآية (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَمْدُودَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَيِّنٌ مِنْهُمْ قِسْبُينَ وَرَهْبَانِيَّةً إِنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) التي جاءت في سورة المائدة المدنية ، ولا مثل هذه الآية (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آقَارِهِم بِرِثْسَيْنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) التي جاءت في سورة الحديد المدنية . ولا مثل هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) التي جاءت في سورة الصف المدنية . والحوري يقول : إن هذه الآيات من سورة آل عمران (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَازِعُونَ فِي الْحَيَرَاتِ
وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) في حق رهبان النصارى ، وهي آيات مدنية ! .

٣ - وقال في صدد آيات سورة مريم ٥٩ - ٦٣ : إنها ملحقة إلحاقاً
بالسورة في أزمنة مختلفة ، لأنه لم يكن خلاف بين أهل الكتاب والنبي
في مكة ، وهذا كلام متهاف ، فليس في الآيات إشارة إلى خلاف بين
النبي وأهل الكتاب ، وكل ما فيها إشارة إلى ما كان من حالة أمة الأنبياء
المذكورين في سلسلة الآيات السابقة للآيات ، وانحرافهم بعد أنبيائهم ،
وإضاعتهم الصلوات ، واتباعهم الشهوات ، وكان هذا واقعاً مشهوراً مشهوداً ،
وكان تصحيحه والدعوة إلى التوبة منه من أهداف الرسالة المحمدية .

وقوله : إنها ملحقة في أزمنة مختلفة كذب وهذيان وسوء أدب ،
لأنه يفيد أنها مزيدة على القرآن بعد النبي ﷺ ، وليس فيها ما يتحمل
مثل هذا الزعم الكاذب الوقح قط ، حتى وليس فيها ما يتحمل القول :
إنها بما نزل وحياً في المدينة وألحق بالسياق بأمر النبي لو أردنا أن نحسن
الظن في الحوري .

٤ - وقال عن آية سورة الأنبياء (٩٣) (نطن أنها مدسوسة هنا ،
إذ لا شيء في السورة يستدعيها ، ويذكر جدلاً مع الكتائبين لا وجود له
في مكة) . كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ إِنْ يَقُولُ إِلَّا كَذِباً ،
وسياق الآية يستدعي ذلك بكل قوة ، فقد جاءت بعد سلسلة الأنبياء
وقصص ومواقف أمة بعضهم ، وبعد تنبيه رباني بأن أمة الأنبياء أمة
واحدة والله هو ربهم الذي يجب عليهم أن يعبدوه وحده ، وكل هذا
جاء في سلسلة الآيات السابقة للآية وهي الآيات (٤٨ - ٩٢) التي كان
نص آخرها (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)
فاقتضت الحكمة ذكر حالة أمتهم من بعدهم وكانت حالة واقعية مشهودة
مشهورة جاءت الرسالة المحمدية لتصحيحها وتقويمها ، وعبرة الآية بعد ليست

في صدد جدال بين النبي وأهل الكتاب ، والمقام لا يتحمل أن تكون مقحمة حتى من العهد المدني ، فضلاً أن تكون مدسوسة ، فض الله فم الفائل .

ومن عجيب تحبسط الحوري أنه قال في كتابه رقم (٣) تعليقا على الآية في سياق استعراضه لسورة الأنبياء : (إن تقطع أمرهم شيئا وأحزاباً لا يمنع وحدة إيمانهم ووحدة أمة التوحيد ، حيث ينطوي في هذا اعتراف بما لا يسعه عدم الاعتراف به من تلك الحالة التي ليست الآية إلا في صدد تقريرها .

٥ - ونفس القول قاله الحوري في صدد آية سورة المؤمنون (٥٣) وجميع ما قلناه في الفقرة السابقة يقال هنا بتأخيه سواء من حيث مناسبة الآية للسياق الذي احتوى سلسلة أنبياء . أم من حيث كونها ليست في صدد جدال مع أهل الكتاب ، وإنما هي في صدد بيان حالة أمم الأنبياء من بعدهم بما كان مشهوراً مشهوداً .

ومن عجيب تحبسط الحوري قوله في كتابه رقم (٣) في سياق استعراضه لسورة المؤمنون عن هذه الآية (إنها تابعة للآيات التي بعدها وفي صدد المشركين ، وهو في قوله هذا متمحل متهافت فضلاً عن تحبسطه ، لأن السياق منسجم ، وذكر مواقف المشركين جاء استطرادياً ، والضمير في (فتقطعوا) لا يمكن أن يعود إلى ما بعدها وإنما يقتضي أن يعود إلى ما قبلها وهم أمم الأنبياء من بعدهم .

٦ - وقال في صدد آية سورة النمل ٧٦ : إنها مقحمة تقطع السياق ، وإنه لا خلاف في السورة مع بني إسرائيل . وهذا متمحل متهافت ، فالسياق منسجم كل الانسجام بها حيناً يعنى فيه ، بل وفيه قرينة على صحة ورود الآية في مقامها ، وتدعيم لرسالة الرسول الاستقلالية كما ترى فيما يلي (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ . إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ

الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ النُّصْمَ الدَّعَاءَ إِذَا وَلَوْ مَدَّ يَدَيْهِ . وَمَا أَنْتَ
بِعَادِ النُّعْمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا
فَهُمْ مُسْلِمُونَ .) . وليست الآية في صدد خلاف بين النبي وبني إسرائيل ،
ولمّا فيها إشارة إلى ما وقع بين بني إسرائيل من اختلافات سابقة للبعثة ،
وأشير إليها في آيات مكية أخرى مثل آيات سورة السجدة ٢٥ وسورة
يونس ٩٣ التي أوردناها في السلسلة ، وقد أنسى الله الحوري أن ينكر هاتين
الآيتين لتكونا شاهدين على إفكه وتمحله .

٧ - وقال عن آية الشورى (١٤) : إنها مدنية مقحمة ، لأنها تقطع
السياق ، ونحول الخطاب من المشركين إلى الكتابيين ولا جدل معهم
في مكة .

وهذا أيضاً تحمل متاهات ، وفي الآية السابقة للآية هذه العبارة (أَنْ
أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) من جملة ما وصى الله به أنبياءه
وأتباعهم بالتبعية ، فصار من مقتضى الحال أن يأتي بقليل لما كان واقعاً
مشهوراً من أهمهم من بعدهم ، وهو ما احتوته الآية (١٤) التي نحن في
صددها . ولقد جاء بعد هذه الآية ، هذه الآية (فَلْيَدْعُ فَأَدْعُ وَاسْتَقِمْ
كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) وموضوع الخطاب في الآية هم أهل الكتاب أو ما وصفتهم
الآية (١٤) بوصف (الَّذِينَ أَوْثَرُوا كِتَابَ) وقالت عنهم (لَقِيتُ
سُكْرًا مِنْهُمْ مُرِيبًا) .

ومن عجيب تخطيط الحوري أنه اعترف في كتابه رقم (٢) بمكية
الآية وعانديتها إلى أهل الكتاب !

٧ - وقال عن آية الزخرف (٦٥) : إنها مدنية .

وهذا تمحل ، والسياق منسجم بها كل الانسجام ، والخلاف في أمر عيسى وتعدد الأحزاب فيه كان مشهوراً مشهوداً قبل البعثة في مكة مثل غيرها على السواء ، وقد حكمت آيات سابقة لهذه الآية احتجاجات المشركين في أمره نتيجة لما كان واقعاً مشهوداً كما ترى في هذه الآيات (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ . الزخرف : ٥٧ - ٥٩) . فليس في تأكيد ذلك وتقرير كون عيسى قد بلغ رسالة ربه بتمامها ، وكون ما عليه النصارى من اختلاف وتعدد أحزاب إنما كان بعده أي محل للتمحل والاستبعاد وزعم الإقحام وهذا الذي جاء قبل الآية (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنْ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) .

٩ - وقال عن آيات الجاثية ١٦ و ١٧ : إنها مقحمة للتخفيف من إطراره بني إسرائيل في الآية السابقة لها . وهذا هذيان وسوء أدب أكثر منه أي شيء آخر . فالاختلاف بين بني إسرائيل كان أمراً واقعاً مشهوراً وقد أشارت إليه آيات أخرى . والسياق منسجم كل الانسجام ولا يتحمل أي إقحام فضلاً عن أنه لم يكن في ذلك الوقت ورود لفكرة (التخفيف من إطراره بني إسرائيل) التي نعم إيرادها من الحوري عن سوء أدبه ونيته . والآيات التي جاءت بعدها تامة منطقية لها ومنسجمة بدورها مع السياق كل الانسجام وهي (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأُمُورِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ . هَذَا بَصَإُ الرُّسُلِ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . الجاثية : ١٨ - ٢٠) .

ويلتزم أن الحوري ينطلق من تعللاته من فهم خاطئه متعمد لدى الآيات ، حيث يزعم أن النبي كان في العهد المكي منسجماً متضافراً مع أهل الكتاب ، وكأنه واحد منهم ، ولم ينجم بينه وبينهم خلاف وجدال في حين أن الآيات حسب زعمه تشير إلى خلاف وجدال بينه وبينهم فيقتضي أن تكون والحالة هذه مدنية أو مقعمة أو مدسوسة أو مزيدة أو ملحقه في أزمنة مختلفة ، كبرت كلمات تخرج من فيه مرة ثانية .

والفهم الخاطيء المتعمد الذي وقع فيه هو أنه ليس في الآيات ما يفيد أنها بسبيل تسجيل خلاف وجدال بين النبي ﷺ وأهل الكتاب باستثناء ما يمكن أن يكون من ذلك شيء في آية سورة الشورى (١٥) وإنما هي بسبيل حكاية واقع بأسلوب تقريرى هادئ ، وهو الواقع الذي لا نعتقد أن الحوري يصل إلى درك إنكاره ونعني به ما كان عليه اليهود والنصارى من خلاف وتزاع وتعدد أخزاب وطوائف ومذاهب ، وما كان عليه طوائف اليهود وطوائف النصارى فيما بينها من مثل ذلك قبل البعثة بمتداً إلى أمد طويل ، وكان الأمر يصل بينهم إلى الاقتتال والمذابح مما سجلته آية سورة البقرة هذه (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .. ٢٥٣) وما تواترت به كتب اليهود والنصارى القديمة .

ومع تدبينا إلى ما في آية الشورى (١٥) من احتمال كون فيها إشارة إلى خلاف بين النبي وأهل الكتاب ، فإنها تقرر ذلك تقريراً هادئاً ليس فيه

عنف ولا تهجم ، بل فيه أمر رباني بالوقوف منهم موقف العادل وإعلان أن الله قد أمره أن يؤمن بكل ما أنزل من كتاب ، وفي هذا من الروعة والجلال ما يقصر ذوق الحوري وأدبه عن إدراك مداه والخشوع له .

وفي القرآن المدني آيات عديدة أيضاً تشير إلى ما كان من خلاف بين الطوائف اليهودية والطوائف النصرانية بنفس الأسلوب التقريري الهادئ لواقع ما كان الأمر قائماً مستقراً حيث يدعم القرآن بعضه بعضاً في ذلك . ولم يكن ذلك في سياق ما قام من خلاف وجدل بين النبي وبينهم كما ترى في هذه الآيات :

١ - وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. [البقرة : ١١٣] .

٢ - ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ نَازِلًا الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .. [البقرة : ١٧٦] .

٣ - آية البقرة ٢١٣ التي أوردناها في مطلع البحث .

٤ - آية البقرة ٢٥٣ التي أوردناها قبل قليل .

٥ - إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .. [آل عمران : ١٩] .

٦ - إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْهَبْكَ وَارْفَعْكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. [آل عمران : ٥٥] .

٧ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .. [آل عمران : ١٠٥]

٨ - آيات سورة المائدة ١٢ - ١٤ التي أوردناها في مطلع البحث .

٩ - أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .. [الحديد : ١٦] .

١٠ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِمُوسَى وَهَارُونَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .. [الحديد : ٢٦ و ٢٧] .

- ٨ -

ولا يقف تواقع الحوري وسوء أدبه ونيته في زعم الدس ، أو الإقحام ، أو الزيادة ، أو الإلحاق عند الآيات المكية مثل التي مروت ، بل يقول بعض ذلك في صدد آيات مدنية أيضاً مثل آيات التوبة هذه (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ..) .

ولا يصرح الحوري بالجهة التي يتهمها بما يمليه عليه سوء أدبه ووقاحته ولا يستثني النبي ، فمن الممكن أن يكون النبي أو أصحابه الأولين أو المسلمين بعدهم أو جميعهم ، فإن وقاحته وسوء أدبه وصفاقته لا تقف عند حد من حدود المنطق والحياء والأدب . فعلى احتمال أنه قصد النبي ﷺ ،

فلا بد من فرض كون الحوري يعتقد أن الآيات التي أقحم عليها آيات أخرى أو دس عليها آيات أخرى أو زيد عليها آيات أخرى هي أصلاً وحي رباني نزل على رسول الله ، وليس له مناص من أن يعتقد والحالة هذه أن رسول الله لا يمكن أن يفترى على الله ، ويقحم أو يدس أو يزيد آيات ليست من وحي الله ، وعلى فرض اعتقاده أن كل الآيات مفتراة من النبي ، وأنه أقحم ما أقحمه أو دسه أو زاده استدراكاً لما سبق منه ، فيكون الحوري قد غفل في الحالتين عن محمد بدون ريب عن مدى القرآن في يقين النبي ﷺ في كونه وحياً من الله عز وجل ، وعما في القرآن من آيات نافذة إلى أعماق القلوب ، ومثيرة لأشد الرهبة في النفوس في تعظيم افتراء القرآن على الله تعالى بما يتمثل في الآيات التالية :

١ - لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .. [النساء : ١٦٦] .

٢ - قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ . [الأنعام : ١٩] .

٣ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ .. [الأنعام : ٩٣] .

٤ - وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَافُ مَا رُبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .. [الأعراف : ٢٠٣] .

٥ - وَإِذَا مُتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ مُهِمًّا مِنْ قَبْلِهِ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ .. [يونس : ١٥ - ١٧] .

٦ - أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .. [الشورى : ٢٤] .

٧ - أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .. [الأحقاف : ٨] .

٨ - إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ يَقُولُ سَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدَّكُرُونَ تُنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ .. [الحاقة : ٤٠ - ٤٧] .

فكان على الحوري أن يتأدب ويرجع إلى ضميره لو كان فيه أدب وضمير في نسبة زيادة على القرآن من قبل النبي ﷺ لم تكن وحياً من الله وافتراءً إلى رسول الله .

وبالإضافة إلى ذلك كله ، فلقد كان على الحوري الذي يعتقد أن القرآن من وضع محمد وإنشائه أن يلاحظ أنه كان في إمكان محمد أن يحسم الأمر فيقول ما يريد أن يقول دون حاجة إلى إقحام أو زيادة ، أو استدراك ، أو يثبت ما يريده بدون أن يكشف نفسه لنبيه أو أغبياء آخر الزمان الحوري وأمثاله .

والقرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله الأولين الذين يمكن أن يكون الحوري أراد نسبة الدس والزيادة والإقحام إليهم بعد النبي في نفس اعتباره بالنسبة للنبي من كونه وحي الله وكلامه المقدس الذي من واجبه الديني الإيماني

أن يقفوا عنده ، ويحافظوا عليه كما بلغه النبي لهم بحروفه وكلماته وأدائه وترتيبه . ومن كون مخالفة ذلك خروجاً من ربة الإسلام إلى الكفر ، فكان على الحوري أن يتأدب إزاءهم أيضاً ، ولا ينسب إليهم الافتراء والدس على كتاب الله . وإذا لاحظنا أنه لم يكن في زمن النبي ﷺ وأصحابه الأولين قضية مثل القضية التي يثيرها الحوري وأمثاله ليشعروا - النبي وأصحابه - بضرورة إلى دفعها وسدها بإحكام آيات أو دسها أو زيادتها ، بدت سوء نية الحوري وأمثاله وسوء أدبهم ووقاحتهم أكثر .

وهذا كله وارد بالنسبة لكل مسلم مخلص في دينه واعتقاده بأن القرآن وحي من الله تعالى من تابعي أصحاب رسول الله وتابعيهم .

ولا يرد هنا أن من المسلمين من أهل القرون الثلاثة الأولى من افتروا على الله تعالى باختراع بعض الآيات وزيادتها وانقاصها ، فهؤلاء أمرهم معروف ، وهم مارقون من الدين ، وليسوا من المسلمين الأولين الذين كان القرآن قد حفظ في عهدهم كما بلغه رسول الله ومات عنه قرآنًا في الصدور ، وفي الصحف على ما شرحناه في الفصل الأول ، وهذا فضلاً عن أن ما كانت منهم من تزوير معروف مفضوح ، وإنما كان في أمور لا علاقة لها بما يزعمه الحوري وأمثاله . ولو خلقنا الحوري بمسيحيه وصلبيه هل يجيز لنفسه وقلمه أن يزيد شيئاً على (كتابه المقدس) الذي ليس هو في حاله الواقعية إلا أسفاً رأى كتبها بشر من الروايات والمسموعات بعد زمن طويل من الأنبياء والأشخاص والجماعات التي حكيت فيها حياتهم وأقوالهم . وامتألت بالمبالغات والمتناقضات وما يتنزه الله عنه ورسله من أقوال وأفعال ، لكان جوابه نقياً واستعاذة بالله من أن يفعل ذلك ، وليس هو إلا شخصاً عادياً لا يصل في ورعه وتقواه وخوف الله وإيمانه بكلماته إلى غبار نعال رسول الله وأصحابه الأولين وتابعيهم وتابعي تابعيهم الأقطار الأبرار ، وربما كان في ما يكتب مأجوراً ، ونحن نعتقد ذلك ، وهو على كل

حال كتب للكتابة والتجريح والتثريب والتشكيك عمداً ، وما يكتبه هو افتراء وبهتان وتمحل ثم لا يتخرج ولا ينجعل ويحيز صدور مثل ذلك من النبي ﷺ الذي كان على أعمق اليقين بأن القرآن من وحي الله ، وأن من واجبه أن يبلغه ويلتزمه حرفياً ويتبع ما يوحى إليه ، وأنه لا يمكن أن يدخل عليه زيادة ولا نقصاً ولا تبديلاً أو صدور ذلك من أصحاب رسول الله الذين كان القرآن كذلك في اعتبارهم وتقديسهم ، ووجوب الوقوف عند كل كلمة وحرف منه كما بلغه لهم رسول الله ، أو تابعيهم أو تابعي تابعيهم أو كل مسلم مخلص الذين كان القرآن عندهم في ذلك الاعتبار .

- ٩ -

والخوري الحداد يسوق آيات كثيرة بسبيل التدليل على زعمه بأن النبي محمد ﷺ في دعوته وفي ما يتلوه من قرآن كان تحت تأثير اليهودية والنصرانية وكتبها وأهلها في العهد المكي حتى لكانهم أهل وعماده وقوته ، ولكأنه واحد منهم على ما ذكرناه قبل . وفي كل ما يسوقه تمحل وتهافت وتخص ، وهو على عادته يقطع بسبيل ذلك جملة من آية ، أو آية من سياق ، ويحمل الباقي ، أو يتمسك بنص ، ولا ينتبه أو يغفل أو يتغافل عما في السورة أو السور من نصوص أخرى فيها توضيح واستدراك وبكلمة ثانية يتغافل عن أن نصوص القرآن متكاملة يتم بعضها بعضاً ، وبعضها بعضاً .

وقبل أن نستعرض الآيات التي يسوقها ونفبه إلى ما في استنتاجاته منها وتعليقاته عليها من تمحل وتهافت وتخص بحسن أن ننبه على أمر مهم له صلة بمدى الآيات التي يسوقها وغيرها من الآيات الكثيرة الواردة في صدد أهل الكتاب واليهود والنصارى وكتبهم . وهو أننا لسنا قطعاً بسبيل تجاهل كون الرسالة المحمدية كناية ، فهي كتابية في حقيقة وظلت

ولقد أعار القرآن المكي أهل الكتاب وكتبهم عناية كبيرة ، واستمر القرآن المدني على ذلك ، سواء أ في ما كان من إشارته بوحدة المصدر

والمبادئ الرئيسية ، أم من الاستشهاد بهم أم من الدفاع عن أسس ديانتهم ، أو من التشديد بما وقعوا فيه من انحرافات واختلافات ، أم في قصصهم ، أم في الجدل معهم وإقامة الحججة عليهم ودعوتهم إلى الحق والهدى المنطويين في الرسالة الجديدة والانضواء إليها .

ولقد كان هذا الاهتمام بالإضافة إلى أنه من طبيعة مهمة النبي التي هي رسالة الله ودعوته إلى الناس جميعاً وهم من الجملة من مقتضى الواقع من أمرهم وأمر العرب الذين كانوا أول المخاطبين بالدعوة والرسالة والقرآن .

فقد كان لكل من اليهود والنصارى كيان مؤثر بارز في الوسط العربي والذهن العربي حيث كان من اليهود الإسرائيليين جماعات كبيرة في الحجاز وبتعين أدق في يثرب وطريقها إلى الشام ، وكان لهم حيز ممتاز ومركز خطير ، وكان العرب ينظرون إليهم بنظر التوقير والاعتماد ويعترفون لهم بالتفوق الثقافي ، وحيث كانت النصرانية سائدة في بقاع واسعة من المعمور ومن الجملة في البلاد المتصلة بدار الدعوة الإسلامية أي بلاد الشام ومصر والحبشة والعراق العربي وجزيرة الفرات وكان يدين بها في العراق والشام وجزيرة الفرات - وفلسطين والأردن ولبنان وسورية هي التي نعنيها ببلاد الشام - قبائل عربية صريحة ، وكان يوجد إلى هذا كتلة كبيرة عربية صريحة في اليمن وجماعات كبيرة في مشارف الشام وطريق الحجاز. وجماعات أخرى في سواحل جزيرة العرب الشرقية يدينون بها ، وجماعات نازحة من البلاد المجاورة في مكة نفسها ، وكان العرب ينظرون إلى النصارى كذلك بنظر التوقير والاعتماد ، ويعترفون لهم بالتفوق الثقافي ، كل هذا جعل اليهودية والنصرانية ومصدريتهما السماوية وكتبهما وتاريخ أنبيائهما ، وسيرة الأجيال السابقة من اليهود والنصارى وما كانوا عليه من أحوال متنوعة معروفة في الأوساط العربية الحجازية دار الدعوة الإسلامية ، ومصدراً مهماً لمعارف العرب الدينية وغير الدينية وبخاصة نبهائهم .

ولقد كانت جمهرة العرب الكبرى مشركين ، يعترفون بالله بصفته الخالق الرازق المدبر المحيط بكل شيء علماً وقدرة مع إشراك الملائكة معه بعقيدة أنهم بناته وذوات حظوة عنده على سبيل الاستشفاع^(١) .

ولقد أخذ نبيه من يرون في عقيدة الشرك سخفاً ، ويتجهون نحو الله وحده ، ومنهم من تنصر ، ومنهم من تهود تأثراً باليهود والنصارى ، ومنهم من رأى ما عليه اليهود والنصارى من خلاف وتعدد أحزاب ومذاهب

(١) في القرآن آيات كثيرة فيها تقرير لذلك ، منها هذه الآيات :

١ - قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَإِذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلِكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .. [يونس : ٣١ - ٣٥] .

٢ - وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْبِئُوا لِيِبَاكُمُ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .. [سبأ : ٤٠ - ٤١] .

٣ - وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ .. [الزخرف : ٩] .

وشقاق وقاتل وانحراف ، فأنفوا من ذلك ، بل عجب من ذلك المشركون
 بالملائكة أيضاً ، وكانوا يعتبرون أنفسهم أهدي منهم على ما حكته آيات
 سورة الزخرف هذه (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ
 مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا ءَأَلٰهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا
 جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ..) حيث رأوا أن عقيدتهم بالوهمية
 الملائكة وكونهم بنات الله وعبادتهم لإمام على سبيل الاستشفاع أكثر
 منطقياً من اعتقاد النصارى بالوهمية المسيح وبنوته في الوقت نفسه الله ،
 وصاروا يقسمون ان لو جاءهم نذير منهم بكتاب بلغتهم ليكونن أهدي
 منهم على ما جاء في آية سورة فاطر هذه (وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
 لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا
 جَاءَهُم نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا وَاسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ

٤ - وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ
 مُّبِينٌ . أَمْ اتَّخَذَ إِيمَانًا لِّخَلْقِ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذَا أُبْشِرَ
 أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
 كَظِيمٌ . أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ .
 وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً أَشْهَدُوا
 خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ . وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ
 مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ..
 [الزخرف : ١٥ - ٢٠] .

٥ - وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا
 إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى . إِنَّ الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى . وَمَا لَهُمْ
 بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَأَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي عَنْ
 الْحَقِّ شَيْئًا .. [النجم : ٢٦ - ٢٨] .

السَّيِّئِ وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. ٤٢ و ٤٣) (١) وآيات
 صورة الأنعام ١٥٤ - ١٥٧ التي أوردناها في الفقرة (٤) فكان من حكمة
 اهتمام القرآن والرسالة الجديدة بأهل الكتاب بما يتصل بكل هذا الواقع
 من حيث إن اهتداهم بالرسالة الجديدة سوف يفقد العرب ثكافة وحجة ،
 ويجعلهم لا يرون مناصاً من الإنضواء إليها بدورهم .

ولقد كان تطابق الرسالة الجديدة مع الرسالتين الموسوية والمسيحية
 وكتابينها في المنبع والمبادئ معقد أمل في تقبل اليهود والنصارى ، وفي مقدمتهم
 من هم في الحجاز منهم الدعوة الجديدة وانضوائهم إليها في إخاء ديني عام
 قبل غيرهم ، وتكون جبهة قوية تحمل مشعل الهداية الإلهية لسائر البشر
 موحدة الأسس والأهداف والقوى والجهود ، وهي بعد لا تأتهم بأسس
 جديدة ، ولا تكلفهم إنكار مقدساتهم ، بل جاءتهم بما عرفوا أنه الحق ،
 وبما هو متطابق مع ما عندهم ، وبأسلوب محب فيه عناية فائقة بهم ،
 ورغبة في الاتحاد والتآلف معهم ، ولا سيما أن الفتن والخلافات كانت
 مشتعلة بينهم بين اليهود والنصارى ، وبين فرق اليهود أنفسهم ، وبين فرق
 النصارى أنفسهم أيضاً ، يكذب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً ، وكان
 المفروض أن يكونوا قد شتموا ذلك ، وأن يروا في الدعوة الجديدة التي
 تصدق بما معهم ، وتعترمه حللاً لمنازعاتهم ومزيلاً لبلبلاتهم .

ولقد كان اليهود يعتقدون بوحدانية الله ورسالات الرسل عدا المسيح ،
 والقرآن دعا إلى الإيمان بالله وحده ورسالات رسله ، وذكر التوراة ونوه

(١) في الآيات صراحة أن عدم استجابتهم للدعوة المحمدية مع أنهم كانوا
 يسمنون أن يأتيهم نذير كان استكباراً ومكراً . وقد جاء في سورتي ص والزخرف
 آيات فيها تفسير لذلك وهي (« أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. ٨ ص)
 و (« قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِينَ
 عَظِيمٍ .. ٣١ الزخرف) .

بما فيها من هدى ونور ، وامر باحترام الأنبياء الذين ذكروا فيها ومن جاء من أنبياء الله من بعد موسى . ولم يكن عليهم إلا خطوة الاعتراف بالمسيح على الوجه المقرر بالقرآن ، والتصديق برسالة محمد ﷺ ، والقرآن الذي أنزل إليه حتى تندمج اليهودية في الإسلام وتصبح معه في وحدة تامة . وقد عرفوا أنها حق ، وكانوا يستفتحون بهذه المعرفة على الكفار كما جاء ذلك في آيات عديدة مكية ومدنية منها هذه الآيات :

- ١- وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .. [البقرة : ٨٩] .
- ٢- وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .. [البقرة : ١٠١] .
- ٣- الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ .. [الأنعام : ٢٠] .
- ٤- وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .. [الأنعام : ١١٤] .
- ٥- قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ .. [الأحقاف : ١٠] .

والنصارى يعتقدون بوحداية الله مؤولة بالعقيدة التثليسية ، وبرسالات الرسل وبالتوراة وقديستها وشريعتها ، وأنبياء بني إسرائيل بعد موسى ، وقد ذكر القرآن الإنجيل ونوه بما فيه من هدى ونور ، وأسبغ على السيد المسيح وأمه وولادته هالة نورانية ، مع تصحيح العقيدة فيه حيث قرر أنه رسول كسائر الرسل ، وأن ولادته تمت بمعجزة ربانية كمعجزة خلق

آدم من تراب وولادة يحيى من أم عاقرو أب طاعن في السن ، ولم يكن عليهم إلا خطوة الرجوع عن تأليهه والاعتراف بنبوته وبشريته على النحو الذي جاء في القرآن ، ثم الاعتراف بالرسالة المحمدية والقرآن حتى يندموا هم الآخرون في الإسلام ، ويصبحوا مع المسلمين في وحدة واحدة

وهكذا تتوحد الديانات السماوية الثلاث تحت اسم عام مشترك وغير غريب عليها وهو (الاسلام) . وهداية كتاب مصدق بما بين يديه من الكتب ، ومتمم لها وهو القرآن ، ورسالة خاتم الأنبياء وهو محمد ﷺ الذي يؤمن بالله وكلماته وأنبيائه والذي بعثه الله على فترة من الرسل ليكون بشيراً ونذيراً ، ومنقذاً وهادياً لجميع الناس ، ومن جملتهم أهل الكتاب ، ليحمل المتوحدون مشعل الهداية للناس كما قلنا متحدين مذهبين في أخوة شاملة قوية متراصة دون أن يعاكس بعضهم بعضاً ، ويختلف بعضهم مع بعض ، ويصد بعضهم عن بعض ، ويكيد بعضهم لبعض ، وليكونوا القدوة المثلى لسائر الملل التي لم تستند إلى كتب ربانية ، ولا إلى رسالات رسل من الله تعالى ، والتي كانت واهية الأسس من الناحية الدينية ، ولم تكن لتصمد عند الجدل والتفكير أمام الحجج القرآنية الدامغة ، إذ يكونون بهذا التوجد والاندماج قوة كبيرة تزلزل عقائد تلك الملل السخيفة الواهية ، فلا تبقى لها قدرة على المقاومة والتجدي في حين يمكن أن يشتد تمسكها بها إذا وقف اليهود والنصارى من الدعوة الإسلامية موقف المنقبض المتصامم أو المعاند المكابر .

على أن هذا الفرض لم يبق نظرياً ، وذلك الأمل لم يجب ، فقد كان للدعوة القرآنية المحمدية القوية الواضحة النافذة إلى العقول والقلوب والتي تشع فيها نورانية الله وهدايته وأعلامه أثر إيجابي في اليهود والنصارى في حياة النبي ﷺ في مكة أولاً ، ثم في المدينة ، ثم بعد النبي في مختلف أنحاء الأرض على ما سوف نشرحه ونورد دلائله بعد

وعلى ضوء ذلك كله يجب فهم ما في القرآن من آيات في صدد أهل الكتاب واليهودية والنصرانية واليهود والنصارى .

- ١٠ -

والآن نأتي إلى استعراض الآيات والنقاط التي يسوقها ويشيرها الحوري :

١ - يورد الحوري آيات سورة الأعلى هذه (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) ويقول : إن القرآن يكرر ما جاء في الكتب السابقة ، ويفسر الحوري الكتب السابقة بالكتاب المقدس أو يستعمل هذا الاسم مرادفاً لها .

وهذا التعبير مستحدث كما قلنا قبل ، وقد أطلق مؤخراً على مجموعة أسفار العهد القديم والجديد التي وصفناها في الفصل السابق ، ويقصد الحوري أن يقول : إن محمداً قد اقتبس ما يتلوه من الكتب السابقة أو الكتاب المقدس وأنه يعترف بذلك .

وهذا تخصص بل هذيان ، وإقحام الكتاب المقدس في هذا المقام مضحك ، ولا سيما ليس في كتابه المقدس شيء يمكن أن يصفه بأنه من صحف إبراهيم عليه السلام .

وإذا كان يقصد أن سورة الأعلى التي فيها هذه الآيات ، فليس في كتابه المقدس ما في هذه السورة مادة وأسلوباً ، والمقارنة كافية لإظهار تخصصه وزيفه ، وأين في كتابه المقدس (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى . سَنَقِرْ لَكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . وَنُبَشِّرُكَ بِالْإِنْسَانِ . فَذَكَّرْ . إِنَّ تَقَعَتِ الذُّكْرَى . سَيَذَكَّرُ مِنْ يَخْشَى . وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي بَصُلِيَ النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَوَكَّلَى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ
الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) وموضوع الخطاب في السورة النبي
نفسه والناس السامعون ، وفي هذا تدعيم للشخصية المستقلة للرسالة المحمدية
في الوقت نفسه .

وإن كان يقصد أن الآيات شاملة لكل ما في القرآن فلا يمكن أن
تعني أكثر من أن ما في القرآن مماثل لما في صحف إبراهيم وموسى ،
وهذا بما يقرره القرآن حينما يقرر أنه مصدق لما بين يديه ، وليس في هذا
ما يحل بحقيقة وواقع وبقين وحي الله تعالى لنبيه بما أوحاه في القرآن
إليه ، ولا بالشخصية المستقلة للقرآن والرسالة المحمدية ، ولا يقول : إنه
تكرار لما في الصحف الأولى إلا ما جن أو غبي ، والسامعون يعرفون أن
الله أنزل صحفاً على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، فاقنضت الحكمة أن يقال
لهم : إن ما في القرآن هو من نوع ما في تلك الصحف ، وإن الله الذي
أنزل تلك الصحف أنزل القرآن أيضاً .

وهذا ما حوت تقريره آية سورة آل عمران هذه (تَزُولَ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ) . وفي الآية تثبيت وتدعيم
للشخصية المستقلة للرسالة المحمدية والقرآن .

٢ - ولقد أورد الحوري آيات سورة النجم هذه (أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا
فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنْ سَعْيُهُ
سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى) وكرر كلامه . والآيات
مثل سابقتها تحتوي تنبيهاً على أن الرسالة المحمدية تصدر من نفس المصدر
وقرآن محمد يأتي من نفس المنبع وهو متطابق مع ما سبقه من صحف
إبراهيم وموسى في المصدر والمبادئ وحسب .

٣ - ويقول الحوري (ويطلبون من النبي آية على صحة رسالته وصدق نبوته ، فيجيهم أن آيته هو أن يبين لهم ما في الصحف الأولى) وبورد شاهداً على ذلك آية سورة طه هذه (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) ثم يعقب على ذلك بقوله : (إنه يكفيه أنه بلغهم تعليم الكتاب المقدس) ويستمر في التعقيب فيقول : (بل إنه يتحداهم بآيمانه بالصحف الأولى وكونه بسبب ذلك على الصراط السوي دونهم حيث قال لهم بعد ذلك : (قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَتَسْتَعْلِمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) .

والتهافت في أقوال وتعقيبات الحوري واضح ، وليس في الآيات الأولى إلا تقرير التطابق بين ما جاء في القرآن وما جاء في الكتب السابقة ، والسامعون يعرفون خبر الكتب السابقة ، فلما طلبوا منه الآية كانت حجة القرآن عليهم أن هذه الآية ماثلة في التطابق بين ما جاء في القرآن وما جاء في الصحف الأولى . وليس من شأن هذا نفي شخصية الدعوة الجديدة القرآنية المستقلة ، بل وفيه تدعيم لها ، وعكس ذلك الذي يقوله الحوري يكون عبثاً ، ولا يصح أن يفرض .

أما الآية الثانية ، فهي من قبل تحدي الوائق بأنه على الحق والصراط المستقيم دون خصومه ، وليس فيها ذلك المعنى الغريب الذي يستخرجه الحوري ، وقد تكرر هذا بأساليب متنوعة ، ومن ذلك آية سورة الأنعام هذه (قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) وآية سورة يونس هذه (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَنْتَهِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ

حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) وآيات سورة هود هذه (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) وغيرها .

٤ - ويورد الحوري آيات سورة الشعراء هذه (وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ . أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) ويقول : (إن شهادتهم له هي حجة الكبرى إلى آخر حياته) .

والحجة الكبرى على الحقيقة هي في تأكيد الآيات الأربع الأولى بأن القرآن تنزيل من الله نزل به الروح الأمين على قلب النبي لينذر به ، وفي هذا تقرير قطعي وتوكيدي لشخصية الرسالة الحمديّة القرآنية المستقلة ، ولقد غفل الحوري عن هذه المعاني القوية في الآيات ، وغفل عن كون الضمير في (يعلمه) عائداً إلى القرآن ، إذ تقرر العبارة عنهم بأن القرآن نازل من الله تعالى تقرر بالتبعية تصديقهم وإيمانهم وانضواءهم إلى الدين الجديد ، لأن ذلك هو النتيجة المنطقية لذلك ، فيكون استشهاد القرآن بهم مؤسساً على شهادتهم الإيجابية الإيمانية بالقرآن ، وبالذي أنزل عليه القرآن ، وهذا المعنى والنتيجة قورتها آيات أخرى بأساليب متنوعة منها آية في سورة الأنعام السابقة في النزول لسورة الشعراء وهي هذه (أَفَتَغْيِرَ اللَّهُ آيَاتِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ..) .

والكلام بسبيل إقامة الحجة على العرب ، والعرب يعرفون أن علماء بني إسرائيل أهل لمعرفة ما إذا كان القرآن من الله أم افتراه أو اقتباس ، فاقضت الحكمة هذا الاستشهاد الذي لاشك في أنه كان إيجابياً النتيجة ، وكان مقترناً بإيمان الشهود بعد أن تيقنوا بالممارسة والمعاينة والمقارنة أنه من الله .

وليس في الآيات والحالة هذه شيء مما أراد الحوري التحمل به ، بل فيها تدعيم للشخصية الحمديدية القرآنية المستقلة ، وإيدان بانفواء علماء بني إسرائيل المستشهد بهم تحت رايها ، وهذا ما قررته بصراحة آية الأحقاف هذه (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وآية سورة النساء هذه (لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي النُّعْلِمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ..) وآية النساء هذه من سلسلة في حق اليهود ..

هـ - ويسوق الحوري آية سورة القمر هذه (أَكْفَرُواكُمُ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَكُمْ أَمْ لَكُمْ بُرَءَةٌ فِي الزُّبُرِ) وآية سورة القمر أيضاً هذه (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) ويفسر الزبور في الآيتين بكتب اليهود والنصارى ويقول (إن في ذلك إشارة جلية إلى أن مصدر تعليم النبي وإيمانه وقصصه مأخوذة من الكتب المقدسة التي تقدمته وما وظيفة القرآن سوى تذكير العرب بما جاء في الكتاب المقدس !) .

وفي هذا الكلام من السخف والهذيان أكثر مما في كلامه السابق ، فكلمة (الزبور) هنا تعني كتب أعمال الناس ، وفي جملة (وكل شيء فعلوه في الزبور) تفسير لذلك حيث تعني أن أعمالهم مسجلة مكتوبة عليهم في كتب أعمالهم وهو ما ذكر معناه في آيات عديدة منها آية سورة الجاثية هذه (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩) وسورة الإمراء هذه (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا .. ١٣ و ١٤) . وعلى احتمال أن تكون الآية الأولى في صدد الكتب السابقة ، فليس فيها شيء مما أراده الحوري أيضاً . وكل ما فيها سؤال

استنكاري فيه تحد للكفار عما إذا كان ما هم عليه مستمداً من كتب الله السابقة أو مستنداً إليه ، وقد كانوا يعرفون أن الله قد أنزل كتباً فيها هدى للناس إلى طريق الحق والخير .

٦ - ويورد الحوري آيات الإصراء هذه ('قل' آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا النِّعَمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا وَعُندَ رَبِّنَا لَمَّتَّقُونَ . وَيَجِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ١٠٧ - ١٠٩) ثم يقول (إن محمداً يعتد ويتقوى ويطمئن بشهادة الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب له على موافقة تعليمه لتعليمهم . وإن أهل الكتاب فرحوا وازدادوا خشوعاً لموافقة القرآن لتعليمهم وقويت شوكتهم تجاه المشركين ، واطمأن محمد إلى تلك الموافقة وقدمها دليلاً على صحة رسالته وصدق نزول القرآن عليه ..) .

وتلاعب الحوري في الكلام وتحريفه إياه عن مواضعه بمثل هذه الصفاقة بما يثير عجب أي شخص يقرأها كان بسيط الثقافة والبصيرة ، ثم يقرأ الآيات ويفهم مداها ، فالآيات قد احتوت مشهداً رائعاً من مشاهد إيمان أهل الكتاب بالقرآن ورسالة النبي بالناس بكل قوة وصراحة وقطعية ، وقررت أنهم رأوا في القرآن ورسالة الرسول تحقيقاً لوعده الله بذلك . فازدادوا إيماناً وخشوعاً ، ولا يمكن أن يكونوا قد بقوا - كما يريد الحوري أن يوجهه - على ملتهم السابقة ، لأن في ذلك تناقضاً صارخاً ، ولا يضير النبي بعد ذلك أن يكون موقفه أمام المشركين قد قوي بشهادتهم وإيمانهم ، بل هذا هو الواقع المنطوي في التحدي الذي في الآيات للكفار فإيمانهم وعدم إيمانهم سواء مادام أهل العلم والكتاب قد شهدوا شهادة الحق وآمنوا ، والمشركون يعترفون بتفوق أهل العلم والكتاب عليهم في المعارف والعقائد الدينية ، فيكون في ذلك إلزام وإفحام لهم .

ولقد كان النبي قوياً برسالة وتأيد الله له منذ بعثته واستمر على ذلك ، وكل ما هنالك أن مدى دعوته ظل ضيقاً بسبب تأليب الزملاء والأغنياء ضده غيظاً من رسالته التي جاءت كقوة ضدم . فشهادة أهل العلم والكتاب جاءت مؤيدة لقوته السابقة لهذه الشهادة وحسب ، ونقول في صدد قوله : إن شوكة أهل الكتاب قويت تجاه المشركين : إن عكس هذا هو الذي يمكن أن يكون حدث ، فإن شهادتهم للنبي وإيمانهم به وبالقرآن وخشوعهم وسجودهم من شأنه أن يعرضهم للخطر والتريب ، ومعنى هذا أنهم لم يبالوا بذلك في موقف الحق الذي رأوا واجباً عليهم أن يقفوه ، ولقد حكى آيات في سورة القصص موقفاً مماثلاً ، وحكى تعرض أهل الكتاب الذين وقفوه للمامة المشركين وتوبيخهم ، وحكى عدم مبالاتهم بذلك إزاء واجب موقف الحق عليهم وهي هذه (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا بُنِي عَلَيْهِمْ قَالَوا أَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ . وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَأَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) لا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ .

٥٢- ٥٥) والآية الأخيرة صريحة الدلالة على الملامة والتوبيخ للذين قبل بها الشاهدون بالحق المؤمنون من أهل الكتاب بالقرآن والنبي وعدم مبالاتهم بذلك ^(١) .

ومن الجدير بالذكر أن الروايات تذكر أن جل أهل الكتاب في مكة كانوا جالية نازحة من الخارج ضعيفة العصية والوجود ، وكانت

(١) بعض الروايات تذكر أن الآيات مدنية وليس لها سند وثيق ، والصورة التي تنطوي فيها وبخاصة التريب المقدر أنه وجه إلى الذين آمنوا من أهل الكتاب لا يمكن إلا أن يكون من السور المكية والله أعلم .

أكثرهم صناعاً وأرقاء ، فتعبير (قويبت شوكتهم) ليس له أي معنى ، واحتمال التزيب والخطر الوارد هو المؤكد ، لأنهم بشهادتهم الإيجابية وإيمانهم يكونون قد تحدوا زعماء المشركين الأقوياء الذين كانوا يقودون حركة المعارضة والمناوأة ضد النبي ، وهذا ما أرادت تقريره الآيات وخمير (به) في الآية الأولى من آيات سورة الإسراء عائد إلى القرآن الذي ذكر في الآيات السابقة لها (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَتُزَكِّيَنَاهُ تَنْزِيلًا) .

والمبادر أن جملة (إن كان وعد ربنا لمفعولاً) في آية الإسراء إيدان من القائلين بأنهم رأوا في النبي وقولانه ما وعدوه من ذلك في كتبهم ، وما وجدوه فيها من صفات وأنباء عنها وهو ما حكته آية سورة الأعراف هذه (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِيلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فسارعوا إلى الإيمان والتصديق خاشعين باكين ساجدين معلنين أنهم يرون في النبي والقرآن تصديقاً لوعده الله الحق .

وهكذا يتقلب دليل الحوري عليه ، وصدق الله العظيم (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .) .

٧ - ويورد الحوري آيات سورة فاطر هذه (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ . إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا بِمَا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَتَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ

غَفُورٌ شَكُورٌ . وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .. ٢٧ - ٣٢) ويقول (إن محمداً ينبي على مؤمني أهل الكتاب وعلمائهم ، ويستجلب الثناء لنفسه وقرآنه من الكتاب - يقصد الكتب السابقة أو كتابه المقدس - ويستشهد بهم حتى ليخيل للمرء أن صاحب هذا الكلام واحد منهم) .

وهذا الكلام مثل سابقه هراء وهذيان ، وقلب للكلام ، وتحريف له عن مواضعه بصفاقة وجوراء مع قلة أدب نحو رسول الله ﷺ .

والآيات جميعها في حق المؤمنين بالرسالة المحمدية والقرآن ، وكل ما فيها بالنسبة لأهل الكتاب هو جملة (مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) وصفاً للقرآن ، وهم الذين عنتهم الآية الأخيرة قطعاً ، لأنهم أهل الملة التي كانت ملة آخر الأنبياء وملة آخر كتب الله فصاروا هم ورثة كتاب الله . والدليل القاطع على ذلك الجملة القوية على الذين كفروا وعلى المشركين التي جاءت بعدها والتي بدأت بهذه الآية (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) ولقد جاء قبل الآيات التي يوردها الحوري هذه الآيات (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) وهذه الآيات تفيد قطعاً قصد بيان الفرق بين الذين كذبوا رسول الله ، وبين الذين آمنوا به ، ويتلون كتاب الله ويرجون تجارة لن تبور (وبالتالي إنها دليل مقدم آخر على أن الآيات هي في صدد المؤمنين بالرسالة المحمدية والقرآن ،

وجملة (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) هي في حقهم أيضاً ، فهم الذين علموا ما في كون الله من قدرة ربانية ، فاستشعروا بالخوف وآمنوا . حيث جاء قبل هذه الجملة ، هذه الجملة (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخُضِرَ جَنْبَاهُ يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ مِنْ جِبَالٍ جُودَةٍ بَيْضَةٍ وَحُمْرٍ مُخْتَلِفٍ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ..) .

٨ - ويورد الحوري آيات الأنعام التي جاءت بعد سلسلة الأنبياء بدءاً من إبراهيم وهي (وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَفْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا بِكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ ائْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .. ٨٧ - ٩٠) ثم يقول : (إِنْ الْقُرْآنُ بِحُضْرِ مُحَمَّدٍ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِهِدِي أَنْبِيَاءِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَمَتَابِعِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَيُوَعِّزُ إِلَيْهِ بِأَنْ هَدَى الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ هُوَ وَحْدَهُ صِرَاطُ الْقُرْآنِ الْمُسْتَقِيمِ وَانْهَ لَيْسَ مِنْ مَحَلِّ لِلشَّكِّ بَعْدَ هَذَا فِي أَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ الْكِتَابِيِّ فِي مَكَّةَ وَيَهْدِي بِأَنْوَارِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ) .

وننبه على أن من المفسرين من قال : إِنْ جُمِلَ (فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا بِكَافِرِينَ) قد عنت الذين آمنوا بالرسالة المحمدية كتقرير فيه نحد للذين كفروا بها الذين عنتهم الجملة السابقة للجملة (فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ) وإِنْ جُمِلَ (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) قد عنت كذلك المؤمنين بالرسالة المحمدية وإن أمر (ائْتَدِهِ) للسامع إطلاقاً .

ومع ذلك فإننا نجاري الحوري في كون جملة (أولئك الذين هدى الله) قد عنت أنبياء الله المذكورين في الآيات السابقة والمستقيمين على طريقته من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم وإن جملة (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين) قد عنت المؤمنين يرسل الله السابقين وما أنزل عليهم من كتب المستقيمين عليها أيضاً وإن الأمر (اقتده) هو خطاب للنبي ﷺ ، غير أن هذا شيء وما قاله تعقياً على الآيات واستنتاجاً منها شيء آخر ، وفي تعقيبهِ واستنتاجهِ سخفه وهذيان ومفارقة . وكثير من التبجح الفارغ .

ولقد بدأت السلسلة بقصة إبراهيم وحجابه مع أبيه وقومه ، ثم ذكر فيها اعتداؤه إلى الله وحده بعد نظرتِه إلى الكوكب والقمر والشمس وأفولهم ، ثم حكى قوله (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ثم أخذت تذكر الأنبياء من ذريته الذين ساروا على هداة مع ذكرها نوحاً الذي كان هداة الله أيضاً قبله ، فيكون الأمر في جملة (اقتده) لذلك كله . ولقد أمر الله محمداً ﷺ بأن يقول ذلك صراحة في آيات أخرى من سورة الأنعام نفسها وهي (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِيناً قِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسُكِي وَخَيَّي وَتَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١٦١-١٦٣) والنبي محمد مأمور بالإعلان بأنه يؤمن بجميع أنبياء الله وكتبه وبدعوة المؤمنين به إلى ذلك في آيات عديدة مكية ومدنية^(١) فيتم التساوق بذلك بين أوامر القرآن للنبي .

(١) من الآيات المكية : (وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب .. الشورى

(١٥) د (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم .. العنكبوت ٤٦) ومن آيات المدينة (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل —

وليس من شك في أن جملة (وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) إنما عنت الذين تابعوه واستقاموا على هدي الله ، فصاروا موضع ثناء الله تعالى غير أن أمر الاقتداء لو سلمنا بأنه خطاب للنبي ﷺ ، فإنه بالنسبة لأنبياء الله ورسله وحسب كما يفيد نص الآيتين ٨٩ و ٩٠ ، ويكون ذكر الحوري لليهود والنصارى وقوله: إن القرآن يأمر النبي بأن يتبعهم وبأن يهتدي بالكتاب المقدس إقحاماً سخيفاً وصفاقة لاتصدر إلا من غبي يظن أنه يستطيع أن يقلب الحقائق ، ويحرف الكلام عن مواضعه ، ويمشي قوله على قارنيه ، ولا سيما ان كتابه المقدس على ما هو عليه من الواقع الذي شرحناه ، وان اليهود والنصارى على ما كانوا عليه وقورده القرآن المكى من انحرافات واختلافات .

٩ - وورد الحوري آية الأنعام هذه (أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أَسْمَاءَ حِكْمًا وَمَوْءُودَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ - ١١٤) ثم يقول (إن القرآن يقول أنه ليس إلا تفصيل الكتاب الأول) وهذا القول ركبك سخيف ، فليس في الآية هذا الذي يقوله ، وإنما تقرر أن الله أنزل إلى النبي ومن تابعه من السامعين للقرآن كتاباً مفصلاً ، وإن الذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق ، و فرق بين هذا وبين هراء الحوري الذي يخوس عن عمد عما في الآية من معنى قوى باستقلال شخصية القرآن والرسالة المحمدية ، ثم ييقن الذين أوتوا الكتاب بأن القرآن منزل من الله بالحق ، وبما يستلزمه هذا من كونهم قد آمنوا وصدقوا ،

— وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبوة من ربه لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .. البقرة ١٣٦) و (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .. البقرة ٢٨٥) .

وانضوا إلى الرسالة الجديدة بقرآنها ورسولها ، لأنهم إذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك يكونون قد نقضوا قولهم وانحرفوا عن مستلزماته .

١٠ - ويورد الحوري آية سورة الأنعام هذه (وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) ويقول : (لِمَ كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ إِنْكَ تَلْقَيْتَ مَا نَقُولُ وَدُرُسْتَهُ مِنَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَبْثُ التَّهْمَةَ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا) وهذا كذب وقح ، فقد يكون في الآية حكاية قولهم ذلك ، وقد تكرر ذلك عنهم في آيات أخرى ، ومن ذلك آية سورة النحل هذه (وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ...) وآيات سورة الفرقان هذه (وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا فَنكٌ اقْتِرَاءٌ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَتُحَدِّثُ بِالْأَوَّلِينَ أَكُتِبَتْ فِيهَا فَبِئْسَ تَحْمِيلًا عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ...) ولكن القرآن لم يسكت ولم يثبت التهمة ، فقد جاء قبل آية الأنعام التي نحن في صدها هذه الآية (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَفَنِيَ أَبْصَرًا فَلْيَنْفُسِيهِ وَمَنْ هَمِي فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ...) ثم جاء بعدها هذه الآية (اتَّبِعْ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ...) والآيتان السابقتان واللاحقة للآية صريحتا التقرير بأن ما يبلغه رسول الله هو وحي من الله وبصائر للناس ، والآية اللاحقة صريحة الأمر للنبي بالتزام ما أوحى إليه ^(١) ..

١١ - ويورد الحوري آيات الأنعام هذه أيضاً (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ

(١) نبيه على أن ما حكته آيات الفرقان من أقوال الكفار لم يبق مسكوتاً عنه ، فقد وصفت أولاً بالظلم والزور ، ثم جاءت بعدها هذه الآية (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان خفورا رحيما) .

مُبَارَكُهُ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا
أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ
لِغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى
مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ
أَظْلَمُ يَمُنْ كَذَّبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ
عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ . ١٥٤ - ١٥٧) ويقول
(إن محمداً يعلن أنه ينقل القرآن عن الكتاب السابق بلسان عربي ليقرووه
فيفهموا منه جلياً أنه درس الذي ينقله لهم ، ويدعوم إلى دراسته ، وليس
من شهادة أوضح وأصرح من ذلك على اتصال محمد بأهل الكتاب ودرسه
ونقله للقرآن من الكتاب) .

وكلام الحوري سخف وهذيان وصفاقة ، فالآيات أوردت لتقطع حجة
العرب وفيها تقرير صريح بأن القرآن كتاب جديد منزل من الله مبارك
ككتاب موسى الذي كان للذين جاء إليهم ، وهي جملة استطوادية لذكر
كتاب موسى ، فكما أن الله آتى موسى الكتاب لعل الناس يؤمنون
بلقاء ربهم ، فإنه نزل القرآن المبارك الذي فيه الرحمة والبينة والهدى ،
وهذا شيء ، وهذيان الحوري شيء آخر كما هو ظاهر ، وليس ينكر
أن النبي ﷺ اتصل بأهل الكتاب ، فقد كان فريق منهم في مكة ، وآيات
القرآن صريحة أنه اتصل بهم وأنهم آمنوا وصدقوا وانضوا إليه .

١٢ - ويورد الحوري آية سورة الرعد هذه (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ
عِلْمُ الْكِتَابِ . ٤٣) ويقول (إن محمداً يستشهد بأهل الكتاب .
وكلمة يستشهد أصح ، لأنها التي تصدق على حرفية الآية ، وقد خرس
الحوري أيضاً عن المعنى المنطوي في الآية وهو كون الذي عنده علم
الكتاب سوف يشهد للنبي بصدق رسالته وصدق الوحي القرآني إليه ،

وكون ذلك يستتبع أن يكون الشاهد قد آمن وصدق بها ، وهذا بالإضافة إلى صفاقة في إغفال المعنى النافذ في الآية وهو أمر الله تعالى لرسوله بأن يقول : إن الله تعالى هو الشاهد الأول على ذلك ، وما في أمر الله بإعلان ذلك من المعنى النافذ الذي يبعث كل الثقة والقوة واليقين في نفسه . والكفار كانوا يتقون بأهل الكتاب ومعارفهم وشهادتهم ، فأريد بإشهادهم إضعافهم وإلزامهم كما هو المتبادر ، وليس من المعقول أن يتم ذلك إلا حين يرى الكفار أن أهل العلم قد شهدوا شهادة إيجابية ، وصدقوا وآمنوا ، وتابعوا الرسالة الجديدة ، والكتاب الجديد .

١٣ - ويورد الحوري آية الشورى هذه (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ..) ويقول (إن في الآية صراحة بأن النبي العربي قد اعتدى بالكتب المنزلة قبله) وفي هذا الكلام تحريف وتخريف ، فليس في العبارة القرآنية إلا أمر الله للنبي بأن يعلن أنه يؤمن بما أنزل الله من كتاب ، وصرف هذه العبارة عن معناها الواضح تدجيل لقيمة له وقد جاء أول الآية وباقيها حاسمين على تدجيله وتخريفه وتخريفه ، فلم يوردها لئلا يفتضح متوهم أن قارئ كتبه لا يقرؤون الآية جميعها ، وهو ما جرى عليه في مواقف كثيرة . وهذا نص الآية جميعه (فَلْيَذَكِّكَ فَأَدْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) ولقد جاءت هذه الآية بعد هذه الآية (وَمَا تَفْقَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) وفي الآيات تقرير وتدعيم لاستقلال الرسالة الحمديدية القرآنية ، وحض على الاستقامة عليها

ومواصلة الدعوة إليها ، وعدم اتباع أهواء السابقين من أهل الكتاب ، فيكون في ذلك ذروة الحسم والإفحام والتكذيب والفضيحة للخوري ، وليس من تناقض بعد هذا في أمر الله لرسوله بأنه يعلن أنه يؤمن بما أنزل الله من كتاب ، لأن كتب الله ورسله يصدق بعضهم بعضاً .

١٤ - ويورد الخوري آية سورة سبأ هذه (وَبَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٦) ثم يقول (إن محمداً يستشهد دائماً بالذين أوتوا العلم المنزل ، وهؤلاء يشهدون بصحة تعليمه التوحيد وأحكامه ، وشهادتهم له هي حجة الكبرى ، وهذا الكلام تحريف لمدى الآية التي فيها تقرير بكون الذين أوتوا العلم يرون أن الذي أنزله الله على محمد هو الحق الهادي إلى صراط العزيز الحميد ، وفرق كبير بين هذا وبين مايقوله ، والآية تورد كحجة على للعرب الذين يثقون بعلم أهل الكتاب وشهادتهم ، وهي متضمنة لشهادتهم بالإيجابية التي لا يمكن إلا أن يكونوا التزموا بها بالإيمان بما علموا أنه الحق المنزل من الله الهادي إلى صراط الله العزيز الحميد ، لأن الحجة لا يمكن أن تكون قد قامت على العرب إلا بذلك .

١٥ - ويورد الخوري آية سورة الأحقاف هذه (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً .. ١١) ثم يقول (إن محمداً يصرح نهائياً بما لا يقبل الشك بأن إمام القرآن هو كتاب موسى) ويورد آية أخرى في الأحقاف جاءت قبلها وهي (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ..) ويقول (إن محمداً يستشهد بشاهد من بني إسرائيل على أن القرآن مثل التوراة لأنها إمامه) .

وفي كلام الخوري سخف ومفارقة وكذب وسوء فهم وتأويل ، فجعله (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) لاتعني أكثر من

تقرير كون كتاب موسى كان من قبل إماماً ورحة ، ولقد جاء بعد هذه الجملة جملة أخرى أهلها الحوري لأنها تقضح تمحله وهواه وهي (وهذا كتابٌ مُصدقٌ لساناً عَرَبِيّاً ..) حيث ينطوي فيها تقرير كون القرآن أيضاً بدوره كتاب من الله جديد مستقل ، وكل ما في الأمر أنه في المصدر والمبادئ متطابق مع ما قبله من كتب الله والآية (١٠) تقرر أن شاهد بني إسرائيل قد آمن ، لأنه رأى هذا التطابق ، فلم يسعه إلا الإيمان والتصديق ، والآية قطعية الدلالة على ذلك نصاً من جهة ، ولكونها جاءت بأسلوب التحدي للكفار الذي لا يكون له محصل إلا بذلك من جهة أخرى ، وقد عمي الحوري وخرس عن ذلك .

١٦ - ويورد الحوري آيات سورة الأنبياء هذه (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٧٠) وهذه (أَمْ أَنْتُمْ خَشَاؤُهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةٌ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِي وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي .. ٢٤) ويقول (إن رهان محمد المتواصل على صحة دعوته هو ذكر من قبله من المؤمنين وهو التوراة والإنجيل والاستشهاد بذلك وبأهلها) والعرب كانوا يعرفون أهل الكتاب ورسالات الله وكتبه إليهم ، فالاستشهاد بهم سبيل إلى قطع حجتهم ، وليس في العبارة القرآنية ما يغطي على استقلال شخصية الرسالة المحمدية والقرآنية وكل ما فيها تنويه بالتطابق بينها وبين ما سبقها .

١٧ - ويورد الحوري آية سورة الأنبياء هذه (إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ٩٢) ويقول (إن في الآية دليلاً على الوحدة بين دعوة محمد ومن قبله) وهذا صحيح ، وليس في هذا ما يغطي على شخصية الرسالة المحمدية القرآنية المستقلة ، والآية جاءت بعد ذكر عدد من الأنبياء والرسل ، وتكون بسبيل الإيذان الرباني بأن طريق أنبياء الله ورسله وملته واحدة ، ولقد جاء قبل هذه الآية في سورة المؤمنون مع خطاب

موجه إلى الرسل (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ .. ٥١ و ٥٢) .

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات بسبيل تقرير وحدة طريق الله المستقيم التي عليها رسل الله وأنبيأؤه . ولقد جاء بعد كل من الآيات في السورتين آية تذكر واقع أمر أتباع الأنبياء وأممهم من بعدهم وهو اختلافهم وتقطعهم زبراً وأحزاباً وهذا نص آية سورة الأنبياء (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ ٩٣) وهذا نص آية سورة المؤمنون (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فُرْسُوحُونَ ٥٣) . ورسول الله ﷺ هو والأنبياء أمة واحدة بنص آيتي الأنبياء والمؤمنون ٩٢ و ٥٢ حقاً ، ولكن لا يكون أن يقال عنه : إنه وأتباع الأنبياء ومملهم من بعدهم أمة واحدة بمعنى على حالة واحدة مع تقرير القرآن أن أمرهم متقطع وأنهم منقسمون زبراً وأحزاباً مختلفة ، وقد جاء ﷺ برسالة الجديدة وقوآنه الجديد بتصحيح هذا الانحراف والاختلاف ، وهو ما عبرت عنه آيات سورة النحل ٦٣ و ٦٤ وسورة البقرة ٢١٣ وسورة المائدة ١٢ - ١٦ و ١٩ التي أوردناها في مطلع الفصل .

١٨ - ويورد الحوري آيات سورة النحل هذه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالنَّبِيِّاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٤٣ و ٤٤) ويقول (إن القرآن يقول : اسألوا العلماء بالتوراة والإنجيل إن كنتم لا تصدقون فهم يعلمون أن ماجاء به محمد هو مثل ما نزل إليهم من قبل) ثم يقول (وإن وظيفة محمد هي تذكير الناس بما أنزل الله من قبل) .

وفي كلام الحوري تحريف مفضوح ، فليس في الآية أن وظيفة النبي

هي تذكير الناس بما أنزل إليهم من قبل ، وإلغا فيها تذكير بكون الله قد نزل عليه الكتاب إيبين للناس ما جاء فيه ، وتكون الجملة استطرادية ، فالعرب يعرفون أن الله أرسل الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، فتعدام القرآن لقطع حجبتهم ، ثم قرر أنه كما أرسل الله الرسل وأنزل عليهم الكتب أرسل رسوله محمداً وأنزل عليه كتابه ، فلا يكون في ذلك بدع ولا غرابة ، كما جاء ذلك في آية سورة الأحقاف هذه (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ - ٩) بحيث تكون آيات النحل التي نحن في صدها قد قررت الشخصية المستقلة الجديدة للرسالة المحمدية القرآنية أسوة بما سبقها .

١٩ - ويورد الحوري آية سورة يونس هذه (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٩٤) ويقول (إن في الآية أمراً بأن يكون علماء اليهود والنصارى شهوده وأساتذته في الدين والتوحيد) . والمفسرون مجمعون على أن الآية أسلوبية للتثبيت والتطمين على ما جرى عليه النظم القرآني ، ولقد رووا عن ابن عباس قوله في صدد الآية (لا والله ما شك ولا سأل) ومع ذلك فإن في الآية ما يسوغ تبجح الحوري الفارغ ، وإساءته الأدب في التعبير بأن علماء اليهود والنصارى أساتذة محمد في الدين والتوحيد ، وكل ما يمكن أن يكون فيها أن الله يأمره بالسؤال ممن عنده علم من أمر وحي الله بكتبه السابقة للتثبيت والتطمين .

وإذ يأمره الله تعالى بالسؤال منهم يعلم أنهم سيشهدون بأن ما جاءه و الحق من ربه ، وهذا يستتبع أن يكونوا قد آمنوا وصدقوا ، وهو ما حكته عنهم آيات أخرى أوردناها قبل ، وهكذا يكونون قد أصبحوا تابعين له منضوين إلى رايته ، وليسوا أساتذته في الدين والتوحيد ، ولقد غفل الحوري عن غباء أو عمد عما في الآية على كل حال من تقرير بإتزال

الله القرآن على رسوله ، ومما في ذلك بالتالي من تقرير لرسالته القرآنية المستأنفة المستقلة ، وهذا وحده كاف لدحضه هو وتصوره الباطل .

وبالإضافة إلى هذا نقول : إن الحوري إزاء هذه الآية بين أمرين لاثالث لهما مادام أنه يستند إليها ويقول : إن فيها أمراً للنبي بأن يكون علماء اليهود أساتذته في الدين والتوحيد ، فإما أنه يؤمن بأنها وحي من الله للنبي ، ولا يمكن أن يستقيم كلامه ، ولا مدى الآية إلا بذلك ، فيكون قد التزم بالإيمان بوحى الله القرآن في النبي المنزل عليه ، وإما أن لا يؤمن بذلك ، فيكون قد استند إلى حجة لا يؤمن بها ، وهذا غاية المباحكة والتمحل والزيف والتخبط مع سوء النية وقصد التجريح وحسب .

٢٠- ويورد الحوري آية سورة هود هذه (أَقْنِ كَانَتْ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَبَيَّنَّا لَهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ١٧) ويقول : (إن الآية تأمر محمداً بأن لا يشك في ما أنزل إليه فهو الحق الذي يشهد به أهل العلم من مؤمني التوراة والإنجيل . وإذنه يكفيه أن يكون إمامه كتاب موسى) وفي كلام الحوري تحريف وتخريف ، فالآية بسبيل الجدل مع الكفار ، والمقابلة بين ما هم عليه وما عليه النبي الذي هو على بينة من ربه ويبتلو قرآناً نزل عليه منه كشاهد على ذلك ، وجملة (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) هي بسبيل تقرير كون الله تعالى كما أنزل كتاب موسى قبل القرآن إماماً ورحمة . أنزل القرآن مثله إماماً ورحمة . وضمير (بِهِ) عائد إلى القرآن ، وتكون جملة (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) قد عنت أن الذين آمنوا بكتاب موسى يؤمنون بالقرآن أيضاً ، وهو ما حكته آيات أخرى مر إيرادها .

وفي العبارة تحد للكفار ، فإذا كان هؤلاء قد كفروا ، فإن أهل الكتب السابقة الذين عرفوا أن القرآن مثل كتبهم منزل من الله ، وأن محمداً رسول مثل رسلهم مرسل من الله قد آمنوا بها ، وهذا يكفيه . وهكذا ينقلب ما في الآية من دلالة على الحوري ويجزئه بسبب تحريفه لها وتخريفه عنها ، حيث ينطوي فيها تقرير لشخصية الرسالة المحمدية القرآنية المستقلة وإيمان أهل الكتب السابقة بها .

ونقطة أخرى مهمي عنها الحوري ضده في هذه الآية ، فقد خاطبت خاتمها النبي لتؤكد له من باب التثبيت أن القرآن المنزل إليه هو حق من ربه ، وفي هذه الحادثة تؤكد لاستقلال الرسالة المحمدية عن رسالة موسى وكتابه ، وكون رسالته وكتابه مشاهين لها ومتقين معها في المصدر وحسب . والحوري إذ يستشهد بالآية يكون بين أمرين : إما أنه مؤمن بأنها وحي من الله ويستشهد بها على هذا الاعتبار ، فبطلت حجته الزائفة ، وإما أنه لا يؤمن بها فظهر قبحه وعرضه وغباؤه .

٢١- ويورد الحوري آيات سورة السجدة هذه (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ٢٣ و ٢٤) ويقول (إن الآيات تقول لمحمد : لا تشك في اتصالك بكتاب موسى بواسطة بني إسرائيل ، فإنهم يهدون بأمرنا إلى هدى الكتاب كما يفعلون معك) . وفي هذا الكلام تحريف وتخريف أيضاً ، فالآيات صريحة بأن كتاب موسى إنما كان هدى لبني إسرائيل ، وإنهم إنما كان فيهم أمة يهدون بأمر الله حينما كانوا مستقيمين صابرين موقنين بآيات الله ، وليس فيها ما تخرص به بأنهم يهدون النبي وكل ما فيها تؤكد تثبتي للنبي بأن الله أتى موسى الكتاب ، وجعله هدى لبني إسرائيل فكأنما أرادت أن تقول له والله أعلم (وكما كان ذلك بالنسبة لموسى كان

بالنسبة لك فأنتناك القرآن) .

ولقد همي الحوري عن الآية التي بعد الآيتين لأنها تنسف كلامه ،
وتظهر وقاحته وتخوصه ، وهي (إِنْ رَبَّكَ هُوَ يَقْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَيَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) . فهذه الآية من جهة دليل قاطع
على أن ما جاء في صدد كتاب موسى وبني إسرائيل والأئمة الذين جعلهم
الله منهم لهداية الناس هو في شأن موسى وبني إسرائيل بالنسبة لسابق
أمرهم ، ومن جهة دليل قاطع على أنهم حينما نزلت الآيات القرآنية كانوا
مختلفين فيما بينهم ومتنازعين ومنحرفين عن الحق . ففقدوا بذلك ما منحهم
الله إياه من إمامة سابقة حينما كانوا صابرين مستقيمين ، وفي هذا نفس
لكلامه الأخير ، لأن من كان على هذه الحالة من الاختلاف والانحراف
لا يصح ولا يمكن أن يكون معلماً للنبي ، ولقد جاءت آيات سورة المائدة
هذه (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ
عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ
الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِوُسْعِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً
لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
السَّبِيلِ . فَيَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً
يَجْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ
وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ .. ١٢ و ١٣)
مقررة لتلك الحالة ، ودامغة لليهود ، ثم دامغة للحوري الذي يريد أن يجعل
الذين نقضوا ميثاق الله واستحقوا لعنته ، وجعل الله قلوبهم قاسية ، ومن
يجرفون كلام الله ، ونسوا حظاً منه ، ومنهم من هو متلبس دائماً بالحيانة
معلمين هادين للنبي ﷺ .

٢٢ - ويورد الحوري آية سورة العنكبوت هذه (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ الْكِتَابَ قَالَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَمُنُّ
هَؤُلَاءِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧)
ويقول إن الآية (بصدد تقرير كون اليهود والنصارى متفقين مع محمد
على وحدة الكتاب ووحدة الوحي ، ووحدة الإيمان ، ووحدة الدين ،
وكون أهل الكتاب شهداء على أن الكتاب الذي أنزل عليه مطابق
لكتاب الذي أنزله الله من قبل) وهذا تخويف منه ، وليس مفهوم الآية
الذي أغفله الحوري عن قصد حتماً ، وهو تقرير إيمان أهل الكتاب
بالقرآن ، لأن الضمير في (به) راجع إلى القرآن الذي عبرت عنه الآية
بهذه الجملة (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ) . وفي الآية في نفس
الوقت توطيد لشخصية الرسالة الحمديدية القرآنية .

ولقد جاء قبل هذه الآية هذه الآيات (أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ
الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ . وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ
الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا
آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .. ٤٥ و ٤٦) . وفي الجملة الأولى من الآية الأولى
توطيد آخر لشخصية الرسالة الحمديدية القرآنية ، وفي الآية الثانية خطة
للمسلمين إزاء من يجادلهم من أهل الكتاب ، وفي هذا معنى الشخصية المستقلة
لكل من الفريقين . ولنا نرى تناقضاً بينها وبين ما قررته الآية التي بعدها
من إيمان أهل الكتاب بالقرآن والحالة هذه ، إذ يجوز أن يكون منهم من
جادل أو يحتمل أن يأتي منهم من يجادل .

٢٣ - وقد أورد الحوري آيات سورة الشورى هذه (وَمَا كَانَ
لِنُبَشِّرَ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولاً فَيُوحِي بِآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَكَذَلِكَ

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَإِلَيْكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٥١ - ٥٣) .

ومع أنه لاصلة الآيات مباشرة بالموضوع الذي يدور عليه الحوري
الكلام ، وفيها نص دامج له بوحى الله للنبي ﷺ فإنه بعد أن أوردناه
في سلسلة الآيات (تساول وكيف كان واسطة الوحي للنبي العربي ، ثم
أجاب نفسه قائلاً : إنها بواسطة الإيمان بالكتاب الذي نزل قبله والذي
جعله الله نوراً يهدي به من يشاء ، فاهتدى ابن عبد الله إلى صراط الله
المستقيم ، فبواسطة الكتاب المقدس آمن واهتدى وهدى) وهذا الكلام
أشبه بالهذيان منه بأي شيء آخر ، وليس في الآيات ما يفيد ما استخرجه
منه وهدى به ، لا من قريب ولا من بعيد ، ولقد جعل كل مزية محمد
ﷺ وقرآنه ورسالته وهداه منوطة بكتابه المقدس الذي يضم الأسفار التي
فيها ما فيها من عجائب وغرائب وليس منها تورااة الله ولا نحيله .

ولقد وضع الحوري ضمة على قاه (لتهدي) لإغفالاً في تحريف الكلم عن
موضعه ، وانسياقاً في تأويله بالهوى حتى لا يكون المعنى أن النبي عهدي
الناس إلى صراط الله المستقيم ، غافلاً عن أن في القرآن المكى آيات عديدة
فيها هذا المعنى مثل آيات سورة إبراهيم هذه (اسر كتاباً أنزلناه
إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى
صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .. ١) وسورة المؤمنون هذه (وَإِلَيْكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. ٧٣) ومع ذلك فلا ينقص من قدر
النبي كما نؤمن الحوري أن يقرر القرآن أنه (يهدي إلى صراط مستقيم) !
٢٤ - ولقد رأى الحوري آيات سورة القصص هذه (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا بُتِلَ عَلَيْهِمْ قَالُوا

آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ..
 ٥٢ و ٥٣) تحكي وصف أهل الكتاب أنفسهم بالمسلمين قبل نزول القرآن ،
 ثم رأى آية في سورة النمل تذكر أن النبي ﷺ أمر بأن يكون
 من المسلمين وهي هذه (إِنَّمَا أَمِِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ
 الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
 ٩١) فربط بين ذلك وقال : إن في آية النمل دليلاً على انضمام محمد إلى
 أهل الكتاب في مكة وتضامنه معهم بل زعم أن هذا الدليل موجود في
 آية سورة يونس هذه (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ مِنْكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ
 دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ
 الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .. ١٠٤) لأن
 المؤمنين الذين أمر النبي بأن يكون منهم هم أهل الكتاب .

والضمير في (به) وفي (يتلى عليهم) في آيات سورة القصص عائد إلى
 القرآن . لأنه هو الذي كان المفروض وحده الذي كان يتلى عليهم وفي
 الآيات السابقة لها دليل قطعي على ذلك إذا كان الأمر يحتاج إلى دليل وهذا
 هو (وَلَوْ لَا أَنْ تَصِيَّبُهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا
 لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .
 فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ
 مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ
 تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ . قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
 لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ
 بَغْيِرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . وَلَقَدْ
 وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .. ٤٧ - ٥١) فجاءت الآيات
 ٥٢ - ٥٥ بعدها لإضمامهم وتوحيدهم ، فإذا لم يؤمنوا بالقرآن والرسول ، فإن الذين

أوتوا الكتاب كانوا مؤمنين بها وإذا يتلى عليهم القرآن قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا . وهم أهل المعرفة أكثر منهم . وهكذا يكون الدليل قد انعكس ضد الحيري ، لأن الذين أوتوا الكتاب هم الذين انضموا إلى محمد لا العكس ، وظهر بذلك غثاثة استدلاله واستنتاجاته التي يملها عليه الهوى مهما كان فيها غباء وصفاقة .

ونبه في هذه المناسبة إلى أمر مهم وهو أن كلمات الإسلام والمسلمين في القرآن المكسي ، بل والمدني إنما تعني في الدرجة الأولى إسلام النفس لله ، ولم تكن تعني في الأصل صفة خاصة لأهل نحلة أو ملة بما في ذلك اليهودية والنصرانية بما يتمثل في الآيات التالية :

١ - وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .. [البقرة : ١١١ و ١١٢] .

٢ - وَمَن يَرْغَبُ عَن حِلَّةِ إِبراهيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ .. [البقرة : ١٣٠ - ١٣١] .

٣ - إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مَن بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِن حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِن أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .. [آل عمران : ١٩ و ٢٠] .

٤ - وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .. [لقمان : ٢٢] .

وهذا هو المقصود من وصف أهل الكتاب أنفسهم بأنهم كانوا مسلمين
قبل القرآن في آيات القصص بحيث يبدو من كل ذلك أن محاولة الحوري جعل
هذه الكلمة صفة خاصة أو تسمية خاصة لأهل الكتاب قبل الإسلام استناداً إلى
القرآن متهافة ، ولقد ورد في القرآن المكّي ثم المدني آيات عديدة ، فيها
تخصيص في الخطاب للنبي ﷺ وأتباعه ، من ذلك هذه الآيات التي فيها أمر
للنبي وأتباعه بأن يسلموا لله :

١ - قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .. [الأنعام : ١٤] .

٢ - قُلْ أَتَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا
وَنُودٍ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ
فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ إِنَّهُمْ لَأُولُو
الْأُلْبَابِ قُلْ هُوَ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .. [الأنعام : ١٨] .

٣ - قُلْ إِنِّي مَهَيْتُ لِرَبِّهِمْ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ..
[غافر : ٦٦] .

ومن ذلك آيات تأمر النبي بأن يكون الإسلام لله هو طابع دعوته
وأن تكون صفة المسلمين صفة الذين يتبعونه كما ترى فيما يلي :

١ - قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَلِإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ
بِهِ مُسْلِمُونَ .. [البقرة : ١٣٦] .

٢ - آيات سورة آل عمران ١٩ و ٢٠ التي أوردناها قبل قليل

٣ - "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ قَوْلُوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ..
[آل عمران : ٦٤] .

٤ - "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ
يُرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يُضَيِّعْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّهُ بِصَعْدٍ فِي
السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا
صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ لَهُمْ
دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ..
[الأنعام : ١٢٥ - ١٢٧] .

٥ - "فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ
وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . [هود : ١٤] .

٦ - "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ بِمَا تَخْلَقُ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ
الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ مَرَابِيعَ تَقْبِيكُمْ الْحَرَّةَ وَمَرَابِيعَ
تَقْبِيكُمْ بِأَسْكَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ..
[النحل : ٨٦] ^(١) .

ومعنى (إسلام النفس) ملموح في جميع هذه الآيات كما هو ظاهر ،
وكل ما تقدم يثبت أن صفة الإسلام والمسلمين للنبي وأتباعه ليست
مستعارة من غيرهم من قبلهم ، وإنما هي أصيلة لهم استقلالاً ، هذا بقطع
النظر عن أنه ليس بما ينقص خطورة هذه الصفة لهم كونها كما يريد أن

(١) هناك آيات عديدة أخرى من هذا الباب . انظر آيات سورة النحل
٨٩ و ١٠١ الأنبياء ١٠٨ والنمل ٨١ والروم ٥٣ والزمر ١٢ و ٤٤ والزخرف
٦٨ و ٦٩ واللقم ٣٥ .

يوهمه الحوري صفة أنبياء الله ، والمستقيمين على دينهم من أتباعهم وذرياتهم ،
فدينهم ودين النبي محمد ﷺ واحد ، وصفاتهم والحالة هذه متساوية .

ومع ذلك فحكمة الله ورسوله اقتضت أن يكون اسم (الإسلام)
و (المسلمين) هو اسم مستقل دائم لدين النبي محمد ﷺ وأتباعه ، وهذا
مستفاد بنوع خاص من آيات سورتي المائدة والحج المدنية هذه .

١ - الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. [المائدة : ٣] .

٢ - وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ مِمَّا كُمُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. [الحج : ٧٨] .

وبعض المفسرين يقولون : إن الضمير (هو) في آية الحج يعني إبراهيم ،
وبعضهم يقولون : إنه يعني (الله) وفي سورة البقرة هذه الآية التي فيها
حكاية دعاء عن لسان إبراهيم وإسماعيل (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) مما قد يكون قرينة على
القول الأول ، كما أن آيات البقرة ١٢٨ وآل عمران ٦٤ وهود ١٤ والنحل
١٠١ والنمل ١٠١ وقد أوردناها آنفاً قد تكون قرينة على القول الأول .

ويظهر أن آية الحج قد وقفت في زور الحوري وكادت أن تخنقه ،
فما كان منه إلا أن قال (مُشعر - بضم الشين - أن القرآن أخلف اسم
الإسلام عن أهل الكتاب) كأنما أراد أن يقول : إن الآية جاءت للرد
على ما مُشعر ولتثبت كون التسمية هي من الله ، وليست مقتبسة عن أهل
الكتاب ، وبكلمة أخرى أراد أن يقول : إنها افتعلت افتعالاً فض الله فاه
وكبرت كلمة تخرج منه ، وقد شرحنا قبل ما يعنيه القرآن بالنسبة للنبي
ولأصحابه الأولين ، واستعالة افتعالهم قرآناً مفترى على الله ، ونبها على أن

مثل هذه القضايا لم تكن واردة في زمن النبي وأصحابه الأولين حتى
تقتعل النصوص القرآنية الرد والتخفيف ، ولكن قاتل الله الحقد والهوى الذين
يلبان على الحوري .

وقبل أن نختم هذه النبذة نقول : إن الحوري يقع وهو محل هذه
الآيات بطريقته التمهلية المتهافة ليستخرج منها ما يؤيد هواه ومزاعمه في
تناقض عجيب ، فإن مقتضى استناده إليها أنه يؤمن بصدق وحيا من الله
على نبي من أنبياء الله . وهذا يقتضي أن يكون مؤمناً بنبوة هذا النبي
وبالتالي مؤمناً بأنه لا يكذب ولا يفترى على الله . فيكون ما في القرآن
من آيات لا ينكرها ، ولا يتحفظ لإزائها ملزماً له . وفي القرآن المكي
والمدني آيات كثيرة لا ينكرها ، ولا يتحفظ لإزائها ، وفيها المعنى الذي يتحمل
في تأويله ، ويجادل صرفة عن موضعه في الآيات التي أوردناها في هذه النبذة
صريحاً لا يتحمل مراء ولا تمحلاً ، ويقف الحوري لإزائها ساكناً مسلماً .

ونوضح ذلك بهذا المثال ، فالحوري يقول : إن للقرآن يأمر النبي بأن
يقول : إنه أمر أن يكون من المسلمين في آية النمل (٩١) ويؤول ذلك بأن
فيه أمراً له بالانضمام إلى المسلمين من قبله الذين هم أهل الكتاب ، والذين
حكى آية القصص (٥٣) قولهم : إنا كنا من قبله مسلمين . فتلسم بتأويله
لآيتي النمل والقصص على الوجه الذي أولهما به ، ولتلسم كذلك ربطه بين
الآيتين مهما كان في ذلك من قبح بما شرعناه قبل ، ويبقى الحوري على كل
حال مقراً بأن آية النمل وحى رباني على نبي ، ويكون بذلك قد التزم
بما أن النبي الذي يوحى إليه لا يمكن أن يكذب ، وفي سورة العنكبوت
هذه الآية (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالْمُذِينِ آتَيْنَاهُمْ
الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. ٤٧) ولا يدعي الحوري أنها مقعمة . وفي
سورة المائدة هذه الآيات (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا
مُبَيِّنٌ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ

كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله
من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى
النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .. ١٥ و ١٦) ولا يدعي
الحوري كذلك أن هذه الآيات مفتعلة .

ولقد كان من واجب الحوري ديناً وعقلاً وذوقاً إزاء هذا ألا يتمحل
تلك التمحلات بقصد صرف الآيات عن موضعها ، وبكلمة أخرى بقصد
القول : إنها لا تنطوي على أمر لأهل الكتاب باتباع الرسول وإنما تنطوي
على تقرير كون هذا الرسول هو تابع لأهل الكتاب .

ولكنه في الحقيقة غير جاد فيما يتظاهر أنه مسلم به ، وكل أمره هو
التمحل والمحاكمة والتجريح والطعن مها كان في ذلك غباء وغشاة وتمات
وتناقض وسوء أدب وذوق .

وكل ما تقدم يمكن أن يقال في كثير من تمحلات الحوري ومواقفه
من القرآن والنبي .

- ١٢ -

ولقد قال الحوري : إن الدعوة الحمديدية في مكة كانت كتابية في
قصصها ، وهو يعني القرآن المسي بطبيعة الحال ، وما قاله هو نصف الحقيقة ،
وقد تغافل بهواه عن نصفها الآخر ، وأهمله حيث تنامي أن في القرآن
قصصاً كثيرة غير كتابية ، مثل قصص عاد وهود وشعيب ومدين ، وأهل
الأيكة ، وقوم تبع ، وأهل الرس ، وسبأ ولقمان ، وذوي القرنين الخ ..

ولقد كان نهاء العرب يعرفون قصص الكتابيين قليلاً أو كثيراً كما يعرفون
القصص العربية ، وفي للقرآن إشارات إلى هذه المعرفة مثل آية سورة
الأنبياء هذه (يَلْ قَالَوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ يَلْ اقْتِرَاءُ بَلْ هُوَ
شَاعِرٌ قَلِيلاً تَبَا بآيَةِ كَا أُرْسِلَ الْاَوَّلُونَ .. ٥٥) وآية سورة القصص
هذه (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا اُوْتِيَتْ مِثْلَ مَا

أَوْفِي مَوْسَى .. ٤٨) وآية سورة العنكبوت هذه (وَعَادًا وَثَمُودَ
وَقَدْ قَبَّلْنَا لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَذَرَيْنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَهْمَالَهُمْ
قَصْدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .. ٣٨) وآية سورة السجدة
هذه (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ
يَظُنُّونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ .. ٢٦) .

وهذه المعرفة واردة بالنسبة للنبي ﷺ أيضاً .

والهدف القرآني منها هو العبرة والموعظة والتذكير والتمثيل ، فلم
تكن معرفة السامعين السابقة متعارضة مع وحي الله للنبى بما أوحى
إليه منها بالأسلوب الذي أوحى به ، وبالصيغ المتعددة المتكاملة المتنوعة
التي جاءت عليها حيث اقتضت حكمة التنزيل ذلك لتحقيق ذلك الهدف ،
فليس في هذا شيء يتحمل تحملاً أو وصفاً بأنه اقتياس ، أو أنه تأثير
كتابي أو اختصاص كتابي .

ولقد قال الحوري : إن الدعوة الحمدية كانت كتابية في جدها ، ولم
نفهم ما يقصد من ذلك ، فالجدل في القرآن المكّي كان في الدرجة الأولى بين
النبي وكفار العرب ، وليس فيه شيء يصح أن يسمى كتابياً إلا إذا كان
الحوري يعد من ذلك ما ورد في أثناء ذلك وسياقه من تقرير وحدة الله تعالى
ومحاربة الشرك والأوثان ، وليس في هذا سند له في دعواه ، فالتوحيد
فطرة الله التي فطر الناس عليها منذ الأزل ، كما جاء في آيات سورة الروم
هذه (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا
مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا كُلٌّ هُوَ
جَمَاعَةٌ لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .. ٣٠ - ٣٢) .

ولقد كان من أثر فطرة الله هذه أن انبثق في قلوب فريق من نبيه

العرب في مكة وغيرها قبيل البعثة استخاف لما كان عليه قومهم من عقائد وتقاليد شركية ووثنية ، واتجاه إلى توحيد الله وعدم إشراك أحد معه وعبادته وحده ، ومنهم من تهود ، ومنهم من تنصر ، ومنهم من لم يفعل ذلك لما كان عليه اليهود والنصارى من انحرافات واختلافات ، وظل على ذلك الاتجاه مع شيء من الحيرة ، وكان من هؤلاء محمد ﷺ ، فاصطفاه الله من بينهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وبث فيه اليقين ، وحملة مهمة الدعوة إلى الله وحده ومحاربة الشرك والوثنية وتقاليدهما ، وتصحيح عقائد وانحرافات الكتابيين .

ومن الجدير بالتنبيه أن الدعوة إلى الله وحده ، ومحاربة الشرك والوثنية في ماغزي إلى مومى والأنبياء من قبله وبعده في الأسفار المتداولة ليس موضوعاً جديلاً حتى يصح القول : إن ذلك في القرآن هو جدل كتابي ، بل لقد كانت الحطة التي رسمت في بعض هذه الأسفار معزوة إلى الله ورسله ، وهم منزهون عنها تقضي باستئصال كل مشرك ، وكل وثني وقتله بما فيهم الشيوخ والأطفال والنساء دون توجيه أي دعوة إليهم لتوحيد الله ونبد الشرك والأوثان ، وتقضي كذلك بعدم إتاحة أية فرصة لهم لذلك كما جاء صراحة في سفر تثنية الاشتراع .

ولئن كان الحوري يعد إيراد القصص في القرآن في مقام الجدل مع العرب من الجدل ، فهي ليست كتابية قط .

ولقد كان من مواضيع الجدل القرآني المكي عقائد المشركين بالملائكة والجن وعبادتهم إياهم مستشفعين بالأولين مستعيزين من الآخرين ، وليس هذا جدلاً كتابياً

وأكبر الجدل في القرآن المكي هو حول البعث الأخروي ومشاهدة وصور حسابة ونعيمه وعذابه . وهذا يبدو في الأسفار المتداولة التي بعضها الحوري فيما يعنيه بقوله (كتابية) . وليس هو على كل حال جديلاً فيها ، وليس فيها

شيء من الصور والمشاهد الكثيرة جداً التي امتلأت بها السور المكية ، ومعظمها متساق مع مألوفات العرب السامعين وممارساتهم .

ولقد كان من أكثر ما دار عليه الجدل بين النبي ﷺ والكفار ، وحكته آيات كثيرة في سور عديدة من السور المكية في مختلف أدوار التنزيل شخصية النبي ذاته . حيث كانوا ينكرون نبوته ورسالته ، ويقولون حيناً : إنه ساحر ، وحيناً إنه مسحور ، أو كذاب ، أو مفتر ، أو كاهن ، أو شاعر ، أو ناقل عن كتب السابقين وأساطيرهم ، أو متعلم من أهلها ، ويتحدونه بالخوارق والمعجزات التي كان من جملتها استنزال الملائكة للشهادة بصدقه ، واستنزال الكتب والصحف عليهم من السماء ليقروا حتى يصدقوا دعواه ، وإحياء آبائهم ليشهدوا بصدق إنذاره بالبعث والحساب والثواب والعقاب ، وإسقاط السحب وتسيير الجبال النع النع وليس هذا أسلوباً اسفارياً . حيث يبدو من كل ذلك أن الحوري يرسل الكلام جزافاً بدون ترو ولا تثبت ولا إحاطة .

ولقد قال الحوري : إن الدعوة الحمديدية في مكة كانت كتابية في مصادرها ، وما ذكرناه آنفاً ينسف هذا القول ، ويثبت أن القرآن شخصيته المستقلة في الدرجة الأولى ومواضيعه الكثيرة الخاصة التي يتميز بها ، والتي ليس بين كثير منها بل أكثرها وبين الأسفار تماثل ، وإن في قوله هذا تحجياً كبيراً على الواقع الذي هو بين أيدي الناس ، والذي لا يمكن للحوري وأمثاله أن يغيروه بزعم جزافي مخالف له .

ولقد قال الحوري أخيراً : إن الدعوة الحمديدية في مكة كانت كتابية في موضوعها .

ومن الحق أن نقول : إن في الآيات المكية تقريراً متكرراً بأن ما جاء في القرآن هو مصدق لما بين يديه ، وأن الله تعالى قد أوحى إلى نبيه محمد ﷺ في القرآن بما أوحى في كتبه السابقة إلى أنبيائه السابقين

الذين ذكرت أسماء كثير منهم في الأسفار ، وأن الله قد شرع للمدعوين بالدعوة المحمدية من الدين ما وصى به الأنبياء من قبله أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، غير أن الدعوة المحمدية كانت متميزة بما كان من تبرؤها من تعقيد العقيدة المسيحية ، وتعقيد الطقوس الشديدة في الشريعة الموسوية وكانت رسالة إنسانية عالمية باسم رب العالمين لا رب إسرائيل ، مفتوحة لكل جنس ولون ونحلة ، وليست مغلفة عدوة لكل جنس ولون ونحلة من غير بني إسرائيل ، وكل من يقرأ أسفار الخروج والأخبار والعدد وتثنية الاشتراع ويوشع وعزرا ، ثم يتصفح القرآن المكي يرى مصداق ذلك قوياً ساطعاً ، ويرى في زعم الحوري بجانب الواقع وبخالفه صارخة له .

وقد تكون الدعوة المسيحية مختلفة عن ما في أسفار العهد القديم في هذه النقطة ، وبينها وبين الدعوة المحمدية تماثل ، غير أن في الدعوة المحمدية أو الأسلوب القرآني أشياء كثيرة يجعلها متميزة تميزاً كبيراً عن الأسلوب الأنجيلي ، والأسلوب الأسفاري المعروف معاً .

ولقد كان من مواضيع القرآن المكي الرئيسية التي تكررت بأساليب وصيغ ومناسبات متنوعة في أكثر السور المكية مواضيع مشاهد الكون ونواميسه من سماه ونجوم وبروج وأفلاك وسحاب وأرض وأمطار وبحار وجبال وأنهار وزروع وأشجار وأنعام ودواب وطيور وأسماك السخ في معرض تعداد نعم الله على خلقه ، والتدليل بما في كل ذلك من إقتات وإبداع وعظمة على وحدانية الله تعالى واستحقاقه وحده للعبادة والخضوع والانجاء ، وليس هذا أسلوباً أسفاريّاً أو أنجيلياً أو كتابياً على تعبير الحوري .
- والحوري حين يقول : كتابي يقصد الأسفار المتداولة - وليس في هذه الأسفار من ذلك إلا إشارات عابرة .

ومن المميزات الخاصة في النظم القرآني المكي كثرة الأقسام الربانية في مطالع السور وفي آياتها الأخرى ، وهذه ميزة من ميزة الخطاب العربي ،

وليس في الأسفار ما يائثها ، ومن تخطيط الحوري أنه اعترف بذلك ، وأقر في بعض المناسبات أنها مخالفة للأسلوب الإنجيلي ، وبكونها من مميزات الخطاب العربي .

ويتنامى الحوري وهو يقول : إن القرآن المكبي كتابي في مواضعه كما في أسفار الخروج والأخبار والعدد من تفصيلات مسببة ومعقدة وعجيبة في مواضيع الطقوس الدينية والكفارات والنجاسات والطهارات والدم والبرص والسيلان والحيوانات البرية والبحرية والطائرة المحرمة وغير المحرمة . وكيفية إقامة المعبد ومقاييسه وأعمدته وأوانيه وأدواته وستاره ومناضده الخ الخ مما ليس في القرآن آية مماثلة له .

هذا إلى مواضيع قرآنية مكبية عديدة ليست إنجيلية ولا أسفارية مثل فرض الزكاة بقدر معلوم على أموال أصحاب الأموال للسائلين والمحرورين ، ومثل وصف أحوال وأخلاق المسلمين الشخصية والتعبدية والاجتماعية ، ومثل التنبيه بخاصة بأنهم أمرم شوري بينهم ، وأنهم إذا أصابهم البغي ينتصرون منه ، وأنهم مسموح لهم بأن يقابلوا العدوان بمثله ، ومثل تقرير إنسانية المرأة ، واعتبارها في الخطاب والتكاليف صنواً للرجل ، ونوجيه الخطاب إليها وإلى الرجل معاً في ذلك .

- ١٣ -

ولقد ذكرنا في مطلع الفصل أن الحوري قسم عهود النبي في مكة إلى عهدين الأول هو العهد المسيحي ، وزعم أن سور القرآن المكبية من أولها إلى سورة مريم الرابعة والأربعين حسب ترتيب نزولها تمثل هذا العهد ، وأن سورة مريم تمثل ذروة ذلك . والثاني العهد الإمبراطوري الذي تمثله السور من الخامسة والأربعين إلى السادسة والستين ثم قال : إنه كان بعد ذلك عهد تردد واستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب . وكان ذلك في أواخر العهد المكبي ، لأن اليهود ردوا النبي رداً غير جميل .

والسور الأربع والأربعين التي يزعم الحوري أنها تمثل العهد المسيحي حسب ترتيب النزول هي الفاتحة والعلق والقلم والمزمل والمدثر والمسد والتكوير والأعلى والليل والفجر والضحى والشرح والعصر والعدايات والكواثر والتكافؤ والماعون والكافرون والفيل والفلق والناس والإخلاص والنجم وعبس والقدر والشمس والبروج والتين وقريش والقارعة والقيامة والمهزة والمرسلات وقاف والبلد والطارق والقمر وصاد والأعراف والجن وبن والفرقان وفاطر ومريم .

وبما يسوقه في معرض التدليل على زعمه كثرة ورود كلمة (الدين) في هذه السور التي تعني يوم القيامة والجزاء والتي تكرر ورودها في الأنجيل . وقد اعتبر تعبير (أبانا الذي في السموات) الذي في الأنجيل أصلاً للتعبير القرآني (رب العالمين) و (الرحمن الرحيم) كما اعتبر كثرة الدعوة الى التصديق على الفقراء والمساكين ، والتبديد بجماعي المال وجهه ، وإيجاب الزهد فيه مماثلاً لما جاء في الأنجيل من مثل ذلك على لسان عيسى عليه السلام ، وبالتالي من مصادر القرآن على ما بين الأسلوبين ومادتهما من فرق كبير يظهر عند المقارنة ولقد نصيد كلمات وتعابير أخرى أخرى في هذه السور مثل كلمات (الساعة) و (انشقاق القمر) و (ظلامه) ومثل (الحق والحق أقول) ومثل آية الأعراف (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) ومثل آية الأعراف (وَثُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) بسبيل التدليل على ذلك ، لأن في الأنجيل كلمات وعبارات وتعابير مقاربة لها ، ومن ذلك مثلاً آية في الأنجيل جاء فيها (لأنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الابرة من أن يدخل غني ملكوت السموات) وآية أخرى في بعض الأنجيل جاء فيها (تعالوا بامباركي ربي رثوا الملك المعد لكم

منذ إنشاء العالم) والسور التي تأتي بعد سورة مريم ، والتي يزعم الحوري أنها تمثل العهد الإسرائيلي إلى السادسة والستين هي حسب ترتيب النزول سور طه والواقعة والشعراء والنحل والقصص والإسراء ويونس وهود ويوسف والحجر والأنعام والصفات ولقمان وسبا والزمر وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجنات والأحقاف . وقد نبه بسبيل التدليل على زعمه على ما كثر في هذه السور من قصص بني إسرائيل المتنوعة وذكرهم .

ومزاعم الحوري هي هراء وهذيان أكثر منه أي شيء آخر .

فكلمة (الدين) عربية ، وقد تكرر ورودها حقاً في الترجمة العربية للأناجيل ، وليس من شك في أن لغة الأناجيل الأولى ليس فيها هذه الكلمة بلفظها ، وكل ما يمكن أن يكون أنها احتوت معناها وهو يوم القيامة ويوم الحساب والجزاء وهذا معنى مشتوك لا يصح أن يؤخذ كأنه مقتبس من معنى ورد في الأناجيل ، واعتبار ذلك من الأدلة على أن عهد القرآن الأول في مكة هو عهد مسيحي ، ففي هذا سخر وتهاوت ، ومثل هذا يقال في مقارنة تعابير القرآن (رب العالمين) و (الرحمن الرحيم) بتعبير (أبانا الذي في السموات) الإنجيلي ، وفي صدد العبارات الأخرى التي فيها شيء من التقارب والتائل في المعنى والموضوع ، ولا حرجاً أنه شيء قليل جداً .

ولقد عمي الحوري عن مئات الصور والأساليب والتعابير والمواقف والأهداف والمبادئ والقصص والأمثال التي في السور الأربع والأربعين الأولى ، والتي ليس شيء منها في أناجيله كما عمي مما تميزت به هذه السور من أسلوب فذ فريد لا يمكن أن يقايس موضوعاً ومدى ومحتوى مع الأناجيل ، والسور والأناجيل بين أيدي كل الناس ، ويقتضي أن يكون المرء فاقداً لذوقه وعقله حتى يسوق مثل الأمثلة التافهة التي يسوقها

الحوري ويقارن مثل المقارنات التي يقارنها لجعل من ذلك سنداً على
الدعوى السخيفة التي يدعيها .

وأيضاً في أناجيل الحوري ومن أين جاء ما في هذه السور من تفصيلات
الحياة الآخروية ومشاهدها وحساباتها وكتب أعمال الناس والملائكة الذين
يكتبونها ونعيم الجنات ورفاهها وطورها ولحومها وجلها وشراها وهور
عينها ومررها وظلالها وأشجارها ومياهها وطقسها وجحيم النار ، وحيم
مائها وزقومها وغسلينها وضربها التي امتلأت بها هذه السور والتي كانت
القرآن بها فريداً .

وأيضاً في أناجيل الحوري ، ومن أين جاء ما في هذه السور من أحوال
وأخبار الملائكة والجن وعلاقاتهم بالله والناس وخدمة الملائكة في متنوع
الخدم ، وقصة إبليس وآدم ، وسجود الملائكة إلا إبليس بما انقرد به
القرآن أيضاً .

وأيضاً في أناجيل الحوري ومن أين جاء ما في هذه السور من التنويه
والتفصيل لمشاهد الكون وسمائه وأرضه وكواكبه وبجائه وأنهاره وجباله
وسجده ومطره .

وأيضاً في أناجيل الحوري ومن أين جاء ما في هذه السور من الأقسام
التي تكررت كثيراً والتي هي أسلوب خطابي عربي في الدرجة الأولى .
ولقد عني الحوري بالإضافة إلى ما عني عنه من كل ذلك عن كون
معظم ما ورد منه في السور هو متصل بحياة وممارسات ومألوفات البيئة
العربية التي نزل القرآن فيها لدعوة أهلها في الموحدة الأولى من مراحل
رسالة النبي ﷺ ، كما عني عما احتوته السور من صور ومواقف حجاجية
يعين النبي والمشركون ، ومن صور عقائد المشركين وأوثانهم وعقيدتهم بكون
الملائكة بنات الله وعبادتهم لإمام على سبيل الاستشفاع ، واتخاذهم الأوثان
والأنصاب كرموز مادية لهم مما ليس منه شيء في الأناجيل ، وبما يختلف

كل الاختلاف مما جرى وكان من مواقف بين عيسى عليه السلام
وبني إسرائيل^(١) .

وسورة مريم التي يقول الحوري : إن العهد المسيحي المكي بلغ بها
ذروته احتوت تقاريرات صريحة عن عيسى عليه السلام ينكرها النصارى
اليوم ، ولم يبقوا من الأنجيل والقراطيس شيئاً بينه وبين تقاريرات القرآن
مطابقة صريحة ، ومعنى هذا أن ما فيها في صدد عيسى ومريم وزكريا ويحيى .
هو حكاية ما كان مع تقرير عبودية عيسى لله ونبوته وحسب ، وضلال
الذين جحدوا ذلك ، واختلاف أحزابهم فيه . وليس في هذا ما يسبغ اعقل
أن يعتبر ما جاء في سورة مريم منه ذروة تأثير العهد المسيحي في القرآن .
وهذا بالإضافة إلى ما في هذه السورة من فصول وقصص ليس منها شيء
في الأنجيل ، ومن ذلك ما هو متصل اتصالاً وثيقاً بعقائد العرب ومواقفهم
من الدعوة الحمديّة .

ونسأل من باب المساجلة عن محصل تطابق في بعض المعاني القليلة في
العبارات القرآنية مع بعض المعاني الإنجيلية . ولماذا يكون ذلك سنداً
لاقتباس القرآن عن الأنجيل ، وفي القرآن ما ذكرناه من ماثات الصور
والمشاهد والشؤون مما ليس شيء منه في هذه الأنجيل . وإذا كانت حوصلة
الحوري تتسع لعقيدة وحي الله لأنبيائه بأوامره ونواهيهِ وتعاليمه وأمثاله
ومواعظه وتبشيراته وترهيباته ، وإذا كان الله هو الذي أجري على لسان
عيسى تلك العبارات وهذا مقتضى عقيدة الحوري ، فما هو المانع العقلي
والإيماني والواقعي من أن يكون الله تعالى هو الذي أجراها على لسان
رسوله محمد ﷺ ، ولماذا تكون وحيًا من الله على عيسى ، ولا تكون
كذلك على محمد ؟ !

(١) قد يلحظ أن في الكلام تكراراً ، لأن كثيراً مما ذكرناه هنا ذكر في سياق
تفنيد دعوى كون مواضع القرآن كناية ، غير أن هذا التكرار ضروري في مقامه ..

وفي القرآن المبكي آيات عديدة تسجل إيمان الكتائبين الذين كانوا في مكة بالنبي والقرآن وشهادتهم أنها حق من الله ، وانضوائهم إليها ، وقد أوردناها قبل . وجل هؤلاء كانوا نصارى ، وهذا يعني أن القرآن ومحمد ﷺ هما اللذان أنرا على المسيحية لا العكس .

ولقد عزا الكفار تعلم النبي ﷺ إلى بعض هؤلاء وقالوا : إنهم يساعدونه في نظم القرآن من أساطيرهم وكتبهم حينما رأوا ما كان من اندماجهم معه وانضوائهم إليه ، فوات حكمة التنزيل أن تذكر ذلك ، وتود عليه كما جاء في هذه الآيات :

١ - وَلَقَدْ تَعَلَّمْ أَنْتُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ . لِمَنِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ . [النحل : ١٠٣ - ١٠٤] (١) .

٢ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . [الفرقان : ٤ - ٦]

فغفل خوري آخر الزمان عن ذلك ، أو أغفله بغباء ، ثم لم ينجل من أن يكرره بغثاة وصفافة .

والخوري يسوق ما كثر من السور بعد سورة مريم من قصص بني إسرائيل وشؤونهم كدليل على أن العهد الإسرائيلي المزعوم في مكة يبدأ بعد هذه السورة ،

(١) كان مقتضى زعمهم أن النبي مقرر على الله ويلسب إليه ما يتلوه كذباً فانصب التنزيل الرباني على تكذيبهم وتقرير كونهم هم المفتريين الكاذبين لا النبي .

وغفل بغياء عن أن رسالة موسى لفرعون وبني إسرائيل ، ونجاة هؤلاء من فرعون ، وخروجهم من مصر ، ومواقفهم بعد ذلك قد ورد مكرراً في سور القرآن الأولى التي يقول : لأنها تمثل العهد المسيحي مقتضياً ثلثة ومسهباً ثلثة ، مثل سور المزمل والفجر والنجم والقمر وصاذ الأعراف ، ثم استمر ذلك في السور التي بعد الأربع والأربعين ، وفي سورة الأعراف تفصيل لكل ذلك أكثر مما ورد في غيرها من بعد سورة مريم في ترتيب النزول .

وقد عمي عن القصص العديدة التي وردت في السور التي بعد مريم ، والتي هي قصص عربية مثل قصص عاد وثمود ومدين وأصحاب الأيكة وتبع وأهل الرس ، وبما جاء فيها من قصص إبراهيم التي ليس لها ذكر في سفر التكوين والأسفار الأخرى بالتبعية . ولقد جاءت بعض قصص القرآن مقابلة لما جاء في أسفار العهد القديم ومن ذلك مثلاً قصة آدم وسجود الملائكة له ، وغرد إبليس على ذلك ، وطرده ولعنته ، وتوبة الله على آدم ، وقصص إبراهيم مع قومه فضلاً عن مغايرات جزئية كثيرة بين ماورد في القرآن ، وما ورد في الأسفار من قصص .

وفي السور التي يزعم الحوري أنها تمثل العهد الإسرائيلي مئات من الصور والمواقف والمشاهد الدنيوية والأخروية والحجاجة مع الكفار والمشركين وعقائدهم ومواقفهم ليس منها شيء في أسفار العهد القديم ، وقد عمي الحوري عن كل ذلك .

وشيء آخر يكذب فيه الحوري بوقاحة وصفاقة حين يقول : إن النبي دخل في دور التردد ، ثم في دور الاستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب في أواخر العهد المكبي بعد أن رده يهود الطائف رداً غير جميل . فليس هناك زواية وثيقة ، بل غير وثيقة تذكر يهوداً في الطائف (١) وليس

(١) خبر رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ورد في كتاب «سيرة ابن هشام» وكتاب «طبقات ابن سعد» . وفي الأول تفصيل أكثر ، وما جاء فيه —

هناك أي خبر عن موقف سلمي وإنكاري فيه رد غير جميل للنبي من اليهود في العهد المكبي ، وحينما ذكروا بصراحة بصفتهم بني لإسرائيل في السور المكية في صدد مواقف لهم مع النبي ذكروا بأنهم آمنوا به ، وبأن علماءهم علموا أن ما أنزل على النبي هو حق من الله كما جاء في آيات الشعراء والأحقاف هذه :

— أن النبي صلى الله عليه وسلم عقب وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها اشتد أذى قريش له ، فخرج إلى الطائف على أمل أن يجد عندهم استجابة ومنعة ، وقد اجتمع إلى إخوة ثلاثة كانت زعامة ثقيف وسيادتها فيهم وم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، أبناء عمرو بن عيمر ، فكلهم فاستهتروا به حتى يئس منهم ، وأغروا به سفاهم ، فأخذوا يسبون ويحصبونه حتى ألجؤوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة القرشيين ، وكافا فيه ، فرجع السفاه عنه ، فعمد إلى ظل من عنب ، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفاه الطائف ، فأخذ يبتهل إلى الله ، ويشكو ضعفه ، فتحركت رحاما ، فقالا لفلان لها اسمه عداس : خذ قطعاً من هذا العنب ، وضعه على هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، ففعل وقال له : كل ، فقال : باسم الله ، ثم أخذ يأكل فنظر عداس في وجهه ، فقال : والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله : ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟ قال : نصراني من أهل نينوى ، فقال له : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله : ذاك أخي كان نبياً وأما نبي ، فأكب عداس على رسول الله يقبل يديه ورأسه وقدميه ، فقال ابنا ربيعة أحدهما الآخر : أما خلاصك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ما في الأرض خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر لا يعلم إلا نبي ، قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .. (انظر ابن هشام ج ٢ ص ٢٨ - ٣٠ . وطبقات ابن سعد ج ١ ص ١٩٥) وأن في هذا أي أثر يهود ...

١ - أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ مُعَلِّمُهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ .
[الشعراء : ١٩٧] .

٢ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .. [الأحقاف ١٠] .

ولقد شملهم تعبير أهل العلم وأهل الكتاب الذي ورد مطلقاً في السور المكية ،
والذي جاء في سياق تقرير شهادتهم بصدق رسالة النبي ، وصدق وحي القرآن ،
وصلتها بالله ، ومعرفتهم ذلك ، كما يعرفون أبناءهم ، وبكونهم يجدون صفات
الرسول النبي الأمي في التوراة ، وآمنوا به واتبعوه ، وبخشوعهم وبكأنهم
وسجودهم حينما كان القرآن يتلى عليهم ، وإيمانهم به بما يتمثل في آيات الأنعام ٢٠
و ١١٣ والرعد ٣٩ والإسراء ١٠٧ - ١٠٩ والقصص ٥١ - ٥٥ والعنكبوت
٤٧ التي أوردنا نصوصها قبل .

أما قول الحوري : إن النبي بدأ دوره التطلعي إلى الاستقلال عن أهل
الكتاب في آخر العهد المكّي ، فهو وراء على ما أثبتناه من النصوص العديدة
التي فيها البرهان الذي لا يتحمل مكابرة ولا وراء على أن الرسالة المحمدية
القرآنية رسالة مستأنفة جديدة مستقلة من بدئها .

- ١٤ -

والحوري هوّل كثيراً في وصف قوة وأثر السمة الكتابية في مكة
بخاصة ، وفي أنحاء اليمن وسواحل جزيرة العرب ومنطقة يثرب وشمالها
وشرقها بعامة بهدف تدعيم زعمه أن محمداً ﷺ كان تحت تأثير ذلك حتى
لقد كسر كتابه رقم (٢) المعنون بعنوان (القرآن والكتاب) على
هذا الموضوع .

ولقد قرأ كتابينا سيرة الرسول وعصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة ،
وفيها فصول عن الجاليات الكتابية في الحجاز بعامة ، وفي مكة بخاصة ،

فلو رد ما أراد أن يورده من ذلك تحت عنوان (راي المفسر الأستاذ دروزه
في غزو الحجاز الكتابي) مهماً أن العنوان هو من كتبنا مع أن هذا
غير صحيح ، ومع أن ما أوردناه في الكتابين لا يمكن أن يفيد أن السمة
الكتابية كانت غالباً في الحجاز وفي مكة بخلاصة ، أو أن هناك حركة
يمكن أن توصف بالغزو الكتابي ، لأن ذلك غير الواقع ، فالشرك
ورموزه الوثنية وتقاليده الحج العربية ، والتقاليد الاجتماعية وغير الاجتماعية
العربية الجاهلية كل ذلك كان هو السمة الغالبة على ما تفقده بصراحة
وقوة فصول القرآن المبني التي تفكي سيرة الدعوة النبوية ، وما كان يدور
من جدال بين أهل مكة وبين النبي ﷺ .

واقف شرحنا قبل في أكثر من نبذة ما كان من نظرة أهل مكة
إلى ما كان بين الكتابيين من اختلاف وشقاق وعجيب ، وما كانوا
يقولونه من أنه لو جاءهم نذير منهم ، أو أنزل عليهم كتاب بلغتهم ، لكانوا
أهدى منهم بما فيه الدلالة القاطعة على أن السمة الكتابية لم تكن غالباً
على أوساطهم . وفي سورة الزخرف هذه الآيات (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ
مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ
هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ٥٧ و ٥٨)
وفيها دحض قوي لأي احتمال اسمة كتابية غالبية في مكة .

واقف كان أهل الكتاب فيها أفراداً يعدون عدداً ، وجل الذين
ذكرت الروايات أسماءهم منهم كانوا أرقاءً لوجهاء مكة المسيورين أو
صناعاً ، وقد تلهم بعض الآيات القرآنية أن منهم من كان مثقفاً وميسوراً
وقوي الشخصية ، غير أنهم لم يكونوا أصحاب تأثير محسوس ، ولما شهدوا
أن الرسول والقرآن حق من الله وآمنوا ، تعرضوا للتجريح والتجهم
والتهجم على ما تفقده آية سورة القصص (٥٥) التي أوردناها وشرحنها
قبل ، وهذا لا يمكن أن يكون لو كانوا كتلة كبيرة قوية ، ولم تذكر

الروايات مثلاً غير امم ورقة ابن نوفل ، وعثمان بن الحويرث كعرب قورشين كانوا متصربين ، وكل ما أوردناه في كتابينا المذكورين استلهاماً من القرآن تقرير وجود جمالية كتابية في مكة لها تأثير ما في الأفكار والمعارف الدينية وغير الدينية في هذه البيئة .

وقد تكون الحالة في اليمن وفي يثرب والقرى القريبة منها على طريق الشام ، وبعض أنحاء جزيرة العرب الشمالية والشرقية والساحلية الشرقية مختلفة بعض الشيء . حيث كان في اليمن طائفة نصرانية عربية ، وحيث كان في يثرب والقرى القريبة منها على طريق الشام طوائف يهودية إسرائيلية الجنس ، كثيرة العدد نوعاً ما ، وحيث كان في السواحل الشرقية من جزيرة العرب طوائف نصرانية ويهودية عربية وغير عربية على ما تفيد الملتثورات القديمة . ولقد نهود بعض ملوك حمير بتأثير بعض أهباء يهود يثرب ، ففقت اليهودية في اليمن ، وحاولت إرغام النصارى على التهود ، وأوقعت فيهم مذبحة كبيرة ، وكان ذلك من أسباب غزو الأحباش لليمن في القرن السادس الميلادي ، وقد نكل الأحباش النصارى باليهود ، وطاردوا اليهودية انتقاماً للنصرانية والنصارى ، فانتعشت النصرانية في عهدهم ، غير أن هذا الانتعاش لم يكن يعني غلبة سمّة ، فإن من الحقائق التي لا يصح المهاراة فيها الاستفادة من روايات السيرة والآثار والكتب الأجنبية الأخرى أن السمّة الغالبة في اليمن كانت سمّة الشرك والوثنية والتقاليد الجاهلية . ولقد ذكرت روايات السيرة أن جماعة نصارى اليمن كانت متمركزة في منطقة اسمها نجران ، وإنها أرسلت وفداً إلى النبي فدخلت في ذمته مقابل جزية معينة ، وأن عمر بن الخطاب أجلاها حين تولى الخلافة ، وأن عدد أفرادها لم يكادوا يبلغون الألف .

ولقد كان عدد اليهود في يثرب وما حولها أكثر ، وكان موحكزهم أقوى ، ولكنهم كانوا وسط خضم عربي مشرك ووثني بين ظهرانيم وعن

أيمانهم وشمائلمهم ، بحيث يمكن القول بكل قوة : إن السمة الغالبة للمنطقة وما حولها كانت سمة عربية شوكية وثنية ، ولقد اقتلعهم النبي والمسلمون وقضوا على وجودهم بسهولة ، لأنهم كانوا طراء غرباء لا جذور لهم وسط ذلك الحضم . وكل ما قد تفيد المآثورات أنهم كانوا ذوي تأثير في ثقافة ومعارف جيرانهم العرب الدينية وغير الدينية ، ولقد وصفهم القرآن ببني إسرائيل ، وهذا يعني أنه لم يكن في هذه المنطقة قبائل عربية متهودة خلافاً لما يروى خطأ وإن كان محتمل أن يكون أفراد متهودون من العرب . والمآثورات تذكر أنه كان في سواحل الجزيرة الشرقية بعض طوائف كتابية ، غير أن لدينا وثيقة ذات دلالة مهمة ، فقد كان ملك البحرين من جملة من أرسل إليهم رسول الله ﷺ وكتبه بالدعوة إلى الإسلام ، فاستجاب إليها هو وقومه ، وكتب إلى النبي يخبره أن عنده طائفة من اليهود والمجوس ، ويسأله رأيه فيهم ، فكتب له النبي بدعوتهم إلى الإسلام ، فإن أبوا فتوخلو منهم الجزية ^(١) . وهذا يفيد أنه لم يكن في هذا الظرف في هذه المنطقة نصارى أولاً ، وأن طائفة اليهود لم تكن ذات وجود قوي عدداً ومركزاً ثانياً . وقد كانت (البحرين) تعني في ذلك الوقت المنطقة الساحلية الممتدة بين الكويت إلى عُمان ، ولقد أرسل النبي رسله وكتبه إلى ملك عُمان أيضاً فاستجاب ، ولم تذكر الروايات أنه كان فيها كتابيون ^(٢) . وقد يمكن القول والحالة هذه : إن ما ذكره الحوري نقلاً عن مصادر قديمة من خبر وجود كتابيين في السواحل الشرقية من جزيرة العرب مبالغ فيه كثيراً ، أو أن شأن الكتابيين فيها قد تضاعف قيل بعثة النبي ﷺ وفي ظروفها ، وبكلمة أخرى : إن السمة الغالبة لهذه المنطقة هي سمة العروبة الجاهلية المشتركة الوثنية مثل سائر أنحاء الجزيرة .

(١) و (٢) انظر الجزء الثاني من طبقات ابن سعد .

وقد تكون الحالة شمال الجزيرة الغويي التي تسمى مشارف الشام مختلفة حيث كان فيها قبائل عربية كثيرة تدين بالنصرانية ، وتدين بالولاء للملوك الغسانيين والروم من فوقهم ، ولكن هذه المنطقة لاتعد من جزيرة العرب إلا تجوزاً وهي بعيدة عن الحجاز والتأثير فيه تأثيراً كثيراً فضلاً عن أن غلبة البدواة على هذه القبائل تجعل تأثيرها الديني محدوداً جداً فيما كان يقع اتصال بينها وبين أهل الحجاز ومكة أثناء الرحلات التجارية أو مواسم الحج التي كانت تشهدا .

- ١٥ -

ويتصل بهذا البحث ، أو يتفرع عنه محاولة الحوري استغلال بعض الروايات عن ورقة ابن نوفل وصلة النبي المحتملة به عن طريق زوجته الاولى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها . فقد ذكرت بعض الروايات أن ورقة هو ابن عم السيدة خديجة ، وأنه هو الذي تولى تزويجها ، وأنه كان نصرانياً يقرأ الكتب السابقة ، ويكتب العبرانية ، فوقف عند ذلك ، وأراد أن يبني عليه القصور العوالي ، فساءل عما إذا لا يصح أن يقال : إن بيته النبي العائلية كانت مسيحية ، وأن النبي قد عاش في كنف ورقة ونحت تأثيره طيلة السنين الخمس عشرة بين زواجه بخديجة ونزول الوحي عليه .

ومن الحق أن الروايات قد ذكرت ذلك غير أن في التوسع في الاستنتاج إلى الحد الذي أراده الحوري في سؤاله مجازفة كبيرة ، فنصرانية ورقة كانت فردية أسوة بأفراد آخرين نبهنا على أمرهم في نبذة سابقة كانوا نبهاء ، فأنفوا من عقائد وتقاليد قومهم ، وانجبروا نحو توحيد الله وعبادته وحده .

ويكفي لدحض الفكرة التي يشيرها الحوري أن نذكر أن أقارب النبي الأذنين وفي رأسهم أعمامه أبو طالب شقيق أبيه وعمه العباس ، وأبناء

أعماله الأدنون والأبعدون نوعاً ما ظلوا منقبضين عن الإسلام طيلة العهد المكي - باستثناء ابن عمه عليّ الذي كان صبيّاً في كفالته وأخيه جعفر ، وعمه حمزة الذي أسلم في ظرف ثارت فيه نخوته وعصيته لابن أخيه - رغم أن منهم من كان ينصره للعصية ويحامي عنه بزعمامة عمه أبي طالب ، بل منهم من ناواه أشد مناواة ، وآذاه أشد أذى في مكة وعلى رأسهم عمه عبد العزى الذي سماه القرآن بأبي لهب ، بل منهم من اشترك في وقعة بدر بعد الهجرة مع قريش ضده وضد أصحابه المهاجرين والأنصار ، وعلى رأسهم عمه العباس . فإذا كان أقارب النبي الأدنون يفعلون هذا بتأثير شدة رسوخ التقاليد إزاء نبي منهم ينزل عليه وحي الله وقد تبعه كثيرون من أبناء الأسر القرشية والحالية الكتابية ، وتشغل دعوته وحركته الناس ، وتثيران فيهم الاضطراب ، وقد يعود عليهم منها المجد والقوة فمن باب أولى أن لا يكون لتنصر فزود عادي كورقة ذلك المدى الذي نومه الحوري أو أراد أن يوحه .

ومع ذلك فلنسلم أن الصلة قد تكون قامت بين النبي وورقة ، وأن النبي كان يكثر التردد عليه أثناء شبابه إلى حين نبوته ، بل نحن نسلم أن الاتصال كان يقع بين النبي وبين آخرين من أهل الكتاب أو النصارى بكلمة أصح ، لأن جل أهل الكتاب الذين كانوا في مكة أو كلهم كانوا نصارى - أيضاً قبل بعثته ، وأن الكفار حيناً قالوا عن القرآن والنبي ما حكاه القرآن عنهم (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) سورة النحل ١٠٣ و (إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .. الفرقان ٤) و (أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً .. الفرقان ٦) كانوا يرون أو يعلمون ما كان من ذلك الاتصال ، ونسلم أيضاً - أن النبي ﷺ قد عرف عن طريق اتصالاته بورقة والآخرين كثيراً عن أحوال أهل الكتاب وعقائدهم ومحتويات ما كانوا يتداولونه من

كتب وقراطيس ، وكل هذا أمر نراه بديهاً متسقاً مع طبائع الأشياء ، غير أن هذا شيء ، واصطفاه الله تعالى محمداً ﷺ لرسالة جديدة ، وإزاله عليه كتاباً جديداً شيء آخر ، وما دام القرآن أخذ يذكر في عهد مبكر من نزوله ما كان عليه أهل الكتاب من خلاف وتزاع وشقاق ، ويعلم أن الله أرسل محمداً ﷺ لتصحيح ما هم عليه من انحراف واختلاف وليبان الحق وطريق الهدى بالإضافة إلى دعوة الناس عامة إلى دين الله وقرآنه بما أوردنا آيات القرآن فيه في نبذ سابقة من هذا الفصل .

فالتفسير الوحيد لذلك هو أن النبي ﷺ كان من النفر الذين مع أنفقتهم ما كان عليه قومهم من عقائد وتقاليد واتجاههم نحو الله وحده أنفوا أن يتهودوا أو يقتصرُوا لما كان عليه اليهود والنصارى من نزاع واختلاف وانحراف .

وهناك حديث صحيح رواه البخاري عن عائشة فيه خبر أخذ السيدة خديجة النبي ﷺ إلى ورقة حينما أخبرها بنزول الوحي عليه لأول مرة ، وهذا نصه (قالت عائشة : أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب إليه الحلاء ، وكان يحلو بغار حراء ، فيتحنث ، أي : يتعبد فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ قلت : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) فرجع بها النبي ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ،

فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروح ، فقال خديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرؤاً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد همي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله بخبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى . باليتي فيها جذماً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وقتر الوحي .

وليس في الحديث ما يفيد أنه كان صلة وثيقة بين النبي وورقة فضلاً عما نوهه الحوري من عائلية أو وحدة مسيحية ، وإن كان فيه ما يفيد أن خديجة كانت على طريقة النبي في الاعتراف بالله وحده ، ويفيد أن ورقة قد صدق وآمن ، وأنه اعتبر خبر نزول الوحي على النبي رسالة جديدة مستقلة مثل رسالات الأنبياء السابقين كما كانت على حقيقتها كذلك ، وأبداه وشجعه على المضي فيها .

- ١٦ -

ويتفرع عن البحث مسألة أخرى أثارها الحوري ، فقد قال في سياق آية (ووجدك ضالاً فهدى) في سورة الضحى (إن محمداً قبل بعثته كان حنيفاً ، فاهتدى بالمسيحية ، ثم نحاً نحواً كتابياً بصورة عامة ، ثم رجع في العهد المدني إلى الحنيفية مرة أخرى ، وتتصل من اليهودية والنصرانية

والكتاية . وقد فر من الآيات المكية التي تكذب هذا الزعم بأقوال ومزاعم متنوعة ومنها (إنهم زادوا العبارات التي تذكر ذلك في زمن متأخر بقصد أو بدون قصد ليظهروا أن استقلال محمد الديني عن أهل الكتاب كانت منذ عهد مكة في حين أن الأمر ليس كذلك ، لأن الدعوة إلى التوحيد في مكة كان كتابياً والدعوة إلى ملة إبراهيم الحنيفة شعاراً مدنياً)^(١)

وقد جعل جملة (بقصد أو بدون قصد) على ما يظهر دويئة ودليلاً على حسن نيته وأدبه ، وتعمية غبية على قصده الصحيح وهو القول بزيادتها بقصد ، كبرت كلمة تخرج من فيه ، والدليل على ذلك التعليل الذي علل به زيادتهم إياها حيث قال بكل صراحة ووقاحة وقلة أدب : إن الزيادة كانت بقصد إظهار كون استقلال محمد الديني هو منذ أول العهد المكي وهكذا يكرر في هذا الموقف أقواله وإفكه وتخرسه في صدد الآيات التي تثبت استقلال الدعوة المحمدية وقرآنها منذ العهد المكي المبكر ، والتي فندناها في الفقرات ٣ و ٤ و ٥ و ٦ . والتعليل الذي علل الحوري به زعمه الوقع الكاذب لم يكن وارداً في ذلك العهد ، ولم يكن النبي مضطراً إليه إذا كان يريد أن يقول : إنه هو الذي زاده ، ولم يكن كذلك وارداً في زمن الخلفاء الراشدين الذين تم في عهدهم تدوين المصحف الرسمي الذي كان وظل هو مصحف المسلمين قاطبة بدون تبديل ولا تغيير إذا كان يريد أن يقول : إن الزيادة كانت بعد النبي ولم يكن يخطر بخلدهم أنه سيأتي في آخر الزمان الحوري وأمثاله ليقولوا : إن الدعوة إلى ملة إبراهيم كانت شعاراً مدنياً ، فزادوا ما زادوه على القرآن المكي ليثبتوا أنها دعوة مكية . كبرت كلمة تخرج من فيه ثانية .

وهذه هي الآيات المكية التي تضمنت ذكر ذلك نوردها بترتيب

(١) كتابه رقم ١ ص ٣٠ .

سورها في المصحف ، ونورد تحفظات وتحولات الحوري في صدها ونبين وجه الحق في الأمر :

١- قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِينًا قَبِيماً
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِي
وَنُفْسِي وَخَيَايَ وَمَتَابِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ
أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .. [الأنعام : ١٦١ و ١٦٢] .

٢- قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ
الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .. [يونس : ١٠٤ و ١٠٥] .

٣- إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ . شَاكِراً لِنِعْمِ اجْتِبَاءَ وَهْدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
وَاتَّبَعْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ .. [النحل : ١٢٠ - ١٢٣] .

٤- بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي
مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً
فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ
الدِّينُ الْقَبِيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَهُ
وَاتَّقُوهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ
فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ..
[الروم : ٣٠ - ٣٢] .

فهذه الآيات التي بدأت تنزل في عهد مبكر ، ويستمر نزولها في
مختلف عهود التنزيل المكبي كانت تمثل الاتجاه الأصيل في الدعوة المحمدية.

إلى ملة إبراهيم الخنيفة^(١) ودعوة النبي الناس ومنهم أهل الكتاب إلى الانضواء إليها ، لأنها هي الأصل ، فيخلص هؤلاء بخاصة مما ارتكسوا فيه ، ويصبحون أمة واحدة وملة واحدة وجبهة واحدة تحت راية كتاب جديد مصدق لما بين يديه من كتاب ومهيمن عليه ، وتحت قيادة رسول جديد هو الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الجبائش ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم كما جاء في آية سورة الأعراف ١٥٧ ويبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ، وقد جاءهم من الله بنور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، وقد جاءهم على فترة من الرسل لئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير كما جاء في آيات سورة المائدة ١٥ و ١٦ و ١٩

وهذا ما دار عليه الجدل في العهد المدني بين النبي وأهل الكتاب الذين لم يستطيعوا أن يتغلبوا على أنانياتهم ومآربهم ، وينفصلوا من عقدهم ،

(١) حكى خبر اعتداء إبراهيم لهذه الملة آيات سورة الأنعام هذه التي جاءت بعد الآيات التي تحكي نظرة إبراهيم إلى الكوكب ، ثم إلى القمر ، ثم إلى الشمس ، فلما أفلت واحدة بعد الأخرى قال ما حكاه القرآن في هذه الآيات : (يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجه قومه فقال أتتاجرونني في الله وقد هدانا ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم الله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . الأنعام ٧٨ - ٨٣ .

فوقفوا يناوئون الدعوة المحمدية التي اندمج فيها إخوانهم في مكة على ما سوف يأتي شرحه بعد بما تعكسه هذه الآيات المدنية :

١- وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ
وَلَقَدْ صَنَّفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَلِئِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ
قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ..
[البقرة : ١٣٠ و ١٣١] .

٢- وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أُوْفِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ
أْتَمَدُوا وَإِنْ قَوْلُوا فَانْهَاهُمْ فِي سَبْقِ قَوْمٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ
الْسَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ
لَهُ عَابِدُونَ . قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا
أَعْمَالُنَا وَأَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ
نَصَارَى قُلْ أَهَنْتُمْ أَعْلِمْتُمْ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ
عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .. [البقرة : ١٣٤-١٤١] .

٣- يَا أَفْلَهُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ
التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
تُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَلَكُمْ بِلَهُ الْعِلْمِ قُلِمُ تُحَاجُّونَ فَمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا
وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .. [آل عمران : ٦٥ : ٧١] .

٤- كلُّ الطُّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ . قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .. [آل عمران : ٩٣ - ٩٥] .

والنصوص هي مدنية ، ولكنها تفيد بقوة أن محمداً ﷺ كان يدعو إلى ملة إبراهيم قبل نزولها . فاصطدم بمناداة أهل الكتاب وإنكارهم ، وآيات البقرة نزلت في زمن مبكر من العهد المدني على ما يستفاد من السلسلة التي جاءت فيها والتي فيها هذه الآية (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا . وَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) . فأتوا بآياتهم وأول ما نزل في المدينة ، فتكون دعوة النبي محمد ﷺ إلى ملة إبراهيم سابقة للهجرة .

- ١٧ -

والخوري الحداد لم يكتف بالزعم الجريء الوجيه الذي أورده قبل جملة واحدة ، بل كرر زعمه بالافراد أيضاً مع كل آية من الآيات التي فيها ذكر ملة إبراهيم الحنيفة الواردة في السور المكية ، والتي أوردها قبل وإليك ما قاله في الرد عليه :

١ - قال في صدد آية يونس (١٠٥) التي فيها (وأن أم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين) (إنها زائدة لتعارضها مع الآية (٩٤) في السورة نفسها التي تأمر النبي بسؤال الذين يقرؤون الكتاب من قبله ليطمئنه إن كان في شك مما يوحي إليه) والكلام متاهات ، فليس بين الآيتين أية صلة أو تعارض ، وسياق الآية (١٠٥) ساذغ منسجم لا يمكن أن يرد عليه أي اعتراض وبالتالي أي زعم كاذب كما يظهر لكل عاقل غير مغرض إذا ما تمعن فيه (قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله واكن أعبدوا الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين . وإن يمسسك الله يضره فلا كاشف له إلا هو وإن يردك يغير فلا زاداً لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ١٠٤ - ١٠٧) .

٢ - وقال في صدد آيات الأنعام ١٦١ و ١٦٣ (إنهم زادوا عليها جملة) ديناً قيامة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وإن دليل الزيادة تغيير أسلوب الجملة وإعراجها) والكلام متاهات وفيه تنطع وقبح وغبي منه إلى النظم القرآني ، فالجملة منصوبة على التمييز ، وهذا يعرفه طلاب المدارس الابتدائية وهي مثل (وإن أم وجهك للدين حنيفاً) في آية يونس . ولم يقل عن هذه الآية ما قاله في صدد آية الأنعام ، وكانت الذوق والحياء معاً يوجبان على الحوري أن يفكر على الأقل بأن الذين زادوا الجملة لابد من أن يجعلوا سببها موافقاً للقواعد النحوية حتى تحفى الزيادة على الحوري وأمثاله ... ومما استدلل الحوري به على الزيادة المزعومة أنها متعارضة مع آية الأنعام (٩٠) التي تأمر النبي بالاعتداه جدي الكتاب

وأهله ، وقد شرحنا مدى هذه الآية في الفقرة (١٠) الرقم (٨) شرحاً يظهر فيه الحق ، وينسف هذا الزعم . ولقد كان الذين أمر الله النبي بالاعتداء بهم حسب تأويل الحوري هم إبراهيم والأنبياء من ذريته ، وقد حكمت الآية (٨٧) من سورة الأنعام التي جاءت الآية (٩٠) في آخر سلسلتها قول إبراهيم (إلى وجهتي وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) فليس من تعارض بين أمر الله للنبي بالاعتداء بهم ، وبين أمره له بأن يقول (إنني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين) وهذا النص جاء بعد النص السابق حيث يبدو كل التوافق والانسجام ، ويبدو زعم الحوري متهافتاً جداً .. والحوري لم يسجل في كتبه تحفظاً على مكة الآية (٧٨) فيكون مسلماً بمكيته ، وما دام يقول : إن محمداً مأموراً بالاعتداء بإبراهيم والأنبياء من ذريته ، فيلزمه أن يعترف بأنه مأمور باتباع ملة إبراهيم الخيفية منذ العهد المكي ، ويكون أمر الله له في الآيتين ١٦١ و ١٦٢ مصداقاً لذلك وتكون الحجة قد لظمت الحوري ، وزهق باطله باعترافه ...

٣- وبما قاله في صد آية سورة النحل (١٣٢) التي تأمر النبي باتباع ملة إبراهيم : (إن كل السياق الذي وردت فيه الآية مدني بروحه ومعناه) وزعمه جفاف متهافت ، لأن السياق قد جاء بمائلاً لسياق سابق في سورة الأنعام السابقة لسورة النحل في النزول ، وفي آية النحل عطف على ما جاء في سورة الأنعام ، وهذا سياق آية النحل (فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم . ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله

الكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مِتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .. النحل ١١٣-١٢٣) وهذا سياق سورة الأنعام التي تعطف آيات النحل عليه (قُلْ لَا أَجِدَ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا إِلَّا مَا تَحَلَّتْ ظُهُورُهَا أَوْ الْخَوَاطِ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَيِّنَاتٍ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .. ١٤٥ و ١٤٦) وهكذا يظهر تهافت وكذب زعم الحوري بأن سياق آية النحل مدني بروحه ومعناه ، لأنه مماثل لسباق مكي ليس للحوري تحفظ على مكينه كل المائلة .

٤ - وقال في صدد آية الروم (٣٠) : (إنها زائدة لأنها تقطع السياق) وهو زعم جزافي تهافت وكاذب ، لأن السياق قبل الآية وبعدها في انسجام تام ، وقد أوردناه قبل بكامله في الرقم (٤) في الفقرة السابقة ، والتمعن فيه يظهر مصداق ذلك للعاقل غير المغرض .

وزعم الحوري زيادة الآيات مماثل في مداه لزعمه بالنسبة للآيات التي أوردناها في الفقرة (٦) التي زعم أن بعضها مدسوس أو مقعّم أو زائد ،

أو ملحق في أزمنة مختلفة ، ليفر بذلك من دمع ما احتوته الآيات من ذكر لاختلاف أهل الكتاب وتعدد أحزابهم ، ومن إثبات لاستقلال شخصية الرسالة المحمدية القرآنية .

وقد ذهب عنه هنا كما ذهب عنه هناك ما يعنيه القرآن وكونه وحياً من الله تعالى في يقين النبي وأصحابه الأولين ، وما يستتبعه هذا من شدة حفظهم له كما أوحى به وبلغه رسول الله ، واستحالة أية زيادة أو تغيير أو إقحام عليه على ما شرحناه في الفقرات ٧ و ٨ و ٩ وهكذا يستمر الحوري على سوء أدبه ، وسوء نيته ، وسوء ذوقه ، وسوء أخلاقه ، وسوء دينه وعقيدته وما نهينا عليه في ختام النبذة (١١) من تناقض الحوري ينسحب على محتوى هذه النبذة أيضاً ، فمقتضى استناده إلى بعض الآيات وتثبيتها لها ، وزعم أن الجمل الأخرى مزيدة عليها أن يكون موقفاً بوحى الله بها على نبيه ، ويستتبع هذا وجوب اعتقاد عدم كذب النبي على الله ، وفي القرآن المدني على الأقل آيات فيها دعوة صريحة إلى ملة إبراهيم ، فيكون هذا أساسياً في الدعوة المحمدية ، فلزمه أن يسلم ويعترف به على كل حال .

ومن عجيب متناقضات الحوري ومضحكاتنا أنه نسي كل ما قاله في الآيات التي ورد فيها كلمة (حنيف) وقال في كتابه رقم (٢) إن محمداً دمج في مكة الحنيفة بالكتابية ، واستشهد على قوله بالآيات نفسها على اعتبار أنها مكية قائلًا : إن ذكر الحنيفة في جميع الآيات المكية يأتي مقروناً بالتوحيد الكتابي كأنه لا فرق بينهما .

ونحن إذ نسجل هذا إنما نسجله لإبراز تحبط الحوري وتناقضه حسب مقامات كلامه ومزاممه ، فيثبت مكية الآيات حيناً يريد ، وينفيها بل ينفي قرآنيها حيناً يريد ، ولكننا لم نغفل عما انطوى في كلامه هذا من نسبة المزج بين الحنيفة والتوحيد الكتابي إلى النبي في مكة من أنه إنما يفعل ذلك من تلقاء نفسه ، ودون وحي رباني تحقيقاً للخطة التي اختطها

للدعوة ، وبكامة أخرى لم تغفل عن جوده نبوة النبي ووحى الله إليه بالآيات ، وهذا ما يكشف عن عدم جده ، ويتظاهر بتثيت بعض الآيات دون بعض تظاهراً بوم أنه يؤمن بوحى بعضها دون بعض على ما نهىها عليه في ختام النبذة (١١) .

وإن له دية (قل يا أيها الكافرون ... لكم دينكم ولي دين) غير أن الحوري حينما ينشر أقواله التي فيها سوء أدب ووقاحة ، وطعن بالنبي الذي يؤمن بنبوته ووحى الله إليه مئات ملايين البشر ، والذي آمن بها الراسخون في العلم من النصارى واليهود الذين التقوا به وسمعوا منه ، ورأوا أعلام نبوته ، فيكون ظالماً ، وقد سجل الله اللعنة على الظالمين في هذه الآية (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... هود ١٨ - ١٩) .

- ١٨ -

ونستمر في شرح الدعوة النبوية إلى ملة إبراهيم الحنيفة في العهد المكي ، فنقول : إن هذه الدعوة كانت أصيلة كل الأصالة ، لأنها متصلة بحياة النبي ﷺ قبل بعثته ، حتى إن الحوري لم يسعه إنكار أنه كان عليها . ولقد كان محمد ﷺ وآخرون من نبهاء العرب في مكة والمدينة والطائف قد استسحقوا ما عليه قومهم من عقائد وتقاليد شركية ووثنية ، فانسحقوا عنها ، واعتنق بعضهم اليهودية والنصرانية على أنها توحيدتان تدعوان إلى مكارم الأخلاق ، وتنهيان عن الفواحش والآثام ، وتستندان إلى كتب منزلة من الله على أنبيائه ، وأن فريقاً منهم رأى ما كان بين اليهود والنصارى من شقاق وزعاج وشكوك وتعدد أحزاب ومذاهب وانحراف ، فلم يروا أن يتهوتوا أو يتنصروا ، ولقد كانت بينهم تتداول اسم إبراهيم ، وكونه أبا العرب والكتابين ، وكون ملته كانت توحيدية حنيفة مبرأة من الشرك والتعقيد الذين شابا اليهودية والنصرانية ، فمالوا

إليها ، وصاروا يتعشثون ويتحنفون ، ويعبدون الله وحده على ملة إبراهيم أو ما ظنوه كذلك ، وقد روت الروايات أسماء عدد منهم ، ونعتقد أن محمداً ﷺ كان منهم ، لأنه كان يتحنث ويتحنف ، ويمتسك في الخلوات منسلخاً عن تقاليد وعقائد قومه الشركية والوثنية والجاهلية ، وكان منهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان يعيب قومه ، ويفخر بأنه على دين إبراهيم والذي رويت له صيغة تعبدية حيث كان يسجد على راحته ويقول (ليك حقاً حقاً . تعبدأ ورفأ . عذت بما عاذ به إبراهيم . إني لك عان راغم . مها تجشمني فإني جاشم) وكان منهم أبو عامر الأوسي الذي قابل النبي حين هاجر إلى المدينة ، وسأله بماذا جئت يا محمد ؟ فأجابه : بالحنيفية ، فقال له : إني عليها . وتقيد الرواية أن دعوة النبي إلى حنيفة إبراهيم كانت سابقة للهجرة .

وهناك حديثان رواهما الإمام أحمد عن النبي ﷺ جاء في أحدهما : « بعثت بالحنيفة السمعاء » وفي ثانيهما « بعثت بالحنيفية » وجملة « بعثت » إنما تعني أن رسالته في أصلها قامت على الحنيفة ، وهذا هو مؤيد بآيات القرآن المكية التي أوردناها ، والتي تحمل الحوري فيها تحلاً متهافتاً مع سوء الأدب والصفافة .

ويظهر أن ذلك النفر الذي تعبد على ملة إبراهيم ، أو ما ظنه كذلك ، والذي لم ير أن يتهود أو ينتصر كان مع مذهبه الحنفي الإبراهيمي في شيء من الحيرة ، وهو ما نعتقد أن جملة (ووجدك ضالاً فهدى) في سورة الضحى عبرت عنه ، فاصطفى الله تعالى من بينهم محمداً ﷺ لما يعلمه من أخلاقه ومواهبه ، فبث فيه اليقين ، وأمره أن يهتف (قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وحمله مهمة الدعوة إليه وحده على ملة إبراهيم ،

وأمره أن يهتف (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) كما جاء في آية سورة الأعراف ١٥٨ التي كانت من السور المبكرة في النزول . مع التنبيه على أن هذه الآية لم تكن بدء الدعوة ، وإنما هي تسجيل لعموم الرسالة المحمدية ، وكان بدء الدعوة عقب نزول الوحي على النبي لأول مرة في غار حراء في آيات سورة المدثر (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) لأن النبي رجع من حراء وهو يرجف رهبة ودهشة مما رأى وسمع في الغار ، فقال لأهله : دثروني دثروني . وحينما وقف أهل الكتاب في العهد المدني ومعظمهم من اليهود يتأولون النبي ، ويؤمنون أن إبراهيم منهم ، وأنهم على ملته هتف القرآن بهم متندداً واضعاً الأمر في نصابه الحق (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجِجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبِينَ فِيكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجِّجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .. ٦٥ - ٦٨ آل عمران) .

ويتبادر لنا أن في تسجيل كون النبي أولى الناس بإبراهيم ومعه الذين آمنوا به تسجيلاً بأنه هو الذي كان على ملته أكثر من غيره أصلاً واستمراراً .

- ١٩ -

ولقد كان موقف أهل الكتاب في مكة من الدعوة الجديدة والنبي الجديد والكتاب الجديد إيجابياً كل الإيجابية ، لما رأوه من انسجام تام

دين أصول دينهم وهذا الجديد ، ثم من مطابقة لما عرفوه من بشائر كتبهم من صفات النبي الجديد ، ففرحوا به ، وشهدوا بصدقه ، وتلقوا الدعوة إليه على أنها شاملة لهم ، فاستجابوا إليها ، وآمنوا بالنبي والقرآن ، وغدوا تحت رايتهما جبهة واحدة ، وحزباً واحداً ، وملة واحدة . وبكلمة ثانية صاروا من أتباعه ، يصلون بصلاته غير منفصلين عنه ، وغير محتفظين بدينهم القديم كما يتوهم الحوري أو يريد أن يورمه ، ويلتزمون بما جاء به من شريعة جديدة ، فيها تعديلات كثيرة لشرعهم السابقة ، ورفع لما كان عليهم فيها من إصر وأغلال ، لاسيما ان هذا الجديد كان يؤمن بكتب الله وأنبيائه الأولين ، ويأمر أتباعه بذلك ، ويعلنه على ملا الناس (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ..) [الشورى ١٥] و (وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ..) [العنكبوت ٢٦] و (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَمَنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِئْسَ هُدَاهُمْ أَفَقَدْ ..) [الأنعام ٨٩ و ٩٠] .

ثم أن يستشهد بهم على صدق ما جاء به وكونه من الله ، ويتحدى العرب بليانهم به وحسن شهادتهم وتصديقهم ، لأن العرب كانوا يعرفون أن عندهم كتباً من الله نزلت على أنبيائهم :

١ - قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ إِذْ أَنْتُمْ لَتَسْتَهْزِئُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. [الأنعام : ١٩ و ٢٠] .

٢ - أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أَسْمَاءَ حُكْمٍ وَهُوَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ

الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه من ربيك بالحق .. [الأنعام : ١١٤] .

٣ - والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكروا بعضه .. [الرعد : ٣٦] .

٤ - قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب .. [الرعد : ٤٣] .

٥ - قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا مبلى عليهم يحرّون للأذقان سجداً . ويقولون مبححان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويحرّون للأذقان يَكُونُوا يزيدهم خشوعاً .. [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩] .

٦ - قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . [الأحقاف : ١٠] .

وفي هذه الآيات تسجيل للموقف الإيجابي الذي انطوى فيه شهادة عانية لأهل الكتاب بما ناكدوا منه من صدق أعلام النبوة الجديدة والكتاب الجديد .

وهناك آيات أخرى فيها هذا التسجيل أوردناها سابقاً ، ونوردها مرة أخرى فيما يلي :

١ - قال عذابي أصيب به من آسأه ورزحتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ
مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. [الأعراف : ١٥٦ و ١٥٧] .

٢ - أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ
قَبْلِهِ كِتَابٌ مُؤَمَّى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ
يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .. [هود : ١٧] .

٣ - وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ
آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [الحج : ٥٤] .

٤ - وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُ الْكِتَابِ إِذَا لَمْ يَأْمَنُوا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .
أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤْنَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ وَبِمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا
عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ .. [القصاص : ٥١ - ٥٥] .

٥ - أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ..
[الشعراء : ١٩٣] .

٦ - وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
الكَافِرُونَ .. [العنكبوت : ٤٧] .

٧ - وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .. [سبا : ٦] .

وَإِذَا لَاحِظْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي مَكَّةَ ضَعِيفاً ، قَلِيلَ الْأَتْبَاعِ أَمَامَ
مَنَاوِينَ أَشْدَّاءَ أَقْوِيَاءَ زَعَمَاءَ أَغْنِيَاءَ أَلْبُوا الْجُهُورِ الْأَكْبَرِ عَلَيْهِ بِمَا تَقْلَهُ آيَاتُ

سورة سبا هذه (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْهَلَ لَهُ أَندَادًا .. ٣١-٣٣) وآيات سورة الأحزاب هذه (يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِنَا ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِمْ لَعْنَا كَثِيرًا .. ٦٦-٦٨) واضطروا كثيراً من أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة خشية أدام واضطهادهم ، وإرغامهم على الارتداد ، ولم يستطع هو أن يبقى إلا بجوار من عمه أبي طالب مسمد من زعامته لبني هاشم ، ومن العصبية الجاهلية ، بل لقد فكر هو نفسه بالهجرة على ما قلهم آية سورة الإمراء هذه (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِيزُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا .. ٧٦) وحينما مات عمه ، وفقد معجونه ، اضطر إلى الخروج إلى الطائف لعله يجد فيها النصير والخيبر . ولما خاب أمه وترك الطائف ، لم يستطع أن يدخل مكة ثانية إلا بجوار من زعيم آخر ، كما ذكرته الروايات المعتبرة وذكرناه قبل ، وبعبارة أخرى إذا لاحظنا أن الموقف الإيجابي من أهل الكتاب في مكة كان بريئاً من كل شبهة الضغط والإرغام كما يحلو للمعرضين الحاقدين أن يقولوا بالنسبة لمن أسلم من الكتابيين ، برزت قوة الجد الذي اتسم به هذا الموقف ، ورأينا فيه رداً حاسماً قاطعاً على كل نفوس ومحاولة للنيل والتهوين باسم الكتاب والكتابين ، ونسفاً لكل زعم بأن النبي كان في مكة منضماً إليهم كواحد منهم واقعاً تحت تأثيرهم ، ومهتدياً بهم ،

ومتعلماً منهم ، وبياناً حاسماً بأن هذا الزعم عدوان صارخ على الحق والحقيقة ، وتشويه لهما ، وجعود منكر لتلك الشهادات العيانة من أسلاف صالحين نبهاء بعد ما رأوا من صدق أعلام الرسول الجديد والكتاب الجديد المنقول عليه بحيث يكون في كل موقف مخالف لهذا الموقف قديماً كان أم متأخراً دمع لصاحبه بأنه متعنت مكابر أمام الحق والحقيقة بدافع من الأنانية والهوى والمآرب والعصية الجاهلية ، أو بتأثير من تغلب عليهم ذلك من رؤساء الدين والدنيا .

والآية (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) من آيات سورة القصص مهمة جداً في هذا الباب حيث تفيد أن الأقوياء حينما علموا أو رأوا أن الكتائين صدقوا النبي والقرآن ، وآمنوا بهما ، وانضوا إلى الراية الجديدة ، غضبوا عليهم ووجعهم ، فلم يبالوا بهم ، وأصموا آذانهم عن لغوهم وجهلهم ، وقالوا ما حكمته الآية .

كذلك آيات الإسماء وبخاصة جملة (سبحان ربنا إن كلن وعد ربنا لمفعولاً) مهمة في بابها أيضاً حيث تفيد أنهم رأوا من صدق أعلام الرسول النبي الأمي ما كانوا يقرؤونه في التوراة والإنجيل ، فأوا في رسالته تحقيقاً لوعده الله ..

- ٢٠ -

والآيات تمثل مختلف أدوار التنزيل في العهد المسكي بحيث يمكن القول إن الكتائين أخذوا يقفون ذلك الموقف الإيجابي من الدعوة الجديدة منذ عهد مبكر ، ثم استمر ذلك منهم متواصلاً إلى آخر العهد المسكي الذي تمته آية - سورة العنكبوت التي هي - أي السورة - آخر ما نزل من القرآن في هذا العهد على ما يرجح ، وتقوم عليه بعض القرائن في السورة نفسها التي فيها

ما يمكن أن يدل على أن نزولها كان بين يدي الهجرة إلى المدينة ^(١) وكل ما في الأمر أنه قد يكون في الآيات ما يفيد أن الكتائبين في مكة لم يدخلوا في الدين الجديد دفعة واحدة ، وفي مبدأ الدعوة ، وهذا ما قد تفيد به آية سورة الشورى (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ عَمٍّ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنُنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٥٠) التي جاءت بعد الآية التي تذكر تفرق أهل الكتاب والشكوك التي نجمت بينهم في كتبهم التي ورثوها (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْفُسُهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ^(٢) لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ١٤٠) ثم آية سورة العنكبوت هذه (وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ

(١) في هذه السورة هذه الآيات (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون . كل نفس ذلقة الموت ثم إلينا ترجعون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوءنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . وكأين من ذنبة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإنا نعلم وهو السميع العليم ٥٦ - ٥٩) والآيات تلمح بقوة أن من أصحاب رسول الله من أظهر خوفاً من المصير المجهول حيناً أمروا بالهجرة إلى المدينة بعد أن تم الاتفاق على ذلك بين النبي وزعماء الأوس والخزرج ، فانقضت حكمة التنزيل تطمينهم وتشجيعهم بالآيات ، فأرض الله واسعة وعظيم أن يعبدوه وحده ، وكل نفس ذلقة الموت أينما كانت ، والله الذي يرزق الدواب التي لا تحمل رزقها أولى أن يضمن لهم الرزق .

(٢) الضمير حائد إلى الأبناء الذين ذكروا قبل الآية .

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .. ٤٦) هذا مع التنبيه على أننا لم نطلع على رواية ما تذكر أنه كان في مكة كتابيون على دينهم حينما فتح النبي ﷺ مكة حيث يمكن القول : إن من بقي منهم غير منضو للرواية الجديدة قد انضوى إليها تدويحاً حتى لم يبق أحد منهم خارجاً عنها .

وقد يلحظ أن من الآيات ما ليس فيه صراحة بإيمان الكتابيين بالقرآن والنبي مثل آيات الأنعام ٢٠ و ١١٤ والرعد ٣٦ و ٤٣ والحج ٥٤ والشعراء ١٦٣ وسبأ ٦ حيث تكفي الأولى بتقرير معرفتهم القرآن أو النبي كما يعرفون أبناءهم ، والثانية بتقرير علمهم أن القرآن منزل من الله بالحق ، والثالثة بتقرير فرحهم به ، والرابعة بشهادهم على صدق رسالة النبي ، والخامسة بشهادة وعلم أهل الكتاب بأنه الحق ، والسادسة بالتدليل على صحة وحي القرآن بعلم علماء بني إسرائيل به ، والسابعة بتقرير كون أهل العلم يرون أن ما نزل إلى الرسول هو حق وعهدي إلى صراط الله العزيز الحميد .

ويتلوه لنا أن حكمة التزييل اقتضت ورودها بالأسلوب الذي وردت به ، لأن المقام مقام استشهاد واحتجاج وإفهام ونحوه وإلزام للمشركين ، وأن الله تعالى يعلم وهو يوحى بها أن الكتابيين كانوا سيشهدون شهادة إيجابية وعلمية بصدق دعوى النبي بالوحي القرآني والمرسلات الإلهية . وهذا يقتضي بالضرورة أن يكونوا قد آمنوا بها ، والآيات التي فيها خبر إيمان أهل العلم وأهل الكتاب بصراحة مثل آيات سور الأعراف وهود والإسراء والقصص والعنكبوت والأحقاف يمكن أن تكون عنت هؤلاء أو يكون هؤلاء ممن عنتهم ، ويلحظ أن بعض هذه الآيات قد جاءت بأسلوب التعدي مثل آيات سورة الإسراء ، وآيات سورة القصص ، وآية سورة الأحقاف ، كأنما تقول للكفار : إذا كنتم لا تؤمنون ، فالذين أوتوا الكتاب والعلم قد

أعلنوا إيمانهم وبكروا وخشعوا وقالوا : إن ماجاء به النبي هو تحقيق لما وعد الله ، وربطوا بين ماجاء به وما جاء به أنبيائهم من قبله .

- ٢١ -

وللخوري الحداد كقادته تمحلات في هذه الآيات التي تتضمن الموقف الإيجابي والإيماني الصريح والضماني لأهل الكتاب من الدعوة النبوية المحمدية ليصرفها عن دلالتها فراراً بما في ذلك له من فمغ وإفحام ، حتى إنه لا يتورع عن قلب بعضها عن معناه السهل القريب ، وجعلها مؤيدة لهواه ومزاعمها ظهراً من تعسف وتهاافت في ذلك .

ولقد أوردنا في الفقرة - ١٠ - تمحلاته في صدد آيات الأنعام ٢٠ و ١١٤ والرعد ٣٦ و ٤٣ وهود ١٧ والإسراء ١٠٧ - ١٠٩ والشعراء ١٩٧ وسبا ٦ والأحقاف ١٠ وفندناها ، وبيننا ما هو الحق فيها الذي ينقض تمحلاته ومزاعمه ، ويظهر فيها من شهادة إيجابية قوية للكتابيين بعض من نبوة الوحي القرآني ، ما ينطوي فيها بالبداية من تقرير كونهم قد آمنوا بها وانضروا إلى راية الملة الجديدة الصحيحة المصححة ، فنكتفي بهذه الإشارة دون الإعادة ، ونوصي القارئ بإعادة قراءة ذلك حتى تنجلي أمامه الصورة الصادقة مرة أخرى لمناسبتها ، ونورد ما قاله في صدد الآيات الأخرى ونعلق عليه فيما يلي :

١ - قال في صدد آيات القصص ٥١ - ٥٥ (إنما نفيد إيمانهم بالكتاب قبل النبي وليس فيما ما يفيد أنهم أحدثوا إيماناً جديداً) وقال في موضع آخر : (إن الآيات مقحمة على السياق) . وهناك رواية تذكر أن الآيات مدنية ، فالظاهر أن الخوري استغل هذه الرواية ليقول بالإفحام . وفي قول الخوري الأول إنكار للحق ومكابرة غبية فيه ، لأن الضمائر في (به) و (يتلى عليهم) و (من قبله) و (إنه الحق من ربنا) عائد إلى القرآن قطعاً على ما يفيد السياق بوضوح .

فالسباق يذكر موقف المشركين اليهودي من القرآن كما ترى فيه :
(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا
لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .
فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ
مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ
تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ . قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ
يَغْيِرُ مَا دَنَى مِنَ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . وَلَقَدْ
وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٧ - ٥١) فلا يمكن أن
يكون ضماؤه (به) و (مِنْ قَبْلِهِ) و (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبَّنَا) في
آيات (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا
مِثْلِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ
قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) وآية (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا
أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِهَا جَاهِلِينَ) عائدة إلى القرآن
وفيها قرينة فكاد تكون قطعية على مكية الآيات حيث تفيد أن الكفار عاتبوا
أهل الكتاب على إيمانهم ، أو غضبوا عليهم ، ووبخوهم ، وربما هددوهم فأجابوهم
بالجواب القوي الرائع غير مبالين بهم . وهذا إنما يكون من الصور المكية
لا المدنية ، لأن النبي والمسلمين كانوا في مكة ضعفاء تجاه كثرة كبرى
جاحدة وقوية . وكانوا في المدينة على عكس ذلك تماماً ، وكان الكتابيون
في مكة أقلية ضئيلة ، ومعظمها من الأرقاء والصناع في حين كان أهل
الكتاب في المدينة وبكلمة أخرى بنو إسرائيل لأنهم هم الذين كانوا في
المدينة من أهل الكتاب كتلة كبيرة غنية مسلحة محصنة على ما تفيد آيات

القرآن والروايات الوثيقة الموضحة^(١) وفي الآية بالإضافة إلى دلالتها على
مكية الآيات دليل آخر على إيمان أهل الكتاب بلنبي والقرآن ، ولقد
ذكر السياق موقف الكفار اليهودي ، فصار مناسباً جداً ذكر موقف أهل
الكتاب الإيماني

٢ - وما قاله الحوري في صدد آيات الأعراف (٢٥٧ و ١٥٨) (إنها
دخيلة) وهذا تعبير مرادف لقوله مقحمة عن بعض الآيات ، ومزودة أو
مدسوسة عن بعض آخر ، كبرت كلمة تخرج من فيه . وقد علل قوله
(لأن في الآيات تشريعاً وليس في العهد المسيحي تشريع ، وفيها دعوة إلى
الكتابين ، وليس في القرآن المسيحي دعوة لهم ، لأنهم أمة واحدة مع النبي
في مكة ، والسياق هو في صدد اليهود ، وذكر الإنجيل في الآية مقم .
والنبي المكتوب في التوراة بعد موسى هو من الإسرائيليين وليس من
الأميين ، والنبي المكتوب في الإنجيل بعد المسيح ليس نبياً ، بل هو الروح
القدس الفارقليط) وكل هذه الأقوال متهاة وجزاف ، فليس في الآيات
تشريع بالمعنى التقني كالتشريع المدني ، وإنما فيها بيان مهمة الرسول النبي
الأمي (يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِيلُ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) وفي السورة نفسها آيات لا يعترض الحوري على
مكيها ، ولا يزعم أنها مقحمة فيها ما في هذه الآيات بل وبأسلوب
تشريعي ما : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ
رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ

(١) في سورة الحجر مثلاً هذه الآية (هو الذي أخرج الذين كفروا من
أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم
حصونهم من الله ...

الحق" ولين تشرِكُوا بِهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ مُسْلَطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٢ و ٣٣) وهذه آية أخرى في السورة من هذا الباب (مُخِذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ١٩٩) وهذا فضلاً عن آيات كثيرة في سور مكية أخرى فيها مثل ذلك مثل آية الأنعام هذه (قُلْ لَا أُجِدُ فِيهَا أُوحِيًّا إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَائِعِمْ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤٥) وهذه (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَى كُفْرٍ إِلَّا أَنْ تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَكُمْ وصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَكُمْ وصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .. ١٥٤ و ١٥٥) . يقول الحوري : إن في آية الأعراف تشريعاً ، وليس في العهد المكي تشريع غبي عجيب وهو يقرأ في القرآن المكي هذه الآيات وأمثلها ، وليس صحيحاً أنه ليس في القرآن دعوة إلى أهل الكتاب ، فالدعوة فيه شاملة لهم وللناس جميعاً .

وهذا نص مكي لا اعتراض له عليه ، ولا يمكن إنكار شموله لأهل الكتاب (قَالَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ قَبْلِكَ فَرِيقَيْنَ لَهْمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ فِي يَوْمٍ وَلِيَّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ... ٦٣ و ٦٤ النحل) بل إن شموله لأهل الكتاب قوي ، لأن الله يقول : إنه أنزل عليه الكتاب ليبين لهم الذي اختلفوا فيه ، والاختلاف كان في تأويل الكتب السابقة

وآية الأعراف ١٥٨ تأمر النبي بأن يقول : إنه رسول الله للناس جميعهم ، ويدخل فيهم أهل الكتاب بطبيعة الحال ولقد فهمها أهل الكتاب في مكة على أنها دعوة لإيهم مثل غيرهم ، واستجابوا وآمنوا على ما تذكره الآيات بصراحة تفقاً عين المكابر .

وقول الحوري : إن السلسلة في أحداث بني إسرائيل ، فتكون آيات الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ مقحمة على السياق ، ويكون ذكر الإنجيل بخاصة مقحماً لا يؤخذ به ، ففي القرآن استطرادات كثيرة مثل الاستطراد الذي تضمنته الآيتان ، وهو متناسب جداً مع السياق وفي مثابة بدل ياتي آخر للذين سيكتب الله لهم رحمته بما جاء في الآية التي قبله : (وَرَحِمَیْ وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) حيث جاءت بعدها (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... الخ)

والأسفار والأنجيل المتداولة ليست حجة على عدم ذكر صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل ، فالتوراة والإنجيل الإلهيان اللذان هما المقصودان في آية الأعراف (١٥٧) ليسا موجودين ، وفي الأسفار والأنجيل المتداولة كثير من التناقض والتناقض والثغرات ، والآية كانت تتلى علناً ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا لأن ما فيها صحيح كل الصحة ، يحده اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل الأصليين اللذين كانا موجودين في ذلك الوقت بأيديهم ، ويذكرون ذلك لغيرهم ، ويتداوله هذا الغير عنهم ، وحتى لو كانت الآية مدنية فإن هذا القول وارد بتمامه أيضاً . وإيمان الذين

استطاعوا أن يتغلبوا على أنانياتهم وعقدتهم بالقرآن والنبي في مكة أولاً وفي المدينة بعد ذلك دليل لا يدحض على ذلك وفي بعض الآيات التي تذكر هذا الإيمان قد ورد أنه كان منهم ، لأنهم سمعوا من القرآن ما عرفوا أنه الحق ، وهذا بقطع النظر عما يستنبطه علماء المسلمين من أسفار العهد القديم والأنجيل المتداولة من بشارات بالنبي محمد ﷺ وصفاته . وقد ذكر الإمام محمد رشيد رضا مثلاً ثمانية عشر بشارة ، وأورد النصوص المستنبطة منها في سياق تفسير الآيات في الجزء التاسع من تفسيره ، وفي كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، للإمام ابن القيم استنباطات عديدة من نصوص الأسفار والأنجيل أيضاً ، وقد اكتفينا بالإشارة إليها دون سردها تفادياً من التطويل ، ولا سيما أننا نعتبر النص القرآني الذي كان يتلى علناً وإيمان أهل الكتاب بنبوته النبي والقرآن في مكة مما سجله القرآن المكي دليلاً حاسماً وقاطعاً . وفي إحدى الآيات المدنية حكاية عن لسان عيسى عليه السلام بأنه مبشر برسول من بعده اسمه أحمد ، وهذه الآية كانت كذلك تتلى علناً . وفي هذا دليل حاسم وقطعي آخر ، بل هناك أدلة أخرى في القرآن المدني ، منها هذه الآية في سورة البقرة (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ٨٩) والآية في حق اليهود ، وتقيد على ضوء الروايات الموضحة المروية أن اليهود كانوا يعرفون أنه سيبعث نبي من العرب ينزل عليه كتاب عربي ، وكانوا يقولون للعرب : إنهم سيكونون وإياه حزباً واحداً . وعلى كل حال فالآية صريحة أن اليهود كانوا يعرفون أن مبعث النبي العربي وتزول كتاب عليه حق ، ولا بد من أن تكون هذه المعرفة مستندة إلى ما كان في أيديهم من كتب ، ومنها آية سورة البقرة هذه (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ

الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وجملة (نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) تعني في ما هو المتبادر أنهم أنكروا ما كان في أيديهم من كتب فيها صفات هذا الرسول . ولعل في هذه الآيات تأييد لذلك :

١ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّائِعُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .. [البقرة : ١٥٩ و ١٦٠] .

٢ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ قَلِيلًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . [البقرة : ١٧٤] .

وقد تفيد الآيات أن اليهود - والآيات هي من سلسلة في حقهم - أنكروا في سياق جحودهم لنبوة النبي ومناوأتهم لها وجود صفات النبي في كتبهم بعد أن بشروا به ، فاستحقوا هذه اللعنة وأن منهم من ندم وقاب واعترف فاستثنتهم الآية ١٦٠ ، ولا يصح أن يكون محل شك في أن هذه الصور كانت من الصور الواقعة للعيانية ، وكانت بطبيعة الحال تعبر عن معرفة النبي السابقة لبعثته .

ونعتقد أن جملة (مُبْنَحَانِ رَبَّنَا إِنَّكَ كَانَتْ وَعْدُ رَبَّنَا لِمَفْعُولًا) في آيات الإمراء التي تحكي مشهداً إيمانياً رائعاً لأهل العلم (حَقْلٌ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوَاسَوْا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بُتِي عَلَيْهِمْ يَجْهَرُونَ لِلذَّاتَانِ مُسْبِحاً . وَيَقُولُونَ مُبْنَحَانِ رَبَّنَا إِنَّكَ كَانَتْ وَعْدُ رَبَّنَا لِمَفْعُولًا) تعني أنهم رأوا في محمد ﷺ ورسالته صفات الرسول

النبي الأُمي الذي وعد الله بإرساله ، فقالوا : إن الله قد وفى بما وعد .
ولقد آمن بالنبي والقرآن علماء من اليهود وقيسون ورهبان من النصارى
في العهد المديني أيضاً ، وفي قصة هؤلاء الآخرين نزلت آيات سورة المائدة
هذه (وَلَتَجِدَنَّ أَقْسَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا
نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيْنَ وَرَهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ يَمَّاسٍ يُعْوَفُونَ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ
أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْحَسَنِينَ .
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لُولِيكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٨٢-٨٦)
ولا يجوز لأحد أن يشك إن كان به مسكة من عقل وحياء أن هذا
الذي سجله للقرآن هو مشهد واقعي عياني ، وفيه صراحة أن القيسين
والرهبان قد رأوا وسمعوا ما عرفوا أنه الحق فآمنوا ، ولا يجوز لأحد
أن يشك إن كان به مسكة من عقل وحياء أنهم سمعوا ورأوا مصداقاً
لما كانوا يجدونه من صفات رسول الله النبي الأُمي في الإنجيل وغيره مما
في أيديهم من كتب .

وللخوري الحداد مواقف من هذه الآيات فيها تمحل وتهافت ، فمن جهته
حاول نفي إيمان القيسين والرهبان ، فقال (إن جملة الذين قالوا إِنَّا نَصَارَى)
تفيد أنهم بقوا على نصرانيتهم ، وإن مدح القرآن لهم هو على حالتهم هذه ،
لأنهم لا يستكبرون) وقال في مناسبة أخرى : (إن الآيات نزلت في وفد
حبشي كل ما كان منه حينئذ سمع القرآن أنه بكى خشوعاً) . وقد عظم
على الخوري هذا المشهد الإيماني الرائع للصافي من قيسين ورهبان فعمد
إلى هذا التمثل المضحك ، وعي عن النص الذي يذكر صراحة قولهم

(رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) حينما سمعوا القرآن ، وعرفوا أنه الحق ، وفاضت عيونهم بالدمع وقالوا (وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ) وأصبغوا بطبيعة الحال من أتباع محمد ﷺ ولو كان للخوري وأمثاله ضمير حي ، ورغبة في الحق والصدق والحقيقة والنجاة لكانوا بدلاً من التمثل والمحاكاة الغيبية تأثروا بقوة وروعة المشهد الإيماني العبادي ، وأذعنوا ، وتمت بذلك الوحدة الدينية التي استهدفها الله (يُريدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَالِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وليس إيراد الآيات المدنية التي فيها تسجيل لإيمان أهل الكتاب في العهد المدني من مواضيع ومنهج النبوة لذاتها . وإيراد آيات المائدة هو لإبراز ما سجلته من اعتراف القيسيين والرهبان بأنهم سمعوا ما عرفوا أنه الحق ، ولإبراز كون هذه المعرفة سابقة للعهد المدني ، وامتداداً لما قبل البعثة الحمدية ، ومصدقا لحقيقة كون القيسيين والرهبان يجدون صفات رسول الله الصريحة فيما في أيديهم من كتب . وهذا ما يفيد تسجيل إيمان الراشدين في العلم من اليهود ، وإيمان الذين آمنوا بالقرآن والتي من أهل الكتاب عامة في العهد المدني ، وهذا ما يجعلنا نردها أيضاً كما يلي :

١ - وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ فِيهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ قَلِيلًا وَلَا أَكْثَرًا لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .. [آل عمران : ١٩٩]

٢ - لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ

وَالْمُؤْمِنُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا . [النساء : ١٦٣] .

وهناك آيات أخرى يمكن أن تضاف إلى هذه الآيات وإن لم يكن فيها الصراحة التي في هذه الآيات ، منها آية البقرة هذه (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .. ١٢١) وقد جاءت هذه الآية عقب هذه الآية (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَمَا لِي بِالْهَدَىٰ وَلَتُبِيعَ أَهْوَاءَهُمْ بِمِثْلِ مَا هَدَىٰ اللَّهُ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠) حيث يتبادر لنا أن الضمير في « به » عائده إلى العلم الذي جاء للنبي ﷺ ، ويكون الثناء في الآية على الذين عرفوا أنه الحق من كتبهم التي يتلوننا حق تلاوتها فأمنوا به ، ومنها آيات سورة آل عمران هذه (لَتَسَوُوا سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةً قَائِمَةً يَتَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .. ١١٣- ١١٥) . وقد جاء قبلها هذه الآيات (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَنْ يَفْأَلِقُوكُمْ يُبْالِغُوكُمْ الْأَذْيَارَ هُمْ لَا يُنْصَرُونَ . ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ

بما عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .. ١١٠-١١٢) حيث يمكن لمن يكون هؤلاء المستثنون هم الذين قالت عنهم الآية (١١٠) (منهم المؤمنون) .
فهذه الايات جميعها دليل قاطع على أن إيمان أهل الكتاب بالرسالة المحمدية والقرآن وانضواءهم تحت رايها قد استمر بعد الهجرة إلى المدينة أيضاً بقطع النظر عن ضيق دائرة ذلك بالنسبة لثبي إسرائيل على ما سوف يأتي شرحه بعد ، فيكون التمثل في إيمان فريق منهم في مكة ، ثم في المدينة مكافئة صارخة في الحق والحقيقة بملها الهوى والخذل والعقد النفسية والمآرب الذاتية .

وقول الحوري : إن محمداً وأهل للكتب كانوا أمة واحدة في مكة ، وأنه ليس في القرآن المكي دعوة لهم متناهت أيضاً ، فجعله (أمة واحدة) جاءت في آيتي سورتي الأنبياء والمؤمنون (٩٢ و ٥٢) بعد ذكر الأنبياء للتنبيه على أن طريق أنبياء الله واحدة ، وقد جاء بعد الآيتين آيتان تذكر تقطع أمر أتباع الأنبياء بعدم أحزاباً وزيراً ، فالجمله والحالة هذه تصدق على النبي محمد وحده فقط ، فهو أمة واحدة مع الأنبياء ، ولا يمكن أن يصدق عليه وعلى أتباع الأنبياء بمعنى أنه كان وإياهم على حالة واحدة ، وقد جاء لهديتهم ولزالة انحرافهم واختلافهم ، ولا يكون من شأنها أن تعطي على شخصية الرسالة المحمدية القرآنية المستقلة على ما شرحناه في التبفة (١٠) رقم ١٨ . وأهل الكتاب كانوا مدعوين بالدعوة المحمدية في نصوص مكية كثيرة ، وقد فهموا أنهم مدعوون ، فاستجابوا وآمنوا على ما شرحناه آنفاً ، فزهد هذا باطل دعوى الحوري أيضاً .

٣ - وما قاله الحوري في صدد آية التثنية ٤٧ (إن ضمير د به) عائد إلى الكتاب مطلقاً وليس فيها والحالة هذه تقرير بكون الذين أوتوا الكتاب يؤمنون بالقرآن) وهذا متناهت وتخريف للكلام من موضعه ، فموضوع الكلام هو القرآن الكتاب الموحى به إلى النبي محمد ﷺ

(وكذلك أنزلنا إليك الكتاب) ولا يمكن أن تعني الكلمة إلا القرآن فيكون ضمير (به) راجعاً إليه قطعاً ، والاية التي سبقتها دليل آخر (انزل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . ٤٥) ولقد جاء بعد هذه الآية هذه الآية (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم) فقال الحواري للتدليل على زعمه : (كيف يكونون قد آمنوا بالقرآن وهم يجادلون فيه) . وليس هذا دليلاً وليس من شأنه أن يحل بما قلناه ، حيث يمكن أن يكون فريق آمن ، وفريق جادل كما يمكن أن يكون النهي هو بالنسبة لحالة يمكن أن تقع وخطة يسار عليها .

ثانياً :

زعم الانقلاب الشامل للنبي ﷺ وأسايبه في العهد المرني

- ١ -

من مزاعم الحواري الحداد (أن انقلاباً شاملاً كاملاً طرأ على النبي ودعوته بعد الهجرة إلى المدينة بسبب تدخل السياسة في الدين حيث انقلب الداعية إلى رجل دولة وحب ، وانقلبت طريقة الدعوة من الحكمة والموعظة الحسنة وترك من لم يؤمن وشأنه إلى قتال المشركين حتى يؤمنوا والكتائب حتى يخضعوا ، ويعطوا الجزية ، وتخلي عن الدعوة الكتابية إلى دعوة قومية عربية بسلطان سياسي وحربي ، وإلى ملة وسط لاهودية ولا نصرانية ، بل حنيفية إبراهيمية ، وصار يحمل على اليهودية والنصرانية واليهود والنصارى الذين كان منضمّاً إليهم وكواحد منهم . وكان الدين قد وتحد معهم ، ففرقتهم السياسة عن بعضهم) ومن عجب أمر المفرضين الحاقدين على الإسلام ونبيه وقرآنه أن هذه الأقوال تقال من عشرات السنين ، ويرد عليها المسلمون ردوداً مفحمة من القرآن والسنة والوقائع اليقينية المؤيدة بالواقع المستمر منذ عشرات القرون إلى الآن ، والتي فهمها

كثيرون من علماء الغرب على وجهها الصحيح فكتبوا كتباً عديدة فيها تقرير الحق والحقيقة ، ومع ذلك فإنهم يظنون يكررونها بلا كمال ولا ملل ولا خجل ، لأنها رأس ما لهم الذي يتشبثون به للاحتفاظ بمناصبهم ومنافعهم ، وإبقاء أبنائهم ملتهم بقرة يحلبونها ، ومطية يركبونها ، مع ما في ذلك من إبقاء الملل الكتابية متفرقة يناوئ بعضها بعضها ، ويمكر بعضها ببعض ، ويكيد بعضها لبعض ، ويقاثل بعضها بعضاً رغم اتحادها في المصدر والمبادئ والمثل العليا متجاهلين أن الرسالة الحمديّة القرآنية التي تحتم جميع كتب الله وأنبيائه قد هدفت فيما هدفت إليه إلى توحيد الملل الكتابية ، وتصديق قول الله (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) لتكون جبهة قوية تحمل مشعل الهداية الإلهية موحدة الأسس والأهداف والقوى والجهود ، زائل من بينها ما كان من انحرافات واختلافات ومنازعات ، مندحجون جميعاً في أخوة شاملة قوية متراسة ليكونوا القدوة المثلى ، ويستطيعوا أن يكتسحوا تحت الراية الجديدة للجبهة الموحدة ما أمامهم من عقائد سقيمة واهية لا يمكن أن يكون لها قدرة على المقاومة والتحدي .

وبالنسبة للعهد المكي نعتقد أن ما تقدم من ردود وتوضيحات كاف لقناعة من يريد أن يقنع ولا يكابر في صدد كون دعوة النبي محمد جديدة مستقلة جاءت لتصحيح الانحراف والاختلاف اللذين ارتكس فيهما الناس بعد الرسل ، وبخاصة الكتابيين ، وكون هؤلاء في العهد المكي قد فهموها على هذا النحو ، فاستجابوا إليها ، وآمنوا بها ، وانضوا إليها ، فصاروا محمديين مسلمين ، وفي كون مزاعم الحوري بأن النبي كان منضمّاً إليهم وكواحد منهم على معنى كونهم ظلوا محتفظين بما كانوا عليه زائفة داحضة .

أما بالنسبة للعهد المدني ، فإن الحوري قد شوه الحقائق أيضاً بالأباطيل في كل ما زعمه ، وإليك البيان .

لقد جعل الحوري جنوح النبي محمد ﷺ إلى العمل السيامي أصلاً للانقلاب المزعوم ، واستعمل تعبيراً حديثاً وهو (تدخل السياسة في الدين) في غير محل ولا مناسبة ، مع أن طبائع الأمور ، واستعراض الوقائع اليقينية التي وقعت بعد الهجرة تكذب هذا الزعم من مختلف نواحيه .

فانعمل السيامي الذي جنح محمد إليه كان في ذاته أمراً طبيعياً بعد أن انتقل إلى بلد لم يكن فيه بيت عربي لم يدخله الإسلام قبل انتقاله إليه . والعرب هم جبهة أهل هذا البلد الأصليين ، وذلك ما أشارت إليه آية الحشر هذه (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩) (١) لأن النبي صار المرشد والقائد والقاضي والمفتي والمرجع العام في هذا البلد التي غدت أغليته تدين بدينه وتعتبره قائدها الروحي والسيامي والاجتماعي مما هو متسق كل الاتساق مع طبائع الأمور ، وبما لا يمكن أن يكون موضع جدل وتمحل ونقد .

وتعبير (انقلب إلى رجل دولة وحرب) إذا أطلق بهذا الاقتضاب مجانب الحق والحقيقة من كل ناحية ، فلقد صار النبي رجل دولة حقاً بالإضافة إلى نبوته ورسالته ، ولكنه لم يكن في هذا مناقضاً لمهمة النبي والرسول ، بل هو من صميمها من حيث المبدأ ، فالنبي يأتي بالشرع والتقين والتعليم والأمر والنهي والزجر ، فمن الطبيعي أن يكون هو القيم

(١) انظر سيرة ابن هشام أيضاً ج ٢ ص ٤٢ - ٤٦ - المكتبة التجارية مطبعة حجازي . وعبارة ابن هشام (حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف وهذا قبل هجرة النبي شخصياً إلى المدينة .

على تنفيذ ذلك إذا كان ظرف بعثته موافياً ، أو إذا واثى ظرف بيئته .
ولم يكن له ذلك في أثناء العهد المكي ، لأنه كان في مجتمع غالبية العظمى
مناوئة له ، فلما انتقل إلى المدينة ، وصار على رأس المجتمع الإسلامي فيها
كانت ممارسته لذلك نتيجة طبيعية .

وليس هو بدعاً في الأنبياء في ذلك ، فقد كان هذا شأن كثير منهم ،
ومنهم موسى وداود وسليمان عليهم السلام ، وإذا كان عيسى عليه السلام لم
يفعل ذلك ، فلأنه كان في الوضع الذي كان فيه محمد ﷺ في مكة .
والخوري الحداد يعتبر بابا روماً رئيسه الأعظم ، ومقدساً ومعصوماً ومشرعاً ،
ونائباً للمسيح على الأرض ، ولا يجهل أن البابوات حينما سنحت لهم الظروف
مارسوا مهمة رجل الدولة ، بل رجل الحرب أيضاً ، والبابا الآن يمارس
صفة رجل الدولة ، ويقوم على رأس دولة لها وزراؤها وحرسها وسفراؤها ،
وإذا لم يكن رجل حرب الآن ، فليس ذلك منه تخلياً عن صفة رجل
الحرب التي مارسها أسلاف كثيرون له ، وإنما هي الظروف وحسب ،
بل إن المسيح أمر بذلك في لحظة ما حيث ذكر إنجيل لوقا في الإصحاح
(٢٢) أنه أمر تلامذته بشراء السيوف للدفاع عنه حينما أريد اعتقاله ،
وأن واحداً من تلامذته ضرب بسيفه عبد رئيس الكهنة وقطع له أذنه ،
وذكر الخبر في إنجيل مرقس أيضاً .

- ٣ -

والمهم في موضوع النبي محمد ﷺ الجدير بالتنبيه أنه لم يغير طريقته ،
وأنه ظل ملتزماً لبده الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ،
والجدال بالتي هي أحسن ، وترك الناس الذين لا يدينون بدينه وشأنهم بعد
دعوته ما داموا كافين أيديهم وألسنتهم عن الإسلام والمسلمين خلافاً لما يزمه
الخوري وأمثاله . وكان هذا من موجبات النصوص القرآنية المدنية أيضاً
التي منها هذه الآيات :

١ - لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم .. [البقرة : ٢٥٦] .

٢ - إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله مريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمةين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد .. [آل عمران : ١٩ و ٢٠] .

٣ - إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبشله فنجعل الله الكافرين . إن هذا لهو القصص الحق وما من من إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين . قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .. [آل عمران : ٥٩-٦٤] .

٤ - إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا .. [النساء : ٩٠] .

٥ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ مُبِيلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَهُدًى وَبُشْرَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [المائدة : ١٥ و ١٦] .

٦ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .. [المائدة : ١٩] .

٧ - وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .. [الأنفال : ٦١] .

٨ - إِيَّاكَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .. [التوبة : ٤] .

٩ - إِيَّاكَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . [التوبة : ٧] .

١٠ - لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .. [المتحنة : ٨] .

ففي هذه النصوص صراحة بأن الدعوة إلى الإسلام في المدينة كانت بالحنس للكتابين وغيرهم على السواء ، وليس على النبي إلا البلاغ كما هو شأنها في العهد المكي ، وأنه لا إكراه في الدين ، وأنه لا سبيل للمسلمين على الذين لا يقاتلونهم ولا يمدون إليهم يداً ولساناً بأذى ويلقون إليهم السلم ، بل عليهم أن يبرؤهم ويقسطوا إليهم بما ينظرون فيه حسن التعايش والتعامل أيضاً ، وأن من واجبه أن يستجيبوا إلى كل من جنح إلى السلم معهم ، وأن

يتعاهدوا مع كل من يود التعاهد معهم على المسألة ، وأن يستقيموا لهم ما استقاموا على عهدهم ، ولم ينقضوا منه شيئاً مباشرة أو غير مباشرة .
وفي كتب سيرة النبي ﷺ الموثوقة مثل ابن هشام وطبقات ابن سعد وقائع عديدة وقعت في العهد المدني مؤيدة لكل ما تقدم من حيث التطبيق .
ولقد نقل الحوري عن بعض علماء المسلمين أن آيات البقرة والنساء والأنفال والتوبة والمنحنة منسوخة وعن بعضهم أن آية البقرة (٢٥٦) خاصة بأهل الكتاب دون المشركين ، وأن المشركين لا يقبل منهم إلا الإسلام ويكرهون عليه ، فتمسك به مع أنه لا يثبت على التمهيص على ما سوف نشرحه بعد ، ومع أن كثيراً من علماء المسلمين وأئمتهم يخالفونه أيضاً .

- ٤ -

وإذا كان النبي ﷺ قد مارس صفة رجل الحرب مع غير المسلمين من كتابيين وغير كتابيين ، وصار بينه وبينهم حالة حرب وقاتل ، فقد فعل مثله أنبياء آخرون ، لأن ذلك متسق مع طبائع الأمور ، ومنبتق من ممارسة صفة رجل الدولة .

ولكن المهم في أمر النبي أن ذلك منه كان دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ، ورداً على عدوان المعتدين عليها مما هو طبيعي جداً ، ووصف ذلك بالانقلاب زائف وتمحل ، ولا يقوله إلا أحق غبي ، أو مغرض حقوق ، بل ولقد كانت نواة ذلك واردة في القرآن المكي على ما تفقده آيات في سورة الشورى منها هذه الآية التي تصف المسلمين أو بالأحرى تذكر ما يجب أن يتصف به المسلمون (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . ٣٩) ومنها هذه الآيات التي تسوغ مقابلة العدوان والانتصار من الظلم وتدين البادية بالعدوان والظلم (وَلَمَنْ اِنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ .

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . [الشورى : ٤١ و ٤٢] .

ولقد كانت أولى آيات القرآن المدني في العمل الحربي آيات سورة الحج هذه (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظَلِمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ . وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .. ٣٨- ٤١) التي ينطوي فيها تقرير صريح بأن العمل الحربي الذي أذن الله به للنبي والمسلمين ، وبإشرافه بقيادته ، وسير السراياله بقيادة غيره ، كان دفاعاً مسبوقاً بعدوان ظالم على المسلمين . وفي الآيات تعليل رائع وهدف أروع ، فقد جعل الله دفع الناس بعضهم ببعض من سنن الاجتماع حتى لا يستشري الفساد والطغيان ، وتتعطل حرية العبادة وأماكنها ويفقد الناس أمنهم وسلامتهم ، وهو إذ يأذن للمسلمين بممارسة هذه السنة الاجتماعية الربانية ، فإن من أهداف ذلك أن يمكنهم في الأرض ليكونوا أحراراً أقرباء أعزاء لا يظلمون ، وتكون خطتهم وسيرتهم إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا جماع المثل العليا .

ولقد كانت ثانية الآيات المدنية في العمل الحربي آيات سورة البقرة هذه (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوا مِمَّنْ تَقْتُلُونَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَآخِرُ جُودِهِمْ

مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُواكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوا مَنْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ قَاتِلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوا مَنْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشُّهُورِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .. ١٩٠ - ١٩٤) وقد تضمنت الآيات خطة مثلى رائعة أشد الروعة بدورها لا يمكن أن تتحمل أي نقد ولا جدل ولا تحمل .

- ٥ -

وظاهر من آيات الحج والبقرة أنها ليست لإجبار الناس على الإسلام ، وإنما هي للدفاع عن الإسلام والمسلمين وحرية العبادة والدعوة ، وقال الأعداء المعتدين ، وعدم العدوان مباشرة أو بدءاً ، والكف حينما ينتهي المعتدي عن عدوانه بأية صورة ، وليس فيها أي أمر في صدد من يكف يده ولسانه عن المسلمين ، ويدخل في ذلك عدم العد عن الإسلام ، وعدم الطعن فيه ، وعدم منع وعوقلة حرية الدعوة إليه ، فمن يكف لسانه ويده في هذا النطاق لا يجوز قتاله وليس للمسلمين سبيل عليه ، بل ومن واجبه البر والإقسط إليهم .

ولقد اتكأ الحوري على قول بعض المسلمين : بأن آيات الحج والبقرة وآيات النساء ٩٠ والتمتعة ٨ والتوبة ٥ و ٧ منسوخة بآيات في سورة التوبة بالنسبة للمشركين ، فصار قتالهم حتى يسلموا ، أو بعبارة أخرى إكراههم على الإسلام هو المبدأ الذي سار عليه محمد ﷺ وخلفاؤه من بعده ، وهذا لا يثبت على تمحيص كما قلنا قبل .

وما يساق في هذا المساق آيات سورة التوبة هذه (فَإِنْ تَابُوا
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ .. ٥) وهذه (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
 فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ فِي الدِّينِ وَتَفَصَّلُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .. ١١) غير
 أن هذه الآيات هي في صدد قتال المشركين الناكثين لعهدهم والعائدين
 إلى العداء والعدوان مرة أخرى وليست في صدد قتال المشركين إطلاقاً ،
 بدليل الآيات التي وردت في سياقها التي يستثنى فيها المعاهدون المستقيمون
 على عهدهم وغير الناقضين له بأي موقف كما ترى في هذا النص (إِلَّا الَّذِينَ
 عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا
 عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مِدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ مُخِيبٌ
 الْمُثْقِينَ .. ٤) ثم في هذا النص (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ
 عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ مُخِيبٌ الْمُثْقِينَ .. ٧)
 وقد جاء بعد هذه الآية آيات وصف فيها الناكثون لعهدهم وصفاً يسوغ
 قتالهم كما ترى فيها (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا
 فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ
 وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ تَحْتاً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ
 سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
 وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ .. ٨ - ١٠) ثم جاءت بعد الآية
 (١١) التي أوردناها قبل هذه الآية التي فيها دليل حاسم آخر على أن
 المقصود بالقتال هم الناكثون (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ
 وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ
 لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ .. ١٢) ولقد شدد القرآن المدني على الوفاء بالعهد مع
 من تصاهد النبي والمسلمون معهم من الكفار ، حتى لقد منع نقضه مع كفار

تحت كنفهم مسلمون مضطهدون ، فاستصرخ هؤلاء المسلمين لنصرهم ، لأن من واجبهم أن يهاجروا ، ولا يبقوا تحت كنف الكفار ، كما جاء ذلك في آية سورة الأنفال هذه (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .. ٧٢) ولقد انعقد الصلح بين النبي والمسلمين وبين قريش بعد حالة حرب شديدة مستمرة متنوعة الصور وهو الصلح المعروف بصلح الحديبية ، وكان المسلمون مقتاظين من قريش لأنهم منعوم بادیء بدء من زیارة الکعبة ، فأراد بعضهم أن يمنعوا الناس من الذهاب إلى الحج وكان في ذلك ضرر على قريش ، فاعتبر الله تعالى ذلك نقضاً للعهد وعدواناً وحظره على المسلمين ، وشدد على وجوب الوفاء بالعهود في آيات سورة المائدة هذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ .. ١٠٠) وهذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُورَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ تصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .. ٢) ولقد أمر الله المسلمين بالجنوح إلى السلم إذا ما جنح لها الأعداء حتى ولو كانوا عارين ونكثوا عهدهم معهم وحتى لو كان من المحتمل أن يكون جنوحهم إلى السلم خداعاً كما جاء في آيات سورة الأنفال هذه (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ

عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْقَةٍ وَمَنْ لَا يَتَّقُونَ . قَامَا تَتَّقَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ
فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ
قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَاذْكُرُوا لَهُمْ إِذْ أَنْتُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالْحَيَاتَيْنِ
وَأَلَّا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ . وَأَعْدُوا
لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ
عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ
يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُثْغِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُثْقِلْ لَكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تَظْلِمُونَ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ
حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . . . الأنفال ٥٥ -

(٦٢) وجلة (فأنبذ إليهم على سواء) ذات مغزى عظيم حيث تتضمن أن
من واجب المسلمين إذا رأوا أمارات نقض وخيانة من المتعاهدين معهم
أن يعلنوهم بأنهم سيقفون منهم كوقفهم ، وأن لا يباغثوهم بالنقض مباغته ،
وجلة (فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) أيضاً ذات
مغزى عظيم حيث تتضمن أن القتال مع جميع الأعداء ليس غاية ، وإنما
الغاية تخويف الأعداء وإرهابهم حتى يمتنعوا عن الاعتداء ، ويتشردوا إذا
ما رأوا المسلمين قد ضربوا أعداء آخرين وغلبوهم ، وهذا المعنى وارد في
الآية (وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ
اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) وفي كل ذلك من الجلال والروعة والحكمة ما كان
ينبغي على الخوري أن يلحظه ، وأن يمتنع عن تمحلاته وبماحاكاته .

وعلى ضوء ذلك كله يجب أن يفهم ما في آيات سورة التوبة ٥ و ٧
من إيجاب قتال الناكثين من المشركين للعهد ، والكف عنهم إذا ما قلبوا ،
وأسلموا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة . فالحق والمنطق والعدل واضح في

ذلك . وقد صار المسلمين الحق في أن يفرضوا عليهم ما فيه أمنهم وسلامتهم ، وهو تخليهم عن الشرك ، لأن التجربة أثبتت أنهم لو عوهدوا ثانية لنكثوا ، وهذا ملموح بقوة في الآيات . وهذا يقطع النظر عن أن الشرك يمثل مظاهر الانحطاط الإنسانية ، وتسخيرها لقوى وأفكار وعقائد سخيفة مغايرة للعقل والمنطق والحق ، كما يمثل نظاماً جامعياً فيه التقاليد الجائرة ، والعادات المستكرهة ، والعصبيات الممقوتة . بينما جاء النبي ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويرتفع بهم من الخسوف إلى ذروة الكرامة الإنسانية ، ويقطع النظر عما في ذلك معالم هذا الشرك السخيف ، وهذا النظام الجاهلي من مبررات لا تتحمل مراء . غير أن حكمة الله في رسالة رسوله محمد اقتضت أن يظل مبدأ عدم إجبار الناس وإكراههم في الدين ، وعدم جعل سبيل المسلمين على من يكف عنهم يده ولسانه من المشركين وغيرهم ، بل وإيجاب البر والإقسط لمثل هؤلاء هو المبدأ المحكم .

وتساق آية أخرى في سورة التوبة في صدد قتال المشركين إطلاقاً وهي هذه (وقاتلوا المشركين كافة ... ٣٦) وهي بما اتكأ عليها الحوري أيضاً ، والآية تكملة وهي (كما يقاتلونكم كافة) بحيث يبدو بصراحة أنه ليس في الآية نقض لذلك المبدأ ، وكل ما في الأمر أنها احتوت خطة قتال للمسلمين وحسب حيث أوجبت عليهم الجد والتجمع في قتال أعدائهم المشركين كما يفعلون معهم .

ولقد روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي حديثاً نبوياً عن بريدة جاء فيه أن (النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو صاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال له : إذا لقيت عدوك من المشركين فادعه إلى الإسلام ، فإن أجابك فاقبل منه ، وكف عنه فإن أبى فادعه إلى الجزية ، فإن أجابك فاقبل منه وكف عنه ، فإن أبى فاستعن بالله وقاتله ، ولا تمثل ولا تغل ، ولا تغدر ، ولا تقتل وليداً)

وروى عن النبي حديث آخر أنه كان يقول لجيوشه (انطلقوا باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة) والحديث الأول صريح بأن النبي ﷺ إنما كان يسير جيوشه لقتال الأعداء من المشركين ، وليس لقتال المشركين إطلاقاً ، وأنه كان يأمر بقبول الجزية من العدو المشرك ، حيث يبدو من ذلك عدم صواب قول من قال : إنه لا يقبل من العدو المشرك إلا الإسلام فضلاً عن عدم صواب قول من قال بقتال المشركين إطلاقاً حتى يسلموا .

والوقائع الحربية التي باشرها النبي ﷺ بقيادته أو بقيادة قواده كلها جرت في نطاق المبادئ والخطط القرآنية على الوجه الذي شرحناه ، فلم يقاتل ، ولم يأمر بقتال كل مشرك إطلاقاً ، ولم يكن القتال إلا ودأ على عدوان وقع ، أو إحباطاً لعدوان متوقع على الإسلام والمسلمين ودارهم بصورة ما ، مع النهي عن قتل غير المقاتلين منهم ، أي : الأطفال والنساء والشيوخ ، ومع توجيه الدعوة إليهم إلى الإسلام قبل البدء بالقتال ، والوقائع الحربية التي جرت في زمن النبي مسرودة في كتابي سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وهما من أقدم الكتب التي وصلت إلينا وأوثقها ، وليس فيها أي خبر بأن النبي ﷺ قاتل ، أو أمر بقتال غير الأعداء المعتدين على الإسلام والمسلمين ، وفيها أنه كان يقبل السلم ممن يجئهم للسلم منهم ، ولم تكتب هذه الكتب للدفاع والتسوية كما قد يزعم الحوري وأمثاله الذين لا يتورعون عن مثل هذا الزعم بالنسبة للقرآن بما مروت أمثلة عليه ، لأنه لم يكن إذ ذاك قضية تحتاج إلى تسوية ودفاع ، وإنما كتبت على الطبعة كوقائع مروية عن راو عن راو إلى زمن النبي ﷺ .

ومع ما قلناه من أن آيات التوبة (٥) و (٧) هي في صدد الناكثين للعهد من المشركين ، فليس فيها ما يمنع من التعاهد معهم مرة

أخرى ، ويوجب الإصرار على إسلامهم إذا ما كان من مقتضيات مصلحة وظروف المسلمين التعاقد معهم .

- ٦ -

أما قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، فقد أمر به القرآن بالنسبة للمعتدين ، وكعمل دفاعي أيضاً ، كما هو ظاهر من نص آية التوبة التي أشار الحوري إلى فحواها دون أن يورد نصها ، لأن في النص السبب الموضح وهو هذا (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .. ٢٩) .

ولقد نزلت هذه الآية بين يدي غزوة قادها رسول الله إلى تبوك ، لأن قبائل النصارى في مشارف الشام بتحريض من الروم والغساسنة تجمعت لغزو المدينة ، ولقد سبقت قبل هذه الغزوة أحداث عديدة جعلت حالة الحرب قائمة بين المسلمين وبين نصارى هذه المشارف ومن ورائهم الغساسنة والروم نتيجة لعدوان متنوع الصور منها هو مسرود في الكتاين الذين ذكرناهما قبل .

ومن البارز من هذه الأحداث قتل رسول لرسول الله أرسله إلى ملك بصرى لحمل رسالة يدعو فيها إلى الإسلام ، وقتل عامل للروم في اللقاء من قبيلة جذام ، لأنه استجاب للدعوة الإسلامية وآمن ، وتشليح دجيسة الكلي رسول رسول الله إلى قيصر الذي حمل إليه رسالة بالدعوة إلى الإسلام من قبل القبائل النصرانية ، وعدوان قبائل النصارى في هذه المشارف على بعثات بعضها رسول الله تحمل الدعوة الإسلامية إليها ، ثم على القوافل التجارية التي كانت تسير من المدينة إلى بلاد الشام أو العكس ، وقد تجمعت مرة بعد مرة لغزو المدينة نفسها ، وكل هذا بما عنته آية التوبة التي لم تأمر

بقتال أهل الكتاب إطلاقاً ، وإنما كان أمرها منصباً على قتال الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسله ولا يدينون دين الحق ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر منهم وهم ليسوا جميع أهل الكتاب ، كما يلمح من التعبير .

وفي سورة آل عمران آيات مغزى في هذا الباب جاءت بعد ذكر الفاسقين الكافرين من أهل الكتاب وهي (لَبَسُوا سَوَاقٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آفَاةً لَبِيلٌ وَهُمْ يَسْتَجِدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . ١١٣ - ١١٥) حيث تفيد بصرامة قطعية أن القرآن يفرق بين الصالح والطالح والمستقيم والظالم من أهل الكتاب ، وإن الأمور بقتالهم هم المعتدون الباغون ، وليسوا جميع أهل الكتاب كما يريد الحوري أن يرميه ، أما المستقيمون الصالحون الذين يحتفظون بدينهم في الإسلام ، ويكونون كافين أنفسهم وأيديهم عن الإسلام والمسلمين ، فيكونون من نطاق آية المتحنة (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) وليس للمسلمين أن يقاتلوه أو يرغموه على أداء الجزية ، وفي كتابي السيرة المذكورين أخبار غزوات قادها رسول الله وصرايا سيرها في اتجاه مشارف الشام لتأديب من كان يقف مواقف العدوان والاعتداء منذ السنة الخامسة للهجرة أي قبل نزول آية التوبة بأربع سنين ، وكان ذلك في نطاق تلك الحطة التي تضمنتها آيات سورتي الحج والبقرة .

وقال الموصوفين في آية التوبة من أهل الكتاب إلى أن يخضعوا ويعطوا الجزية مسوخ كل التسويغ مثل قتال المشركين المعتدين ، ولا يتقدم إلا أحق أو حاقه مكابر .

ولقد قال الحوري : إن آية التوبة تأمر بقتال أهل الكتاب إلى أن يخضعوا لسلطان الإسلام ، وهذا صحيح ولكن ليس معناه أنهم غير مدعوين إلى الإسلام ، ولكن معناه أنهم لا يكرهون عليه بالقتال . وأن القتال هو للمعتدي منهم ومقابلة لاعتدائه وليس بسبب عدم إيمانه بالرسالة المحمدية ، وهم مدعوون إلى الإسلام دائماً بدءاً وعوداً وفي كل ظرف مما تقدمه آيات كثيرة سبق إيرادها وبخاصة آيات سورة المائدة ١٥ و١٩ وفي نطاق مبدأ الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن المكي المؤيد بالآيات المدنية على ما مر شرحه .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال : إن المتحرفين المعتدين منهم الذين وجب قتالهم ، وقتلهم المسلمون إذا أسلموا بدلاً من الخضوع للجزية يقبل منهم ، لأنهم مدعوون إلى ذلك في الأصل ، ولا يكونون خاضعين للجزية ، وقتالهم إلى أن يخضعوا للجزية وسلطان المسلمين حق لا يتعمل وراءه ، لأن للمسلمين أن يحصلوا على سلامتهم وطمانينتهم على الأقل حينما يعتدي عليهم ، ويقاثلون المعتدين ، ويقدرعون عليهم .

ويتبادر لنا مع ذلك أن روح الآية لا تمنع الصلح معهم بدون جزية إذا طلبوا ذلك ، ورأى المسلمون أنه متفق مع ظروفهم ومصالحهم ، وضامن لهدفهم الذي هو منع العدوان . وننبه على أن صلة النصارى بالنبي والإسلام في العهد المدني ليست هي الحالة التي مر شرحها وحسب ، ففي القرآن ، وكتب السيرة تسجيل لمواقف أخرى منها موقف إيمان بالنبي والقرآن في مشهد عياني رائع حكته آيات في سورة المائدة عن جماعة منهم وفدوا على رسول الله ﷺ في المدينة ، فهم القيسون والرهبان وهي هذه (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيْنَ وَرَهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا

لَا تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَتَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .. (٨٢ - ٨٤) .

وهناك آيات مدنية تذكر أنه كان من أهل الكتاب من يؤمن بالله والقرآن والرسول ولا تذكر ان كانوا يهوداً أو نصارى ومن الجائز أن يكونوا أو يكون منهم نصارى وهي هذه :

١ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .. [البقرة : ١٢١] ^(١) .

٢ - تِلْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِأُمُورٍ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .. [آل عمران : ١١٣ - ١١٥] ^(٢) .

٣ - وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ هُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .. [آل عمران : ١٩٩] .

ومما ذكرته روايات السيرة النبوية الوثيقة من ذلك ومما في سورة آل عمران دلالة ضمنية عليه خبر وفد نصارى نجران الذي يجمع المفسرون على أن الشطر الأول من سورة آل عمران نزل في مناسبه ، فقد جاء

(١) و (٢) للخوري تحلات في حدود هذه الآيات فتدافعها في مناسبة سابقة .

هذا الوفد أول مرة بعد صلح الحديبية على الأرجح إلى المدينة ، وتناظر مع النبي ﷺ في شخصية المسيح ، وتلا النبي عليهم آيات القرآن التي تقرر العقيدة الصحيحة في المسيح ، فأصرروا على عقيدتهم ، فعرض عليهم التباهل ، كما جاء في آية سورة آل عمران هذه (فَمنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ٦١) فأبى ، ثم قال له : نوادعك ونبقى على ديننا ، فكان لهم ذلك^(١) حتى إنهم طلبوا منه شخصاً يحكمونه في خلاف لهم ، فأرسل معهم أبا عبيدة رضي الله عنه ، ثم جاء الوفد مرة ثانية بعد فتح مكة ووصول سرايا النبي وبعثاته إلى اليمن ، فطلبوا من النبي كتاب عهد وذمة ، فأجابهم إلى طلبهم ، وجاء فيه فيما جاء (لهم جوار الله ، وذمة محمد على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدتهم ويبيعهم ، لا يغير أسقف عن أسقفته ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا واقف عن وقفانيته ، وليس عليهم رفق ولا دم جاهلية ، ولا يعشرون ، ولا يحشرون ، ولا يبطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقاً ، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل منهم رباً من ذي قبل ، فذمتي منه بريئة ، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر) وفرض عليهم ألفي حلة في السنة وإعارة المسلمين ثلاثين درعاً ، وثلاثين رحاً ، وثلاثين بعبيراً ، وثلاثين فرساً حينما يكون حرب بين المسلمين وغيرهم مع ضيافة رسله شهراً .

وبما ذكرته روايات السيرة من ذلك خبر عهد أعطاه النبي ﷺ لنصارى الأيلة . فقد وفد ملكهم بحنة بن روبه على النبي ﷺ ، وطلب الصلح

(١) سنن أبي داود بعد قليل خبر عاصرة رواها ابن هشام بين بعض أعضاء هذا الوفد تدل على أنهم كانوا في قرارة أنفسهم يعتقدون نبوة النبي ، وإنهم امتنعوا عن مبايعته لذلك ، وإنهم أصرروا على الاحتفاظ بدينهم لما كانوا يمتنعون به بين قومهم من كرامة ومركز .

والعهد ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له كتاباً جاء فيه (بسم الله الرحمن الرحيم : هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله ولمن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يُمنعوا ما يردونه ، ولا طويلاً يريدونه من بر وبحر ...) .
وفي ما تقدم مصداق لما قررناه ، ووضع للأمر في نصابه الحق بالنسبة لموقف النصارى في العهد المدني ، ودحض المزاعم الحوري وباطله .

- ٧ -

ولقد قاتل النبي ﷺ والمسلمون بني إسرائيل أيضاً في المدينة والقرى التي كانوا فيها في طريق الشام قبل نزول آية التوبة أيضاً ، وكان ذلك كذلك في نطاق الحطة المذكورة المقررة في آيات البقرة والحج .

ولقد جاء أجدادهم من فلسطين حينما ضربهم الرومان في القرن الأول للميلاد الضربة الشديدة التي قضت على كيانهم فيها إلى هذه الأنحاء ، فأنشأوا القرى العديدة فيها ، وجاءت ثلاث كتل منهم إلى المدينة (يثرب) فاستقرت فيها ، واشتغل بعضهم بالتجارة والربا ، وبعضهم بالصناعة ، وبعضهم بالزراعة ، وتعلموا اللغة العربية ، واشتركوا في حياة العرب وتقاليدهم ، وصار لهم أنصار وحلفاء ، ومركز قوي بين العرب ديني واجتماعي واقتصادي وثقافي .
ويظهر أنه نجم بين الكتل الثلاث التي حلت في المدينة خلاف وشقاق ، لأن الروايات التي يؤيدها القرآن تذكر أن منهم من كان حليفاً للأوس ، ومنهم من كان حليفاً للخزرج قبل الإسلام ، وهما القبيلتان العريبتان اللتان كانتا تعمرون المدينة ، وكان بينهما خلاف وعداء ، فكان كل حليف من اليهود مع أي منها يقاتل الفريق الثاني المتحالف مع الفريق العربي الآخر في سياق قتاله معهم . بما تضمنت الإشارة إليه آيات سورة البقرة هذه (ولما

أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ فَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى فَفَادُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِوَجْهِ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .. (٨٤ و ٨٥) .

ولقد كانوا يفخرون على العرب بديانتهم السماوية وأنبيائهم وكتبهم ، ويقولون لهم : إنه سيبعث نبي عربي ينزل عليه كتاب عربي ، فيكونون معه حزباً واحداً وهو ما أشارت إليه آية البقرة هذه (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ٨٩) ولا شك في أنهم كانوا يرون خبر بعثة النبي الأمي في كتبهم وهو ما ذكرته آية سورة الأعراف ١٥٧ على ما شرحناه قبل .

ولما قدم النبي ﷺ إلى المدينة مهاجراً ، التزم إزاءهم كما هو الأمر بالنسبة لغيرهم مبدأ عدم الإكراه في الدين والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فدعاهم إلى الإسلام ، وترك لهم الحرية في الاستجابة للدعوة ، أو البقاء على دينهم ، وأمنهم في حالة البقاء على دينهم على حرياتهم الدينية والمدنية ، ونشاطهم المتنوع ، وأبقاهم على مخالقاتهم مع الأوس والحزرج ، وأوجب لهم وعليهم النصر في نطاق ذلك ما لم يظلموا ويمدوا يداً بأذى مما تضمنه كتاب المودعة الذي كتبه رسول الله حينما قدم إلى المدينة كدستور عمل لجميع الأطراف .

ولقد توقع النبي ﷺ الاستجابة إلى دعونه منهم ، كما فعل ذلك الكتائبون ، ومنهم فريق من بني إسرائيل في مكة ، بل توقع أن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقوه ، ويلتف حوله ، ويكون له منهم سند وعضد ، لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ، ولما احتواء القرآن من إعلان المطابقة المبدئية والمصدرية بين التوراة والقرآن ، ومن إيجاب القرآن الإيمان بكتب الله ورسله وأنبيائه على المسلمين . ثم لما كان من تبشيرهم ببعثه ، واستفتاحهم بذلك على الذين كفروا بناء على ما كانوا يجدونه في كتبهم من صفاته ، فخيّبوا ظنه ، وتطيّروا منه ، وأخذوا ينظرون بعين التوجس إلى احتمال رسوخ قدمه ، وانتشار دعوته ، واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموي الذي كانوا من دون رب يستغلونه في تقوية مركزهم . وغدوه قائد العرب ومرشدهم وقاضيهم دونهم ، ومفتيهم عنهم ، وخشوا على المركز الذي كان لهم بين العرب ، والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ، ويجنون منها أعظم الثمرات المادية والأدبية ، فكان ذلك عاملاً على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والتآمر ، والصد والتعطيل والعداء ، والدس وكنم الحق إلى نهايتها . ويمثل هذا العامل آيات عديدة في القرآن المدني تتضمن الإشارة إلى ما كان من غيظهم وحقدهم وتطيّيرهم وتآمرهم على النبي والمسلمين كما ترى في الأمثلة الآتية :

١- يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون . وَأَمِينُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُون . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . [البقرة : ٤٠-٤٢] .

٢- أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ مِمَّنْ يَقُولُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ
بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. [البقرة : ٧٥ و ٧٦] .

٣ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَالُوا جَاءَهُمْ
مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ . يَتَّبِعُوا آيَاتِنَا
بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ
وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ قَلِيلٌ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. [البقرة : ٨٩ - ٩١] .

٤ - مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .. [البقرة : ١٠٥] .

٥ - وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا
بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ
كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا
يَبْنِيهِمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا
لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُفْسِدِينَ .. [المائدة : ٦٤] ^(١) .

(١) هناك آيات كثيرة أخرى من باب ما تقدم فاكتفينا بما أوردناه .
انظر آيات البقرة ١٠٩ و ١١٠ و ١١١ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٥٩ و ١٦٠
و ١٥٣ - ١٥٥ ، وآل عمران ٦٩ - ٧٢ و ٨٦ و ٩٨ - ١٠٠ و ١١٨ - ١٢٠
والنساء ٤٥ و ٤٦ .

والآيات كما هو ظاهر هي في الدرجة الأولى في صدد مواقف الجحود والمكر والدس والتنكر والحجاج والتشكيك والمكابرة اليهودية ، وليست في صدد عدم إيمانهم برسالة النبي والقرآن لذاته ، وإن كانت متفرعة عنه ، ويلفت النظر إلى ما تكرر فيها من تقرير كونهم يعرفون الحق في الرسالة المحمدية ، والوحي القرآني كما يعرفون أبناءهم ، وكونهم يقفون هذه المواقف من بعد ماتبين لهم الحق ، وظهرت لهم البينات ، وشهدوا أن الرسول حق .

وشهادات الكتابيين بعامة والإسرائيليين بخاصة بصحة الوحي القرآني وصدق النبي محمد ﷺ والعلامات التي وجدوها فيه مطابقة لما يجدونه في التوراة والإنجيل واتباعهم وإيمانهم له بما قررته الآيات المكية التي أوردناها قبل ، وهكذا يكون التنديد في الآيات الآتية وأمثالها بما أشرنا إلى سورة وأرقامه منصبا على الذين جحدوا ما عرفه إخوانهم في مكة أنه الحق ، وتكبروا له ، وكان من الواجب عليهم أن يجحدوا حذوهم في المدينة ، ويشهدوا ويؤمنوا ، وبهذا يكون الكتابيون هم الذين بدلوا موقفهم من الوحي القرآني والرسالة المحمدية ، وليس النبي كما زعم الحوري الحداد كذبا من حيث إنهم كانوا في العهد المكي يشهدون بصدقها ويؤمنون بها .

وهذا العرض يظهر بصورة حاسمة وقاطعة أن المآرب الذاتية والدينية هي التي جعلتهم يقفون موقفاً غير موقفهم في مكة التي لم يكن لهم فيها هذه المآرب المنبثقة في المدينة دون مكة عن مركز قوي ، وتكتل وتربخ ونشاط دنيوي واقتصادي واجتماعي . وأن النبي لم يكن هو المستفز المتحرش ، وكل ما كان منه أنه دعاهم إلى الإسلام كما دعا غيرهم ، وكان يأمل أن يستجيبوا إليه كما فعل إخوانهم في مكة .

ومع ذلك فإن القرآن كما سجل اعتراف بعض جماعات من النصارى في العهد المدني بما في الرسالة المحمدية القرآنية من الحق ، فأمنوا بها ،

وصدقوها ، وانضوا إلى رايها ، سجل اعتراف بعض جماعات من اليهود في هذا العهد مثل ذلك ، استطاعوا أن يتغلبوا على أفانيتهم ومآربهم بما تمثله بصراحة آية سورة النساء هذه التي وردت في سياق في حق اليهود (لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا .. ١٦٢) ويمكن أن تمثله آيات البقرة ١٢١ وآل عمران ١١٣ - ١١٥ و ١٩٩ التي أوردناها قبل قليل ، والتي يمكن أن يكون بعض اليهود ممن عنتهم .

ويقول الحوري : إن الدين وحد النبي مع الكتائين والسياسة فوقتهم . وهذا التعبير غير دقيق ، وفيه تجوز بل مغالطة ، فالوحدة بين النبي والكتائين كانت وحدة مصدر ومبادئ فقط ، غير أنهم انخرفوا عن المبادئ واختلفوا فيما بينهم وفي ما ورثوه من كتب اختلافاً كبيراً بغياً بينهم ، وصاروا شيعاً وأحزاباً متنازعة ، فجاءت الرسالة المحمدية لتصحيح الانخرف وإزالة الاختلاف ، ولم تكن وحدة فعلية بينهم وبين الرسالة مع بقائهم على حالتهم التي كانوا عليها قبلها ، ولقد فهمها الكتائون في العهد المبكي على وجهها ، فاستجابوا إليها ، واندجوا فيها ، فقامت بذلك بينهم وبين النبي الوحدة ، أي : أن الوحدة تمت بينهم بعد تخليهم عن انخرفاتهم واختلافاتهم ، وانضواهم إلى الراية المحمدية القرآنية . أما في العهد المدني ، فإن مآربهم السياسية هي التي حالت دون تخلي أكثرهم عن انخرفاتهم واختلافاتهم ، فأدى ذلك إلى التصادم ، وإذا كانت السياسة أدت حقاً إلى هذا التصادم ، فهو من صنعهم ، وليس من صنع النبي . ومن الكذب البواح أن يقال بناء على ذلك : إن النبي انقلب ، والتزم خطة جديدة جعلتهم يصطدمون . ولقد كان على رأسهم أحرار ورهبان وزعماء كان لهم

التأثير القوي على جمهورهم ، وكانوا أصحاب الحظ الأوفر من المنافع والمآرب ، فكلنا من أسباب هذا الموقف بدون ريب الذي لم تكن له أسباب بائنة في العهد المكي ، لأن الكتابيين لم يكونوا في مكة كتلة كبيرة ذات مركز ومنافع ومآرب ومطامع سياسية وغير سياسية ، وهذا ما أشارت إليه آية سورة التوبة هذه (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ... ٣٠) وهذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْآخِنَاءِ وَالرَّهْبَانِ لَيَا كُذَّبُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... ٣١) .

ولقد احتوى القرآن المدني صوراً كثيرة من حجاج الذين غلبهم الهوى والمآرب من زعماء اليهود وأحبارهم وعامتهم ، ولجاجهم ودسائسهم بين المسلمين ، وقليبيهم عليهم ، وتأمرهم على النبي والمسلمين والقرآن بما تضمنته سلسلة الآيات التي أوردناها قبل ، والتي لها أمثال من بابها ، وهم الذين غنوا حركة الخفاق والمنافقين ، وكان هذا من أول وأهم مواقفهم ، واستمر طيلة وجودهم في المدينة حتى سماهم القرآن بأنهم شياطين المنافقين في هذه الآية التي جاءت في سياق وصف المنافقين (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ .. البقرة ١٤) . وقد وصل تأمرهم على النبي والمسلمين والإسلام إلى الارتكاس في أبشع جريمة دينية وخلقية بإظهار إيمانهم بأوثان المشركين وشهادتهم بأنهم أهدي من المسلمين حينما ذهبوا إلى مكة للتعريض على المسلمين والتحالف معهم منكرين بذلك أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده على ما حكته آيات سورة النساء هذه التي تعلل ذلك بما كان من شدة حقدهم وحسدكم ، وحرصهم على الدنيا (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أولئك

الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً . أَمْ لَهُمْ
نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً . أَمْ يَحْسُدُونَ
النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً . (٥٤ - ٥١) .

ومع ذلك فقد اتسع صدر النبي والمسلمين لهم طالما بقوا في نطاق
جغود رسالته وقرآنه ، وفي نطاق المكائدات والمهاجمات بل والدسائس ،
وظل النبي يعتبر نفسه مرتبطاً وملتزماً بعهده معهم ، وكل ما كان من أمر
أن القرآن كان يندد بهم ، ويسجل عليهم اللعنة بسبب هذه المواقف ،
ويتهب المسلمين إلى أخلاقهم وجبلتهم التي ورثوها عن آبائهم ، وإلى نوابيهم
الحيثة ، وطواياهم الفاسدة ، ويصفهم بأنهم من أشد الناس عداوة لهم بما
تمثله آيات عديدة في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أوردنا بعضها
قبل ، ونكتفي بالإشارة إلى أرقامها تفادياً من التطويل ^(١) . ولم ينتقل
الموقف بين النبي وبينهم إلى الصدام الحربي إلا بعد أن أخذوا ينقضون
العهد ، ويقفون موقف الخيانة والعداء الصريح المهدد لسلامة المسلمين
ومركزهم ، وهذا ما تقيده آيات قرآنية عديدة وروايات وثيقة موضحة لها .

- ١٠ -

ولقد كان ذلك الصدام على دفعات ، لأن ذلك الموقف كان يظهر من
فريق قبل فريق . ونحن نعرف أن بعض المستشرقين والمغرضين والحقادين
من يهود وغير يهود يزعمون أن النبي قد بيث نية التنكيل بهم وإبادتهم
بدافع من التعصب الديني العنصري منذ البدء ، وأنه إذا لم ينفذ نيته فيهم
مرة واحدة ، فلأنه لم يكن له قبل بهم جميعاً ، فجعل التنكيل فيهم على مراحل .

(١) سورة البقرة ٤٠ - ١٤٧ و ١٥٩ و ١٦٠ و ١٧٣ - ١٧٦ وآل عمران
٦٥ - ١٢٠ و ١٨٠ - ١٨٤ والنساء ٤٤ - ٥٦ و ١٥٣ - ١٦١ والمائدة ٤١ - ٨٢
والأنفال ٥٥ - ٦٠ .

وقد غمزوه بالنكت بما عاهدكم عليه من الحرية الدينية والمدنية ، وبالميل إلى سفك الدم ، وبالطمع في أموالهم ، وإغداقها على أتباعه . وكل هذا إفك وافتراء صادران عن الغرض والهوى والحقد والتعصب ، وعدم فهم القرآن الذي احتوى من الآيات ما فيه الحجة والبينة الحاسمة على إفك ما زعموا وسفه ما غمزوا . ففي آيات سورة البقرة ٨٤ و ٨٥ التي أوردناها قبل صراحة بأن الامرائيليين في المدينة كانوا فرقاء متنازعين متحاربين في ما بينهم ، وقد تحالف كل فريق مع فريق عربي عدو لفريق آخر الذي كان يتألف من عرب ويهود ، والفريقان العربيان المتعاديان هم الأوس والخزرج ، وكان بنو النضير وبنو قينقاع حلفاء للخزرج ، وبنو قريظة حلفاء للأوس .

وفي القرآن آيات تذكر أسباب وظروف كل فصل من فصول التشكيل مع الروايات الوثيقة الموضحة بما لا يدع محلاً لريب مرتاب منصف بأن التشكيل كان يقع لأسباب موضوعية وظرفية في حق الذين استعقوه دون غيرهم بقصد درء خطرم . ومن ذلك في صدد بني قينقاع أولى كتلهم في المدينة التي أجليت ، وسمح لها بحمل أموالها وأثقالها هذه الآيات في سورة الأنفال (إن شر الدواب عند الله الذين كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَوْعِدٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِذَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ قَشَرْدُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . وَإِذَا تَخَافُنْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً . فَأَنْيِذِ الْبَاسِ عَلَى سِوَاكَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ .. ٥٥ - ٥٨) . والآية (٥٧) ذات مغزى عظيم حيث تنبه إلى أن التشكيل بهم قد يردع الآخرين عن الوقوف موقف النقض والخيانة ، فلا يكون ضرورة . ومحل التشكيل بهم . ومن ذلك في صدد بني النضير الذين كانوا ثانية الكتل التي أجليت عن المدينة ، وكان سبب التشكيل المباشر تأمرهم على اغتيال رسول الله في محلتهم

هذه الآيات في سورة الحشر (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَا يَنْعَسِبُهُمْ فُحْصُونَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَقَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... ٢ - ٤) ومن ذلك في صدد بني قريظة الذين كانوا الكتلة الثالثة والأخيرة التي نكل بها من يهود المدينة هذه الآية في سورة الأحزاب (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) ..

ويلحظ فرق بين التكتيل بيني قريظة والتكتيل بيني قينقاع والنضير ، فالأوليان اكتفى بإرغامها على الجلاء ، والثالثة قتل مقاتلها وأمر نساؤها وأطفالها . وهذا الفرق راجع إلى الظرف المشدد . فبنو قريظة ظاهروا الأحزاب التي غزت المدينة بجيش جرار والتي كانت تتألف من مشركي قريش والقبائل المنحزمة معهم ، وكان ذلك بتحريض زعماء يهود بني النضير الذين تزعموا يهود خيبر بعد جلائهم عن المدينة ، وظلوا يحقدون على النبي والمسلمين .

وكان زحف الأحزاب على المدينة مزلزلاً للمسلمين زلزلاً شديداً ، لأنه كان يهدف إلى استئصال شأفتهم وكانوا أقوى منهم ، وأعظم عدداً أضعافاً مضاعفة ، وصار المسلمون بين نارين ، من فوقهم ومن أسفل منهم ، وكان من الجائز لولا رحمة الله ونصره أن يتحقق ذلك الهدف الخطير . ولقد حرك الزحف المنافقين في المدينة ، وجعلهم يقفون موقف عداة سافر متآمر ضد المسلمين أيضاً ، فكان ذلك بما زاد شعور المسلمين بالبلاء والفرع .

وإلى هذا أشارت آيات سورة الأحزاب هذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُواكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ . وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّوْنَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرُسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَوْقَ مِنْهُمْ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّهُ يَمُوتُ عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَّحُوا الْقِتْلَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا . ٩ - ١٤) .

ولقد كان زعماء بني النضير قد ذهبوا بعد الجلاء إلى خير ، وأقاموا بها ، وتزعموا يهودها ويهود القرى اليهودية الأخرى التي في طريقها نحو الشام مثل وادي القرى ، وفدك ، وتبء ، وصاروا يحرضون القبائل على المسلمين ، وهم الذين ذهبوا إلى مكة ، وتحالفوا مع قريش ، ثم مع القبائل المتحيزة معهم لأجل الزحف على المدينة ، ثم أقنعوا يهود بني قريظة بنقض عهدهم مع النبي والمسلمين ومظاهرة الأحزاب ، بما روت تفصيله روايات السيرة الوثيقة ، فصار لابد من التتكيل بهم وكان ذلك سبب غزو النبي والمسلمين لخير والقرى اليهودية الأخرى .

وهكذا يبدو واضحاً كل الوضوح أن التتكيل النبوي باليهود لم يكن بسبب جحودهم للرسالة المحمدية ولا بسبب دسائسهم ومحاكمتهم ومجادلاتهم ، وإنما بسبب مواقفهم العدائية الفعلية الخطيرة المهددة لسلامة المسلمين وأمنهم ، وأن ما يهذى به المغرضون والحاقدون هو كذب وإفك أملاء الهوى والحقود والتعصب . ولقد احتوت الآيات المدنية في مختلف أدوار التنزيل المدني

حكاية مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد ومكابرة وجادل وسخرية ، بل ودسائس ومؤامرات في صدد الجحود بالرسالة والنبوة ، وتعطيل الدعوة ، وتشكيك المسلمين فيها بل وفيها ما يفيد محاولتهم إثارة الأحقاد والفتن ونزعة الارتداد بين المسلمين ، كما احتوت مساجلات متنوعة معهم في الجدل حيناً ، والتنديد حيناً ، والإفحام حيناً ، والوعظ والتذكير والإنذار والتبشير حيناً ، والدعوة إلى تخفيف الغلواء ، وتقوى الله والتوبة إليه حيناً . بما تضمنته آيات سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة التي أشرنا إلى أرقامها في ذيل سابق . وبكلمة أخرى لقد اتسع الله ورسوله لهم سعة كبيرة ، وتمتعوا بحريتهم في التمسك بدينهم ومباشرة طقوسهم وشؤونهم الاقتصادية ، والاستمرار في صلاتهم ومحالفاتهم السياسية والشخصية ، والاحتفاظ بكيانهم الطائفي والثقافي والقضائي ، ولم يبدأ دور التنكيل ضد أي فريق منهم إلا بعد أن يطفح الكيل من دسائسهم ومكائده وأذاه ، وبعد أن يكون هذا الفريق قد انتقل إلى موقف الكنت والغدر والحيانة ، وتهديد سلامة المسلمين وأمنهم . فأي كلام بعد هذا هو تمهل كاذب وزيف باطل لا يبصر إلا من مغرض مكابر لايهمه الحق ولا الحقيقة .

ونقول من قبيل المساجلة : إنه لم يكن في وقت نزول الآيات ، وتدوين الروايات قضية من نوع ما يشبهه المغرضون الحاقدون من نصارى وعبود حتى يصح أن يقال : إن الدلائل والمسوغات التي انطوت فيها اخترعت اختراعاً للدفاع عما فعله النبي ﷺ والمسلمون باليهود ، وهذا وحده كاف لإسكات كل أفك مغرض ، وأخذ ما ورد على حقيقته وصدقه . وهذا فضلاً عن أن جبهة اليهود وأخلاقهم تجاه الأمم والنحل الأخرى المشهورة منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم والمسجلة في أسفارهم ، وفي المدونات القديمة والمتأخرة في غنى عن اختراع المسوغات للتنكيل بهم في كل ظرف ومكان . وإذا كان ما تقدم انصب معظمه أو كله على اليهود فإنما مرد ذلك

أنهم الذين كانوا كتلة قوية في المدينة ، وليس معناه أن قول الحوري يصدق بالنسبة للنصارى ، فالنصارى في مكة قد آمنوا بالرسالة المحمدية ، وصاروا مع المسلمين ملة واحدة على ما شرحناه وأوردنا دلائله قبل ، ولم يكن في المحدثية نصارى مقيمون لهم شأن .

وفي القرآن والروايات تسجيلات لمواقف وفود من النصارى جاءت إلى المدينة وصمعت من النبي وناظرته ، فمنهم من عرف الحق ، فأذعن وآمن وصار من ملة الاسلام ، وهذا ما سجلته آيات سورة المائدة هذه (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيْنَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ... ٨٣ و ٨٤) وآية سورة الحديد هذه (ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآفَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ... ٢٧) ومنهم من لم يؤمن ، وهم وفد نصارى نجران اليمن الذين نزل معظم شطر سورة آل عمران الأول (الْآيَات ١ - ٦٤) في صددهم . ولقد دعاهم النبي إلى المباحلة حينما أصروا على الاحتفاظ بعقيدتهم بالوهمية المسيح ، أي : دعاهم إلى دعاء الله بلعنة الكاذب في صدد شخصية عيسى عليه السلام ، ولكونه بشراً رسولاً ونبياً وعبداً لله فأبوا . والروايات تذكر أن المنافع والمآرب هي التي جعلتهم يصرون على الاحتفاظ بعقيدتهم حيث روي أنهم حينما دعاهم النبي إلى المباحلة قال أحد كبوانهم : إن محمداً هو نبي

فلا تتباهوا معه إن كنتم تريدون الاحتفاظ بنصرايتكم ، وسالموا
وارجعوا ، فقال له واحد : وما يمنعك أن تعترف به وتؤمن ما دمت
تقول هذا وتتابعك ؟ فقال ما فعله قومنا لنا ، كرمونا وشرفونا وأغدقوا
علينا المال ، وكل هذا سوف يضيع ^(١) .

وهذا ما تضمنت تقريره آيات سورة التوبة هذه (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُبْعَثُهُ عَمَّا يَشْرِكُونَ .
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ
نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .
بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ
أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ٣٠ - ٣٤)

- ١١ -

ولقد زعم الحوري الحداد أن من مظاهر انقلاب النبي ﷺ بعد هجرته
إلى المدينة تنصله من الصفة الكتابية التي كانت دعوته تصطبغ بها في مكة ،
ودعوته إلى دين وسط لا يهودي ولا مسيحي ، ولكنه حنفي إبراهيمي
مع الحملة التنديدية باليهودية والنصرانية واليهود والنصارى بعد أن كانت
منضما إليهم وكواحد منهم .

أما التنصل ، فزعم يكذبه القرآن المدني الذي ظل يوجب على المسلمين
الإيمان بكتب الله وأنبيائه ، ويجعل ذلك ركناً من أركان الإسلام .
تمثله الآيات المدنية التالية :

(١) انظر سيرة ابن هشام . وآيات التوبة تؤيد صدق الرواية إجمالا من حيث انها
تعقل موقف الذين احتفظوا بأديانهم من الأحباو والرهبان بالمنافع والمآر والصد
عن سبيل الله ...

١ - قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . [البقرة : ١٣٥ - ١٣٧] .

٢ - لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .. [البقرة : ١٧٧] .

٣ - آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .. [البقرة : ٢٨٥] .

٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً .. [النساء : ١٣٦] .

فهذه الآيات صريحة كل الصراحة أن صفة الرسالة المحمدية كانت في المدينة كتابية ، كما كانت في مكة ، ولا تصدق كلمة التنصل في هذا المقام قط ، ولا تصدق هذه الكلمة على موقف النبي من النصارى واليهود ،

لا في العهد المسيحي ، ولا في العهد المدني . فرسالة النبي كانت رسالة جديدة لهداية الناس ، وتصحيح الانحراف عن طريق الله ، ومن جملة ذلك انحراف اليهود والنصارى ، ولم يكن النبي يهودياً ولا نصرانياً في مكة ، وإنما كان داعياً جديداً للناس ولليهود والنصارى ، ومصححاً للانحراف والاختلاف .

وظلت هذه الصفة وهذه الخطئة هما صفة هذه الرسالة ورسولها في المدينة كما كانت في مكة على ما مر شرحه شرحاً يفي عن التكرار .
وأيضاً في القرآن المدني حملة تنديدية على اليهودية والنصرانية لذاتهما ، وكل ما فيه رد على أقوال اليهود والنصارى في صدهما كما نرى في الآيات التالية :

١ - وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .. [البقرة : ١١١ و ١١٢] .

٢ - وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَهِيَ مِثْلُ هُوَ الْهَدَى وَلَئِنَّ آتِيتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكِ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نصير .. [البقرة : ١٢٠] .

٣ - وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .. [البقرة : ١٣٠ و ١٣١] .

٤ - وَقَالُوا كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْهُدَا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلَى مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ

لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ
مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقِ
فَسِيكَفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ
مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ . قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ
رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ .
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ
كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنَأْتُمُ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أظْلَمُ لِمَنْ
كُتِبَ شَهَادَةٌ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .
[البقرة : ١٣٥ - ١٤١] .

٥ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ
التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . مَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ
حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ قُلِمَ مُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا
وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . وَذَاتِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَضِلُّونَكُمْ
وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ
تَقْتُلُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ..
[آل عمران : ٦٥ - ٧١] .

٦ - وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ
قُلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ
يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ .. [المائدة : ١٨] .

وهذه الآيات تتطابق في مداها مع موقف القرآن المسيحي من اليهودية والنصرانية الذي تكررت الإشارة فيه إلى ما كان بين اليهود والنصارى وأهل الكتاب والذين أوروثوا الكتاب من خلاف وشكوك مريبة وتعدد أحزاب وشيع وزبر . والذي ذكر فيه أن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب ليبين لهم ما اختلفوا فيه وهدى ورحمة لمن يؤمن به ، ويحذره النبي من اتباع أهوائهم ، وقرر أن الله قد جعل رسوله محمداً على شريعة جديدة فيها الهدى ، وتصحيح الانحراف ، وإزالة الاختلاف ، امر شرعه ، وأوردنا الآيات التي جاءت في صدره في الفقرتين ٣ و ٤ من البحث السابق (أولاً) من هذا الفصل . وقد أثبتنا بذلك أن النبي لا يصح أن يكون منضماً لليهود والنصارى ، ولا واحداً منهم بناء على تلك النصوص .

- ١٢ -

وفي القرآن المدني حملة على اليهود ، ولكنها إنما كانت بسبب مواقف اللجاج والحجاج والدس والتآمر والمكر والكيد التي وقفوها من النبي والقرآن والمسلمين ، والتي شرحناها قبل ، وأوردنا بعض الآيات ، وأشرنا إلى الآيات الكثيرة الأخرى التي جاءت في هذا الصدد ، وفيها كل الحق والصدق . وإذا كان القرآن المسيحي خلا من ذلك بالنسبة لليهود المعاصرين للنبي ﷺ - لأن فيه صوراً عما كان من أسلافهم في زمن موسى وبعده من مواقف تمردية ولجاجية ، وانحرافات دينية وخلقية^(١) - ، فمرد ذلك إلى أنهم لم يقفوا في مكة المواقف المذكورة التي وقفوها في المدينة ، لأنهم لم يكونوا فيها كتلة كبيرة ذات مصالح متنوعة ووجود ونشاط قويين ، وأثر كبير في المجتمع المسيحي ، كما كان أمرهم في المدينة ، ولأن موقفهم إلى هذا في مكة من النبي ودعوته ، ومن القرآن كان إيجابياً على ما شرحناه .

(١) اقرأ مثلاً آيات الأعراف ١٣٨ - ١٤١ و ١٤٨ - ١٥٢ و ١٦١ والإبراهيم

في الفقرة (١٩) من البحث السابق تحت عنوان (أولاً) شرحاً يغني عن التكرار حيث يظهر من هذا زيف زعم الحوري وثافته .

وأما بالنسبة للنصارى ، فليس في القرآن المدني تنديد شديد بهم ، كما هو الأمر بالنسبة لليهود ، ولقد جاء ذكرهم في مقام تنديدي خفيف مع اليهود ، أو في شمول تعبير (الذين أوتوا الكتاب) كما هو في هذه الآيات التي نرجح أن ذكرهم في أكثرها كان استطرادياً :

١ - آيات البقرة (١١٠ و ١٢٠ و ١٣٥) وآل عمران (٦٥ - ٦٧) والمائدة (١٨) التي أوردناها في الفقرة السابقة .

٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .. [المائدة : ٥١] .

٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا قَامَ دِينُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ .. [المائدة : ٥٦] .

٤ - وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سُبْحَانَهُمْ وَلَادْخُلْنَا لَهُمُ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ .. [المائدة : ٦٥ و ٦٦] .

٥ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .. [المائدة : ٦٨] .

٦ - قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
 مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . وَقَالَ
 الْيَهُودُ عُزَيْرٌ بْنُ اللَّهِ . وَقَالَ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
 بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَاتِلْتُمُ اللَّهَ أَنَّى يُؤْفَكُونَ
 اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ
 وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُبْشِرَاتُهُ عَمَّا
 يَشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ
 إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
 رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُشْرِكُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
 لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .
 وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 قَبَسْنَا مِنْهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ .. [التوبة : ٣٩ - ٣٤] .

وهناك آيات خاصة بالنصارى ، والتنديد فيها رقيق كذلك كما ترى
 في ما يلي :

١ - إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ
 ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ
 الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ
 تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا
 وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ
 هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنْ اللَّهُ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ
 الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

الله وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .. [آل عمران : ٥٩ - ٦٤] .

٢ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمَسُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ . إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .. [النساء : ١٧١ - ١٧٣] ^(١) .

ويلحظ من بعض الآيات أن من الرهبان من كان يصد عن سبيل الله بسبيل مآربهم الذاتية وأن بعضهم كان يقف موقف الحجاج واللجاج من النبي والقرآن وحقيقة عيسى عليه السلام ، وهذا هو سبب الحملة عليهم على رقتها فيما هو المتبادر ، وهذا حق لا يصح أن يثار حوله غبار ، لأنه من صميم الدعوة الإسلامية القرآنية مع الفارق الكبير بين هذه الحملة وبين ما كان ضد اليهود من حملات بما مرده أولاً إلى أن موقف النصارى كان يتسم بالدماثة والليونة اللتين عبرت عنها آية سورة الحديد (وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ... ٢٧) وثانياً إلى ما كان يظهره النصارى من موادة نحو المسلمين بما عبرت عنه آية سورة المائدة :

(١) هناك آيات أخرى فيها نفس الأسلوب والهجعة الخفيفة مثل آيات المائدة ١٤ و ١٧ و ٧٢ - ٧٧ والحديد ٢٧ فافقرأها إذا شئت .

(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ... ٨٣) وثالثاً إلى أنهم لم يكن لهم في المدينة ما كان لليهود من تكتل ووجود ونشاط ومركز قوي يدفعهم إلى موقف مماثل لموقف اليهود . ورابعاً إلى أن معظم الذين التقى بهم النبي في المدينة كانوا وفوداً يأتون ويعودون ، وكان منهم من يؤمن ويكون المشهد الإيماني الرائع الذي حكته آيات سورة المائدة ٨٣ - ٨٦ التي أوردناها قبل . ومن لم يكن يؤمن كان يتصرف بلباقة وينصرف بالتي هي أحسن ، ويعقد مع النبي ﷺ عهد سلم وذمة مما كان من أمر وفد نجران وموقف رئيس وأهل أيلة على ما ذكرناه في مناسبة سابقة بما ذكرته كتب السيرة القديمة المعتبرة .

وإذا لاحظنا أن القرآن المكي احتوى تنديداً بالذين اختلفوا في حقيقة المسيح عليه السلام ورسائله وانحرفوا عنها وتعددت أحزابهم فيها ، واحتوى كذلك تقريراً لهذه الحقيقة التي هي كون عيسى عبد الله ورسوله ونبيه ، وكون ولادته تمت بمعجزة ربانية ، وكونه قد دعا الناس إلى عبادة الله وحده ربه وربهم بما يقتضى معه أن النبي محمد ﷺ كان منضماً إلى النصارى في مكة وكواحد منهم على ما شرحناه في الفقرة (٥) من البحث السابق ظهر أن ما احتوته الآيات المدنية عنهم هو متطابق في مداه مع ما احتواه القرآن المكي . وظهر زيف قول الحوري الحداد ونهافته وهو أن النبي محمد قد تبدل في المدينة ، وانقلب على النصارى الذين كانوا كأنه واحد منهم في مكة ..

ولقد كررت آيات سورة آل عمران تقرير حقيقة ولادة عيسى ورسائله في مناسبة قدوم وفد من نصارى نجران اليمن إلى المدينة ومناظوته ﷺ فيها ، وبينها وبين ما جاء في سورة مريم المكية من تلك الحقيقة مطابقة تامة حين مقارنتها وهي آيات سورة مريم ١ - ٤٠ وآيات سورة آل عمران

٣٥ - ٥١ . وبعد آيات آل عمران بقليل نجيء الآيات ٥٩ - ٦٤ التي أوردناها قبل قليل والتي تقرر أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، وأن ولادته بالصورة التي حكمتها آيات ٤٥ - ٥٩ التي قبلها ، وآيات سورة مريم المكية ١٦ - ٤٠ لا تقتضي أن يكون إلهاً أو ابناً الإله كما اعتقده النصارى اعتقاداً منحرفاً . ولقد أصر وفد نجران على عقيدته ، فدعاه النبي إلى المباحلة كما ذكرته آية سورة آل عمران ٦١ فأبى وقال للنبي : ألسن تقول : إن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ؟ قال : بلى فقال هذا حسبنا ، فأنزل الله هذه الآية (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مُمِّنٌ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ .. آل عمران ٥) منددة بهم ، لأنهم تمسكوا بالآيات المتشابهة التي تحتل تأويلات متعددة وهي بسبيل التقريب والتشثيل ، وتركوا الحكم الذي يقرر أن عيسى عبد الله ونبيه ورسوله ، وأنه دعا إلى عبادة الله وحده ربه ورب الناس ، وأنه ليس من إله غير الله ، وأن من يقول : إن الله هو المسيح ، أو إن الله ثالث ثلاثة ، أو إن الآلهة ثلاثة ، أو إن المسيح ابن الله يعد كافراً .

وهكذا كانت دعوة النصارى في العهد المدني في نطاق التبليغ وتركهم وشأنهم ما لم يصدر عنهم عدوان على الإسلام والمسلمين التزاماً ببدأ عدم الإكراه في الدين . ويتمثل هذا في آيات سورة آل عمران هذه (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ؕ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .. ٢٠) وآيات

سورة آل عمران ٦١ - ٦٤ لا كما يقول الحوري ان القرآن أمر بقتالهم في جملة أهل الكتاب إطلاقاً إلى أن يخضعوا لسلطان الإسلام ويعطوا الجزية . وإذا كان في القرآن آيات تأمر بذلك ، ففيها ما يفيد بصراحة وقطعية أن الذين أمر بقتالهم ليسوا كل أهل الكتاب وإنما الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، وبصدون عن سبيل الله ويأكلون أموال الناس بالباطل ، كما جاء في آيات سورة التوبة ٢٩ - ٣٤ التي أوردناها قبل .

وبلغت النظر إلى أسلوب آيات النساء ١٧١ - ١٧٣ والمائدة ١٥ و ١٩ و ٧٣ - ٧٧ حيث جاء بأسلوب التأنيس ، وفيه حض نافذ إلى العقل والقلب ، ومحاولة صميمية لحل التصاري على الارعواء عن الانحراف والغلو في عقيدتهم في المسيح وتحذير لهم من اتباع أهواء اليهود .

ومن الجدير بالتنبيه أن القرآن المدني أشار بشيء من الثناء والتبويه إلى الكتائبين الذين لم ينحرفوا في عقائدهم أو تصرفاتهم كما ترى في هذه الآيات :

١ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ - وَيَالِ الْإِنسَانِ إِحْسَانًا وَذُرِّي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ .. [البقرة : ٨٣] .

٢ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَقُلِّبْهُمُ الْخِلَافَ .. [البقرة : ١٢١] .

٣ - رَمِنَ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنُ إِذَا تَامَنَهُ يَبْقِنْتَارِ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنُ إِذَا تَامَنَهُ يَدِينَارِ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا حُمِتْ عَلَيْهِ قَاقِمًا .. [آل عمران : ٧٥] .

٤ - لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ .. [آل عمران : ١١٣ و ١١٤] .

٥ - وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ..
[المائدة : ١٣] .

٦ - وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً
وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ
فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ
مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .. [الحديد : ٢٧] .

وفي كل ما تقدم وضع للأمر في نصابه الحق ورد لدعوى الحوري
الزائفة بالتبديل والانقلاب الحمدي والقرآني في العهد المدني .

- ١٣ -

وأما مسألة الدعوة إلى الحنيفية الإبراهيمية ، فقد شرحتها قبل ،
وأثبتنا أنها لم تكن مدنية ، وأنها كانت مكة أصلية ممتدة إلى ما قبل
بعثة النبي ﷺ ، وفندنا تمحلات الحوري في الآيات المكية التي تويد ذلك ^(١) .
ويتضمن هذا رداً على بقية أقوال الحوري من أن النبي صار في المدينة
يدعو إلى أمة وسط لا يهودية ولا نصرانية ، لأن هذا أيضاً كان من
أصول دعوته في مكة ، ولقد فهمها الكتائبون في مكة على وجهها
الصحيح وآمنوا ، وانضوا إليها على ما شرعناه قبل شرحاً يغني عن التكرار .
وما جاء في السور المدنية في صدد ذلك ليس جديداً أو دعوة جديدة ،
ولمّا هو في معرض الحجاج والجدل بين النبي ﷺ والكتابين وبخاصة
اليهود كما يظهر ذلك صريحاً في آيات سورة البقرة (١٣٠ و ١٣١ و

(١) انظر الفقرات ١٦ و ١٧ و ١٨ في البحث السابق (أولاً) .

(١٣٥ - ١٤١) وسورة آل عمران ٦٥ - ٧١ و ٩٣ - ٩٥ التي أوردناها في الفقرة (١١) من هذا البحث .

ومع ذلك فإن هذا ظل يترافق بإعلان الإيمان بجميع أنبياء الله وكتبه ، لأن ذلك لا يتعارض مع الدعوة إلى ملة إبراهيم والتزامها ، وفي الآيات التي أشرنا إليها آنفاً ما يمثل هذا التوافق .

وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم ما جاء في آية سورة البقرة المدنية هذه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .. ١٤٢) التي تضمنت تقرير كون الله جعل الملة التي هدى المسلمين إليها وسطاً في أصلها يتهدى بها الناس ويقاس بها هدام وصلاحهم . وعلى هذا الأساس كذلك يجب أن يفهم ما جاء في آية سورة الحج المدنية هذه (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. ٧٨) التي تضمنت تقرير كون الملة التي هدى الله المسلمين إليها ، وساروا عليها همي في الأصل ملة أبيهم إبراهيم ليكونوا بها شهداء على الناس ، وعلى التمسك بها ، والجهاد في الله حق جهاده . وليس على ما زعمه الحوري من أن ذلك كان تراجعاً من النبي عن اليهودية والنصرانية بعد أن كان منضماً إليهما كواحد منهما في مكة ، وانتهاجه نهجاً وسطاً ليس يهودياً ولا نصرانياً ، وهو ما ينقضه نصوص الآيات وشروحنا المتقدمة ثم الحالة التي كان عليها كل من اليهود والنصارى واليهودية والنصرانية التي تمثلها آيات عديدة أوردناها في البحث السابق . ومن جملتها آيات سورة الشورى هذه (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ .. (١٣ و ١٤) ثم أعقبا هذه الآية ذات المغزى العظيم في صدد استقلال شخصية الرسالة الحمديّة القرآنيّة ، وكونها قد كانت في الأصل غير يهودية ولا نصرانيّة (فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَإِسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آتَيْنَا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ..) وفي سورة الجاثية المكية آيات أخرى فيها توكيد لذلك ، وللمغزى العظيم الذي نوهنا به وهي (فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ مُّثَمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرْيْعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ . هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .. (١٧ - ٢٠) ^(١) وفي سورة البقرة آيات فيها هذا المغزى العظيم ، وفيها الدلالة على أن الكتابيين هم الذين بدلوا موقفهم من النبي ودعوته لا العكس ، فالذين كانوا في مكة آمنوا وانضوا إلى الرسالة الحمديّة على ما شرحناه قبل ، لأنهم لم يكن لهم مآرب ومنافع ومراكز ذاتية يخشون عليها في مكة وتعميمهم عن رؤية الحق والهدى ، أما في المدينة فقد

(١) الحرري لما رأى في آيات الشورى والجاثية إfachاً ورداً عمد إلى القول إنها مقحمة . وقد فندنا قوله في الفقرة (٦) من البحث السابق .

تمسك معظم اليهود وبعض من التقي النبي بهم من النصارى يهوديتهم ونصرانيتهم ، بل طلبوا من النبي أن يقبضهم ، لأنهم كان لهم من المنافع والمآرب ما يخشون عليها وتعميمهم عن رؤية الحق والهدى ، وهي هذه (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ . وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِیَّتَهُمْ أَهْوَاءُ ۖ ثُمَّ بَعَثَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .. ١١٩ و ١٢٠) .

ويلحظ أنه احتوت نفس التحذير الذي احتوته آيات الشورى والجالية للنبي بعدم اتباع أهوائهم ، وقد شد عن ذلك فريق استطاعوا أن يتغلبوا على أنانياتهم وأهوائهم ومآربهم ، فأمنوا وانضوا إلى الدعوة المحمدية على ما سجلته آيات مدنية عديدة أوردناها في الفقرة (٢٠) من البحث السابق فكان في ذلك برهان ساطع على أن الدعوة المحمدية القرآنية الجديدة أصيلة صادقة صحيحة فيها كل عناصر الاستجابة في كل من عهدي مكة والمدينة بالنسبة للكتابين ، وأن امتناع من امتنع منهم عنها ليس بسبب تبدل من قبل النبي والقرآن كما زعم الحوري ، وإنما بسبب تلك الأنانيات والمآرب . ولقد جاء بعد آيات البقرة آية نحن نرى فيها دليلاً من نفس السياق وهي (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) حيث تضمنت تقريراً معطوفاً على ما في الآيات التي سبقتها يلهم أنها بسبيل تقرير كون الذين يتلون كتاب الله حق تلاوته ، ويفهمونه حق فهمه قد عرفوا الحق الذي جاء به محمد ﷺ ، وعرفوا أعلام نبوته من كتبهم التي يتلونها ، فأمنوا به . ولم يكفر به إلا الخامرون الذين أعماهوا همهم وأنانيتهم عن رؤية الحق وأعلام النبوة في كتبهم .

ولقد ذكرنا قبل أن وفد نصارى نجران ظل محتفظاً بنصرانيتها ،

واكتفى بموادعته النبي ﷺ . ولقد روى ابن هشام أنه كان بين الوفد أبو حارثة الأسقف ، فقال لأخيه في موقف : إنه والله للنبي الذي كنا نتظر ، فقال له أخوه : وما يمنعك من الإيمان وأنت تعلم ذلك ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا وأكرمونا ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى . فما كان من هذا الأخ إلا أن فارق جماعته ، وأسلم ، وأخذ يحدث بما سمع من أخيه

وروى ابن هشام أيضاً أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم ، فأفضت الرئاسة إلى واحد منهم سمع من ابنه طعناً بالنبي الذي كان ظهور وذاع صيته ، فقال له أبوه : لا تفعل ، فإنه نبي ، وإن اسمه المذكور في الوضائع - أي الكتب التي عندهم ، فلما مات أبوه لم يكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الحوام على الصندوق الذي فيه الكتب ، وأخرجها فوجد فيها ذكر النبي ﷺ ، فأسلم وحسن إسلامه . ويرى عنه أنه أنشد النبي هذه الأبيات حينما وفد عليه :

إِلَيْكَ تَعَدُّو قَلْبًا وَضِيئَهَا
مُعْتَرِضًا فِي بَطْنِهَا جَنِينَهَا
مُخَالَفًا دِينَ النَّصَارَى دِينَهَا

ولقد روى ابن هشام كذلك أن النبي ﷺ لما اقترح على وفد نجران المباهلة حسب ما جاء في آية آل عمران (٦١) استملأوه وخلوا إلى بعضهم ، فقال العاقب وكان أميرهم وذو رأيهم : والله يا معشر النصاري قد عرفتم أن محمداً نبي مرسل ، وقد جاء إليكم بالفصل من خبر صاحبكم - يعني عيسى عليه السلام - وقد علمتم ما لآعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ، وثبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإذا آيتم إلا البقاء على ما أنتم عليه في صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم ففعلوا ^(١)

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٠٤ و ٢١٥ مطبعة حجازي سنة ١٩٥٥ .

حيث يبدو من هذا أن المنافع والمراكز هي التي جعلت هذا الوفد يتمسك بنصرانيته .

ولعل الحوري أو غيره يشك في هذه الروايات ، ونقول لهؤلاء :
إن في القرآن ما فيه تقرير وتوكيد بكون اليهود والنصارى يجدون النبي مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ، ويكونهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويكونهم يشهدون أن القرآن منزل من الله ، وإن منهم من كان يبشر بذلك ، ويستفتح على المشركين قبل بعثته ، وإن منهم من عرف أن بعثة النبي تصديق لذلك ، وعرف أن ما يسمع من النبي هو الحق ، فأمن كما جاء في آيات البقرة ٨٩ و ٩٠ وآل عمران ٧٠ و ٧١ و ٨٦ و ١٩٩ والنساء ١٦١ والمائدة ٨٣ - ٨٤ والأنعام ٢٠ و ١١٤ والأعراف ١٥٧ والإبراء ١٠٧ - ١٠٨ والقصص ٥١ - ٥٣ والأحقاف ١٠ التي أوردناها في مناسبات سابقة بما لا يمكن أن يكون إلا تسجيلاً لواقع مسلم به من سامعي القرآن من يهود ونصارى .

وكلمة (وسط) في آية البقرة ذات مدى أوسع مما يتوجه الحوري الحداد ويفسره على أنه يعني وسطاً بين اليهودية والنصرانية . فعنى الوسط : هو الخيرية في كل شيء والاعتدال في كل شيء ، وعدم الإفراط والتفريط ، والغلو والتقصير ، وعدم الاقتصار على ناحية والتقصير في ناحية مما فيه خير دين ودنيا . وكل هذا يمثل في الرسالة الإسلامية فيما قامت عليه من أسس وقواعد ومبادئ وخطوط وتقريرات في مختلف شؤون الدنيا والآخرة . وقد حل بها ما في مختلف النحل من مشاكل وتعقيدات وخلافات ومتناقضات متصلة بالتوحيد الإلهي وربوبية الله للعالم جميعاً دون اختصاص وخلت من الطقوس المعقدة والتكاليف والأغلال والآصار الشديدة ، وتضمنت من التيسير والمرونة ما تستطيع أن تتسع به لكل ظرف وأمر معقول صالح ، وواءمت بين الدنيا والآخرة ، والمادية والروحية ، والعقل والقلب ، والعلم

والدين ، وفتحت الآفاق للإنسان في مختلف المجالات ، لا يمنعه مانع من أي جهد وتصرف في حدود الإيمان بالله وحده ورسله وكتبه واليوم الآخر ، والاعتدال والحق والعدل والطيب الخلال ، وقطابت مع طبائع الأشياء ، ونواميس الكون ، ومقتضيات المنطق والعقل ، وجمعت بين حظ الدنيا وحظ الآخرة ، وأقامت كل طيب ، وحومت كل رفس وخبيث وفسق ، ومنعت الظلم والعدوان والاستغلال والحرمان والاحتكار ، والاستعلاء والتأيز ، والبغى والتجبر ، ودعت إلى كل فضيلة ، ونهت عن كل رذيلة ، فصارت بذلك كله خير رسالة أخرجت للناس ومتطابقة مع كل زمن وظرف ومطلب ، ومرشحة للعمومية والخلود وغدوها دين البشرية جميعها ، ظاهرة على كل دين آخر كما قورته آيات منها آية سورة الفتح هذه (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً .. ٢٨) وصارت رسالة رسولها رحمة للعالمين كما قورته آية سورة الأنبياء هذه (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ..) وصار متبعوها الذين التزموها خير أمة أخرجت للناس كما قورته آية آل عمران هذه (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُّؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ١١٠) .

ثالثاً :

صفحة محمد ﷺ في القرآن المبكي ومزاعم الحوري في صدر ذلك

- ١ -

رأي الحوري الحداد في القرآن المبكي كثرة الآيات التي تصف النبي ﷺ بالبشير والنذير ، والمبشر والمنذر ، أو أمره بتبشير الناس وإنذارهم ، أو بأن يقول : إنه أرسل إلى الناس بشيراً ونذيراً ، أو إنما هو بشير ونذير ، ومبشر ومنذر وحسب فعلا له أن يزعم أن محمداً ﷺ حرص على أن يقدم نفسه للناس بشيراً ونذيراً ومبشراً ومنذراً دون أن يكثر من وصف نفسه بالرسول والنبي .

وقد أراد الحوري إبراز هذا الأمر كما هو المتبادر من كلامه ظاهراً وباطناً ليوم ضعف ثقة النبي ﷺ برسالاته ونبوته أو بصفته رسولاً ونبياً ، أو تردده في الجهر بها ، وبكلمة أخرى أراد أن ينبه ويركز على وهن موقفه وصفته .

ولقد تغافل الحوري عما في القرآن المبكي من آيات كثيرة تثبت تنافى كلامه ووهنه ، فكشف بذلك عن غثاثة نفسه وصغارها وسوء أدبه معاً .

- ٢ -

ويجدر بنا أولاً أن ننبه على أن فحوى الآيات التي فيها كلمات مبشر ومنذر ، وبشير ونذير يفيد أن هذه الكلمات تعني مهمة دسل الله وأنبيائه أكثر منها صفة لهم وحسب ، وقد جاء ذلك بصراحة في آيات عديدة

جمعت هذه الكلمات مع كلمتي الرسول والنيي بما فيه دليل على ما نقول كما هو في الآيات التالية مثلاً :

١ - كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. [البقرة : ٢١٣] .

٢ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْوَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . [المائدة : ١٩] .

- ٣ -

والقرآن المكي لا يصف النبي محمداً ﷺ وحده بصفة نذير ومنذر وبشير ومبشر ، بل يصف بذلك رسل الله وأنبياءه السابقين في آيات كثيرة منها ما جاء متوافقاً مع كلمتي نبي ورسول ، ومنها ما جاء عاماً كما ترى في الآيات التالية :

١ - وَمَا أَرْسَلْنَا الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ .. [الأنعام : ٤٨] .

٢ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ .. [هود : ٢٥] .

٣ - وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ نَذِيرًا .. [الفرقان : ٥٩] .

٤ - وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ .. [الشعراء : ٢٠٨] .

٥ - لِنُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .. [القصص : ٤٦ و ٤٧] .

٦ - إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا
خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ .. [فاطر : ٢٤] ^(١) .

- ٤ -

ومع ذلك فإن القرآن المكي وصف النبي محمداً ﷺ بالرسول والنبي
في آيات كثيرة منها ما هو صريح ، ومنها ما هو ظاهر الفحوى ، ومنها
ما هو في سور مبكرة جداً في النزول ، ومنها ما هو في أدوار التنزيل
المكي المختلفة كما ترى فيما يلي :

١ - وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا
وَأُودُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ
مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ .. [الأنعام : ٣٤] .

٢ - وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ
وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ..
[الأنعام : ١١٢] .

٣ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا
وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ..
[الرعد : ٣٨] .

٤ - وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ .. [الرعد : ٤٥] ^(٢) .

٥ - وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً بَأَيِّهَا

(١) هناك آيات عديدة أخرى من باب هذه الآيات فاكثفينا بها تقدم انظر اذا
شئت آيات الكهف ٥٥ وسبأ ٣٣ والافات ٧١ و ٧٢ والزخرف ١٣ والقمر ٢١
و ٤١ والملك ٨ و ٩ .

(٢) واضح من فحوى الآيات أن محمداً صلى الله عليه وسلم قدم نفسه رسولاً
ونبياً . وسياق الآيات يفيد ذلك أيضاً .

رِزْقَهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ
لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ
مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ .. [النحل :
١١١ و ١١٢] ^(١) .

٦ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ .. [الأنبياء : ٢٥] ^(٢) .

٧ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا
تَمَنَّى الْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ .. [الحج : ٥٠] ^(٣) .

٨ - وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي
الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ..
[الفرقان : ٧] ^(٤) .

٩ - وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ
مَهْجُورًا . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا .. [الفرقان : ٣٠ و ٣٣] ^(٥) .

١٠ - يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ..
[يس : ١ - ٣] ^(٦) .

١١ - إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا
إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا .. [المزمل : ١٥] ^(٧) .

(١) هذه الآية في صدد مكة وأهلها ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم .
(٢) فحوى الآيات يفيد بقوة أن النبي قد قدم نفسه كرسول ونبي .
(٣) فيها صراحة كاذبة .
(٤) هذه الآية في سورة مبكرة جداً ، وهناك آيات أخرى من باب هذه الآيات
فاكتفينا بما تقدم .

ولا يملك المرء إزاء كثرة الآيات التي تغافل عنها الحوري ممدأ بدون ريب إلا أن يعجب لعدم خجله من الصفاقة والوقاحة في دعاويه ومزاعمه .

- ٥ -

وما يحلو للحوري التركيز عليه في صدد صفة النبي محمد ﷺ (بشريته) وما ورد في القرآن من هدايته بعد الضلال ، ومعاقبته على بعض أمور ومواقف صدرت في بعض الظروف ، وتكرر الأمر له بالاستغفار من ذنوبه ، والإشارة إلى وضع الله عنه الوزر الذي انقض ظهره ، وتحذيره من الشك في ما أنزل عليه والامتناء فيه ، وما حدثته نفسه به من الاستجابة لبعض مطالب المشركين ، وتحذيره من عدم الأبوة للفقهاء المسلمين ، وإيجابه الاهتمام بهم أكثر من الاهتمام بأغنياء المشركين ووجهائهم ، وضيق صدره ببعض ما أنزل الله إليه خجلاً أو خوفاً من المشركين وانتقاداتهم ، وجواز نزغ الشيطان له ، وإنسانته له بعض الأمور ، وأمره بإعلان بشريته ، وكونه لا يعلم الغيب ، وأنه يمه ما يمس الناس من مظاهر السوء ، وكونه لم يدر شيئاً من الإيمان والكتاب مما يتمثل في آيات سورة النساء ١٠٥ - ١٠٧ والأنعام ٥٢ و ٦٨ و ١١٤ - ١١٦ والأعراف ٢ و ١٨٨ و ١٩٩ والأنفال ٦٧ - ٦٩ والتوبة ٤٣ و ١١٣ و ١١٧ ويونس ٤٩ و ٩٤ - ٩٥ وهود ١٢ والإسراء ٧٣ - ٧٥ والكهف ٢٣ و ٢٨ و ١١٠ والأحزاب ١٧ وغافر ٥٥ وفصلت ٦ ومحمد ١٩ والفتح ١ - ٣ والتحريم ١ وعبس ١ - ١٣ والضحى ٧ والانشراح ١ - ٤ (١) .

ولقد اهتم الحوري لإبراز هذه النقاط التي وردت في الآيات بمثلة ظروف السيرة وأطوار الدعوة ، وداعمة للرسالة القرآنية في سياق مقارنته بين النبي ﷺ وعيسى عليه السلام حيث قال : إن القرآن لم يذكر للمسيح

(١) الآيات كثيرة . ولذلك اكتفينا بسورها وأرقامها وموجز محتوياتها .
ويمكن بالقارىء أن يرجع إليها في المصحف .

إلهاً ولا علاقة بإثم ، وإنه وصفه بالزكي بمعنى الطاهر في آية سورة مريم
هذه (لأهب لك غلاماً زكياً) وإنه جعله مباركاً أين ما كان في آية
سورة مريم هذه (وَجَعَلْنِي مُبَارَكاً أينَ مَا كُنْتُ ...) وإن الله
وقاه من الشيطان بوعده الاستجابة لأُم مريم ، كما جاء في آيات سورة
آل عمران (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .
فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ...) وإنه لم يكن
للشر عليه سلطان على الإطلاق ، وأورد حديثين عن النبي ﷺ جاء في
أحدهما : ما من مولود يولد إلا والشيطان يمه فيستهل صارخاً من مس
الشيطان إياه إلا مريم وابنها وأقولوا إذا شتم آيات آل عمران ، وجاء
في ثانيها : كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد غير
عيسى بن مريم ذهب يطعنه فطعن الحجاب ، بسبيل توثيق قوله .

ومقتضى كلام الحوري أن عيسى عليه السلام كان مصروفاً عن أي
ذنب وإثم وشر فلا يستطيعه بحيث يمكن أن يقال من باب المساجلة :
إنه ليس في هذا والحالة هذه مزية ما ، والمزية الواقعية هي الامتناع عن
الشر والإثم في حالة وجود قابلية عملها في المراء .

وليس في بشرية النبي ﷺ بدع يصح أن يساق كنقطة ضعف فيه ،
وقد قال الحوري تعليقاً على آية يونس (٩٤) : إنها أعظم آية في القرآن
على بشرية النبي وضعفه البشري ، ولقد أمر الله رسوله بأن يعلن بشريته
في أكثر من آية حقاً ، وإنه لا يملك من الأمر شيئاً ، ولا يستطيع أن
يدفع عن نفسه ضرراً في أكثر من آية أيضاً ، كما جاء في آيات الكهف
١١٠ وفصلت ٦ والأنعام ٥٠ والأعراف ١٨٨ ويونس ٤٩ ولكنه نبه
على أن ذلك شأن الأنبياء والمرسلين عامة كما جاء في آيات عديدة مثل
هذه الآيات :

١- وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ .. [هود : ٢٦] (١).

٢- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً .. [الرعد : ٣٨] ..

٣- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .. [النحل : ٤٣] .

٤- وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ .. [الأنبياء : ٧ و ٨] .

٥- وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَقْبَانَ مِنْ فَهُمْ الْخَالِدُونَ .. [الأنبياء : ٢٤] .

٦- وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لَيَاكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ .. [الفوقان : ٢٠] (١).

وظاهر من نصوص الآيات التي فيها معاتبات وتحذيرات وتنبيهات وتقويرات أنها بصدد مواقف وحوادث كانت تصدر من النبي ﷺ اجتهادياً ، ولا يكون فيها وحي ، ويرى فيها خيراً وفائدة ومصلحة للدعوة الإسلامية أو تقادياً من حرج إزاء الكفار والمشركين ، أو جلباً لزعمائهم ، وكانت خلاف الأولى في علم الله المغيّب عليه ، فكانت حكمة التنزيل تقتضي تنزيل تلك الآيات ليكون فيها تنبيه وتعليم وتشريع مع التنبيه على أن النبي ﷺ كان يجتهد في أمور ومواقف تكون صواباً في علم الله وحكمته فينزل في ذلك قرآن مؤيد . وكل هذه الاجتهادات من مقتضى بشرية

(١) هذه حكاية لقول نوح عليه السلام لقومه .

(١) هناك آيات أخرى من بابها أيضاً .

النبي ﷺ ، وليس هو فيها بدءاً . وفي القرآن حكاية مواقف مائة لأنبياء سابقين مما يتمثل في الآيات التالية التي لها أمثال :

١- وَفَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .. [هود : ٤٤ و ٤٥] .

٢- وَذَا الثَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .. [الأنبياء : ٨٧] .

وفي أسفار العهد القديم والحديث صور كثيرة من أمثال ذلك معزوة إلى أنبياء الله ورسله ، وإلى الله تعالى على سبيل التحذير والتنبيه ، والحواري يعرف ذلك طبعاً ، ولكنه يقف منه بالنسبة للنبي ﷺ موقف التجريح والتشكيك .

وقد يكون تكرار أمر الله تعالى للنبي بالاستغفار متصلاً بتلك الاجتهادات التي تكون خلاف الأولى في علم الله المغيب عليه ، أو بسبب ما يمكن أن يصدر منه من إلمامات ونسيان بما هو مقتضى بشريته ، وكل هذا من النوع الذي يدخل في نطاق عفو الله بصورة عامة بالنسبة لسائر الناس على ما تفقده بعض الآيات ومنها آيات النجم هذه (وَفِي مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى . الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. ٣٢ و ٣٣) غير أنها تكون بالنسبة للنبي ﷺ من قبيل (حسنات الأبوار سيئات المقربين) فيأمره الله بالاستغفار منها ويكون في ذلك تعليم للمسلمين بذكر الله

واستغفاره مما يصدر عنهم من إلامات وهفوات . ولقد أثرت أحاديث عن النبي ﷺ تفيد أنه كان يستغفر الله كثيراً وكان يحث المسلمين على الاستغفار لله ، ويعلمهم صيغاً له مما هو متصل بذلك ، ومن ذلك حديث رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب » وفي القرآن آيات تعد المستغفرين بالقبول كما جاء في آيات سورة النساء هذه :

١ - وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولَ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً .. [٦٤] .

٢ - وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً . [١١٠] ^(١) .

والمفسرون يجمعون على أن آيتي يونس ٩٤ و ٩٥ اللتين يركز الحوري عليها وهذا نصها (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَامِرِينَ ..) هما بسبيل التثبيت ، وليست بسبيل واقع قد ندد به ، والضلal الذي ذكر في آية سورة الضحى ليس في معنى ارتكاس النبي ﷺ في عقائد قومه قبل البعثة ، وإنما هو في مقام تنبيه على ما كان من موقفه الخائر بعد أن أنف منذ وعيه عن السير في عقائد وتقاليد الجاهلية واتجه نحو الله وحده ، فهداه الله إلى ملة إبراهيم ، وأمره بالاعلان عن ذلك في آيات سورة الأنعام هذه (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ

(١) هناك آيات كثيرة من هذا الباب .

مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ..
١٦١ - ١٦٣) .

ولقد تغافل الحوري عما في الآيات التي تذكر بشرية النبي ، وتأمروه
بإعلان ذلك ، وبأنه لا يعلم الغيب ، وليس عنده خزائن الله ، أو تسجل
معائب الله ، وتحذيره على ما بدر منه من مواقف واجتهادات خلاف
الأولى المغيبة في علم الله من تعبير حقيق عن اليقين بأنها وحي الله الذي
يجب أن يثبت في القرآن ، ويعلمه الناس مع أنها تقييها شخصية ، كما
تغافل عن البناء العظيم الذي انطوى في آية سورة القلم (وإِنَّكَ لَعَلَى
خُلُقٍ عَظِيمٍ) التي هي من أولى الآيات نزولاً ، والتي تعبر عما كان عليه
النبي من مواهب وأخلاق عظيمة قبل البعثة ، فارقتى بها إلى ذروة الكمال
الإنساني وأهله لا مصطفاه الله إياه لرسالته للعظمى الخالدة ، والله أعلم حيث
يجعل رسالته .

ولقد تغافل الحوري إلى هذا مما كان من شدة حرص النبي ﷺ
على هداية قومه حتى ليكاد يذهب بنفسه ويبيعها حمرة وأسفاً ، كما جاء
في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ - فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ بِنَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا .. [الكهف : ٦] .

٢ - لَعَلَّكَ بَاخِعٌ بِنَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .. [الشعراء : ٣] .

٣ - فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ
نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ .. [فاطر : ٨] .

وأن ذلك بما كان يجعله يجتهد بعض تلك الاجتهادات التي كانت عند
الله تعالى خلاف الأولى المغيب عنه .

وهذا ديدن الحوري حيث يغفل عما في القرآن من حقائق تضع
الأمور في نصابها الحق ، ويصح عليه قول الله (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ
إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ
عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ..) .

رابعاً :

زعم قومية الدعوة الإسلامية وعروبيتها دون عمومها

وانسانيتها وعالميتها

- ١ -

من النقاط التي يكررها الحوري في أماكن عديدة من كتبه كون رسالة النبي ﷺ هي قومية عربية ، وليست إنسانية عالمية ، وكون انتشارها بين غير العرب هو نتيجة حركة الفتح بعده وحسب^(١) .

والحوري لا يعتقد أنها حتى على صفتها التي يزعمها رسالة ربانية يقوم بها نبي مرسل من الله عز وجل ، وإنما هي في زعمه دعوة اضطلع بها بدافع من ثقافته الكتابية - نسبة لأهل الكتاب - وغيرته القومية . ومن أقواله في صدد ذلك : (إن معجزة محمد الحقيقية هي بخاصة في إقامة وحدة عربية تحت سلطان سيامي ديني عربي قومي ، وهي معجزته العظمى) .

- ٢ -

ولقد حاول الحوري التدليل على زعمه بآيات مكية ومدنية ، وهو كعادته يغفل ويهمل آيات أخرى فيها نقض لزعمه ، وحينما يرى أن لامناص له من إيرادها يتمحل في تأويلها تمحلاً يصرفها به عن موضعها ومدادها الحقيقيين .

(١) ليس الحوري وحده يزعم هذا الزعم فهناك مبشرون ومستشرقون يشاركونه في ذلك .

ومن الآيات المكية التي يستدل بها هذه الآيات :

- ١ - وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .. [الأنعام : ٩٢] .
- ٢ - ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا ^(١) إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ .. [الأنعام : ١٥٥ - ١٥٧] .
- ٣ - وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رُسُلَهُمْ فُضِي بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .. [يونس : ٤٧] .
- ٤ - إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .. [يوسف : ٢] .
- ٥ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. [ابراهيم : ٤] .
- ٦ - وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .. [النحل : ٨٩] .
- ٧ - وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .. [الشورى : ٧] .
- ٨ - فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُ لَكَزَكَّى لَوَاقِعٌ مَكَ وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ .. [الزخرف : ٤٣ و ٤٤] .
- ٩ - فَإِنَّمَا يَسِرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .. [الدخان : ٥٨] .

(١) تِلْكَ قَوْلُوا .

ومن الآيات المدنية هذه الآيات :

١ - وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .. [البقرة : ١٢٧ و ١٢٨] .

٢ - كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .. [البقرة : ١٥١] .

٣ - لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . [آل عمران : ١٦٤] .

٤ - لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .. [التوبة : ١١٩] .

٥ - هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .. [الجمعة : ٢] .

- ٣ -

وجميع هذه الآيات سواء منها المكي والمدني كما يستفاد من سياقها ومقامها هي في مقام الحجاج والإلزام لكفار العرب ، والتطمين للمؤمنين العرب الذين كانوا أول من خاطبوا بالدعوة . ولا يصح أن يقتصر عليها دون سائر آيات القرآن ، وتورد للتدليل على أن الدعوة كانت وظلت

قاصرة على العرب مادام في القرآن المكي والمدني آيات أخرى تفيد شمول الدعوة ومومها وعالميتها .

ولقد احتوى القرآن آيات عديدة مكية ومدنية فيها خطاب ودعوة للناس جميعاً كما نرى فيما يلي :

١ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا .. [النساء : ١٧٤] .

٢ - قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .. [الأعراف : ١٥٧] .

٣ - كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .. [إبراهيم : ١] .

٤ - قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ .. [الحج : ٤٩] .

٥ - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. [سبا : ٢٨] .

والخوري يقول في صدد هذه الآيات : إن المقصود بالناس فيها هم قاص بيته النبي ﷺ ، وليس جميع البشر ، وهذا تحمل متناهات ، ولا سيما أن هناك آيات مكية فيها تنبيه على أن الرسالة الحمديية هي إنذار وذكر للعالمين ورحمة لهم منذ العهد المكي كما ترى فيما يلي : (١) :

١ - قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ .. [الأنعام : ٩٠] .

(١) في القرآن المكي آيات كثيرة من باب هذه الآيات ، فالكلمة بما أورده .

٢ - وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ..
[يوسف : ١٠٤] .

٣ - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ .. [الأنبياء : ١٠٧] .

٤ - تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا .. [الفرقان : ١] .

٥ - قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ..
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ..
[ص ٨٦ - ٨٨] ^(١) .

وقد سكت الحوري عن هذه الآيات التي تنسف وهمه وزعمه وهواه .

- ٤ -

ولقد رأى الحوري أن القرآن يوجه الدعوة إلى أهل الكتاب في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّائِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ .. [البقرة : ٤٠ و ٤١] .

٢ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ

(١) في هذه الآيات إخبار فرآني إعجازي عن المستقبل حيث تحقق على أوسع نطاق في زمن النبي وبعده في مختلف أنحاء العالم وفيها دليل لا يدحض على أنها وحي من الله رب العالمين .

مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .. [البقرة : ٨٩] (١) .
 ٣- وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَيِّنَاتٌ
 فَرَّقُوا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ
 كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .. [البقرة : ١٠١] (٢) .

٤- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا
 مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ
 مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
 سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [المائدة : ١٥ و ١٦] .

٥- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى
 فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .. [المائدة : ١٩] .

٦- الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ
 مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
 عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِيلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
 وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ
 آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
 أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. [الأعراف : ١٥٧] .

(٢٠٩) واضح من الآيات أن القرآن قد جاء لأهل الكتاب ، وأن محمداً
 رسول الله قد جاء لأهل الكتاب ، والمتبادر من جملة (نبذ فريق من الدين أوتوا الكتاب
 كتاب الله وراء ظهورهم) أنها تعني أنهم تجاهلوا ما في كتبهم من وصف للنبي الذي
 يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل كما جاء في آية سورة الأعراف ١٥٧ .

نقول : إن الحوري لما رأى في القرآن هذه الآيات التي لها أمثال أخرى لم ينجبل ولم يحجم عن التمثل فيها والزعم بأن المقصود فيها هم يهود العرب ونصاراهم حيث يبلغ في ذلك ذروة التمثل والمكابرة والصفافة ، ولا سيما انه يقرأ تعبير (بني إسرائيل) نعتاً لليهود ، ولا يمكن أن يجهل أن هؤلاء ليسوا من العرب ، وانه لا يجهل أن الكتابيين والنصارى الذين كانوا في مكة ليسوا جميعهم عربي الأصل ، بل وان منهم من كان لا يزال أعجمي اللسان بما أثارته إليه آية سورة النحل هذه (وَلَقَدْ تَعَلَّمْ أَنْتُمْ بِأَنْتُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ..) وانه مهما كبر وتمحل لا يستطيع أن يغطي على حقيقة إيمان كتابيين إسرائيليين وغير إسرائيليين من غير العرب بالنبي وللقرآن في مكة ثم في المدينة ، لأنهم فهموا أن الدعوة موجهة إليهم أيضاً على ما شرحناه في الفقرة ١٩ و ٢٠ من البحث (ثانياً) .

وفي القرآن المكي آيات عديدة وجه الخطاب فيها لبني آدم ، وفيه تبشير بالرسالة المحمدية ، وفي مطلع سورة الأعراف المكية التي هي من السور المبكرة في النزول فصل طويل من ذلك لا يمكن لمن يقرأه إلا أن يتيقن أن هذه الرسالة موجهة لجميع بني آدم دانهم وقاصهم ، وأبيضهم وأسودهم ، وأحمرهم وعريهم وعجمهم ، وذكورهم وإناثهم ، وكتابيهم ومشركيهم ووثنسيهم بأسلوب قاطع لا يتحمل أي مرأه وهو الفصل الذي تبدأ به السورة إلى آخر الآية ٥٨ (١) .

ولقد روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر عن النبي ﷺ قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ،

(١) فنادينا إرادته لطوله ويحسن بالقارئ أن يقرأه من المصحف ويتمتع به يرى مصادق ما نقول .

وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً ، فَأَيُّ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلَيْسَ ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِي ، وَأَعْطَيْتِ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبَعَثَتْ إِلَى النَّاسِ عَامَةً ، وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « بَعَثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً الْأَحْمَرَ وَالْأَسْوَدَ ، وَإِنَّمَا كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ » ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « بَعَثْتُ إِلَى كُلِّ أبيضٍ وَأَسْوَدٍ ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَلَا سِوَاهَا الَّذِي هُوَ مِنَ الصَّحَاحِ مَحَلٌّ لِمُكَابَرَةٍ ، لِأَنَّهَا مُتَسَاوِقَةٌ مَعَ الْوَحْيِ الْقُرْآنِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ دَعْوَى مِنْ نَوْعِ دَعْوَى الْخَوْرِيِّ وَأَمْثَالِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَتَّى يَقَالَ : إِنَّهَا وَضَعْتُ لِلرَّدِّ عَلَى ذَلِكَ » ، وَفِي صَدَدِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِخَاصَّةٍ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ فِي أَحَدٍ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يَزُمْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَلَا نَظَنُّ أَنَّ الْخَوْرِيَّ تَصِلُ فِيهِ الصَّفَاقَةُ إِلَى الْعَوْلِ إِنْ كُلُّ يَهُودِيٍّ وَكُلُّ نَصْرَانِيٍّ فِي الدُّنْيَا هُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، أَوْ إِلَى الْقَوْلِ : إِنْ الْحَدِيثُ هُوَ لِأَجْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْعَرَبُ فَقَطْ .

- ٥ -

وَفِي سُورِ التَّوْبَةِ وَالْفَتْحِ وَالصَّفِّ آيَاتٌ فِيهَا دَلَالَةٌ حَاسِمَةٌ أَيْضاً عَلَى عُمُومِ الرِّسَالَةِ الْحَمْدِيَّةِ وَشُمُولِهَا لِلْكَتَابِيِّينَ وَغَيْرِ الْكَتَابِيِّينَ حَيْثُ تَقَرَّرُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَلَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَظْهَرَ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْبَانِ ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنْ يَكُونَ دِينَ الْبَشَرِيَّةِ جَمِيعاً كَمَا تَرَى فِيهَا :

١- يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . [التَّوْبَةُ : ٣٢ وَ ٣٣] .

٢ : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً .. [الفتح : ٢٨] .

٣ - يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَأَلَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .. [الصف : ٩ و ٨] .

وآيات التوبة جاءت بعد هذه الآيات التي فيها ذكر لأهل الكتاب ، وحمل على المنحرفين منهم وأمر بقتالهم (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَاتَلْتُمُ اللَّهَ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُسَبِّحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .. ٢٩ - ٣١) وجاء بعدها هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. ٣٢) .

وآيات الصف جاءت بعد هذه الآيات (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

بِدَيٍّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ
فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
لَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠ - ٧) .

وهكذا يكون في آيات التوبة والصف دليل لا يدحض على أن إعلان
الله تعالى فيها بأنه أرسل رسوله (محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين
كله) شامل لليهودية والنصرانية واليهود والنصارى إطلاقاً وقاطبة .

- ٦ -

ولقد كان موقف الحوري الحداد من هذه الآيات متنوعاً ، فقال في
صدد آية سورة الفتح : إن النبي اعتبر صلح الحديبية الذي نزلت السورة
في صدده انتصاراً لدينه على الدين كله ، وقول الحوري غير سائغ ولا هو
متفق مع مدى الآية التي تعني أمراً مستقبلاً ، ولا سيما أن قريشاً وجزيرة
العرب من وراءهم قد ظلت على شركها فترة غير قصيرة بعد صلح الحديبية ،
بل وأقرت وثيقة الصلح ذلك . وكان النبي ﷺ رأى رؤيا بأنه يزور الكعبة
فاعتبر ذلك وحياً ، وندب أصحابه ، وساروا للزيارة ، فنعتهم قريش ،
ثم جرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بصلح مدته عشر سنوات ، وكان
من شروطه أن من يأتي النبي مسلماً من مكة يعاد إليها ، ومن يأتيهم من
المدينة مرتدأ لا يعاد إليها . وكما كان من شروطه السماح للنبي وأصحابه
بزيارة الكعبة في السنة القادمة .

وقال الحوري في صدد آيات التوبة : إنها مقحمة ، والسورة ليست
مكية حتى تكون مقحمة عليها من العهد المكي كما يحلو للخوري أن يقول
كلما أفحمه نص مكي ، والسياق متساوق ومنسجم كل التساوق والانسجام
كما يبدو من قراءة جميع الآيات ، بحيث يظهر بوضوح أن زعم

الحوري الإقحام هو تحمل متهافت بقصد التهوب من دليل مفهم . وجراءة الحوري وصفاقته وسوء أدبه لا يقف عند حد من حدود المنطق والحياء والأدب مهما يكن في ما يزعم من إفك وبهتان وتمحل وتناقض مع الانسجام القرآني . وقد نبهنا في مناسبة سابقة إلى ما هو القرآن في يقين النبي وأصحابه بحيث يكون القول بزيادة شيء عليه لقصد تعديل فحوى ما إفكاً فاجراً لا يصدر إلا من آثم فاجر . وهذا فضلاً عن أنه ليس هناك أية ضرورة ظرفية ولا سبكية للإقحام المزعوم .

ولقد أنساه الله التعليق على آيات الصف (٧ و ٨) الماثلة لهذه الآيات فانكشف بذلك ما وقع فيه من تحمل وتناقض وصفاقة وإفك وسوء أدب .

- ٧ -

ويبدو أن ما احتوته الآية (٦) من سورة الصف من حكاية قول عيسى عليه السلام : إنه مبشر برسول من بعده اسمه أحمد قد شغل الحوري عن التعليق على الآيات التي بعدها ، وجعله يتم للتعليق على هذه الحكاية ، لأنها تمسه في الصميم ، فزعم أولاً أنها مزيدة ، وقال : إنها لو حذفت لا اختل المعنى ولا المبنى ، ولا انسجمت الآية أكثر فأكثر ، وهذا هراء وهذيان فضلاً عما فيه من سوء أدب وإفك ، فالمعنى منسجم كل الانسجام والسياق متسق كل الاتساق ، والآيات مدنية ، وما قلناه في صدد زعم إقحام آيات التوبة نكوره هنا أيضاً وهو هنا آثم فاجر كما هو هناك . وقال غانياً . إن عيسى إنما بشر بالبارقليط ، وهو روح القدس ، وإن الإنجيل الذي ورد فيه هذا اللفظ مكتوب على رق قبل النبي بثلاثمائة سنة ، وظل بعده فلا يكون قد حرف ، وقد ذكرنا قوله هذا في مناسبة سابقة ، وليس فيه الحجة التي يريد أن يسوقها لإثبات قوله ، لأنه ليس ما يمنع أن يكون هناك أنجيل وقراطيس فيها بشارة عيسى عليه السلام برسول من

بعده اسمه أحمد ، أو معنى الكلمة التي كتبت في الأناجيل التي تضمنت ترجمة حياة عيسى عليه السلام وأقواله فضاعت أو أيدت ، وهذا ما نعتقده . فالآية كانت تتلى علناً ، ويسمعا اليهود والنصارى ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا صدقاً وحقاً وواقعاً . وقد سجل القرآن إيمان طائفة من النصارى ، فيهم القسيسون والرهبان ، وفيضان دموعهم حينما سمعوا ما أنزل إلى الرسول ، وتيقنوا أنه الحق الذي يعرفونه (آيات المائدة ٨٣ - ٨٦) كما سجل القرآن إيمان طائفة أخرى وصفها بأنها من الذين أوتوا العلم ، ونرجح أنهم نصارى وبكاهها وسجودها وقولها : إن الله قد وفى بما وعد ، وكان أمره مفعولاً (آيات الإسراء ١٠٧ - ١٠٩) ولقد جاء كلام عيسى المذكور في الآية حرفياً في إنجيل برنابا ، والنصارى ينكرون هذا الإنجيل ، ويبقى ما قلناه على كل حال هو الوارد الحق .

ومع ذلك ففي عبارة إنجيل يوحنا (الاصحاح السادس عشر) الذي فيه ذكر للبار قليط وقد جاء هذا اللفظ في الترجمة العربية الكاثوليكية بلفظ (المعزى) ما يفيد (أن شخصاً ما سيأتي بعد عيسى ويبكت الناس على الخطيئة وعلى البر وعلى الدينونة ، وأنه روح الحق ، وأنه هو الذي يرشد الناس إلى الحق ، لأنه لا يتكلم من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ويخبر بما يأتي) و الفرق كبير بين هذا وبين القول : إنه روح القدس وحسب . وروح القدس عند الحوري وأهل مذهبه صفة من صفات الله ، وأقنوم من أقانيمه غير منفك عنه ، وبعض علماء اللغات يفسرون كلمة البار قليط بمعنى الحمد المشتق منه اسم أحمد أيضاً^(١) . وقد نبهنا في مناسبة سابقة إلى كثرة البشارات التي سجلها السيد

(١) تلامذ ابن قيم الجوزية بحث قيم في مدى كلمة البار قليط وكونها تعني اسم أو صفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه « دليل الحيارى » .

وشيد رضا في تفسيره المستنبطة من الأسفار والأنجيل المتداولة عن بعثة سيدنا محمد ﷺ . والإمام ابن قيم الجوزية سجل مثل تلك البشارات في كتابه « دليل الجباري » أيضاً بما هو مصداق صادق لما جاء في آية سورة الصف .

- ٨ -

ولقد قرأ الحوري الأحاديث التي تذكر أن النبي ﷺ وصى قبل وفاته بأن لا يبقى في جزيرة العرب دينان ، ويأخر أج اليهود والنصارى منها ^(١) فحاول أن يرى في ذلك دليلاً على أن ما احتوته آيات التوبة والفتح والصف هو في صدد ظهور الدين الإسلامي على الأديان في جزيرة العرب وحسب . وإزاء النصوص القوية التي أوردناها ، والشروح التي شرحتها هنا ، وإزاء الأحداث التاريخية التي سوف نوردتها بعد ، والتي تثبت أن الرسالة المحمدية رسالة شاملة للجزيرة وخارجها وللعرب وغيرهم وللكتابيين وغيرهم ، فلا مناص من أن يفهم المنصف من تلك الأحاديث أن هدف النبي هو تحصيل جزيرة العرب من تعدد الأديان وخلافاتها وحسب على اعتبارها مهبط وحي الله ، ومنشأ الرسالة الإسلامية . وفي تجاوز هذا النطاق تجاوز للمنطق والواقع من دون ريب .

- ٩ -

ولقد رأى الحوري في آية الأحزاب هذه (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ٤٠) ما يمكن

(١) روى ابن هشام عن عائشة أن آخر ما عهد رسول الله به قبل « لا يترك في جزيرة العرب دينان » وروى الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام عن أبي عبيدة بن الجراح أن النبي قال (أخرجوا اليهود من الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب) .

أن يفيد أن محمداً ﷺ وقد أراد الله ليكون آخر أنبيائه وخاتمهم قد صار رسول الله للناس جميعاً ، وصار دينه دين الناس جميعاً عند الله ، فأخذ يتمحل فيها تحملاً متهافتاً لم يردعه عنه حياء ولا منطق حيث زعم أن العبارة تعني أن النبي مطبوع بطابع النبوة المصدق للنبيين من قبله وليست بمعنى خاتمة لهم .

وفي سورة الزخرف آيات في صدد عيسى عليه السلام من جملتها هذه الآية (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) ٦ فصرف ضمير (وَإِنَّهُ) إلى عيسى عليه السلام ، ولقد جاء في بعض الأحاديث النبوية أن عيسى عليه السلام يبعث في آخر الزمان كعلامة من علامات الساعة ، فربط بين كل ذلك ، وقال : إن كل هذا بشهادة القرآن والحديث يفيد أن عيسى لا محمد هو خاتم الأنبياء والمرسلين . ومن عجيب مناقضات الحوري أنه يستشهد بالقرآن والحديث وهو غير مؤمن بها .

وما دام أنه يريد أن يستند إلى الأحاديث فنقول له أولاً : إن هنالك أحاديث تؤيد كون جملة (خاتم النبيين) في آية سورة الأحزاب هي بمعنى خاتمة لهم حيث روي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قوله : « مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها لولا موضع هذه اللبنة ، فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » وفي رواية أخرى « فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » وروي عن ابن الطفيل عن النبي ﷺ قال : « لا نبوة بعدي » وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال من حديث : « وختمت بي النبوة » وروي عن جابر بن مطعم عن النبي ﷺ قال : « إن لي أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماهي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحامر الذي يحشر الناس على قدمي » وأنا العاتب الذي

ليس بعده نبي ، وروي عن عبد الله بن عمرو قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع ، فقال : أنا محمد النبي الأمي ثلاثاً ولا نبي بعدي ، وروي الترمذي عن النبي قال : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر .. » .

ونقول له ثانياً في صدد ما أشار إليه من أحاديث عن نزول عيسى عليه السلام : إن فيها ما يفيد أنه سيكون على دين الإسلام حينما يأتي إلى الدنيا ثانية في آخر الزمان ، ولا يكون بحيثه بعضاً نبوياً جديداً ، وتظل صفة خاتم النبيين لمحمد ﷺ هي المستقرة المستمرة حيث جاء في واحد منها رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم عليه السلام حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، وجاء في حديث آخر رواه الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » ، وجاء في حديث ثالث رواه أبو داود والإمام أحمد والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس بيني وبين عيسى عليه السلام نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه » رجل مربع إلى الحمرة والبياض بين مَمَصْرَتَيْنِ (١) كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسد مع الأيل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الصبيان بالحيات فيمكت عيسى في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون . .

(١) وصف لثنايه والمصر : ما فيه صفة خفيفة .

وفي آيات التوبة والفتح والصف صراحة بأن الله تعالى أرسل محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وفي هذا حسم قرآني بأن الدين الذي جاء به محمد هو آخر الأديان ، وهو المرشح من الله ليكون دين البشرية ، وليظهره على سائر الأديان ، فيكون محمد ﷺ بذلك آخر الأنبياء وخاتمهم أيضاً ، ويبوء الحوري في تحمله في صرف معنى (خاتم النبيين) القرآني بالحزبي والفشل .

أما قول الحوري : إن الإسلام انتشر خارج جزيرة العرب وبين غير العرب بعد النبي ﷺ نتيجة لحركة الفتح الإسلامي ، فهو متهاافت جزاف وسيأتي تفنيده بعد قليل .

- ١٠ -

وبما اتكأ عليه الحوري في زعمه قضية تحويل القبلة عن سمت المسجد الأقصى إلى سمت المسجد الحرام في العهد المدني ، فاصطبغت رسالة النبي بها في هذا العهد بالصبغة القومية ، وهذا زعم متهاافت ، ونعتقد أن الحوري أذكى من أن يجمل قصة هذا التحويل الذي كان متصلاً بموقف اليهود في المدينة من الدعوة الإسلامية ورسولها ، ولكنه يتجاهل ذلك ويغلب هواه على حقيقة الأمر فيه .

ولقد كان النبي هو وأصحابه في مكة يصلون نحو الكعبة بيت الله الحرام التي كان يتداول العرب أنها من إنشاء أبيهما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، والتي كان الاتجاه إليها من مقتضى الملة الحنيفية الإبراهيمية التي هدى الله إليها النبي وأمره بإعلان ذلك في آيات الأنعام (١٦١ - ١٦٣) التي أوردناها قبل ، وقد أيد القرآن ذلك التداول في آيات سورة البقرة هذه (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ

أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ
 يَأْتِيهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ
 إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ
 الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .
 رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ
 وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا
 وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ..
 (١٢٩ - ١٣٤) وكان هذا الأمر بما يعرفه اليهود ويعترفون به يصرحون به
 قبل الإسلام على ما تفيد آيات البقرة هذه التي نزلت في صدد تحويل
 القبلة وتسفيه اليهود الذين اغتاظوا من هذا التحويل ، واعتبروه ضربة
 موجعة لهم ، وحاولوا أن يثيروا بين المسلمين فتنة وشكوكاً ضده
 (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا
 عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
 النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي
 كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى
 عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ
 اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّوُوفٌ رَحِيمٌ . قَدْ تَرَى
 تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ
 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
 شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِلسَفَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ

وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةً بَعْضٌ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ
لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُحْضَرِينَ .. (١٤٢ - ١٤٧) .

وفي سورة آل عمران آيات أخرى يمكن أن تفيد أن اليهود ظلوا
يثيرون الغبار حول التحويل ، ويدسون بين المسلمين ، ويزعمون أفضلية
المسجد الأقصى وقدمه ، فاقتضت حكمة التنزيل وحيا للرد عليهم وتفسيرهم ،
وتقرر حكمة الأمر في قدم الكعبة وأفضليتها وصلتها بإبراهيم ، وكون
الله بسبب ذلك أوجب على الناس المستطيعين أن يحجوا إليها ، وهي هذه
("قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ
الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ
كَانَ آمِنًا وَيَلِدُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ . "قُلْ
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .. آل عمران ٩٥-٩٩) .

ولقد كان النبي ﷺ من جهته متألماً من مواقف قومه الجحدية في
مكة التي وصلت إلى حد التآمر عليه لقتله أو حبسه أو إخراجه كما
ذكرت آية سورة الأنفال هذه (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَاكِرِينَ .. ٣٠) وقد أراد من جهة أخرى أن يتألف
اليهود حينما هاجروا إلى المدينة ، وبسبل عليهم الاستجابة إلى دعوته والانضواء

إلى رايته ، فألهمه الله أن يتجه في صلته نحو سمت المسجد الأقصى بدلاً من سمت الكعبة ، فلما وقف اليهود منه ومن دعوته موقف الجحود والمناوأة والدس والكيد والصد والتعطيل والتأليب والتآمر على ما أثر حناؤه في البحث الأول ، وكانوا إلى هذا يزعمون على المسلمين بقولهم لهم : إنهم إنما يتهدون بهدام ، ويستقبلون قبلتهم ، كما كان يحز في نفوسهم وفي نفس النبي معاً حتى صار يتمنى أن يوجهه الله إلى قبلته الأولى فاستجاب الله له وألهمه ذلك ، ثم أنزل فيه آيات البقرة ١٤٢ - ١٤٧ .

وظاهر من هذا الشرح أنه ليس في هذه المسألة مما يصح أن يسمى انجهاً جديداً إلى صبح الدعوة الإسلامية بطابع قومي عربي .

- ١١ -

وإذا كان حقاً أن النبي ﷺ قد وحد العرب وأنشأ دولة - وهذا وذلك من تلقينات الدين الذي جاء به - فإنه إنما وحدهم تحت راية الإسلام . وإن الدولة التي أنشأها كانت دولة إسلامية وليست قومية ، وكل ما في الأمر أن أكثريتها العظمى كانت من العرب ، وكان طابعها المميز عربياً ولسانها عربياً ، وكل هذا كان من ظروف قيامها ، غير أنها كانت تمثل مختلف الأجناس والألوان حيث كان فيها بالإضافة إلى العرب الحبشي والفارسي والرومي والمصري للقبطي والسرياني والآرامي ، والأبيض والأحمر والأسود والأصفر ، فكان في ذلك مصداق الحديث الذي يذكر أن النبي قد بعث إلى الناس كافة أحمرهم وأسودهم تحت راية الإسلام ، وفي الأخوة الدينية الشاملة التي لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى كما جاء في بعض الأحاديث ، وكما لقنته آية سورة الحجرات هذه (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وآية أخرى في نفس السورة وهي (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) . وقد تسمى رؤساء الدولة بعد النبي ﷺ باسم

(أمير المؤمنين) الذي فيه الدليل القاطع على أن المسلمين الأولين من لدن النبي ﷺ قد فهموا أن دولتهم إسلامية وليست قومية ^(١) .

وهناك أحاديث نبوية أخرى تدعم ما قلناه ، فقد روى الإمام أحمد أن ثابت بن قيس غمز بأمر رجل في المجلس ، فقال له رسول الله ﷺ : « انظر في وجه القوم » ، فنظر فقال : « ما رأيت ؟ » ، قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر قال : « فإنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى » ، وقد روى الشيخان عن أبي ذر قال : « أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدع الأطراف » . وفي رواية : « إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا » ولا يمكن أن يكون هذا إلا في ظل دولة إسلامية ، وفي نطاق الأخوة الدينية الشاملة .

- ١٢ -

ولقد حار الحوري الحداد في تعليل انتشار الإسلام في أقطار الأرض على اختلاف ملل أهلها الكتابية وغير الكتابية ، وعلى اختلاف أجناسها وألوانها بعد أن زعم أن الرسالة المحمدية عربية قومية لا تتعدى الحجاز ، أو جزيرة العرب على الأكثر ، وبعد أن تمحل في ما في القرآن من دلائل قوية حاسمة على بطلان زعمه ، فلم تهده شطارته أو غباوته إلا إلى القول إن ذلك الانتشار هو انفتاح طارئ نتج عن حركة الفتح العربي التي حدثت بعد النبي ﷺ متجاهلاً لحقائق تاريخية وقعت في زمن النبي ﷺ

(١) فنبه على أننا لا نريد بهذا أن ننفي شأن العروبة في الإسلام ، فإنه قام عليها ومنها ، وبينها لازم تام بحيث يمكن القول إن العروبة بدون الإسلام ليس لها شأن مميز وإنما صار لها رسالة خالدة به وإن عز الإسلام وقوته مما في عز العرب وقوتهم . وهناك كلمة عظيمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (استوصوا بالعرب خيراً فإنهم مادة الإسلام وإذا ذل العرب ذل الإسلام .

لا يمكن إلا أن يكون قد اطلع على أخبارها ولا يصح أن يتجاهلها إنسان عاقل حتى ولو كان مغرضاً حقوداً ، لأنها مقترنة بوقائع يقينية يكون في تجاهلها غباوة وصفاقة صارختان . وتنطوي هذه الحقائق على بداية ذلك الانتشار الذي لم تكن حركة الفتح إلا ضامنة لحريته ومزيله للعقبات في طريقه ، وكانت تلك البداية من مباشرة وممارسة النبي ﷺ المنبئ عن حقيقة كون الرسالة المحمدية رسالة عامة لجميع الناس على اختلاف أجناسهم وملهم ونحلمهم وألوانهم وأقطارهم برغم أنف المكابرين ، وعن حقيقة كون ذلك من مقتضى أمر الله في القرآن المبكي وفي القرآن المدني معاً .

ولقد تمثلت هذه البداية والممارسة والمباشرة برسل رسول الله ورسائله إلى قيصر الروم ، وكسرى الفرس ، ونجاشي الحبشة ، ومقوقس مصر بالإضافة إلى أمراء العرب وملوكهم في اليمن ، وسواحل الجزيرة الشرقية ، وبلاد الشام يدعوهم إلى الإسلام .

وتشكيك المعارضين الحاقدين في هذا الحادث لا يثبت على تحميم ، فقد كانت أحداث منبثقة عنه روتها الروايات الوثيقة القديمة في سياق آخر مثل سلب دحية الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر من قبل بعض بني جذام ترتب عليه توجيه مربة لقتالهم بقيادة زيد بن حارثة ، ومثل قتل فروة الجذامي أحد عمال الروم أو الفساسنة في اللقاء الذي اعتق الإسلام ، ومثل قتل رسول رسول الله الحارث بن عير إلى ملك بصرى من قبل عامل مؤته الغساني مرو بن شرحبيل . وقد ترتب على ذلك توجيه جيش إلى مؤته في اللقاء بقيادة زيد بن حارثة أيضاً ، وهذه الحوادث وقعت في السنة السادسة للهجرة ، وبعد لإرسال النبي رسله وكتبه إلى الملوك ، ولم ينكرها الحاقدون المعارضون . ثم مثل قدوم مارية وأختها من مصر هدية من المقوقس ، وقد تسرى النبي بأولاهما وأولدها ابنه إبراهيم ، وهذه حقيقة يقينية . ومثل إسلام باذان عامل كسرى على

اليمن الذي أرسل إليه كسرى بأمره باعتقال النبي الذي أرسل إليه رسولا
ورسالة ، فلم يكن منه بعد أن رأى أعلام نبوته إلا أن يسلم . وبما قالوه :
إن محمداً لم يكن ليجراً على إرسال رسل ورسائل إلى أكبر ملوك الأرض ،
وهذا محض هراء بالنسبة إلى صاحب دعوة مؤمن بدعوته أعمق الإيمان ،
ومستغرق فيها أشد الاستغراق ، ومعتقد بواجب تبليغها والتبشير بها في
مشارك الأرض ومغارها تنفيذاً لأمر ربه أقوى الاعتقاد ، وقد رأى علماء
اليهود الراسخين في العلم قد آمنوا بها ، ورأى النصارى الذين هم في الحجاز
قد آمنوا بها ، ورأى وفود النصارى الذين فيهم القيسيون والرهبان قد
آمنوا بها ، وفاضت دموعهم بما عرفوا بها من الحق على ما أشارت إليه
الآيات القرآنية المكية والمدنية التي أوردناها قبل ، فليس هناك أي محل
لاستغراب هذا الحادث ، وإنكاره ، والمكابرة فيه . وهذا الحادث مدون في
أقدم كتب السيرة التي وصلت إلينا ، ولم يكن هناك أية ضرورة دينية
أو سياسية تحمل أحداً في القرن الأول والثاني على اختراع خبر هذا
الحادث وروايته وتدوينه ، ولقد اتكأ بعضهم في إنكاره على ما في روايات
ونصوص الرسائل المروية من ثغرات ، ولا يعد هذا مسوغاً جدياً لإنكار
الخبر ، فمثل هذه الثغرات يمكن أن تقع في سياق كل حادث . ولم يدون
الحادث إلا بعد مدة ما ظل خلالها متداولاً على الألسنة يزيد الرواة في
تفصيله ونصوصه ونواريجه وأسمائه ، وينقصون ويبدلون ويغيرون ، بل كثيراً
ما يقع أصحاب حادث ما في مثل ذلك إذا أرادوا أن يرووا تفاصيله بعد
مدة ما من حدوثه ، ولا يقتضي ذلك أن يكون الحادث كاذباً ، ولقد كان
وقت إرسال النبي رسله ورسائله هو عقب هدنة الحديبية مع قريش ،
وإتمام إجلاء اليهود عن المدينة وخفض شوكتهم في خير والقرى الأخرى
حيث شعر النبي بفراغ باله من الهموم المحلية ، فبادر إلى إبلاغ دعوته
ورسالته إلى من هم خارج بيئته الخاصة ، وفي سورة المائدة هذه الآية

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. ٦٧) وسورة المائدة نزلت ، أو نزل بعضها عقب صلح الحديبية ، وقد بدأت بأمر المسلمين بالوفاء بعهودهم بهذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ..) وجاء بعدها آية تفيد أن بعض المسلمين أرادوا أن يلحقوا ضرراً بأهل مكة بمنع الناس من الحج ، فحكم الله بأنه إخلال بذلك الصلح ، وأمر المسلمين بالوفاء بعهودهم . فمما يحظر بالبال بقوة أن آية المائدة ٦٧ - هذه كانت الحافز المباشر للنبي على خطوته الخطيرة ، وقد تضمنت قطعاً له بأن الله عاصمه من الناس ، فعليه أن لا يحسب أي حساب لأحد في سياق تبليغ ما أنزل إليه من ربه .

- ١٣ -

ولقد كان من الأحداث القينية إقبال نصارى الشام والعراق ومصر ويهودها ومجوس الفرس والتوك وبربر شمال إفريقيا على اعتناق الإسلام بقياس واسع في القرون الهجرية الأولى حتى إن هذا القرن لم يكد ينتهي حتى كان معظمهم قد دانوا بالإسلام . ولم يكن هذا نتيجة لتمكن الجيوش العربية الإسلامية من الاستيلاء على هذه البلاد ودحر سلطاتها عنها ، وإجبار أهلها على الإسلام كما يزعمه الحاقدون المغرضون ، فتسير الجيوش بعد النبي ﷺ كان استمراراً لحالة الحرب التي قامت في حياة النبي بين المسلمين والروم والغساسنة والقبائل النصرانية في مشارف الشام ، وكان ذلك متشعباً عن إرسال النبي رسلاً إلى ملوك الأرض ، ومقابلة الروم والغساسنة والنصارى ذلك بالعدوان ، على ما مر بيانه . والروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين تذكر أن شعار هذه الجيوش الأولى كان الدعوة إلى الإسلام ، فإذا قبل الناس ذلك صار لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وهذا متصل بدون ريب بكون رسالة الإسلام هي لجميع البشر عامة ، وبيقين الحلفاء الذين سيروا

الجيوش ، وأمروا بشعاراتها بذلك . وكان الشعار الثاني إذا رفض الناس الإسلام طلب الجزية كعلامة للخضوع والاستسلام ، ويكون في ذلك في الوقت نفسه ضمان لحرية الدعوة الإسلامية واعتناقها بمن يريد ، فإذا قبل الناس بإعطاء الجزية أمنوا على حرياتهم الدينية والمدنية ، وضمن لهم الفتحون السلامة والأمن والحماية ، ولا يقاتل إلا من رفض العرض الأول والثاني نتيجة إقيام حالة الحرب قبل قدوم الجيوش حيث يكون رفضها في معنى العداء العدواني ، وهذه الشعارات مستمدة من توجيه النبي ﷺ الذي كان يأمر به جيوشه التي كان يسيرها على ما أوردناه قبل . ولقد أرسل الله رسوله (شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) و (لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وكان من واجب خلفائه أن يقتفوا أثره ، ويستمروا في التبشير برسالاته والدعوة إليها .

ولقد كان أهل البلاد المفتوحة يصلحون المسلمين بعد أن يندحر أصحاب السلطة عن بلادهم على الجزية ، ويدخلون في ذمتهم وحمايتهم ، ثم أخذوا يقبلون على اعتناق الإسلام حينما ترووا في مبادئه ودعوته ، ورأوا فيها من حق وخير وحل لمشاكلهم المتنوعة الروحية وغير الروحية . ولقد كان إقبالهم على الإسلام بالطوع والاختيار ، لأن الجزية كانت مجزئه منهم تجاه الجيوش ، فليس من محل لغير ذلك قطعاً ، ولقد كانت أكثرية نصارى الشام والعراق ومصر الساحقة يعتقدون النسطورية واليعقوية ، وأصحاب هذه المذاهب كانوا يعتقدون أن المسيح ذو طبيعة واحدة مزيجية من اللاهوتية والناسوتية ، وأنه ليس إلهاً كاملاً ولا إنساناً كاملاً خلافاً للمذهب الملاكاني الذي كانت عليه الدولة الرومانية صاحبة السلطان في الشام ومصر ومن والاه وهو عقيدة ثنائية الطبيعة في المسيح ، وكان بين أصحاب المذهبين الأثرلين والمذهب الثالث خلاف ونزاع ، وتعرض اليعقوبيون في مصر وسورية لاضطهاد الدولة ومواليها ، فلما رأوا القرآن يقرر أن المسيح

كلعة الله ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وجدوا بين هذا وبين ما يقولون تطابقاً ما ، فأقبلوا على الإسلام الذي وجدوا فيه منفذاً روحياً وسياسياً في وقت واحد ، ولم تكن حركة الجيوش العربية كما قلنا إلا تعبيراً لطريق الدعوة ، وصوتاً لحرية انطلاقها ، وخضداً لشوكة الباغين عليها والصادقين عنها ، وليس من تفسير معقول آخر لإقبال جمهرة نصارى الشام والعراق ومصر على الإسلام غير ذلك ، والقول خلافه افتراء محض وهراء عرفت حقيقته . والدليل الحاسم على ذلك أن جماعات من النصارى في الشام ومصر والعراق شأؤوا أن يحتفظوا بدينهم ، فكان لهم ما أرادوا ، واستمروا يمارسون حريتهم الدينية على مدى الأحقاب ، وفي ظروف قوة السلطان الإسلامي العظيم .

ولقد كان جل الذين انقبضوا عن الإسلام ، وأحبوا الاحتفاظ بدينهم ، وسمح لهم به من نصارى الشام ومصر على مذهب السلطات الرومية ومن المؤمنين لها ، أو بتعبير اليوم عملاءها ، فكان الدافع السياسي هو المؤثر في انقباضهم ، ولا سيما أن الروم ظلوا يتصلون بهم بعد اندحارهم عن بلاد الشام ومصر ويحركونهم ، ويجعلونهم يتمرّدون ويشغبون على السلطات الإسلامية حيناً بعد حين في زمن الدولة الأموية ، ثم العباسية . وكان لهذا أثره في موقفهم الموالي للحملات الصليبية أيضاً .

ونعتقد إلى هذا أن فريقاً من الرهبان أيضاً غلبتهم فكرة الاحتفاظ بمنافعهم المادية التي كانوا يجنونها من أوقاف الأديرة والكنائس ونذور رعاياهم وهداياهم ، فجعلهم ذلك ينقبضون بدورهم عن الإسلام ، ويحاولون التأثير ما أمكنهم على بعض أبناء أمرهم وملهم . ومن الجدير بالتأمل أن كثيراً من الأمر النصرانية المنشورة في القوى العربية في بلاد الشام والعراق ومصر التي ظلت تحتفظ بدينها تسمى بأسماء القسيس والخوري والراهب والشماس بما قد يكون فيه قرينة ما . وهذا ما كان مشهود الأثر منه

عهد النبي ﷺ ، ما عبرت عنه آية التوبة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَبَاءٌ كَلُونا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ٣٤) .

وبعض المستشرقين - وهم على الأغلب استشرقوا للتبشير والتجسس إلا قليلاً - ممن كتب كتباً في الطعن في الإسلام زعموا أن النصارى الذين اعتنقوا الإسلام في القرون الأولى ، إنما اعتنقوه هرباً من الجزية ، وهذا هراء وترييف . فالسلطان الإسلامي كان لا يتقاضى من الذمي غير الجزية مقابل حمايته وحرية ، وكان أعلى مقدار لها أربعة دنانير في السنة ، وتكون دينارين على المتوسطين وديناراً على الكسبة ، وكان الرهبان والنساء والأطفال والشيخ وذوو العاهات معفيين منها ، وكان المسلم مكلفاً بالدفاع والزكاة ، فالمشقة على المسلم مادياً أشد منها على الذمي ، فليس من المعقول أن يفر من الأخف ليتحمل الأشد ، وكثرة النصارى من الصنفين الثاني والثالث ، فإذا كان الخلاص من دينار أو دينارين في السنة يحمل النصراني على التحلي عن دينه ، فيكون في ذلك دليل قوي على وهن هذا الدين وضعفه في نفسه .

ولقد انبوى غير واحد من الباحثين المخلصين الأجانب لهذه المسألة ، وأثبتوا زيفها ، وأثبتوا أن الإسلام إنما انتشر بالدعوة والتبشير وحسب .

- ١٤ -

وإذا كنار كزنا كلامنا على أسباب تسيير جيوش الفتح الإسلامية إلى بلاد الشام ، فلا يعني هذا أن تسيير جيوش الفتح إلى العراق ومصر وشمال إفريقيا ثم إلى بلاد الفرس والترك لم يكن لأسباب مسوغة وفي نطاقه مبادئ الجهاد الدفاعية .

فالروم نقلوا نشاطهم الحربي والسيامي بعد اندحارهم عن بلاد الشام بما فيها فلسطين إلى مصر ، وأخذوا يستعدون للكرة براً وبحراً ، فصارت المصلحة تستدعي مطاردتهم فيها وتطهيرها منهم ، ولما تم ذلك نقلوا نشاطهم الحربي والسيامي إلى شمال إفريقيا ، وأخذوا يستعدون للكرة أيضاً ، فطاردهم المسلمون فيه ليظهروه منهم .

ولقد كان الإسلام أخذ ينتشر في أطراف العراق والخليج العربي في زمن النبي ﷺ ، فتصدت السلطات الفارسية لتعطيل انتشاره ومطاردة المسلمين في هذه البلاد ، وإثارة الفتنة على الإسلام عقب وفاة النبي ﷺ ، فقامت بذلك حالة الحرب بين المسلمين والفرس ، وكان ذلك من موجبات أمر الخليفة أبي بكر الخالد بن الوليد رضي الله عنها بالسير نحو العراق بعد انتهائه من حروب الردة في اليمامة لمعالجته هذا الأمر ، ثم الاتجاه إلى الشام ، فلما طال الأمر عليه ، أرسل الخليفة جيوشاً مستقلة إلى بلاد الشام ، وظل خالد يعالج الأمر حتى تمكن من تقويض السلطان الفارسي عن العراق العربي . ولم يرض الفرس بما وقع حيث أخذوا يستعدون للكرة على المسلمين فاتصلت وقائع الحرب بين الفريقين إلى النهاية .

ولقد استنصر ملوك الفرس في بعض مراحل الحرب بمخافقات الترك ، وجاء هؤلاء لنصرتهم ، فقامت حالة الحرب بينهم وبين المسلمين بدورهم ، ونقل المسلمون نشاطهم الحربي بعد تقويض مملكة كسرى إلى بلاد الترك ، وتمكنوا من توطيد سلطانهم عليها بدورها ، ومن ثم تسنى للدعوة الإسلامية أن تنطلق حرة بدون معارضة وصد ، وأن يستجاب إليها من قبل أهل بلاد الفرس وخراسان والديلم والأكراد والأذريين والترك والترو والأفغان والسند حتى كادت تغطيها خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة ، ثم أخذت تمتد إلى بلاد الهند والصين والأرخبيل الماليزي العظيم (ماليزيا وأندونيسيا) عبر القرون حتى صار الإسلام الدين الغالب لمعظم هذه البلاد ،

وصار عدد معتنقيه في الشرق الأقصى والأوسط البعيد نوعاً ما اليوم نحو ثلاثمائة وخمسين مليوناً ، أي : أكثر من نصف مجموع المسلمين .

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام استمر ينتشر في هذه البلاد في ظرف ضعف السلطان الإسلامي بقياس واسع بالدعوة والتبشير ، وكان حظه في قارة إفريقية كذلك مما فيه من ناحية مارد على افتراء المفتوين عليه .

ومن هذا العرض يبدو زيف دعوى الحوري الحداد ، وحقيقة كون انتشار الاسلام خارج الجزيرة وبين غير العرب إنما كان بالدعوة التي بدأها النبي ﷺ ، لأن ذلك من صميم رسالته ، وباقتفاء خلفائه بعده أثره وتوجيهه لأن ذلك من صميم واجبه .

خاصاً :

زعم برائية الدعوة الإسلامية وسليتها ومزاعم أخرى

- ١ -

يكرر الحوري الحداد في أكثر من موضع من كتبه وصف الدعوة الإسلامية بالبدائية معلاً ذلك بالبيئة البدوية التي انبثقت فيها ، وقد أورد للدلالة على زعمه آية سورة الإسراء هذه (وَبَسَّالْوَتَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) وقال : إن في الآية إعلاناً قرآنياً بأنه لا ينبغي أن يطلب من القرآن أكثر مما تستوعبه بيئته البدائية البدوية .

وغثاة الاستدلال وتقافته واضحة ، فما جاء في الآية يصح أن يقال لأرقى الناس في أرقى المجتمعات الحضارية بالنسبة لأسرار كون الله وعلمه ، وبنوع خاص بالنسبة للأمر المسؤول عنه ، سواء أكان هو نسمة الحياة التي يكون الحي بها حياً كما يقول بعض المفسرين ، أم كان الوحي الذي ينزل بالقرآن كما يقول مفسرون آخرون استدلالاً من الآيات التي تصف الذي كان ينزل بالوحي القرآني على النبي ﷺ بالروح ، وبالروح القدس ، وبالروح الأمين ، كما جاء في آية سورة النحل هذه (قُلْ تَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) وآيات سورة الشعراء هذه (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ..) .

وليس في الآية التي أراد الاستدلال بها على بدائية الدعوة وبدائية البيئة أي دليل على ما أراد موضوعياً ، وقد أعماه هواه وصفاقته ورغبته في التجريح والتهوين عما في القرآن المكي من الدعوة إلى كل ما فيه سمو في الأهداف ، وضمان لسعادة البشر ، وسلامتهم وخيرهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة ، وتوطيد لأسس قيام أفضل المجتمعات الإنسانية على أرقى درجات الحضارة من مختلف جوانبها .

والقرآن بين أيدي الناس ، وتصفح السور المكية فيه أي التي نزلت في بيئة الإسلام الخاصة الأولى كفيل بإبراز كل ذلك وإثبات كون الدعوة الإسلامية التي يمثلها جديرة بأفضل الصفات السامية الرفيعة .

ففيها الدعوة إلى الله تعالى وحده دون ما شائبة ، وإلى نبذ كل القوى الأخرى التي تكبل الإنسان ، وتجعله يشركها مع الله ، وتقرير حرية الدين ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وترك الناس وشأنهم ما داموا مسلمين للإسلام والمسلمين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وعن الظلم ، والبغي ، والتكبر ، والحيلاء ، والفساد ، والكذب ، والغدر ، وحل الطيبات ، وتحريم الخبائث ، وتخفيف التكاليف الشاقة ، وعدم تكليف الناس بما لا يطيقون ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإقامة المجتمع على أساس الشورى ، والصبر والصدق ، والعدل والرحمة والحق ، والانتصار من البغي والظلم ، والعفو عند المقدرة ، والتواصي بالصبر ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالمرحمة ، والبر بالفقراء والمساكين ، وحماية اليتيم ، وعدم العدوان على مال الغير ودمه وعرضه ، وتحريم العبيد وعدم مسؤولية أحد عن خطأ غيره ، وعدم التكالب على المال واكتنازه وإمساكه عن المحتاجين ، والاعتدال في المأكل والمشرب ، وتجنب الموبقات وعدم البخل والتقتير والتبذير والإسراف ، وإعطاء كل ذي حق حقه ،

والوفاء بالوعد والعهد ، وإبراز مركز المرأة كإنسان له من الحقوق وعليه من الواجبات ما على الرجل ، وجعل الحياة الزوجية قائمة على المودة والرحمة والحث على العمل وابتغاء فضل الله ، والضرب في مناكب الأرض ، وإباحة الاستمتاع بزينة الله وطيبات الحياة بالحلل ، والقصد والاعتدال ، والحث على العلم والتعلم ، واستعمال العقل ، والانتفاع بما في كون الله من نواميس والتدبر فيها ، وفيه من التلقينات والأمثال والمواعظ والمبادئ الاجتماعية والإنسانية والعقلية والسلوكية والسياسية ما يمد الإنسان بأحسن المثل والقواعد التي تكفل له ، وللمجتمع الإنساني السعادة والقوة والعزة والكرامة والرفاء والساد والصلاح ، والتلاؤم مع كل زمن ومكان وظرف وجنس ولون . وكل ذلك بأروع أسلوب وأتممته ، وأشدّه نفوذاً إلى القلوب والعقول والضمائر . وشواهد كل ذلك مبثوثة في مختلف السور المكية قصيرة ومتوسطة وطويلة ، يفهمها ويدركها أوساط الناس فضلاً عن نباهم .

فهل من سخف أشد من زعم كون الدعوة الإسلامية في العهد المبكي بدائية ، وهل من شاهد أعظم من نصوص السور المكية المبثوث فيها كل تلك الشواهد على أن القرآن وحي من الله تعالى العليم بكل حاجات ومطالب ومصالح البشر في جميع أدوارهم وأطوارهم وظروفهم ، الحكيم الذي يهدي إلى كل ما فيه الحق والخير والصواب والسعادة والطمأنينة والنجاة في الدنيا والآخرة إلى رسوله محمد ﷺ ، ليكون فيه لجميع البشر من كل جنس ولون ، وفي كل دور وطور وظرف الهدى والرحمة والبيئة والذكرى ؟

- ٣ -

ولا يمنع هذا القول من التنبيه على أن الحوري يقع في خطأ مقصود أم غير مقصود حين يزعم أن البيئة المكية كانت بدائية ، ويبني على خطئه هذا ذلك الزعم السخيف الذي تكذبه شواهد القرآن المبكي .

ولقد رأينا الحوري ينقل كثيراً من كتابنا « عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة » وكان يجب عليه أن ينتبه إلى ما في الكتاب من الدلائل الكثيرة الدالة على عدم صحة زعم بدائية أهل مكة الذين كانوا أول المخاطبين بالدعوة ، وبالتالي بدائية بيئة الدعوة ، بل وعلى أنهم كانوا على درجات متقدمة في سلم الحضارة معيشة وترفاً وثقافة ونشاطاً عقلياً وأدبياً واقتصادياً واجتماعياً ، ومعارف متنوعة تاريخية وجغرافية وملاحية وفلكية وطبية ودينية .

ولقد كانوا على صلة وثيقة بالبلاد المجاورة لهم شمالاً وشرقاً وجنوباً ، أي : بلاد الشام ، والعراق وفارس واليمن ومصر والحبشة ، ولقد كان يعيش بينهم جاليات كتابية ، منهم من كان ذوي علم راسخ ، وكانوا يعرفون أخبار وأحوال أهل هذه البلاد الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وما عندهم من كتب ومعارف وصناعة ، ومأم عليه من خلافت وتعدد مذاهب ونحل . وكانت لغة القرآن هي لغتهم ، وناهيك بلغة القرآن حسن أداء ، ودقة استعمال ، وعمق نفوذ ، وجودة سبك وأسلوب ، وغزارة مادة ، وتفنتاً في الأساليب الكلامية ، وقواعد وضوابط نحوية وصرفية مما لم تكدر لغة أخرى تبلغ مبلغه قديماً بل وحديثاً . وفي كتابنا المذكور دلائل كثيرة على أن القراءة والكتابة كانتا منتشرتين بينهم بمقياس غير ضيق ، وفي القرآن حكاية لكثير من مواقفهم تدل على ما كانوا عليه من قوة العقل ، وشدة الحصومة والجدل ، وسعة الاطلاع والتجارب الاجتماعية وغير الاجتماعية ، وكل هذا مفصل في فصول كتابنا المذكور .

فتجاهل الحوري لكل ذلك مع اطلاعه عليه ، ووصفه بيئة مكة بالبيئة البدائية عجيب يدل من دون ريب على قصد تزييف الواقع الصارخ فضلاً عما يدل عليه من غباء وسذاجة وتفاهة وصفاقة ومكابرة .

ولقد اقتصر الحوري في وصفه الزائف لبداية البيئة وبدائية الدعوة القرآنية تبعاً لها على مكة والعهد النبوي المبكي . ولا ندرى هل يريد أن يقول : إن وصف البداية للبيئة والدعوة القرآنية لا ينطبق على القرآن المدني والعهد النبوي للمدني . منطلقاً من تصور كون بيئة المدينة أرقى حضارة وثقافة من بيئة مكة بسبب وجود كتلة من بني إسرائيل فيها ؟ فإذا كان هذا هو تصوره ومنطلقه ، فهو فيهما متهافت أيضاً ، فما في القرآن المبكي من الدلائل الدالة على رقي بيئة مكة في سلم الحضارة كاف لنسف زعمه .

ولقد كانت بيئة المدينة زراعية في حين كانت بيئة مكة تجارية ، وهذا بما فيه فرصة لتفوق مكة حضارياً على المدينة ، وهو ما كان واقعاً فعلاً .

ولقد كانت مكة موطن الحج الذي كان عاماً يقد إليه الناس من كل صوب من جميع أنحاء جزيرة العرب ، ومن خارجها على اختلاف منازلهم ونحلهم وثقافتهم ، وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والعقلية والأدبية ، وكانت تقام في موسم الأسواق التجارية ، والمجالس الأدبية والشعرية والخطابية والقضائية ، وكان كل هذا مما يضمن لأهل مكة تفوقاً في النشاط والاتصال والأفق والتجارب والمعرفة .

ولم تكن مكة خالية من الجاليات الكتابية كما قلنا قبل ، فليس من شأن وجود كتلة من بني إسرائيل في المدينة أن يجعل بيئة المدينة متفوقة في الحضارة والثقافة على بيئة مكة .

ومع ذلك فإن الذي ينعم النظر في محتويات القرآن المبكي والمدني ، ويقارنها ببعضها لا يجد - باستثناء بعض التشريعات والأجوبة والتوضيحات

والأحداث والوقائع التي كانت متساوقة مع ظروف العهد المدني ومـع تنوع الفئات والميول والتطورات المدنية والسياسية والاجتماعية في هذا العهد - شيئاً جديداً ، ويجد أن ما في القرآن المدني من مبادئ وخطوط وتلقينات وأوامر ونواه ومباحات ومحظورات ، بل وتشريعات ليس جديداً ، ويجد مثله في القرآن المكي بأسلوب ما أو يجد له فيه نواة وأساساً ، بحيث يظهر بهذا تساوق القرآن وتناسقه وترابطه وتلاحقه بقطع النظر عن ظروف نزوله المكي أو المدني . وهذا فضلاً عن أن القرآن المكي والقرآن المدني يمثلان كتاب الله ودينه ورسالة رسوله محمد ﷺ ، وكل منهما متكامل يتم بعضه بعضاً ، ويربط بعضه ببعض ، ويوضح بعضه بعضاً دون تناقض ولا تغاير ولا تخالف . وصدق الله العظيم (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ^(١) . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ..) ^(٢) .

ونقول استطراداً : إن الإعجاز القرآني الذي فيه دليل على كون القرآن وحياً ربانياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يوجد فيه اختلاف ليس متمثلاً في هذا الأمر فقط ، بل هو متمثل في كل موضوع قرآني . وقد يحلو لبعض المبشرين والمستشرقين أن يدعوا أن في القرآن تناقضاً واختلاًفاً ، وقد يبدو لبعض المسلمين بل ولعلمائهم أحياناً إشكال ما يوهم شيئاً من ذلك أيضاً بسبب ما في بعض الآيات من إطلاق أو تخصيص ، أو خطاب أو موقف ، أو أمر أو تنبيه ، أو تقرير أو صورة فيها في الظاهر مبانة لما في بعض الآيات الأخرى من ذلك . غير أن هذا الإشكال يزول حينما ننظر المرء إلى القرآن ككل متكامل يفسر

(٢٠١) آية سورة النساء المدنية (٨٢) . آية سورة فصلت (٤٢) المكية .

بعضه بعضاً ، ويوضح بعضه بعضاً ، ويتمم بعضه بعضاً . بحيث لا يوجد آية ما فيها إشكال أو وهم إشكال ومباينة إلا جاء في سياقها أو في آية أخرى في سورتها ، أو في سورة أخرى ما يزيل ذلك الإشكال ، أو وهم الإشكال والمباينة . ولو أردنا التمثيل لطال النفس كثيراً ، وقد اهتمنا لهذا الأمر وتبعناه في تفسيرنا الحديث ، ونرجو أن نكون في ذلك قد وضعنا الأمر في نصابه الحق .

وآية النساء المذكورة وآية فصلت التي أوردناها معها يتضمنان تقريراً تؤكدياً لهذا الإعجاز القرآني من حيث كونها احتوتا نفيّاً ربانياً للاختلاف في القرآن ، ومن حيث أن هذا النفي لا يمكن إلا أن يكون صادقاً كل الصدق وحققاً كل الحق ، وأن هذا يعني أن القرآن كل يتمم بعضه بعضاً ويوضح بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً ، وأن ما قد يوهم إشكالاً أو وهماً أو غموضاً في مكان جاء في مكان آخر ما يزيل ذلك . ويظهر أن الحوري الحداد ارتاع من آية النساء ، لأنه وجد فيها استدراكاً ربانياً محكماً ينفي أي اختلاف وتباين في القرآن ، فلم يسعه إلا أن يقول : إنها مقحمة تهرباً بما فيها من منع ونفي وإفحام وتقدير إعجازي لكل من يدعي خلاف ذلك ويتمحل به ، كما هو شأنه في كل ما يراه مفحماً لدعاويه الباطلة المتهافنة دون تورع ولا حياء ولا أدب ، ما شرحناه في مناسبة سابقة .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى السياق فنقول : إن للحوري دعوى فاقعة في التدليل على كون الدعوة الإسلامية بدائية بأن ذلك هو المناسب مع بدائية البيئة التي انبثقت فيها في حين أنه انطوى في العقيدة المسيحية معان فلسفية راقية ، لأن ذلك هو المناسب مع درجة الحضارة المتقدمة التي كانت عليها البيئة التي انبثقت فيها .

والمبادر أنه قصد بذلك بنوع خاص عقيدتي التثليث والفداء .

ولقد كشفنا زيف زعمه من بدائية بيثة مكة ، ومن بدائية الدعوة الإسلامية ، ونعتقد أن الحوري إنما لجأ إلى تلك الطريقة الفاقعة لتغطية ما في العقيدتين من غرابة وألغاز جعلت الأكتوية الساحقة من المتسمين بالسمة النصرانية ملحدين موضوعياً ، أو في فراغ غير قابل للسد والفهم ، أو تهرباً بما ثبت لدى كثير من الباحثين من أصولها الوثنية القديمة . ونحب أن نقف هنا عند هذا الحد ، لأن ما نكتبه هو رد على تحريصات الحوري في القرآن والدعوة الإسلامية ، ونرى أن تبقى في نطاق ذلك ، وندع زعم الحوري في العقيدة المسيحية لكل عاقل منصف لا يعصيه الهوى ، ولا يستسلم للفراغ من أبناء ملته وغيرهم . ولا نشك في أن هؤلاء سوف يرون إذا دققوا في الوقائع والحقائق المعروفة المشهورة مالا يجب الحوري أن يروه ، وما يعمل جاهداً لحجبه عن بني ملته بالهراء والتهرات والإفك والبهتان .

- ٦ -

ويصف الحوري الدعوة الإسلامية في مكة بالاضافة إلى وصف البدائية بوصف السلبية أيضاً ، ويشير في معرض التدليل على ذلك إلى كثرة ما في القرآن من نفي الشرك ، وتقرير أن لا إله إلا الله وقال : إن في ذلك اعلاناً عن وحدانية الله أكثر مما هو كشف عن حياة الحي القيوم في ذاته السرمدية .

ومن عجيب أمر الحوري أن هذا الذي ينكره على القرآن المكي ويرى فيه مأخذاً ، ويحاول تهوين أمر الدعوة الإسلامية ووصفها بالسلبية بسببه قد تكرر بكثرة في (كتابه المقدس) الذي يحتوي على أسفار العهدين القديم والجديد معزواً إلى الله تعالى ورسله ، ومن ذلك كثرة النهي والتحذير عن إشراك أي شيء مع الله ، وعن اتخاذ الأصنام والتقرب لغير الله ، وتدمير كل أمة مشركة وثنية ، وعدم التعاهد والتعامل والتعايش

معها ، بل وعدم دعوتها إلى دين الله ، وهذا بخاصة بما ورد في أكثر من سفر من أسفار العهد القديم .

ومع ذلك فإن لكثرة نفي الشرك وتقدير أن لا إله إلا الله في القرآن المكي حكمة أو سراً متصلاً بظروف نزول القرآن أيضاً . ولا نعتقد أن ذلك يفتوت الحوري وإنما تجاهله عمداً ، فقد كان الشرك هو السائد في أوساط العرب حيث كانوا يعترفون بالله تعالى خالقاً بارئاً رازقاً مديراً محيطاً بكل شيء ، وقادراً على كل شيء ، ومالكاً لكل شيء ، ولكنهم كانوا يقيسون على شؤون الدنيا ، فيرون أنه لا بد لهم من وسائل وشفعاء يقربونهم إليه ، ويضمنون لهم عنده قضاء مصالحهم ومطالبهم ، وكان هؤلاء هم الملائكة ، ولقد اعتقد العرب أنهم بنات الله ، وذوي الخطوة لديه ، فصاروا يشركونهم معه في الدعاء ، ويقربون لهم القرابين عند أوثان وأنصاب اتخذوها رموزاً لهم مما يمثله آيات قرآنية مكية عديدة منها هذه الآيات :

- ١ - وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْضُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ .. [يونس : ١٨] .
- ٢ - أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .. [الزمر : ٣] .
- ٣ - وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ . أَمْ اتَّخَذَ إِيمَانُكَ خَلْقٌ بَنَاتٍ وَاصْفَاكُم بِالْبَيْنِ .. [الزخرف : ١٦ و ١٥] .
- ٤ - وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِفَاتًا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ . وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .. [الزخرف : ١٩ و ٢٠] ^(١) .

(١) هناك آيات أخرى يمكن أن تساق من هذا الباب فاكفينا بما أوردناه .

فكانت الدعوة إلى الله وحده من أهم أهداف وأساليب الدعوة القرآنية في مكة ، وهذا لا يصح أن يعد سلباً ، وإنما هو مقتضى الظرف القائم . وفي القرآن من أسماء الله وأوصافه ونعمه وأفضاله وعظيم قدرته وإحاطته وعلمه ما فيه كل الإيجابية ، فهو العليم الحكيم البصير السميع الرقيب الحمي القيوم المدبر الرحيم الرحمن الهادي الغفور الرحيم الودود الغني البر الجبار المنتقم رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ، ورب الأكران ومبدعها الأبدي السرمدي . وهذه بعض آيات مكية على سبيل المثال فيها تقرير لبعض ذلك ، وفيها بالتالي كل الإيجابية في صدد الذات الإلهية :

١- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ . وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ مِرْكُكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِيُونَ .. [الأنعام : ١ - ٣] .

٢- ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْلطِيفُ الْخَبِيرُ .. [الأنعام : ١٠٢ و ١٠٣] .

٣- إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .. [الأعراف : ٥٤] .

٤- قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي
تُضَرِّقُونَ . كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنِّي تَوَفَّكُونَ . قُلْ هَلْ
مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ
فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .. [يونس : ٣١ - ٣٥] .

٥ - وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ
هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. [القصص : ٨٨] .

٦ - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . لَهُ مُقَالِيدُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يُكَلِّمُ
شَيْءٌ عَالِمٌ .. [الشورى : ١١ و ١٢] .

٧ - كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
وَالْإِكْرَامِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَسْأَلُهُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأْنٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ .. [الرحمن : ٢٦ - ٣٠] .

وأما عدم كشف القرآن عن الحلي القيوم في ذاته السرمدية على حد
تعبير الحوري ، فليس بما يصح أن يوصف بالسلبية ، لأن ذلك ممتنع ،
وقد وصف الله تعالى نفسه بوصف (لا تدركه الأبصار) و (ليس
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) .

والحوري لابد من أنه يسلم بذلك في قرارة نفسه ، ولكنه يباحك في
الكلام للتجريح والتهوين ، وإن الله لراد كيده إلى فخره .

والسلبية لا ينبغي أن تقتصر في مداها على نفي غير الله كما يوم الحوري
أو يتوم ، ولها معنى في شؤون الدنيا والدين أو شؤون الإنسانية المتنوعة .
والقرآن المكي يحتوي من الإيجابية في هذه الشؤون ما فيه الشمول
والسمو والاستجابة لكل مطلب في أعلى الذرى بما ذكرنا ثبتاً له في
البحث السابق .

وإذا كان يريد الحوري في قصر وصف الدعوة القرآنية في مكة
بالسلبية على العهد المكي والقرآن المكي ، فإننا نقول ما قلناه في صدره
الزائف بيدائية الدعوة في مكة ، فإنه ليس في القرآن المدني أمر متصل
بالعقيدة ، أو الشؤون المتنوعة الأخرى مما يمكن أن يوصف بالإيجابية إلا وله
صورة أو نواة أو أساس في القرآن المكي حيث يبدو زيف دعواه بالمقارنة
من هذه الزاوية أيضاً ، والقرآن كما قلنا قبل في تناول كل الناس ، وما
نقوله هو من حقائق القرآن التي لا تتحمل مراء ، والتي لا يدعي عكسها
إلا جامل أو مكابر .

- ٧ -

ويصف الحوري الدعوة الإسلامية في مكة بأنها عملية أكثر مما هي
فلسفية وأخلاقية ، لا عقائدية ولا لاهوتية .

وهذا الكلام سفسطة وهذيان ، وهدفه الوحيد هو التعريض بالقرآن
والدعوة المحمدية والتهوين وحسب .

فالقرآن ليس كتاب فلسفة ولا لاهوت ، وإنما أنزله الله على رسوله
ليكون كتاب هداية للناس إلى صراطه المستقيم ، وفيه بيان لأسباب
نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة وإنذارهم وتبشيرهم كما جاء ذلك في
آيات مكة كثيرة منها على سبيل المثال ما يلي :

١ - قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .. [الأنعام : ١٩] .

٢ - وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .. [الأنعام : ٩٢] .

٣ - اَلصَّحْفُ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِتَّبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ .. [الأعراف : ١ - ٣] .

٤ - اَلرَّسْمُ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ مُتْدِيرٍ الَّذِينَ يَسْتَحْبِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ .. [ابراهيم : ١ - ٣] .

٥ - تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَآلِهِمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .. [النحل : ٦٣ و ٦٤] .

٦ - وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَتَزَلُّنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ قَبِيحًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . إِنَّ اللهَ بِأَمْرِ الْعَدْلِ

وَالْإِحْسَانَ وَإِيتَاءَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ
وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ
كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . [النحل : ٨٩ - ٩١] (١) .

وليس القرآن ولا نبي القرآن في هذا بدعاً ، فهو ماثل في ما يجوز أن
تكون حكاية نسبته صحيحة إلى الله ورسله في كتاب الحوري المقدس أي أسفار
العهد القديم والجديد ، وهو جوهر وهدف وحكمة لإرسال الله الرسل
وإزالة الكتب عليهم ، وقد جاء في القرآن على أقوى ما يكون من عمق
وسعة وشمول ونفوذ ، لأن الله قد رشحه ورشح ما فيه من شرائع وحكمة
وتبيان ليكون كتاب البشر جميعهم وشرائعهم والحكمة التي يبتدون بها
والتبيان الذي يستبينون به الحق من الباطل والهدى من الضلال أبد الدهر .
ومن عجب هذيان الحوري أن يقول : إن الدعوة الإسلامية في مكة
لا عقائدية ولا لاهوتية وهو يقرأ في القرآن تقرير عقيدة الله ووحدانيته
وربوبيته بدون ما شائبة ومشاهد عظمت وأبديته وصرمديته التي يتمثل فيها
وجوب وجوده بالأسلوب النافذ القوي الذي من شأنه أن يستحوذ على
القلوب والعقول والضمائر .

- ٨ -

والحوري يصف الدعوة القرآنية في مكة بأنها إصلاحية محلية لا إنشائية ،
ولأنها لم تكن لتجاوز أكثر من شعائر عملية زهدية في شكل صلوات
وامتناع اختياري عن الطعام والشراب وأعمال خيرية لم تحدد كيفياتها .
أما أن الدعوة في مكة كانت إصلاحية فهذا حق ، وهو هدف رسالات
الرسل ، وقد كان ذلك صفتها المستمرة في العهد المدني أيضاً ، وأما أنها

(١) لهذه الآيات أمثال كثيرة في القرآن المكّي فاكثفينا بما أوردناه .

كانت محلية وليست إنشائية ، فهذا ما تكذبه نصوص القرآن المبني الذي هو في متناول جميع الناس .

فليس من منصف عاقل مهما كانت فحلته يستطيع أن يكابر إذا ما تمعن في هذا القرآن أنه قد احتوى على تعاليم ووصايا وخطوط ومبادئ وقواعد وتلقينات فيها أقوى معاني الانتشائية والشمول والعموم والامتداد والاستمرار والإلتزام على كل ظرف ومكان أبد الدهر ، مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعدل والإحسان ، والوفاء بالوعود والعهود ، وإحلال الطيبات ، وتحريم الحباث ، ورفع الإصر والأغلال والتكاليف الشاقة التي كان ينوء بها أهل الملل الكتابية السابقة بخاصة ، والتكافل والتضامن والتعاون الاجتماعي المتمثل بالتواصي بالحق والصبر والمروحة ، والتعاون على البر والتقوى ، وحماية اليتيم ، والبر بالفقراء والمساكين ، وتعيين قدر معين في أموال الأغنياء للمحتاجين ، وجعل المرأة على قدم المساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات الدينية والمدنية والمجتمع ، ونوطيد الحياة الزوجية على أساس المودة والرحمة ، والحث على العمل والضرب في مناكب الأرض ، وابتغاء الرزق ، والكسب الحلال ، وتقدير مسؤولية المرأة عن عملها في الدنيا والآخرة ، وعدم أخذ أحد بحريرة أحد ، وعدم تكليف الناس إلا وسعهم وما هو في طاقتهم ، وإباحة الاستمتاع بطيبات الدنيا وزينتها مع القصد والاعتدال ، وإباحة مقابلة العدوان بمثله ، والانتصار من البغي والظلم ، وجعل الأمور شورى ، والحض على عتق الرقاب ، والوفاء بالكيل والميزان ، وعدم الغش فيها ، والصدق في القول والعمل ، والصبر على الشدائد ، وأخذ الأمور بالرفق ، والتواضع ، وعدم التدخل بشؤون الغير والتجسس عليهم ، وإكرام الآباء ، والبر بالأقارب ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، والتنديد بالطغيان والفسق

والبخل والحيلة والتكبر والتجبر والنفاق والرياء والكذب والفساد والإمراف ، ومنع الخير ، والزنا ، وأكل مال اليتيم ، وشهادة الزور ، والتبذير ، وقتل النفس بغير حق ، والحسد ، والشره إلى ما في أيدي الغير ، وحظر كل ذلك ، وإنذار مقترفيه مع الوعد المتكرر بنصر الله لرسله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة .

وكل هذا مبثوث في السور المكية التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل بكثرة تقني عن التمثيل ، ويقع عليه متصفح المصحف بيسر وسهولة ، والتعامي عنه ووصف الدعوة الإسلامية بالهلبية وعدم الإنشائية مكبرة حارخة لا تكون إلا من الحوري وأمثاله ، لأنه أذكى من أن يفوته ذلك ولكنه اتخذ هواه إلهاً له عن علم وبينه فضلٌ ضللاً بعيداً .

- ٩ -

ويقول الحوري إن الدعوة الإسلامية في مكة كانت أخلاقية لا تشريعية .

والحق في هذا الأمر هو أن الأسلوب التشريعي في القرآن كان من خصائص العهد المدني ، وبالتالي من خصائص القرآن المدني ، لأن السلطان مناط التشريع ، ولم يكن النبي ﷺ ذا سلطان في مكة ، وبناء على ذلك كان الأسلوب القرآني المكي في صدد مبادئ الدعوة وأهدافها وأخلاقياتها وواجباتها وأوامرها ونواهيها أسلوب حض وتثويه وترغيب وتحذير ونهي وإنذار أكثر منه أسلوب تشريع وتقعيد وتقنين .

على أن هناك ما يحسن التنبيه عليه في صدد محتوى وأسلوب القرآن المكي ومقارنته بمحتوى القرآن المدني :

فأولاً ان الصلاة والزكاة مُورِسَتَا في مكة كفرضين تشريعيين بإلهام رباني وأمر نبوي ، وقد احتوى القرآن المكي منذ بدء التنزيل تنوعاً بممارسة

المسلمين لها ، واستمر ذلك في مختلف أدوار التنزيل في مكة ، ولقد كان تسريعها سائغاً ، لأنه كان ممكن التنفيذ والالتزام من قبل المسلمين ، ولا يحتاج إلى سلطان ، ويكفي فيه الإيمان بالله ورسوله . ويلحظ فقط شيء من الفرق في الأسلوب ، ففي القرآن المكي تنويه وحث كالذي جاء مثلاً في آيات سورة الأعلى هذه والسورة من أبكر ما نزل من القرآن (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى .. ١٤ و ١٥) وفي آيات سورة النمل هذه (طسَ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ . هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .. ١-٢) وهناك آيات كثيرة من هذا الباب ، وفي سور المعارج والذاريات والأنعام آيات تلهم بقوة أن النبي ﷺ يُلهم من الله قد فرض مقادير معينة على أموال المسلمين كزكاة . وهي هذه :

١ - وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرَهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .. [الأنعام : ١٤١] .

٢ - كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .. [الذاريات : ١٧-١٩]

٣ - إِلَّا الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .. [المعارج : ٢٢-٢٤] .

ومن المحتمل أن النبي هو الذي كان يأخذ من أصحابه زكاة أموالهم وزروعهم ، ويصرفها على فقراء المسلمين ومصلحة الدعوة ، ومن المحتمل أنه

كان يأمرهم بصرفها أيضاً ، وعلى كل حال فالصلاة والزكاة كانتا مشرعتين في العهد المكي .

والوضوء والاعتسال من الجنابة من أركان الصلاة . وتشريعها في السور المدنية ، من ذلك آية سورة المائدة هذه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطْبُؤْا وَلَئِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٦٠) . وفي سورة النساء المدنية هذه الآية أيضاً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣) .

غير أن هناك آثاراً متواترة تفيد أن الوضوء للصلاة والاعتسال من الجنابة كانا ممارسين في مكة بإلهام الله وتشريع النبي ﷺ .

وطهارة الثياب أيضاً من أركان الصلاة ، وفي سورة المدثر المكية التي هي من أبكر السور نزولاً آية تأمر النبي بتطهير ثيابه (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) فيكون هذا تشريعاً له والمسلمين بذلك .

وستر العورة من أركان الصلاة أيضاً ، وفي سورة الأعراف المكية آية أجمع المفسرون على أنها بصدد إيجاب ستر العورة وعدم أداء الصلاة

وطقوس الحج في حالة العري وهي (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .. ٣٣) فيكون هذا تشريعاً .

ثانياً إن صيام رمضان هو تشريع مادي حقاً ، غير أن هناك آثاراً تقيد أن أهل مكة كانوا يصومون يوم تجديد ستار الكعبة الذي كان يصادف العاشر من المحرم ، وأن النبي كان يصومه ، وأن هناك آثاراً تقيد أن النبي كان يعتكف في غار حراء في رمضان قبل بعثته ، وأن بعض الورعين من أهل مكة كانوا يفعلون ذلك حيث يبدو أنه كان لرمضان منزلة دينية ما وإن لم يكن معرفة مداها ، فأيد الله ذلك بتشريع صيام رمضان ، وإزالة القرآن فيه : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .. البقرة : ١٨٥) .

وثالثاً نعتقد أن المسلمين كانوا يمارسون طقوس الحج لله مبرأة من شوائب الشرك وهم في مكة يأذن من النبي وتشريعهم ، وأنه هو نفسه كان يمارسه بإلهام من الله ، وقد كان الحج طقساً موسمياً مهماً وعميقاً الجذور ، ومنسوب في أصله إلى إبراهيم وملته الخنيفية ، وفي القرآن تأكيد ذلك جاء في سورة الحج التي يمكن أن يكون بعضها مديناً وبعضها مكياً (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ .

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ . ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ مُحْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ .. ٢٦ - ٣١) وإذا كانت هذه الآيات مكية وهو محتمل ، فيكون فيها دليل من القرآن على ما قلناه من ممارسة النبي وأصحابه طقوس الحج مبرأة من الشرك في مكة ، وإذا لم تكن مكية ، فلا يمنع ذلك من احتمال ممارسة النبي وأصحابه هذه الطقوس بإلهام رباني وهم يعرفون بالتداول أنها منسوبة إلى إبراهيم عليه السلام الذين هم على ملته الحنيفة .

ولقد كان من عمق جذور الحج ورسوخه عند العرب وحرصهم عليه أن خوفهم من إلغاء النبي له كان من أسباب انقباض بعضهم عن الإسلام رغم أنهم كانوا متيقنين من أن النبي ﷺ قد جاء بالهدى لأنهم كانوا يخافون من إلغائه أن يتعرضوا للأخطار وضيق الرزق ، ويستفاد هذا من آية في سورة القصص هذه التي فيها تطمين ببقاء الحج ومنافعه (وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَى مَعَكَ نَتَّخِطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبِى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .. ٥٧) .

رابعاً إن كثيراً مما ورد فيه تشريع في القرآن المدني قد ورد نواة له في القرآن المكي بأسلوب الحض والتنويه والنهي والتحذير والتبشير والترهيب . وهذه أمثلة على ذلك .

١ - إن القرآن المدني أمر النبي ﷺ بمشاورة أصحابه ، فصارت مشاورة رئيس الدولة المسلمين تشريعاً ، غير أن القرآن المكي احتوى تنويهاً أو وصفاً للمسلمين بأنهم أمرهم شورى بينهم ، والقطعة الأولى جاءت في آية سورة آل عمران هذه (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ أَنْتُمْ هُنَا لَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقُلُوبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَتَاوَزْهُمْ فِي الْأَمْرِ .. ١٥٩) والنقطة الثانية جاءت في آية سورة الشورى المكية هذه (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .. ٣٨) .

٢ - إن القرآن المدني كتب على المسلمين القتال ضد الذين يقاتلونهم ، ومقابلة العدوان بمثله في هذه الآيات (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .. البقرة : ١٩٠) و (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .. البقرة : ١٩٤) و (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .. البقرة : ٢١٦) و (أُوذِيَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ تَصَرُّفِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُشِدَتْ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتُ الْمَسَاجِدِ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .. الحج : ٣٩ - ٤١) وكل هذا تشريع مدني ، وفيه من الروعة ،

وبعد المدى ، والحكمة السامية ، والحق والعدل والتحديد ما يجعله تشريعاً
إنسانياً خالداً ، وفي ذروة من سمو ليس بعدها شيء ، غير أن نواة ذلك
قد ورد في آيات سورة الشورى هذه (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ
يَنْتَصِرُونَ . وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ
عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ
قَالَ وَلَيْسَ مَا عَلَيْنَاهُمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ
النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ..
(٤٢ - ٣٩) وروعة الآيات وسموها وحكمة مداها ماثلة لما في الآيات المدنية .

٣ - والقرآن المدني احتوى تشريعاً بعقوبة الزنا بهذا النص (الزَّانِيَةُ
وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً .. سورة النور : ٢) .
وهناك أحاديث نبوية مدنية فيها فتات وتوضيحات لا يتسع المقام لها ،
غير أن القرآن المكي قد نهى عن الزنا ، ووصفه بالذنب العظيم ،
ونوه بالذين يحببونه ، وأنذر الذين يقتربونه إنذاراً رهيباً كما ترى في
الآيات التالية :

١ - وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ..
[الإسراء : ٣٢] .

٢ - وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ
تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا .. [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] .

٤ - والقرآن المدني شرع قصاص القتل في هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ .. ١٧٨) وهذه (وَلَكُمْ
فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .. ١٧٩) .

وهناك أحاديث فيها ثبوت وتوضيحات لا يتسع المقام لها . غير أن القرآن المكي قد نهى عن قتل النفس بغير حق وجعل لولي المقتول حقاً بالقصاص ، وفي آيات سورة الفرقان التي أوردناها آنفاً شاهد ، وفي آية سورة الإسراء هذه شاهد آخر (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا .. (٣٣) (١) .

٥ - والقرآن المدني شرع عقوبة زاجرة للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً في آية سورة المائدة هذه (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .. (٣٣) غير أن القرآن المكي نهى وحذر من الإفساد في الأرض ، ونذّر بفاعله في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ - وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. [الأعراف : ٥٦] .

٢ - وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ .. [الرعد : ٢٥] .

٣ - تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِدُونَ غُلُوقاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .. [القصص : ٨٣] :

٤ - أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي

(١) المفسرون يحملون جملة (فلا يسرف في القتل) على محلين كلاهما وورد ووجيهه : فالأول أنها خطاب للقاتل المفروض عليه أن يتجنب القتل فإنه مأخوذ به . والثاني أنها خطاب لولي القتل بأن لا يقتل أو يقتص من غير القاتل ، والثاني أقوى وروداً والله أعلم .

الأرض أم نجعل المتقين كالنجم .. [ص : ٢٨] (١).

٦ - والقرآن المدني أوجب على المسلمين أن يكون منهم جماعة يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويدعون إلى الخير ، كما جاء في آية آل عمران هذه (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. ١٠٤) غير أن نواة ذلك واردة في القرآن المكي ، ففي آية في سورة الأعراف جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهمة الرسالة الحميدة وهي (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ١٥٧) وفي نفس السورة آية فيها أمر للنبي بأن يأمر بالعرف (وهي مَحْذُوفٌ وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ١٩٩٠) .

٧ - والقرآن المدني احتوى تشريعاً لأمرى الحرب ، والرق كان على الأعم الأغلب من أمرى الحرب ، واحتوى تشريعات للكفارات من جملتها عتق الرقيق ، وفي تشريع مصارف الزكاة المدني نصيب خاص لعتق الرقيق كما ترى في الآيات التالية :

١ - وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ .. [النساء : ٩٢] .

٢ - لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغُورِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ هَلِيكُمُ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .. [المائدة : ٨٩] .

(١) هناك آيات كثيرة في السور المكية تندد بالمفسدين والفساد في سياق قصص الأنبياء السابقين وأممهم أيضاً .

٣ - فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا
أُنْخَسَتْ أَعْيُنُهُمْ فَخَدُّوا الْوَتَاكَ فَإِنَّمَا مِنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ
الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .. [محمد : ٤] ^(١)

٤ - وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّخِذُوا ذَلِكُمْ مُتَعَذِّلِينَ بِهِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَّخِذَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا
ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ .. [المجادلة : ٤] .

ولذلك كله نواة في القرآن المكي تتمثل في آيات سورة البلد هذه
(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ .
أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِينًا ذَا
مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ .
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَنِّ .. ١١ - ١٨) .

٨ - والقرآن المدني احتوى تشريعاً يجعل نصيب من إيرادات الدولة
من الزكاة والغنائم والفيء للمحتاجين كما ترى في الآيات التالية :

(١) في الآية بنطوي التشريع القرآني في حصد أسرى الحرب وهو المن وإطلاق
السراح بعد الحرب بدون فداء أو بفداء حسب ما يراه ولي أمر المسلمين موافقاً للمصلحة
الاسلامية . وهناك طريقتان آخران من السنة النبوية وهما القتل والاسترقاق إذا
ما كانت الظروف تقتضي ذلك ، وكان النبي يعتمد إليها في حالة الضرورة القصوى وأكثر
ما كان يطبقه الطريقتين الأوليين ، وفيها تمهيد وتوطيد لالغاء الرق الذي يفذه كما قلنا
أسرى الحرب .

- ١ - وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ^(١) وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. [الأنفال : ٤١] .
- ٢ - إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ
قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . [التوبة : ٦٠] .
- ٣ - مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَهُوَ لِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ
دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ .. [الحشر : ٧] ^(٢) .
- وفي القرآن المدني تشريع كفارات ياطعام المساكين أو كسوتهم كما
جاء في آية المائدة (٨٩) وآية المجادلة (٤) التي أوردناها آنفاً .
- وفي القرآن المكي أعير هذا الأمر عناية خاصة بأسلوب الحض
والتغيب الذي كان أسلوب العهد المكي ، وبكلمة ثانية له نواة وأساس في
هذا القرآن كما ترى في الأمثلة التالية :
- ١ - وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ
تَبْذِيرًا .. [الإسراء : ٢٦] .
- ٢ - فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. [الروم : ٣٨] .

(١) يختلف المؤلفون والرواة في تأويل الجملة وقد حصنا هذه المسألة في كتابنا
«الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة» فترجح لنا أنها للمحتاجين من ذوي
الخدمات النافعة للمسلمين والله أعلم .

(٢) الفرق بين الفيء والغنم أن بيت مال المسلمين له خمس الغنائم وهذا الخمس
هو الذي يوزع على ما جاء في آية الأنفال في حين أن جميع الفيء لبيت مال المسلمين ويوزع على ما جاء
في آية الحشر لأن الغنائم تكون باشتراك المسلمين في المعركة والفيء يكون بدون حرب .

٣- إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .
إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ .
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ..
[الذاريات : ١٥ - ١٩] .

٤- إنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ جَزُوعًا .
وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ..
[المعارج : ١٩ - ٢٥] .

٥- إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن مَّاءٍ كَأَنَّ كُنَّسَ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا .
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُورِثُونَ بِالنَّذْرِ
وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ
مِسْكِينَ وَبَنِينَ وَأَسِيرًا . إِنَّمَا تُطْعَمُهُمْ لِيُوَجِّهَ اللَّهُ لَوَاجِهٍ لَا تُبِيدُ مِنْكُمْ
جَزَاءً وَلَا تَكُونُوا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا .
فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَاهُمْ
بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا .. [الانسان : ٥ - ١٢] .

٦- إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ .
مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ
نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا تَخَوِّضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نَكْذِبُ
يَوْمَ الدِّينِ .. [المذثر : ٣٩ - ٤٦] .

٧- كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَهُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ
الْمِسْكِينَ .. [الفجر : ١٧ و ١٨] .

٨- آيَاتِ سُورَةِ الْبَلَدِ الَّتِي أوردناها قبل

٩- فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ..
[الضحى : ١٠ و ٩] .

١٠- أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ .
وَلَا يَحْضُرْ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ .. [الماعون : ١- ٣] .

٩- والقُرْآنُ المدني حرم الربا بأسلوب ترهيب تشريعي شديد كما
تروى في الآيات التالية :

١- الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَسْخَطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ
الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ
رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا
مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا
بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ
لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى
مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ..
[البقرة : ٢٧٥ - ٢٨٠] .

٢- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ

للكافرين .. [آل عمران : ١٣٠ و ١٣١] ^(١) .

وفي سورة الروم المكية هذه الآية (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّاً لِيُؤْتُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ..) حيث احتوت الآية تنبيهاً إلى كراهية الله تعالى للربا جرياً على الأسلوب المكي ، وبكلمة ثانية أساساً ونواة لتحريمه ، فلما صار للنبي والإسلام سلطان في العهد المدني حرم بذلك الأسلوب الزجري القوي .

١٠ - والقرآن المدني حرم الخمر في آيات عديدة بأسلوب تدريجي كما

ترى في الآيات التالية :

١ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا .. [البقرة : ٢١٩] .

٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. [النساء : ٤٣] .

٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَتَصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .. [المائدة : ٩٠ و ٩١] .

والقرآن المكي ليس فيه تحريم للخمر حقاً ، ولكنه نوه بميزة الخمر في الآخرة وهي عدم إيراثه الصداق والنزيف اللذين ينشآن من خمر الدنيا كما ترى في الآيات التالية :

(١) الرواة متفقون على أن هذه الآيات نزلت قبل آيات البقرة وبهذا يكون تحريم الربا تم تدريجياً ، حرم أكل الربا أضعافاً مضاعفة أولاً ، ثم حرم جلسه بالمرء كما هو شأن الخمر .

١ - إِنْ لَا عِبَادَ لِلَّهِ الْخَالِصِينَ . أَوْلَيْكَ لَمْ يَرْزُقْ مَعْلُومٌ .
فَوَاكِهُ وَمُمْ مُكْرَمُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى مُرَرٍ مُتَقَابِلِينَ .
يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . يَنْضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لَا فِيهَا
غَوْلٌ وَلَا مُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ .. [الصافات : ٤٠ - ٤٧] .

٢ - وَأَمْدَدْنَا مُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ يَمَّا يَشْتَهُونَ . يَتَنَازَعُونَ فِيهَا
كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ .. [الطور : ٢٣ و ٢٤] .

٣ - يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخْتَلِفُونَ يَكُوبُ وَأَبَارِيقُ وَكَأْسٍ
مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ .. [الواقعة : ١٨ و ١٩] .

حيث يتبادر أن القرآن المسيحي به إلى تلك المزية وضرورها في الدنيا ،
وخلو الحور الأخروي منها لتكون لذتها تامة ، وبالتالي به إلى كراهية
الحور في الدنيا .

وجل التشريعات المدنية التي ليس لها نواة في القرآن المسيحي هي في
صدد الأحوال المدنية من زواج وطلاق وعدة وتوزيع إرث وبيان محرمات
الأنكحة إلخ حيث اقتضى ذلك المجتمع الإسلامي الذي صار في نطاق الدولة
بما لم يكن في مكة ، غير أن هذا لا يسوغ القول إن القوان المسيحي
والقرآن المدني كانا منفصلين في صدد الدعوة الإسلامية ومبادئ وقواعدها
وتشريعاتها ، فالقرآن متكامل ، والمسيحي منه احتوى نواة جل مبادئ الدعوة
وأهدافها بل كلها ، والمدني منه احتوى التوضيح أو الإقرار أو الإتمام .

هذا ، وقبل أن ننتهي من هذا المبحث نرى أن ننبه على ما وقع
الحوري الحداد فيه من تناقض وتخبط ، فقد حاول بغباء وسخف وتهافت
وغشاة أن يضيق فطاق ومدى محتويات القرآن المسيحي ، ويهون من أمرها
ويجعلها من مقتضيات البيئة المكية البدائية وحصة لها في حين أنه قد
غالى غلواً فيه غباء وسخف وغشاة في إسباغ الصبغة الكتابية اليهودية

النصرانية التوراتية الإنجيلية على القرآن المكي ورسول الله ﷺ حتى لم يجعل أن يقسم العهد المكي إلى دورين دور كانت المسيحية والإنجيل فيه هما الغالبان ، ودور كانت اليهودية والأسفار فيه هما الغالبان على القرآن وعلى الرسول ، ثم في زعم كون القرآن المكي ليس إلا نسخة عربية من الكتب المنزلة السابقة ، وأنه عالة عليها في قصصه وجدله ومواضيعه وأساليبه على ما شرحناه في النبذة (أولاً) بما يؤدي لو صحت مزاعمه هذه إلى القول : إن كل ما قرره من صفات الدعوة القرآنية المكية هي صفات ما يسميه (الكتاب المقدس)

ومها يكن أمره ، فهو منسجم في موقفه على ما وقع فيها من تناقض وما اتصفا به من سفف وغثاثة مع الهدف الذي يستهدفه في كتبه ، والعنوان الذي وضعه لها (دروس قرآنية) وهو تفريغ القرآن الكريم من صفته الأصلية ككتاب موحى من الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ ، وكرسالة مستأنفة مستقلة فيها كل أسباب هداية البشر وسعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة ، وهو في ذلك أحق مفرور تلقاً عينه الخلقاني ، وتخرس شقشقة الحجب البالغة والنور السني . (يُريدون أن يُظهِرُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ أَنْ يُدْعَى نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

ساراً :

مزاعم الحوري المهاد في نظم القرآن

- ١ -

كتب الحوري فصلاً طويلاً في هذا الموضوع في الصفحات (٣١٧ - ٣٦٩) من كتابه الضخم رقم (٣) ثم رأى أن يكتب فيه كتاباً خاصاً فيه تفصيل أكثر فكتب كتابه رقم (٤) بعنوان (نظم القرآن والكتاب) وعلى الورقة الأولى من غلافه هذه العبارة أيضاً (الكتاب الأول إعجاز القرآن) وعلى الورقة الأخيرة من غلافه ما يفيد أن هناك كتاباً ثانياً تحت الطبع عنوانه (معجزة القرآن) حيث يبدو من ذلك شدة ما أعلوه الحوري لهذه الناحية من القرآن الكريم .

ولقد حشا الحوري على عادته فصله في الرقم (٣) وكتابته رقم (٤) بالتمحل والتفحص والتعصف والتنطع وسوء الأدب معاً ، وعرض ما شاء من جمل آيات دون باقيا ومن آيات دون سياقها ليساوق كلامه مع هواه ، وفعل هذا فيما نقله من كلام علماء المسلمين وكتبهم حيث أورد منه ما شاء ناقصاً ومبتوراً وأهل ما شاء لنفس القصد .

ولا نعرف هل صدر كتابه الثاني أم لا ، ولكننا نعتقد أنه لن يخرج في مداه وهدفه عن هذين الكتاتين ، فهو يكرر ويحتر ما يقول بأساليب متنوعة ، توهماً بأن ذلك من شأنه أن يؤثر في القاريه ويستهيبه .

وفيا يلي إيجاز لمزاعمه في مختلف مواضع النظم القرآني وتعليق عليها
بما فيه وضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .

- ٢ -

يقول الحوري في مطلع فصله في كتابه الضخم رقم (٣) : إن المسلمين
يلتمسون اليوم للقرآن الشمول من كل وجه ، ويجاولون أن يجدوا فيه
إعجازاً إلهياً في العقيدة ، وإعجازاً إلهياً في الشريعة ، وإعجازاً إلهياً في
الفلسفة ، وإعجازاً إلهياً في العلم الحديث ، وفاتهم جميعاً أن تاريخ الإسلام
يجهل مثل هذا التفكير ومثل هذه المحاولات ، وأن القدماء إنما أجمعوا
على أن إعجاز القرآن هو في نظمه .

وقد لخصنا حين قراءة فصوله ومباحثه التالية أنه قد اختط خطة خبيثة ،
ولكنها غبية ، فقد أراد أن يركز على أن المسلمين القدماء وهم أهل القرآن
ومتلقوه الأولون لم يروا الإعجاز إلا في نظمه ، فيكون في ما يقوله المحدثون
خلاف ذلك شذوذاً عن أمر أجمع عليه الأعرف والأعلم والأقدم من
المسلمين ، فلا يكون له اعتبار وأساس يصح الإركان إلهياً ، وللتعويل
عليها . ولقد ترسم في مباحثه التالية الطعن في نظم القرآن ونقض رأي
القدماء في إعجازه ، أو التشكيك فيه ، أو توهينه ظناً منه أنه يكون
بذلك قد نقض دعوى إعجاز النظم القرآني التي يدعيها القدماء بزعمه بعد
أن يكون قد نقض دعوى إعجازه من النواحي الشاملة الأخرى التي
يدعيها له المحدثون .

- ٣ -

والحوري كاذب من حيث الأصل في قوله : إن القدماء مجمعون على
أن إعجاز القرآن في نظمه وحسب ، فهناك آثار وأقوال قديمة كثيرة

ينطوي فيها تقرير ~~ح~~كون إعجاز القرآن هو في نظمته وفي محتواه على السواء .

وقبل أن نورد الدليل على ذلك يحسن أن ننبه على أمر جوهري في هذا الموضوع ، وهو أن القرآن نفسه حينما يقرر أنه هدى ورحمة وشفاء للناس وهداية للتي هي أقوم وتبياناً لكل شيء بما جاء في آيات عديدة منها الأمثلة التالية :

١- ألم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ..
[البقرة : ٢ و ١] .

٢- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ مَجْلَى السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [المائدة : ١٥ و ١٦] .

٣- كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .. [ابراهيم : ٢] .

٤- وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .. [النحل : ٦٤] .

٥- وَتَوَلَّوْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ .. [النحل : ٨٩] .

٦- إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .. [الإمراء : ٩] .

٧- وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..
[الإمراء : ٨٢] .

٨ - لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ
مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .. [فصلت : ٤٢] ^(١) .

إنما يقرر إعجاز القرآن في المحتوى في الدرجة الأولى الذي يمثل ما في القرآن المكي والمدني معاً من إعجاز إلهي في التشريع وإعجاز إلهي في العقيدة ، وإعجاز إلهي في الحكمة ، وإعجاز إلهي في الإرشاد إلى خير سبل السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة ، وإعجاز إلهي في التبشير والإنذار والترغيب والترهيب ، وإعجاز إلهي في عرض بدائع الكون ومشاهد عظمته وروعة نواحيه الماثلة في كل شيء ، والبرهنة بها على وجوب وجود الله وقدرته وإحاطته ، وإعجاز إلهي في ما احتواه من فصول الجدل والحجاج والإفحام والإلزام ، وإعجاز إلهي في ما احتواه قصصه من مواعظ وامثال وتذكير وحكم بالغة ، وإعجاز إلهي في ما احتواه من الغيبات السالفة والغيبات الآتية ، وإعجاز إلهي في صلاح ما أتى به من كل ذلك لكل زمان ومكان ، وجنس ولون، وعقل وثقافة .

وكل هذا بارز ملموح بكل قوة ، وبكل روعة ، وبكل نفوذ ، وبكل قطعية في مختلف سور القرآن المكية والمدنية ، ولا يمكن أن يكفر فيه ويتعامى عنه إلا أحمق غبي ، أو حقود مغرض ، والقولان في متناول جميع الناس في كل مكان وزمان . ومن هذا المنطلق قرر القرآن أنه المعجزة الكافية لصدق رسالة النبي ﷺ على ما تضمنته آيات سورة العنكبوت هذه (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .. ٥٠ و ٥١) .

(١) هناك آيات عديدة أخرى من هذا الباب أيضاً وقد اكتفيت بالأمثلة التي أوردتها .

ونقطة أخرى أيضاً يحسن أن ننبه إليها قبل إيراد نصوص القدماء ، وهي أن كون إعجاز القرآن هو في محتواه بالدجة الأولى لم يفت نباه قريش الذين فاؤوا النبي ﷺ في العهد المسي على ما تدل عليه محاولتهم تخفيف مدى هذا المحتوى التي تستفاد مما حكاه القول عنهم في قولهم (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) إن هذا إلا أساطير الأولين .. (سورة الأنفال) حينما كانت تتلى عليهم آيات الله البينات فيه كما جاء في نفس الآية ، وقد حكى آية سورة الفرقان هذه (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيل) ذلك القول مرة أخرى عنهم ، وهذا القول لا يفيد أنهم كانوا يعنون نظم القرآن ، وإنما يفيد أنهم كانوا يعنون محتواه ، ويعنون أنه مقتبس من كتب الأولين وقصصهم ، ولم يكن تحدي القرآن لهم حين تحداهم بالإتيان بمثله أو بعشر سور أو بسورة أو بحديث كما جاء في هذه الآيات :

١ - وَلَئِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مُشَدِّدَ كُفْرِكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [البقرة : ٢٣] .

٢ - أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [يونس : ٣٨] .

٣ - أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [هود : ١٣] .

٤ - قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهَا آتِيْعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. [القصص : ٤٩] .

هـ - أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَاثُوا بِحَدِيثِ
مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ .. [الطور : ٣٣ - ٣٤] .

نحدياً لهم بنظم القرآن ، وإنما بمحتواه حتماً ، لأن نظمه مشابه لنظمهم ،
وكلماته وقواعده هي كلماتهم وقواعدهم ، وفي جملة (أساطير الأولين) التي
حكمت عنهم الدليل الحامض على ذلك .

- ٥ -

وهناك حديث نبوي ذو مغزى عظيم في هذا الباب رواه الترمذي عن
الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب قال : سمعت رسول الله يقول :
« ألا إنها ستكون فتنة ، فقلت : ما الخروج منها يا رسول الله ؟ قال :
كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو
الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في
غيره أضله الله ، وهو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط
المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع
منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم
تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الرشد ، من
قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه
هدي إلى صراط مستقيم »

وهذا الوصف الشائق الشامل للقرآن المروي عن أنزل عليه القرآن
والذي هو أدرى الناس بمدى إعجازه ليس - كما هو واضح بقوة - وصفاً
لإعجاز نظمه ، وإنما هو وصف لإعجاز محتواه في الدرجة الأولى .

ولقد توقف بعضهم في الحديث كحديث مروي عن النبي وقالوا : إنه
من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولو صح هذا القول ، فعنناه
أن هذا المفهوم لمدى إعجاز القرآن صادر عن أناس من الرعي الأول ،
ومن الذين كانوا أقرب الناس للنبي ﷺ ، وأفهمهم لمدى القرآن .

ولقد كان معظم أهل الكتاب الذين بسمهم القرآن أحياناً باسم أهل العلم أيضاً ، والذين سجل القرآن خشوعهم وسجودهم وبكاهم وفرحهم وإيمانهم حينما سمعوا القرآن كما جاء في هذه الآيات :

- ١ - وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا كُنَّا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَتَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ .. [المائدة : ٨٣ و ٨٤] .
- ٢ - وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ [الرعد : ٣٦] .

٣ - قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا .. [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩] .

من الجاليات الأجنبية ، وبعضهم كان وفداً من الخارج من الحبشة أو الشام ، وبعضهم لم يكن يجيد العربية ، بل كان أعجمي اللسان على ما تلمحه آية سورة النحل هذه (وَلَقَدْ تَعَلَّمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .. ١٠٣) حيث يعني هذا بصورة حاسمة أن تأثرهم بالقرآن وفرحهم به وخشوعهم وسجودهم وبكاهم وإيمانهم حينما كان يتلى عليهم أو يترجم لهم إنما كان من تأثير ما احتواه من صدق وحق وروحانية نافذة وليس من تأثير إعجاز نظمه .

والآن نورد الدليل على كذب الحوري ، فالحوري يجعل كتاب « الاتقان في علوم القرآن » للسيوطي مصدراً رئيسياً من مصادره ، وينقل عنه كثيراً ، ومع أن السيوطي أورد حقاً أقوالاً لبعض العلماء بأن إعجاز القرآن هو في نظمه وبلاغته ، فإنه قال : (إن جمهور العلماء يقررون أن إعجازه هو في نظمه ومعانيه على اختلاف نواحيها) وقد تعامى الحوري عن هذا القول الذي فيه تكذيب صريح له . ولقد أورد السيوطي مقتطفات عديدة من أقوال عدد منهم ، ومن جملة ذلك فصل للخطابي أحد علماء القرآن في القرن الرابع الهجري نورده كمثال على أقوال العلماء القدماء (وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر . منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني . ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه المنظوم التي بها يكون اثنتان وارتيباط بعضها ببعض ، فتواصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوها إلى أن باتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حاصل ، ومعنى به قائم ، ورباط لها ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا نرى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا نرى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاوة وتشاكلاً من نظمه ، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه والتروقي إلى أعلى درجاته ، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفريق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه ، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير . فخرج من هذا أن القرآن صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف متضمناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى ، وتنزيهه في صفاته ، ودعائه إلى

طاعته ، وبيان طريق عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن مضى وعائده منهم ، منبهاً عن الكوائف المستقبلية في الأعصار الآتية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وأنبا عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين اشتائها حتى تنتظم وتقتضى أمر يعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرتهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ومناقضته في شكله ، ثم صار المعاندون له يقولون مرة : إنه شعر لما رأوه منظوماً ، ومرة : إنه شعر لما رأوه معجزاً عنه غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب ، وقرعاً في النفوس ، يرههم ويحيرهم فلم يتالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف ، ولذلك قالوا : إن له خلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وكانوا مرة يقولون بجهلهم : إنه أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، مع علمهم أن صاحبهم أمي وليس بحضرة من يملئ أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز ، وإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص منه إلى القلب من اللذة والخلوة . قال تعالى (لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ..) وقال تعالى (اللَّهُ تَوَلَّى أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَتَابِئِ تَقْشِيرُهُ مِنْهُ يُجْلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ..) .

وقد رأينا أن نورد مثلاً آخر على ذلك من بابه للمفسر المشهور

الإمام ابن كثير من رجال القرن الثامن الهجري قال (ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ، من حيث اللفظ ومن جهة المعنى ، قال الله تعالى (اَلرَّكِيبُ كِتَابٌ مُّحْكِمَتٌ آيَاتُهُ مُتَمِّمَةٌ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ..) فأحكمت ألفاظه ، وفصلت معانيه ، وكل من لفظه ومعانيه لا يجارى ولا يدانى ، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ، ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ، ونهى عن كل شر ، كما قال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ..) أي صدقاً في الاخبار ، وعدلاً في الأحكام ، فكله حق وصدق ، وعدل وهدى ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء ، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعورهم إلا بها ، كما قيل في الشعر : (إن أعذبه أكذبه) وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء ، أو الحيل ، أو الحر ، أو في مدح شخص معين ، أو فارس ، أو ناقه ، أو حرب ، أو كائنة ، أو مخافة ، أو سبع ، أو شيء من المشاهد المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المتعين على الشيء الخفي أو الدقيق ، أو إبرازه إلى الشيء الواضح ، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيدة ، وسائرهما هذر لا طائل تحته .

وأما القرآن ، فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً بمن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير وإن تأملت أخباره وجدتها في غاية الخلاوة ، سواء كانت مبسطة أو وجيزة ، وسواء تكررت أم لا ، وكلها تكرر حلا وعلا ، لا يخلق على كثرة الرد ، ولا يل منه العلماء ، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات ، فما ظنك بالقلوب الفاهات ، وإن

وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق إلى دار السلام وجاورة عرش الرحمن . كما قال في التريغيب (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ..) وقال (فِيهَا مَا تَشْتَهُهُ النَّفْسُ وَقِلَّةُ الْأَعْيُنِ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ..) وقال في الترهيب (أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ..) وقال في الزجر (فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ..) وقال في الوعظ (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ..) إلى آخر ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة . وإذ جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي ، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن فافع ، طيب محبوب ، والنهي عن كل قبيح وذليل دنيء . وإذ جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأحوال وفي وصف الجنة والنار ، وما وعد الله فيها لأولياته وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الألم بشرت به ، وحذرت وأنذرت ، ودعت إلى فعل الخير ، واجتناب المنكرات ، وزهدت في الدنيا ، ورغبت في الآخرة ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم .

ولو كان الحوري يخضع للحق والحقيقة أو يتعراها لكان داعي ماقاله جمهور العلماء القدماء ، ولما قال ماقاله عنهم من الموقف السلي بأسلوب حاسم ، ومن غبائه أنه لا يخاطر لباله أن كتب القدماء والكتب التي ينقل عنها ليست عنده وحده .

ونحن إذ نركز الكلام في هذا المبحث على الإعجاز الإلهي في المحتوى

القرآني ، فليس ذلك منا إغفالاً الإعجاز الإلهي في النظم القرآني ، فهذا من المسلمات التي لا تتحمل إطناباً جديداً ، وقد وفاها العلماء قديماً وحديثاً حقها بما لا محل للزيد عليه ، وإنما كان ذلك منا ، لأنه مقتضى الكلام ، والحافز عليه من جهة ، ولأننا نعتقد أن الإعجاز القرآني هو في المحتوى في الدرجة الأولى وهو ما اهتم القرآن للتنويه به أكثر . والله أعلم .

- ٨ -

ومع ذلك وبعد كل ذلك فليس مستكراً كما يريد الحوري أن يرميه أن يتصدى المسلمون المعاصرون لهذه المشكلة ويلتمسون الشمول في إعجاز القرآن ، فالقرآن لكل جيل وقيل ، وفي أيدي كل جيل وقيل ، وقد وصل إلى الناس كما بلغه رسول الله عن وحي الله وكما هوّن حين بلغه ، فصار بذلك الكتاب الإلهي القريب في هذا الباب ، وكل مسلم ، بل كل إنسان مدعو إلى تدبر آياته ، وكل ذي لب مدعو إلى التأثر بذكره ، كما جاء في آيات عديدة كما ترى في الأمثلة التالية .

١ - وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .. [النحل : ٤٤] .

٢ - كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .. [ص : ٢٩] .

٣ - كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .. [فصلت : ٣] .

وقرر أنه هدى ورحمة ، وذكرى وشفاء لكل مؤمن ولمن حسنت نيته ورغب في الحق والحقيقة كما جاء في آيات عديدة أوردناها قبل . فليس ما يمنع أي مسلم في أي ظرف أن يلتمس في القرآن إعجازاً إلهياً في العقيدة ، وإعجازاً إلهياً في التشريع ، وإعجازاً إلهياً في الحكمة .

وإعجازاً إلهياً في التلقين السامي والاجتماعي والأخلاقي والشخصي والإنساني العام ، وإعجازاً إلهياً في العلم الحديث ، بالإضافة إلى الإعجاز الإلهي في الأسلوب والبيان ونفوذ الخطاب إلى أعماق النفوس والقلوب والضمائر ، بل إن التماس ذلك واجب على كل مسلم وعلى كل إنسان في كل وقت وعلى المعاصرين أن يفعلوا ذلك كما فعل القدماء ، وتقدم العلوم والفنون والحضارة يجعل هذا الواجب أشد بالنسبة للمعاصرين حتى يشبثوا لأبناء أجيالهم الذين اشتد انحرافهم عن الأديان مصداق قول الله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ..) ويشبثوا كون القرآن الذي يمثل هذا الدين الذي رشحه الله ليكون دين الإنسانية عامة ، وليظهره على الدين كله قد احتوى كل مظاهر الإعجاز الإلهي ، وكل ما يحتاج إليه البشر لسعادتهم ونجاتهم وكرامتهم وطمانينتهم وسلامتهم ، واحتوى حلاً لكل مطلب ومشكلة في كل ظرف وزمان وبيئة ، وإنهم لو اجدون فيه لكل ذلك من الأدلة القطعية والبراهين الحاسمة والشواهد الناصعة ، والحجة البالغة ما يثبت أن القرآن فريد في كل ذلك ، وأنه وحى الله حقاً وصدقاً لا يأتيه الباطل من يده ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولقد كتب كثير من علماء المسلمين المعاصرين وكتابهم خلال الحقبة الممتدة من مطلع هذا القرن ، وما يزالون يكتبون كتباً كثيرة في إثبات الإعجاز الإلهي في القرآن من كل ناحية فيما المقنع لمن أراد الحق والحقيقة وتغلب على الحقد والفرس والهوى ، وسأعينا نحن بتوفيق الله والحمد لله في ذلك في كتبنا « الدستور القرآني في شؤون الحياة » وفي الطبعة الجديدة لهذا الكتاب المعنونة بعنوان « الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة » وفي « التفسير الحديث » ، و « سيرة الرسول ﷺ » وعصر النبي ﷺ

ويشته قبل البعثة ، ودالمواة فى القرآن والسنة ، ودالاسلام والاشتراكية .

- ٦ -

ولقد تناول الحورى فى بحث ثان مسألة (نزول القرآن باللفظ أو المعنى ، وأورد أقوالاً منقولة من كتاب الإتقان لبعض علماء المسلمين فى ذلك ، ومع أن مؤلف هذا الكتاب ذكر أن جمهور علماء المسلمين متفقون على القول بنزول القرآن باللفظ ، فإن الحورى رجح بدون إبداء سبب للترجيح القول الثانى ، وقال بناء على ذلك : إن إعجاز القرآن اللفظى ليس منزلاً ، وإن لفظه هو لفظ محمد ونظمه ، وليس لفظه الوحي الذى نزل به ، وبالتالى فإن إعجاز نظمه قائم على النبى لأعلى الوحي .

وقصد التمثل والمحاكاة بارز فى أقوال الحورى ، ولو كان يعتقد بأن القرآن وحي من الله على كل حال بلفظه أو بمعناه منزل على نبى الله كما يعتقد الذين يقولون بأحد القولين من علماء المسلمين لكان الأمر جدلياً اجتهادياً ثانوياً ، ولكان على الحورى أن يؤمن بما فى القرآن المنزل بواسطة وحي الله على نبى الله ، ولكنه لا يعتقد ، وإنما يتوسم من زعمه إنكار كون القرآن من وحي الله تعالى وتثبيت كونه من نظم النبى وحسب .

ومها يكن من امر ، فالنصوص القرآنية فى جانب تأييد كون القرآن نزل على النبى ﷺ بلفظه لا بمعناه ، وكون ماقاله بعض علماء المسلمين ورجحه الحورى مستهدفاً بذلك هدفه الخبيث ليس فى محله .

فهذه الآيات :

١ - إنا أنزلناه قوآنا عوياً لعلمكم تعقلون . [يوسف : ٢] .

٢ - ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان

الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيَّةٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ..
[النحل : ١٠٣] .

٣ - وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا .. [طه : ١١٢] .

٤ - وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ .
عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ..
[الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥] .

٥ - وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ..
[الزمر : ٢٧ و ٢٨] .

٦ - تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .. [فصلت : ٢ و ٣] .

٧ - وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيَّةٌ وَعَرَبِيَّةٌ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُمْ عَلَىٰ سَعْيٍ .. [فصلت : ٤٤] .
٨ - وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. [الشورى : ٧] .

٩ - إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ..
[الزخرف : ٣] .

تتضمن تقريراً لا يمكن أن يماري فيه عاقل منصف بأن الله تعالى أنزل القرآن على رسوله بألفاظه العربية وليس بالمعنى .

وفي سورة القيامة آيات ذات دلالة هامة في هذا الباب وهي (لا تحورك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا

قُرْآنَهُ فَنَاتَّبِعُ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ .. ١٦ - ١٩)
فهذه الآيات جاءت معترضة بين آيات متصل قبلها بما بعدها اتصال موضوع
وخطاب ونظم . في حين أنها غير متصلة بهذه الآيات موضوعاً ولا خطاباً
ولا نظماً كما يبدو من تلاوة الآيات التي قبلها والتي بعدها (١) . ولقد روى
بمناسبتها أنها نزلت على النبي ، لأنه كان حينما يتلقى الوحي القرآني بحرك
شفته بما ينزل عليه خشية نسيانه ، ووجود هذه الآيات في موضعها يلهم
بقوة أنها أوحيت في أثناء نزول الآيات التي قبلها وبعدها لتنبيه النبي إلى
وجوب استماع ما يلقي عليه واتباعه ، ولا يصح فرض غير هذا لفهم
حكمة وجودها في السياق ، ولا مناص من فرض ثان مع هذا الفرض
وهو أن النبي أمر بتدوين آيات السورة فور وحياها ، وأملى على الكاتب
هذه الآيات في سياق آيات السورة ، لأنها أوحيت إليه مع آيات السورة ،
ولو أنها خطاب خاص له وبقصد تنبيهه وتعليمه كيفية تلقي الوحي ،
فدونت كما جاءت ، وللآيات ملهات أخرى عظيمة الخطورة في صدد
القرآن ، فهي تقف أمام أي شك حتى من أشد الناس تشككاً بأن
ما كان يبلغه النبي من آيات القرآن إنما كان وحياً يشعر به في أعماق
نفسه ، ويدركه ، ويستمتع إليه باذن بصيرته ، ويعيه بقلبه ، وأنه كان
شديد الحرص على أن لا يفلت منه أي كلمة أو حرف مما كان يوحى
إليه قرآنًا ، فكان يسارع إلى ترديده وإملائه حتى يبلغه تماماً كاملاً ،
لا تبدل فيه ولا زيادة ، ولا نقص ولا تقديم ولا تأخير ، وفيها في نفس

(١) هذه هي الآيات التي قبلها مباشرة (كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر .
يبدؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره)
وهذه هي الآيات التي جاءت بعدها مباشرة (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة .
وجوه يومئذ فاضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ مبررة تظن أن يفعل بها فاقرة) ..

الوقت دليل قوي على أن القرآن إنما كان ينزل باللفظ لا بالمعنى .

- ٧ -

وتناول الحوري الحداد في بحث ثالث (لغة القرآن) وتساءل بدءه بدءاً عما إذا كانت لغة القرآن هي لغة قريش أم لغة الشعر الجاهلي ، وأورد بعض أقوال وردت في كتاب « الالتقان » ، مفادها أن في القرآن كثيراً من الإمامة وهي النطق بالفتوح نطقاً يقرب من الكسر ، والنطق بالألف المقصورة نطقاً يقرب من الياء ، وأن الإمامة هي من لغة نجد وليست من لغة قريش ، وإن الحمز في لغة نجد أكثر منه في لغة قريش ، والهمز كثير في القرآن ، وقفز الشاطر من هذا إلى القول إن ذلك قد حمل بعض المستشرقين على القول بتعريف لغة القرآن القرشية ، وجعلها بلغة الشعر الجاهلي التي كانت لغة العرب الأدبية ، وكانت هي لغة نجد بدليل أن أشهر شعراء الجاهلية هم نجديون . وأخذ هذا يجد وتساءل عما إذا كانت القرآن نزل بلغة نجد ، أم جمع بلغة نجد ، أم قرىء بلغة نجد في حين كان محمد قرشياً ولغته قرشية ، ولا بد من أن يكون القرآن في الأصل قد نزل بلغته هذه ، فيكون القرآن المقروء في المصاحف قد حرف من لغة قريش التي نزل بها إلى لغة الشعر الجاهلي التي هي لغة نجد . ثم تساءل عما إذا كان من الأمانة أن يكتب القرآن بغير اللغة التي نزل بها ، وما إذا كان هذا من صنع النبي أم من صنع أصحابه ، أم من صنع قراء الكوفة الذين كانوا ينتسبون إلى نجد ، والذين يكونون بذلك قد تغلبوا على قراء البصرة الذين كانوا ينتسبون إلى الحجاز . وقال : إن هذا ما يجير المؤرخ الأديب ، وقد جعل بعضهم يشبه في صحة لغة القرآن وصحة إعجازها ، لأن أصل اللغة التي نزل بها لم يعد واضحاً .

وكلام الحوري هذيان وسوء أدب ووقاحة أكثر منه أي شيء آخر .

فالقول إن الإمالة والهمز من مميزات لهجة نجد قبل البعثة ، وإن اللغة القرشية كانت تخلو منها هو جزاف متأخر ليس له سند من نص أو رواية وثيقة متصلة بما قبل البعثة ، وحتى لو صح كونها من مميزات لهجة نجد القديمة ، فلا يمكن أن يعني هذا أن اللغة القرآنية قد أخذتها عنها ، وليس ما يمنع أن تكونا قد تسربتا إلى لغة قريش قبل البعثة في جملة ما تسرب إليها من لهجات ومفردات القبائل في ظرف تصفية اللغة فخرجتا من كونها من مميزات لهجة نجد ، لأن قريشا تكون قد شاركتها فيها ، وكون الإمالة والهمز من مميزات لهجة نجد في حد ذاته لا يمكن أن يكون سنداً على كل حال للدعوى الرقعة المخرعة الملفقة التي يسوقها الحوري ، سواء أكان مخترعها وملفقها المستشرقون أم الحوري نفسه ، وتساؤل الحوري عن الأمانة يبلغ الذروة في سوء الأدب والوقاحة والهذيان ، سواء أكان عن النبي ﷺ أم عن أصحابه أم عن القراء .

ولقد شرحنا في مناسبة سابقة^(١) ماهية القرآن ومداه في يقين النبي وأصحابه وسائر المسلمين بحيث لا يمكن لعاقل صادق ذي ضمير ودين وحياء أن يصل به الظن والتخوص إلى احتمال أي تبديل وتغيير في ألفاظ القرآن وكلماته وأسلوبه ، لا من قبل النبي ، ولا من قبل أصحابه ، ولا من قبل أي مسلم صادق إلا المارقين الذين لم يرو عنهم مع ذلك في صدد التبديل والتعوير إلا بقصد المعاني والقضايا المذهبية ، وليست ألفاظ القرآن وأسلوبه على كل حال .

ولقد أراد الحوري أن يظهر حسن نيته ، فقال : (وعلى كل حال فإن كل ذلك لا يؤثر في صحة القرآن الجوهرية) ولكن هذه الجملة تدعم ما

(١) انظر التبذ (٨) في الصفحات ١١٤ - ١١٨ .

لمح من سوء نيته وخبت طويته ، لأنه توهم أنه حقق هدفه الذي استهدفه
فيما قاله من هراء وهذيان .

ولم ينتبه الحوري إلى ما وقع فيه من تناقض ، فقد رجح بدون مرجح
أن القرآن نزل بالمعنى وأن لفظه هو لفظ محمد على ما سرحناه في البذة
السابقة ، وهنا قال : إنه نزل بلغة قريش ، ثم بدل إلى لغة نجد .

والقرآن نزل باللغة التي كان يستعملها النبي ويستعملها قومه الأدنون
وم قريش الذين خطبوا به لأول مرة ، وهذا مؤيد بالنص القرآني على
ما جاء في آية سورة إبراهيم هذه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ٤) وآية سورة مريم هذه (فَإِنَّمَا
يَسِّرُنَا بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا .. ٩٧)
وآية سورة الدخان هذه (فَإِنَّمَا يَسِّرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ..

٥٨) . وهناك حديث رواه البخاري عن أنس بن مالك في سياق خبر
كتابة المصحف في زمن عثمان ، فيه دلالة مهمة في هذا الباب وهذا نصه :
(روى أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان وكان يغازي
أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة
خلافهم في القراءة ، فقال لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل
أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة
أن أرسلي إلينا الصحف فننسخها ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة ،
فأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ،
وعبد الرحمن بن هشام ، فنسخوها في الصحف . وقال عثمان للرهط القرشيين
الثلاثة : إذا اختلفتم وزيد بن ثابت - وهذا مدني - في شيء من القرآن
فاكتبوه بلسان قريش ، فإنا أنزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف
في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف

بما نسفوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن
يحرق ، وصحف حفصة هي التي كتبت كمصحف إمام في خلافة أبي بكر
بما توفي عنه النبي ﷺ قرآنًا مدونًا محفوظًا في الصدور غير منسوخ ،
ولا مرفوع في حياته ، وقد انتقلت بعيد وفاة أبي بكر إلى عمر ثم
حفظت بعد استشهاد عمر عند ابنته وزوجة النبي ﷺ حفصة رضي الله
عنهم أجمعين .

وجملة (وإن اختلفتم أنتم وزيد في شيء فاكتبوه بلسان قريش)
إنما عنت رسم الكلمات وإملأها حيث كان بعض الجهات والناس يختلفون
في الرسم ، وهذا الاختلاف هو الذي أدى إلى اختلافهم في القراءة ،
وهو الاختلاف الذي أفرع حذيفة ، وليس اختلاف ألفاظ وكلمات وآيات .
ولقد مثل لذلك بكلمة التابوت ، فقد كان بعضهم يكتبها بالتاء المربوطة .
وقريش تكتبها بالتاء المفتوحة .

والدلالة في الحديث هي أن اللغة التي كتبت بها المصاحف هي لغة
قريش وأن القرآن إنما نزل بها ، ومصحف عثمان هو المصحف الذي نسخت
وما زالت تنسخ عنه المصاحف بدون تبديل ولا تحريف .

وبين أيدينا أحاديث نبوية كثيرة جداً رواها الرواة العدول بالفاظها
وسجلها أئمة الحديث في كتبهم ، وكثير منها موصوف بالصحيح والثابت
والمتواتر ، وليس بينها وبين مفردات اللغة القرآنية وتركيباتها وقواعدها
وأدائها أي خلاف وفروق ، وفي هذا دليل آخر على أن لغة النبي التخاطبية
المعتادة هي نفس لغة القرآن ، ولا يمكن أن تكون إلا لغة قريش
المعتادة بطبيعة الحال .

وفي القرآن المكى حكاية لأقوال كثيرة كانت تصدر من نبيه قريش
في معرض الجدل والحجاج مع النبي ﷺ ، وليس بينها وبين لغة القرآن

أي فرق وهي منسجمة فيها كل الانسجام ، وهي بطبيعة الحال لغة قريش المعتادة كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .. [الأنعام : ٣٧] .

٢ - وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنْكَارُ الْآيَاتِ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ .. [الأنعام : ١٠٩] .

٣ - وَإِذَا مَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِبَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. [الأنفال : ٣١ و ٣٢] ^(١) .

٤ - وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا أَحَرَمُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَبَلَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .. [النحل : ٣٥] .

٥ - بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ .. [الأنبياء : ٥] .

٦ - وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ تَنْذِيرًا أَوْ بَلْغَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ

(١) السورة وإن كانت مدنية فإن في الآيات حكاية لأقوال المشركين في مكة .

إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا . أَنْظُرْ كَيْفَ خَرَبُوا لَكَ
الْأُمَثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . [الفرقان : ٧ - ٩] .

٧ - وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعُهَا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ
يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ . وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا
إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا
إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ . [سبأ : ٤٣ و ٤٤] ^(١) .

- ٨ -

وتناول الحوري في بحث رابع موضوع تأليف القرآن ، ومع أنه
جعل كتاب « الإتيان » سنده الرئيسي فإنه ركز على قول دون قول
حسب ما رآه متوافقاً مع هواه وخطته ، ومن ذلك قول بعضهم (إن
القرآن كان ينزل منجماً ، أي : مفروقاً ، كل بضع آيات معاً خمساً خمساً
وعشراً عشراً ، وكثيراً ما كان ينزل في مناسبات الأحداث والأسئلة
وما كان يقع في حياة النبي من أمور منذ بعثته إلى وفاته فكانت
الآيات يوضع بعضها لإزاء بعض فتكونت السور بذلك) وخلص الحوري
من هذا إلى القول (إن ذلك أضفى على القرآن ظاهرة التفكك وعدم ارتباط
أجزاء السور بعضها ببعض وإن الأقدمين من علماء المسلمين لمسوا هذا
التفكك فحاولوا الربط بين أجزاء السورة بما سموه علم المناسبة الذي وضعوا
له القواعد العديدة لربط الآيات بعضها ببعض ربطاً موضوعياً أو ظاهرياً
أو باطنياً ، ولم يشعروا أن محاولتهم افتعالية ليس من شأنها ستور ظاهرة
التفكك في آيات السور وأجزائها) . ولقد قرأ الحوري في « الإتيان » قولاً

(١) في القرآن المكي آيات كثيرة أخرى فيها حكاية لأقوال مشركي قريش
فاكتفيينا بـ 'أوردناه' .

لأحد العلماء جاء فيه (إن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة تسرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض وإنه يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط . ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصاب عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه ، فطار الحوري فرحاً بهذا القول لدعم استنتاجه وأبرزه برغم أن في « الإقتان » أقوالاً عديدة قوية لعلماء كثيرين نهوا على ما بين آيات وأجزاء السور من ترابط وتناسق وانسجام من حيث الموضوع ومن حيث السبك والنظم ، وأوردوا الشواهد الكثيرة على صحة ما نهوا عليه بحيث يكون ما استند إليه الحوري وأبرزه شاذاً لا يصح أن يعول عليه مادام جمهرة الأقوال على غيره .

ولقد تصدينا نحن لهذه المسألة في كتابنا (القرآن المجيد) ثم في ثنابا أجزاء تفسيرنا (التفسير الحديث) وانتهينا إلى تقرير ما أقره الجمهور حيث وأينا في معظم سور القرآن وفصولها شواهد قوية على الترابط والتناسب اللفظي والسبكي والموضوعي بما يجعل قول الحوري وما استند إليه قولاً متهاقناً . مع فرق مهم هو أن قول المسلم صدر عن حسن نية واجتهاد خاطيء وعدم ترو وكان هو في قوله مية النية عامداً متعمداً فيه .

والحوري قرأ كتابنا المذكور وهو ينقل عنه كثيراً ، وكان عليه أن يقنع بما أوردناه ، لأن فيه ما لا يصح لعاقل أن يكابر فيه فيما نعتقد ولكن الهوى غلبه على المنطق والباطل على الحق .

والموضوع مهم ، لأن فكرة التفكك في التأليف القرآني تراود أناساً لا يعنون بالقرآن عناية كافية ، ولا يقرؤونه قراءة تبصر وترو ، ولذلك نرى من المفيد لإيراد شيء من التفصيل فيه على أن يكون كلامنا على السور

المكية لحدة والسور المدنية لحدة .

وبالنسبة للسور المكية نقول بوجه عام : إن العهد المكي كان عهد دعوة ، وأحداثه متشابهة ، من حيث كونها مواقف شرح وبيان أهداف الرسالة الإسلامية الإيمانية والاجتماعية والأخلاقية والانسانية وحض وترغيب وتبشير وإنذار وترهيب وتذكير ومواعظ من جانب النبي ﷺ ومواقف إنكار وعناد ومكابرة وانقباض وجدل وتحد وأذى من جانب الكفار . والقرآن المكي قد دار جميعه على هذه المواقف المتشابهة ، ولذلك فإن فصول السور المكية المتوسطة والطويلة كانت تتلاحق دون انقطاع ودون فاصل وتتساقق في انسجام تام ، وهو ما يلمس بكل قوة فيما .

وسبع وعشرون سورة منها تبتدىء بحروف متقطعة وهي القلم و ق والأحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وغافر و ص ويس والسجدة ولهمان والروم والعنكبوت والقصص والنمل والشعراء وطه ومريم والحجر وإبراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس والأعراف . وسبع عشرة سورة منها وجلها من القصار تبتدىء بالأقسام وهي العصر والعاديات والتين والضحى والليل والشمس والفجر والبلد والطارق والبروج والنازعات والمرسلات والقيامة والنجم والطور والذاريات والصفات . وتسع سور منها مختلفة الطول تبتدىء بالثناء والحمد والتسبيح وهي الفاتحة والأعلى والملك وقاطر وسبأ والفرقان والكهف والإمراء والأنعام . وتسع سور منها تبتدىء بالاستفهام وكلها من القصار وهي الماعون والفيل والانشراح والقارعة والغاشية والنبأ والإنسان والماعون والحاقة ، وهذه بدايات متميزة . وتسع أخرى من القصار كذلك تبتدىء بخطاب للنبي نداء وأمرأ وهي الناس والفلق والإخلاص والكافرون والكوكثر والعلق والمدثر والمزمل والجن ، وهذه بدايات متميزة . وأربع منها تبتدىء

بالدعاء والانهيار وهي من القصار . وهي المسد والهزمة والتكاثر والمطفون وهذه بدايات متميزة . وخمس تبتدىء بحرف إذا التنبيهي أو للتذكيري وهي الزلزلة والانشقاق والانفطار والتكوير والواقعة وهي من القصار . أي إن ثمانين سورة من أصل تسع وثمانين سورة مكية تجمع على مكيتها ذات مطلع خاص فيه دلالة ما على شخصية السورة واستقلالها ، والتمعن في خواتمها يسوغ القول : إنها أيضاً خواتم متميزة تدل على انتهاء الكلام . أما بقية السور المكية فمنها سبع قصار وهي قريش والقدر وعبس ونوح والرحمن والقمر والزمزم يمكن أن يقال عنها أيضاً : إنها ذات طابع خاص بدءاً وخاتمة يدل على شخصيتها واستقلالها ، وأربع طويلة نوعاً ما وهي المؤمنون والحج^(١) والأنبياء والنحل . وتلهم مطالعها وخواتمها أيضاً أنها متميزة مستقلة الشخصية .

ولقد أخرج الحاكم حديثاً عن ابن عباس وصف بأنه صحيح جاء فيه (إن النبي ﷺ كان إذا جاء جبريل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم أنها سورة جديدة) وروي عن ابن عباس حديث آخر جاء فيه (كانت المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم) وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال (كنا لا نعلم فصلاً بين سورتين حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم) ونعتقد أن المقصود من هذه السور هو السور المكية في الدرجة الأولى . وتفيد الأحاديث أن فصول السور كانت تنزل متلاحقة إلى أن تنتهي دون قاطع بفصل من سورة أخرى . والمرجح أن ذلك بالنسبة للسور الطويلة والمتوسطة الطول والقريبة من المتوسطة ، لأن المتبادر أن السور القصيرة جداً لا بد من أن تكون

(١) سورة الحج من السور المختلف على مكيتها ومدنيتها . وفحواها يلهم أن فيها فصلاً مدنية وفصولاً مكية ومطلعها مما يلهم أنه هو وفصل طويل بعده من الآيات الملكية.

نزلت مرة واحدة ، ولقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود حديثاً جاء فيه (انه سمع من فم رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة) والراجح أنها سور مكية ، وهذا يفيد أن آياتها كانت مؤلفة متناسقة وأن السور كانت معروفة الشخصية .

وهناك مظاهر أخرى تدعم ما قررناه آنفاً من جهة وتظهر تلاحق وترابط فصول كل سورة من جهة أخرى .

فأولاً إن هناك تماثلاً في النظم في السور التي فيها قصص وأمثال يتمثل في فصل أول فيه دعوة للناس . وبيان لأهداف الرسالة وتثديد بالجاحدين وإنذارهم وتبشير للمؤمنين ، ثم يعقبه فصل القصص أو الأمثال الذي يستهدف التذكير والموعظة والعبرة ، ثم يعقب هذا الفصل فصل تعقيبي فيه دعوة وإنذار وترهيب وتبشير وترغيب

وهذا التماثل ملموح أيضاً بين يدي فصول الجدل والحجاج بين النبي ﷺ والجاحدين حيث يسبقها فصل فيه بيان بالأهداف وتبشير وإنذار ودعوة يعقبها فصل تعقيبي فيه ترهيب وتبشير . وهذا المظهر عام في جميع السور التي فيها قصص وأمثال وجدل وحجاج . سواء أكانت طويلة أم متوسطة أم قصيرة ، وسواء أكانت الفصول مسببة أو إشارات مقتضبة ، بحيث يبدو من ذلك تلاحق وانسجام موضوعيان تتساوقان بين فصول السور .

وثانياً إن من السور المكية خمسا وستين سورة مسجعة أو موزونة أو مقفاة ، منها أربع وخمسون قصيرة أو قصيرة جداً ، وهي الفاتحة والناس والفتى والإخلاص والمسد والكافرون والكوتر والماعون وقريش والفيل والهمزة والعصر والتكاثر والقارعة والزلزلة والعاديات والقدر والعلق والتين والشرح والضحى والليل والشمس والبلد والفجر والغاشية والأعلى والطارق

والبروج والانشقاق والمطففون والانفطار والتكوير وعبس والتازعات والنبأ والمرسلات والإنسان والقيامة والمدثر والمزمل والجن ونوح والمعارج والحاقة والقلم والملك والواقعة والرحمن والقمر والنجم والطور والذاريات وق .
 ووحدة الموضوع في هذه السور بارزة بوضوحاً قوياً ، فالفرض الصحيح الذي نعتقد أنه لا يصح غيره هو أن كلاً منها نزل دفعة واحدة وكسبت شخصيتها كسور مستقلة . وإذا كان من الممكن أن يكون استثناء ، فهو قليل بالنسبة إلى هذا العدد الكبير من جهة وهو في الوقت نفسه ليس استثناء ينقض الفرض في جوهره من جهة أخرى . وقد احتطنا بهذا الاستثناء أو الاستدراك من أجل ما روي من أن آيات سورة العلق الأولى هي أول ما نزل ، وأنها نزلت متقدمة وأن الآيات الباقية من السورة نزلت بعدها بمدة ما مما يسوغه مضمون آيات السورة الذي يدل على أن الآيات التي بعد الآيات الخمس الأولى لا بد من أن تكون قد تأخرت في النزول إلى أن بدأ النبي ﷺ يدعو الناس بدعوته وبصلي صلاته الجديدة فتعرض لمعارضة الطاغية . ومن أجل ما روي من مثل ذلك بالنسبة إلى الآيات الأولى من سور القلم والمزمل والمدثر مما يمكن أن يسوغه أيضاً مضمون الآيات التي جاءت بعد الآيات الأولى ، ثم من أجل ما روي من أن الآية الأخيرة من سورة المزمل مدنية مما يسوغه مضمون الآية أيضاً .

ومن السور المكية المتوسطة في الطول إحدى عشرة سورة مسجعة أو مرزونة أو مقفأة أيضاً ، وهي سور ص والصفافات ويس وفاطر والشعراء والفرقان وطه ومريم والكهف والإسماء والحجر . والتدقيق فيها يظهر أن فصولها أيضاً بالاضافة إلى تسجيحها أو توازنها أو تقفيها متلاحقة مترابطة موضوعاً ، ولا تتحمل أي قول بالتفكك وعدم الترابط أو أنها وضعت إزاء بعضها جزافاً . وكل ما يحتمل هو أن تكون فصولها نزلت دفعة

بعد دفعة فكانت توضع وراء بعضها بأمر النبي ﷺ لأن المتأخر منها معطوف على المتقدم موضوعاً بالإضافة إلى التماثل في التسجيع والتفقيه والتوازن ، إن لم تكن نزلت دفعة واحدة وفق ما هي عليه من ترتيب . والخمس عشرة الأخرى طويلة نوعاً ما أو طويلة كثيراً وهي الروم والعنكبوت والقصاص والمؤمنون والحج والأنبياء والنحل وإبراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس والأعراف والأنعام ، ومعظمها ذات مطالع متميزة حيث يبدأ عشر منها بحروف متقطعة مثلاً ، وكلها ذات خواتم متميزة تفيد انتهاء الكلام . والمدقق فيها يجد فصولها متلاحقة ، والتشابه في مواضعها قائماً ، ولا تتحمل قول التفكيك وعدم الترابط بدورها . وكل ما يمكن هو أنها نزلت على دفعات وكان المتأخر يوضع وراء المتقدم لتلاحق الموضوع وتساوق الكلام ، ومعظمها فيه قصص وأمثال وجدل ، والمظهر الأول الذي نوهنا به قبل تمثيل فيها بكل قوة وشمول ، والقرآن بين يدي الجميع ، ويمكن أن يتصفح المراء سورة المكية على ضوء هذه الشروح ، ونحن وانقون من أنه سيرى إذا كان ينشد الحق والحقيقة وكان فيه بصيرة وروية وحسن ذوق ما نراه من التلاحق والترابط والتناسب بين فصولها ويتيقن من تفاهة القول بالتفكيك وعدم الترابط وهوى القائلين أو غباوتهم .

وبما قاله الحوري الحداد (إنهم - وعبارته تفيد أنه يقصد النبي والمسلمين الأولين - تركوا السور مفصلة مقطعة ولم يجمعوها في وحدات زمنية تأليفية حتى كثر المفصل فيها) وهو يقصد بذلك كثرة السور القصيرة جداً التي توصف بوصف المفصل . وهذا توافق منه وتنطع وسوء أدب معاً مع الغباء ، فالمدقق في هذه السور يجد كلاً منها وحدة موضوعية مستقلة ، وفي نظم

متميز بحيث يظهر على حكمة التنزيل في جعل كل منها سورة قائمة بذاتها ليس من محل لجمعها مع غيرها ، وهذا هو التعليل الصادق لهذه الظاهرة . وقد تلقاها المسلمون عن النبي ﷺ الذي تلقاها عن وحي ربه تعالى بهذا الأسلوب والقدر فوقف النبي والمسلمون عندما تلقوه الذي كان حقاً وحكمة . وللخوري توافق وتنطع آخر حيث يعود إلى السور الطويلة بل والمتوسطة . وسواء أكانت مترسلة الأسلوب أو مسجوعة أو مقفاة ، فيقسمها إلى سور حسب ما يظن من تعدد موضوعات السور وفصولها

وفصول السور وآياتها مرتبة بأمر النبي ﷺ^(١) وإلهام الله تعالى ، والمسلمون قد تلقوا ذلك كذلك ، وهم أهل القرآن ، وكل تقسيم للسور إلى سور عديدة تنطع وتوافق وسوء أدب معاً .

ونأتي الآن إلى السور المدنية

فمن هذه السور سورتان قصيرتان جداً وهما النصر والبينة ، وكل منهما وحدة موضوعية ، ولا تتحملان قولاً ما ، ومنها خمس عشرة قصيرة ، وهي التحريم والطلاق والتغابن والمنافقون والجمعة والصف والممتحنة والحشر والمجادلة والحديد والحجرات والفتح ومحمد . وسبع منها ذات موضوع واحد وهي التحريم والطلاق والمنافقون والحشر والصف والحجرات والفتح ومحمد . والفرض الصحيح أنها نزلت دفعة واحدة أو متلاحقة . ويلفت النظر مثلاً إلى بعضها الذي فيه استطراد أو أحداث متناسبة ، مثل التحريم التي اختتمت بخاتمة استطرادية متناسبة مع الموضوع الرئيسي فيها ، ومثل الصف التي فيها استطراد إلى ذكر موسى وعيسى ومواقف أقوامهم معهم بما

(١) في كتابنا القرآن المجيد فصل مطول أثبتنا فيه بالأحاديث المعتبرة والدلائل الفرآنية أن ترتيب الآيات والفصول في السور وترتيب السور في المصحف هو بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وفي حياته .

يتناسب مع التنديد الذي بدأت به السورة . وقد ختمت بالدعوة إلى الجهاد وضرب المثل بانتصار الحوارين لعيسى عليه السلام بما يتناسب كذلك مع بداية السورة . ومثل للفصل الذي اختتمت به سورة المنافقون بما يتناسب مع التحذير من أسباب النفاق الذي هو موضوع السورة الرئيسي . ولقد احتوت سورة (الجمعة) معاً موضوعين مختلفين ، ولكن من الممكن أن يلمح بينها تناسب وترايط ، وهناك حديث رواه البخاري ومسلم يذكر أنها نزلت دفعة واحدة . وسورة (المتحنة) كذلك احتوت موضوعين مختلفين ، أولهما في صدد موقف محاربة أحد المسلمين قبيل غزو مكة ، وثانيها في صدد فرار مؤمنات من مكة قبيل هذا الغزو أيضاً حيث يكون في ذلك تناسب وترايط بين الفصلين . ويلاحظ أن السورة اختتمت بالتحذير من تولي الأعداء ، وهذا ما بدأت به أيضاً حيث يبدو من هذا قصد تحقيق التناسب وربط أول السورة بآخرها

ومها بدا على فصول سورتي (الحديد) و (التغابن) من تنوع فإن الترابط بين آيات كل منها ملموح بقوة بحيث يمكن ترجيح نزولها متلاحقة ، وبحيث لا يصدق القول عليها : إنها متفككتان . وسورة (المجادلة) قد احتوت فصولاً متنوعة أيضاً ، منها ما يلمح بينها ترابط ، ومنها ما لا ينفع الآن ، ولكننا لا نسيغ القول : إنها وضعت بعضها وراء بعض جزافاً . ومن المحتمل أن يكون بعضها نزل بعد بعض مباشرة بدون فاصل فكان ذلك سبب تأليفها على النحو القائم .

ومن السور المدنية سورة متوسطة وهي (الأنفال) وجلها في وقعة بدر وغنائمها ومشاهدتها وآثارها وأمرها ، وما عدا ذلك غير غريب على موضوع السورة تعقياً أو تقييماً أو تحفيزاً أو توضيحاً ، بحيث يمكن أن يقال بكل قوة : إن الترابط والتناسب قائمان بين فصولها . ومن المحتمل أن

تكون نزلت دفعة واحدة ، ومن المحتمل أن تكون نزلت متلاحقة فوضع المتأخر بعد المتقدم لما بينهما من تناسب وترباط .

بقيت السور المتوسطة الأخرى والسور الطويلة وهي الأحزاب والنور من النوع الأول والتوبة والمائدة والنساء وآل عمران والبقرة من النوع الثاني .

وفي الحق ان مواضع هذه السور وفصولها مختلفة وتلهم أنها لم تنزل دفعة واحدة ولا متتابعة ، وأنها ألقت تأليفاً على ما هي عليه في المصحف بعد تكامل فصولها من دون سائر السور المكية والمدنية ، وأن من المتقدم في ترتيبها في المصحف فصلاً نزلت بعد فصول أخرى في سور متأخرة عنها ، ونرجح أن الكلام في عدم الترابط في القرآن كان بسبب هذه السور وحولها في الدرجة الأولى ، غير أن الخطأ في القول عن قصد من الحوري وعن حسن نية من بعض المسلمين هو تعميمه بحيث يشمل جميع سور القرآن .

والذي لا يجوز الشك فيه هو أن ترتيب آيات وفصول هذه السور على الوجه الذي هو عليه في المصحف المتداول قد كان في حياة النبي وبلمره ... ولعل من الملهمات القرآنية بصحة هذا القول الآية الأخيرة من سورة النساء التي فيها حكم إرث الكلاله بالنسبة للإخوة الذين أجمع المفسرون على أنهم الأشقاء ، فقد احتوت السورة أحكام الإرث ومن جعلتها حكم إرث الكلاله بالنسبة للإخوة الذين أجمع المفسرون على أنهم الإخوة لأنهم ، فلما استفسر المسلمون عن حكم إرث الكلاله بالنسبة للإخوة الأشقاء نزلت آية النساء الأخيرة . ويظهر أن السورة قد رتب فلم ير الله ورسوله إخلال ترتيبها فوضعت الآية التي فيها هذا الحكم في آخر السورة للتناسب الموضوعي بينها وبين أحكام الإرث في السورة ، وليس من تعليل آخر لوضع هذه الآية في آخر السورة كما هو المتبادر .

ومع ذلك فإن التدقيق في السور السبع المذكورة يجعل المرء يلمح قصد التناسب في تأليفها سواء من حيث التسلسل الموضوعي في كل موضوع أم من حيث السلاسل الموضوعية بعضها بعد بعض .

فالفصل الأول من البقرة إلى الآية ٣٩ سلسلة مترابطة متناسبة . والفصل الثاني ٤٠ - ١٧٧ في صدد اليهود ودسائسهم ومواقفهم ثم يأتي بعد ذلك سلسلة أسئلة وأجوبة واستطرادات متناسبة معها إلى نهاية السورة .

والفصل الأول من آل عمران إلى الآية ١٢٠ هو في صدد مواقف أهل الكتاب النصارى ثم اليهود . والتناسب قائم بين آياتها وما فيها من استطرادات والفصل الثاني في صدد وقعة أحد . ويلحظ أن فصل السورة الأخير عاد إلى ذكر أهل الكتاب ومواقفهم حيث يبدو قصد ربط أول السورة بآخرها . وفي هذا مشهد من مشاهد التأليف التناسبي أيضاً .

والفصل الأول من سورة النساء إلى الآية ٤٣ في شؤون الأسرة أو ما يسمى بالأحوال الشخصية والتناسب قائم بينها بكل قوة ، والفصل الثاني في مواقف اليهود ، ويمكن أن يلمح شيء من التناسب بينه وبين الموضوع الذي بعده ، والتناسب ملموح أيضاً بين الفصول التالية بعد الفصل الثالث ، ووضع آية الكلاله التي فيها حكم إرث الاخوة الأشقاء في آخرها دليل على قصد تحقيق التناسب والترابط بين مواضعها .

وسورة المائدة احتوت حقاً فصلاً متنوعاً ، ولكن من الممكن أن يلمح شيء من التناسب في وضع فصولها بعضها بعد بعض إذا ما دقق فيها والتناسب ملموح بقوة بين فصول سورة التوبة أيضاً ، فأولها في صدد مواقف المشركين وقتالهم ، ثم في مواقف أهل الكتاب وقتالهم ، ثم في الاستنفار لغزوة أجمع المفسرون على أنها غزوة تبوك للمقابلة تجمع قبائل النصارى في مشارف الشام وتأديبها ، ثم في مواقف المنافقين في مناسبة

هذا الاستنفار حتى لكانها جميعها موضوع واحد آخذ بعضها بوقاب بعض .

وهكذا يمكن أن يقال : إن التناسب والترابط النظمي والموضوعي متحقق على أحسن وجه في السور المكية وفي السور المدنية القصيرة ، وإن السور المدنية الطويلة والقريبة من الطويلة التي تعددت فصولها ، وألفت بعد تمامها قد روعي في تأليفها التناسب الموضوعي بحيث يبدو ما قاله الحوري وما يقوله غيره من التفكك في نظم فصول السور القرآنية وترابطها جزاءً ومتافئاً .

ولقد اهتمنا في أجزاء تفسيرنا « التفسير الحديث » لإبراز هذا الأمر ونعتقد أن من يقرأ فصلنا هذا ويتصفح أجزاء تفسيرنا يقنع بما انتهينا إليه .

- ٩ -

وعقد الحوري الحداد فصلاً بعنوان الحكم والمنشابه في القرآن في كتابه رقم ٣ ثم في كتابه رقم ٤ مكرراً ، ونقل من كتاب « الإتيان » تعريفات للعلماء لكل من النوعين ، ونقل عن كتابنا « القرآن المجيد » قولنا (إن القرآن أسس ووسائل وإن الجمهوري فيه هو الأسس ، لأنها هي التي انطوت فيها أهداف الرسالة المحمدية من مبادئ وقواعد ومبادئ وأحكام وتلقينات مثل وحدة الله وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد ، واتصافه بجميع صفات الكمال ، ومطلق تصرفه في الكون ، واستحقاقه وحده للعبادة والخضوع ^(١) . والوعد والوعيد والترهيب والترغيب والتثديد والجلد والحجاج

(١) أهل الحوري نقل هذه النبهة المهمة الجوهرية مما كتبناه بعد كلمة الخوض (ونجد ما سواه والقيام بالواجبات التعبدية ، ومثل المبادئ والأوامر والنواهي والتشريعات والأحكام والتلقينات الكلية بصلاح الإنسانية وطمانيتها والتعاون الأخوي العام بينها أفراداً وجماعات من سلبية وإيجابية وأخلاقية واجتماعية وسياسية وحقوقية -

والأخذ والرد والتذكير والبرهنة والإلزام ولقت النظر إلى نوااميس الكون ومشاهد عظمة الله وقدرته ، ومخلوقاته الخفية والعلنية ، فهو وسائل تدعيمية وتأيدية لتلك الأسس والأهداف وبسبيلها . وأبرز قولين قرأهما في « الإتقان » واحداً يقول : إن آيات الأحكام نحو خمسمائة آية وواحداً يقول : إنها نحو مائة وخمسين آية . وعلق على هذا وذاك بقوله : (إنه لا يبقى من القرآن إلا القليل جداً ، وآية آل عمران الخامسة تقول : إنه لا يعلم تأويل المتشابهات في القرآن إلا الله والراسخون في العلم . ويكون تنزيل المتشابهات في القرآن بناء على ذلك ابتلاء عظيم للعباد ، وواقعاً أليماً مدهشاً ، ولا ينسجم هذا مع عقيدة إعجاز القرآن ، لأن معناه أن الله يخاطب عامة عباده خطاباً متشابهاً لا يعلم تأويله إلا هو والراسخون في العلم ، وهذا مثار شبهات مؤلة للمؤمن وغير المؤمن) .

وفي تعليق الحوري هذا تهويل وسوء نية بقصد التشكيك والتجريح فضلاً عن سوء الأدب .

فمن جهة أولى إن قول من قال : إن آيات الأحكام خمسمائة أو مائة وخمسون لا يصح أن يؤخذ مأخذ الجد ، فالآيات التي فيها أحكام أضعاف العدد الأول فضلاً عن الثاني ، لأن من الواجب أن يدخل فيها كل الآيات التي فيها أحكام وأوامر ونواه ومواظ وتلقينات ومبادئ وقنبيات إيمانية وتعبدية واجتماعية وأخلاقية واقتصادية وسياسية وجهادية وقضائية وسلوكية . ولا تقتصر على مسائل الأمرة والشؤون الشخصية والجرائم التي يظهر أن الذين ذكروا العدد المذكور قد قصدوا دون غيرها ، لأن في كل ذلك قواعد وضوابط وحدوداً وخطوطاً من واجب المسلم ومن واجب أولى

- وسلوكية واقتصادية ، والنبي من كل ما يناقض ذلك ، أما عدا ذلك من مواضع مثل القصص والأمثال (وبآي بعد ذلك) والوعد والوعيد (الخ .

الأمر من المسلمين معاً أن يلتزموا بها . وهي والحالة هذه من الأهداف والحكمات .

ومن جهة ثانية إن التأويل الصحيح الذي يذهب إليه جمهرة المفسرين أيضاً لكلمة (المتشابهات) هو ما يحتمل وجوهاً للتأويل حسب مقتضى ومقام العبارة القرآنية . ولكلمة (المحكمات) هو ما لا يحتمل ذلك ويكون تفسير المتشابهات على ضوء المحكمات ، وبذلك يسان القرآن من التعارض . ومثال على ذلك أن بعض الآيات ذكرت أن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ، وبعض آيات ذكرت أن الله نفخ في فوج مريم من روحه و (نفخ الله فيها من روحه) في حين أن آيات أخرى ذكرت (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وبعضها حكى وصف عيسى لنفسه (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً) وبعضها حكى قوله لبني إسرائيل (اعبدوا الله ربي وربكم) وبعضها يصف الله بأنه (ليس كمثله شيء) وأنه (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) فتكون الآيات الأولى من المتشابهات والثانية من المحكمات ويكون تأويل المتشابهات على ضوء المحكمات لا للعكس ولا يصح أن يستخرج من الأولى أن عيسى جزء من الله تعالى والذي يصح تأويلها به هو أن ولادته تمت بمعجزة ربانية وبأمر الله الذي يقول للشيء : كن فيكون وانها بسبيل التقريب والتمثيل . ولقد روي أن آية سورة آل عمران الخامسة قد نزلت في مناسبة المناظرة التي جرت بين النبي ﷺ وبين وفد نجران في صدد حقيقة عيسى عليه السلام ، فإنهم لما أصرروا على رأيهم دعاهم النبي إلى المباحة ، فأبوا وقالوا : ألسنت تقول : إن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ؟ قال : بلى قالوا . هذا محسبنا . فأنزل الله الآية مندداً بهم لتقول : إنهم تركوا الحكم في القرآن الذي ينبغي أن يكون شيء مثل الله أو جزءاً منه ويقول : إن مثله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن

فكان ، ويقول : إن عيسى عبد الله ونبيه ورسوله إلى بني إسرائيل وأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده ربه وربهم واتبعوا المتشابه الذي أريد به التمثيل والتقريب وتقرير كون ولادة عيسى تمت بمعجزة ربانية .

ومن جهة ثالثة إن كون القرآن أسساً ووسائل لا يعني أن الوسائل زائدة في القرآن ، فإنها دعائم اقتضتها حكمة التنزيل لتدعيم الأساس والحكم ، فهي جوهرية من هذا الاعتبار ، وآيات الكون والتكوين وما فيها لفت نظر إلى عجائب خلق الله وبدائعه وما أودعه في مشاهد كونه من نواميس ومنافع ، وآيات البعث والحساب الآخريين وما فيها من ترغيب وتبشير وتهيب وإنذار ، وقصص الأنبياء والأمم وما فيها من عبرة وتذكير ومجادلة المشركين والكفار وما فيها من تحذير وإفحام ، وذكر الملائكة والجن بالأسلوب الذي ذكروا به ، كل ذلك فيه تدعيم قوي وحكم بالغة من دون ريب . وكثير منه فيه في الوقت نفسه خطوط وتلقينات عامة تكون نبواً للمسلمين كالأسس في سيرهم في شؤون الدين والدنيا بصفاتهم الفردية والاجتماعية .

ومن جهة رابعة إن كون أنواع الوسائل أكثر من الأسس لا يعبر عن قصور القرآن عن تقرير ما يحتاج الناس جميعاً المخاطبون به والمدعوون إليه والمرشعون للإيمان به . ففي القرآن كل ذلك ، سواء أكان من الحكمات أم التشابهات أو بتعبيرنا من الأسس أم الوسائل . وقد تكفلت السنة والحكمة النبوية بما اقتضاه الحال من توضيح وإتمام وبيان بما هو من المهام الموكلة في القرآن إلى النبي ﷺ كما جاء في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١- كَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .. [البقرة : ١٥١] .

٢ - وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ..
[النحل : ٤٤] .

فصارت السنة متممة للتعليم القرآني وأوجب على المسلمين أخذها كما
أوجب عليهم أخذ القرآن . والواجب الأول مقرر في آيات قرآنية منها
هذه الآيات :

١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ..
[النساء : ٥٩] (١) .

٢ - مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. [النساء : ٨٠] .

٣ - وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ..
[الحشر : ٧] .

ومن جهة خامسة إن التشابهات لا تعني أنها مغلقة على الأفهام ، والآية
صریحة أن أهل العلم يعلمون أو يلحون تأويلها وحكمتها ، وعلى هذا مضت سنة
الكون من انقسام الناس إلى أهل علم واختصاص وإلى عوام ومن تعلم العوام
ما يشكل عليهم فهمه من أهل العلم والاختصاص .

فيكون وصف الحوري بعد هذا الشرح للمتشابه بما وصفه به هراء
لا يحصل له إلا قصد التهويل والطمع والتجريح ، وقد خاب فآله ، وأخفق
قصده ، وزهق باطله .

- ١٠ -

وعقد الحوري في كتابه فصلاً عن النسخ والمنسوخ في القرآن ، وفي
بداية فصله قال : (إن للنسخ في القرآن تاريخاً مذهباً ، انفرد به دون

(١) العلماء متفقون على رد الأمور المتنازع عليها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى القرآن والسنة للنبوية .

سائر الكتب المنزلة ، وقد تم تطور النسخ للنسخ وتصفية النسخ
بالنسخ حتى بقي منه القليل في القرآن العثماني - يعني المصحف العثماني -
على ثلاث مراحل في زمن النبي ، وفي زمن جمع القرآن ، وفي القرآن
العثماني (الحجاجة الحالي) ثم قال في نهاية الفصل : (إن النسخ والنسخ
في القرآن مثل التشابه مشكل في تاريخه وواقعه بحار فيه المؤمن وغير
المؤمن ، وهو أيضاً بلاء من الله عظيم ، خصوصاً في انسجام واقع النسخ
مع صحة التنزيل من اللوح المحفوظ)

ولو كان الحوري يعتقد حقاً أن القرآن منزل من الله ، لكان من
الممكن مجادلته في ما قاله من القرآن ، ولكنه يقول ما يقول وهو غير
مؤمن ، وإنما يقوله على سبيل التهويل وبقصد الطعن والتشكيك مع سوء
الأدب ، وليس في ما يقوله حق وماخذ صادقان .

فتبدل الأحوال وتبدل الأوامر وفق ناموس رباني واجتماعي متسق
مع طبائع الأمور ، ولا يقول الحوري الحق حيناً يقول : إن النسخ أمر
انفرد به القرآن ، ففي أسفار العهد القديم والجديد (كتاب الحوري
المقدس) صور عديدة من تبدل الأحكام والأوامر وفق تبدل المواقف
والظروف معزوة إلى الله ورسله ، ففي سفر الخروج مثلاً حكاية لأمر
رباني لبني إسرائيل بالإلتجاء نحو أرض كنعان ، فلما فزعوا من أخبار
أهل هذه الأرض ، وتمردوا ، سجل السفر حكاية غضب الله وحكمه عليهم
بالموت في سيناء ، وعدم دخول تلك الأرض . وفي الأنجيل مثلاً حكاية
عن نسخ عيسى عليه السلام بعض أحكام الشريعة التوراتية مثل حرمة
السبت والطلاق^(١) . فليس من بدع ولا غرابة أن يكون وقع في القرآن
ما يفيد نسخ أحكام بأحكام ، وقد يكون في القرآن ما يفيد وقوع ذلك

(١) اكتفينا بهذه الأمثلة ويمكن إيراد عشرات من بابها .

بصورة عامة مثل آية سورة البقرة هذه (مَا تَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا .. ١٠٦) ومثل آيات سورة النحل هذه (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ رَأَاهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .. ١٠١ و ١٠٢) وآية الرعد هذه (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ .. ٣٩) وفي هذه الآية بخاصة رد على تخويف الحوري عن انسجام واقع النسخ مع صحة التنزيل من اللوح المحفوظ حسب تعبيره .

ولقد قلنا : إن في كلام الحوري تهويلاً ، ولذلك لم نر بأساً من زيادة في البيان لتفنيد هذا التهويل والإيهام ، فنقول :

١ - هناك حقاً روايات كثيرة مروية عن أصحاب رسول الله في حصد آيات نزلت ، ثم رفعت في زمن النبي ﷺ ، غير أن جل هذه الروايات إن لم تكن كلها غير وثيقة السند ، وقد يكون بعضها صحيحاً فيكون ذلك بما اقتضته حكمة التنزيل في زمن من كان ينزل عليه التنزيل ، وروح آيات البقرة والنحل يلهم أن ذلك كان قليلاً جداً ، وعلى كل حال يكون أمر ذلك قد انتهى وانحسم في حياة النبي فلم يعد للكلام عنها والتهويل فيها محل .

٢ - هناك حقاً روايات كثيرة أيضاً مروية عن أصحاب رسول الله في آيات وفصول كانت تقرأ ثم لم تعد تقرأ في المصحف الذي كتب بعد النبي وصار لإماماً ، ويمكن أن نوهم الروايات أو بعضها أن هذه الآيات والفصول أسقطت أو نسخت بعد النبي ، غير أن جل هذه الروايات إن لم تكن كلها غير وثيقة السند كذلك ، ولا يمكن أن يكون شيء منها صحيحاً ، لأن القرآن كتب مصحفه الإمام لأول مرة عقب وفاة

النبي في زمن أبي بكر ، وقد احتوى هذا الإمام كل ما أنزل الله ولم ينسخ ، ولم يرفع في زمن النبي ومات وهو قرآن يتلى ، والمصحف الإمام الثاني الذي كتب في زمن عثمان هو منقول عن مصحف لإمام أبي بكر بدون نقص ولا زيادة ، وهو أصل جميع المصاحف المتداولة إلى اليوم ، وكل ما وقع في صدد مصحف عثمان أن إملاء الكلمات ضبط حسب إملاء قریش ، وأمر المسلمون بنقل المصاحف عنه ، وإفادة ما في أيديهم من صحف فيها إملاء مختلف حتى يكون مصحفهم واحداً في إملائه دون تنوع فيه كما كان قبل ، وهناك حديث رواه البخاري ذو مغزى عظيم في هذا الباب حيث روى عن عبد الله بن الزبير قال : قلت لعثمان : (والذين يتوفون منكم ويندرون أزواجاً) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها ؟ قال : يا ابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه الآيتان المشار إليهما في الحديث هما آيتا البقرة ٢٣٤ و ٢٤٠ وأولاهما جعلت عدة إحداث الزوجة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، والثانية أوجبت للمرأة المتوفى عنها زوجها متاع حول ، أي : نفقة حول كامل وعدم إخراجها من بيت زوجها خلاله . إلا إذا خرجت هي من نفسها ولا خرج عليها في هذه الحالة . وقد ظن عبد الله بن الزبير أن في الآية ٢٣٤ نسخاً للآية ٢٤٠ فسأل سؤاله . وهناك حديث صحيح آخر له نفس المغزى رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والإمام أحمد عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم أن عدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المثني فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتوهما في السبع الطوال ؟ قال : كان رسول الله تنزل عليه السور ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب له ، فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا ، وكانت

الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وبراءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قضيتها شبيهة بقضيتها ، فظننت أنها منها ، وقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها ، ومن أجل ذلك قونت بينها ، ولم أكتب بينها سطر بسم الله الرحمن الرحيم . ويفيد هذا أن الأنفال كانت تدون في المصاحف في زمن النبي قبل سورة براءة مباشرة ، ولم يكن بينها فاصل أو بسملة ، فأبقيت كما كانت في زمن النبي ، ويفيد بالتالي أن المصحف كان مرتباً في حياة النبي .

والحديثان يفيدان إلى هذا حرص عثمان على إبقاء كل شيء كما كان يتلى ويدون في زمن النبي وأن مصحفه احتوى كل ما كان يتلى ويدون في زمن النبي بدون تغيير في ترتيب أو تقديم أو تأخير أو زيادة أو نقص .
والحوري قرأ هذه الأحاديث بدون ريب ، ولكنه أهملها لأنها لا توافق هواه .

ولقد نقل الحوري عن كتاب « الاتقان » هذه العبارة القوية التي عزاها مؤلف الكتاب إلى أبي بكر الباقلاني : (والذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزل الله وأمر بإثباته ورسمه ولم ينسخه ولم يرفع ثلاثه بعد نزوله هو هذا القرآن بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان) ومع ذلك فلم يمنع نفسه من التعقيب عليها قائلاً (وهذا الذي نسخ أو رفعت ثلاثه أو أسقطه عثمان ما هو ؟) . ثم أخذ الحوري يورد بعد هذا الروايات التي لا سند لها والتي تذكر إسقاط بعض الآيات الفصول . ومع أن الروايات لا تذكر بصراحة أن هذا الإسقاط كان في سياق كتابة مصحف عثمان ! بل تفيد أكثر أنها تعني ما رفع في زمن النبي ﷺ ، فإنه قال : (وهكذا قد أسقط عثمان من المصحف قرآناً كثيراً ...) وهكذا يستمر الحوري على افتراءه وإفكه ويرسل القول جزافاً دون أن

يستند إلى رواية ما منها كانت رتبها تؤيده في قوله عن إسقاط عثمان رضي الله عنه قرآناً قليلاً أو كثيراً ، بل وبرغم الأحاديث الوثيقة التي تروي شدة حرص عثمان على عدم تبديل وتغيير وتقديم وتأخير فضلاً عن النسخ .

ولقد أوردنا في كتابنا « القرآن المجيد » جميع الروايات التي أوردناها بما ليس له سند وثيق وفندناها ، وقد اطلع الحوري على كتابنا ، ونقل كثيراً عنه ، وكان عليه أن يلف عند حد تقييدها ، لأن فيه المنع لمن يريد أن يقتنع ، بل وبدلاً من ذلك ، فإنه أورد بعض الروايات غير الوثيقة بمزوا إلينا دون أن يورد تقييدها لما بحيث يجعل قارئ كتابه يتوهم أننا مسلمون بها !

ولقد جاء في كلامه ذكر لمصحف الحجاج أو ما يسميه أحياناً بالجمع الثالث . وهذا القول منه مجازفة لا يسنده أي سند ، فليس هناك رواية ما تذكر أن الحجاج جمع مصحفاً من جديد ، وكل ما هناك هو رواية غير وثيقة قد ذكر أنه وضع أو وافق على وضع نكاح على الحروف المتشابهة في الرسم وصحح أو وافق على تصحيح رسم بعض الكلمات ، وقد تم هذا على مصحف عثمان بدون تغيير ولا تبديل ، وليس هناك أية رواية وثيقة أو غير وثيقة تذكر إسقاطاً أو تغييراً ، أو تبديلاً من طرف الحجاج مع ما اقترى على الحجاج من اقتراءات عظيمة تمس دينه وشرفه . وقد تصدينا لهذه المسألة ومحضناها بما رأيناه الوجه الحق في كتابنا « القرآن المجيد » ، والحوري اطلع على ذلك وتغافل عنه كما تغافل عن أقوالنا وتقييداتنا الأخرى ، لأنها لا تتفق مع هواه .. وقد تصدينا لها أيضاً في آخر الفصل الأول من هذا الكتاب ^(١) .

٣ - لقد ذكر الحوري في فصله أنواع المنسوخ التي ذكرها العلماء

(١) انظر الصفحة ٧٧ - ٩٣ .

وهي ثلاثة منها المنسوخ حكماً وثلاثة ، والعلماء مجمعون على أن هذا إذا وقع فيكون قد وقع في زمن النبي ﷺ ، وأمر هذا قد انتهى إن كان قد وقع فعلاً ، وهو ما قد تفيد آيات سورة البقرة (١٠٦) وسورة النحل (١٠١ و ١٠٢) التي أوردناها قبل .

ومنها ما هو منسوخ تلاوة لا حكماً ، أي : إن حكمه باق وتلاوته منسوخة ، وأن هذا أيضاً وقع في زمن النبي ﷺ . ونورد آية الرجم للزاني كمثال على ذلك ، ويروى أنها رفعت في زمن النبي ولكن حكمها باق . ويورد حديث صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن قال : « إن الله قد بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم ، قرأناها ووعيناها ، وعقلناها ، فرجم رسول الله ورجعنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : ما نجد الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة ، أو كان الحبل أو الاعتراف » .

وهناك صيغتان مرويتان لآية الرجم وهما (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجمهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) و (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجمهما البتة بما قضيا من اللذة نكالا من الله والله عزيز حكيم) وما يروى أيضاً أن عمر طلب من زيد بن ثابت إثبات الآية في المصحف حينما كلف بكتابة المصحف الإمام في زمن أبي بكر ، ولكنه أبى تدوينها لأن عمر لم يأت بشاهدين عليها حسب الحطة التي تقور السير عليها في تشديد الحرص على أن لا يدون في القرآن إلا ما كان ثابتاً ثبوتاً قطعياً أن النبي توفي وهو قرآن غير منسوخ وغير مرفوع . وقد محصنا هذه المسألة في الجزء الأول من كتابنا « الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة » وترجع لدينا أن من المحتمل أن تكون آية نزلت برجم الشيخ

والشيخة إذا زنيا ، ثم نسخت في زمن النبي ، ثم اقتضت حكمة رسول الله أن تشدد عقوبة الزنا المذكورة في القرآن وهي مائة جلدة بالنسبة للزناة عموماً ، لأن القرآن قرر هذه العقوبة بدون توضيح ، فجعل النبي عقوبة المحصنين ، عموماً وليس للشيخ والشيخة منهم فقط الرجم وعقوبة غير المحصنين الجلدي أحاديث صحيحة مأثورة عنه وليس للشيخ والشيخة خاصة . ومنها ما هو منسوخ حكماً لا تلاوة ، أي : إنه ظل يتلى قرآنًا مع أن حكمه قد نسخ . وهذا هو الذي يدور عليه كلام العلماء على الأكثر ، ومعظم هذا الكلام اجتهادات فردية لا تستند إلى أحاديث نبوية وصحابة وثيقة ، وتحمل توقفاً وتحفظاً ، ومنها ما تقوم الشواهد على عدم صوابه ، والقليل منه هو الذي يمكن أن يكون صواباً خلافاً لما يريد الحوري أن يوهمه ويؤول به . وقد نبهنا على ذلك كما نبهنا على ما روي من النوعين الأولين في « التفسير الحديث » وأوردنا من الأدلة والشواهد ما نعتقد أنه مقنع وفيه وضع للأمر في نصابه الحق .

والحوري قرأ في « الإتيان » ما يؤيد ما قلناه حيث جاء فيه (وهذا الضرب أي المنسوخ حكمه دون تلاوته هو الذي كتبت فيه الكتب المؤلفة في الناسخ والمنسوخ ، وهو على الحقيقة قليل جداً وإن أكثر الناس من تعدد الآيات فيه) ولكن الحوري لم يرعو ولم يمتنع عن التهويل والتخريف والتخريف .

ومن الجدير بالذكر أن هناك من ينكر وجود منسوخ حكماً لا تلاوة في القرآن فضلاً عن وقوع نسخ من النوعين الآخرين في زمن النبي ﷺ . ويعلل ما يبدو أنه منسوخ حكماً مع بقاءه تلاوة بعلة يراها وجيهة وصواباً ، ومن الأمثلة على ذلك آيات الأنفال (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ حَارِبُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

بَانْتِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ
فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ
وَأِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ) ففي حين أن بعضهم يرى أن الآية الثانية نسخت حكم الأولى
يرى بعضهم أن حكم الأولى باق أيضاً بالنسبة لمن لا يستعظم مقاتلة واحد
لعشرة من الكفار بقوة الإيمان ، والرغبة في الاستشهاد ، والاعتماد على
نصر الله ، وأن التخفيف هو لمن يستعظم ذلك ، فجعل على الواحد من
هؤلاء أن يقاتل ضعف عدده على الأقل من عدوه الكافر ، لأنه يمتاز عنه
بالإيمان ، والاعتماد على نصر الله على كل حال ، ويعمل الفريق الأول آية
سورة البقرة (١٠٦) بأنها في صدد تحويل القبلة عن سمت المسجد الأقصى
إلى سمت الكعبة وليست في صدد نسخ آية من القرآن بآية أخرى ،
ويعمل آية النحل بأنها ليست في صدد نسخ حكم في آية بحكم في آية أخرى ..

- ١١ -

وعقد الحوري فصلين طويلين عن بدیع القرآن وبیانه ، وما نبه علیه
علماء القرآن واللغة والبلاغة من فنون ذلك من مجاز وتشبيه واستعارة
وكنایة وتعريض وحصر واختصاص وإيجاز وإطناب وأقسام وإنكار
وتوشیح وتعجب ووعد ووعد وتبشیر وترغیب وجناس وتجنیس وتورية
والتفات واستخدام واستدراك واستطراد وإدماج وإبدال واستثناء ومدح
في معرض الذم وتلطيف وتديبج وتبکیت وتجريد وتعدد وترتيب
وتضمن وجمع وتفریق وتالیف وتوزیع وعتاب ولف وطی ونشر ،
ومشاکلة ومبالغة وتغخیم وتضخیم وإلهاب ، وحجاج وتجمیع وتجاهل وبراعة
استهلال وإيضاح وإشارة وإرداف وتمثیل وإیغال واحتواس ومواربة

وموازنة وترديد وترسيخ ومغايرة وتعليل وسلب وإيجاب ومماثلة وتوهم وتذليل وإيهام ونفي وتكرار وتهذيب وتعليق وتعقيب وتخلص وتوليد وإتباع وإلجاء وإلزام وتخيير وتنظير وتخريج واستقصاء وبسط وإسجال وإيهام وإثبات في معرض النفي ومقارنة ورمز وإيجاء ومناقضة وانفصال وحسن ختام ، وأورد نقلاً عن كتاب «الإتقان» أمثلة لكل هذه الفنون بما لم نر طائلاً في إيرادها ، ثم قفز من ذلك إلى ترديد قول لأحد المستشرقين مفاده أن بيان القرآن على كل حال ومهما كان فيه من فنون الكلام هو (بيان حجازي لا عالمي) لأن ما فيه من عناصر وصور بيانية مستمد من حياة ومشاهد أهل الحجاز ويثبتهم الطبيعية والاجتماعية والمعاشية ، وحاول أن يجد تكملة لهذا القول في جملة (فَأَيُّهَا يَسْرُفَاهُ يَلِيسَانِيكَ) في آيتي سورتي مريم والدخان ٩٧ و ٥٨ وجملة (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلِيسَانِ تَقْوَمِيهِ) في آية سورة إبراهيم (٤) وفسر كلمة اللسان في كل ذلك باللسان الحجازي ، لأنه لسان قوم النبي الأولين ، وقال : إن القرآن نفسه يشهد أن بيانه حجازي لا يتعدى إعجازه لسان قوم النبي .

وكلام الحوري ومن وراءه من المستشرقين الذين ترجع أنهم مبشرون حاقدون جزاف متهافت . وفيه من سوء النية مع الغباء ما لا يمكن أن يخفى . وقصده الجوهرى هو إبطال أو إضعاف دعوى إعجاز نظم القرآن بعد ما ظن أنه أبطل أو أضعف دعوى إعجاز محتوى القرآن بزعمه أن ذلك بما لم يدعه ويقل به الأولون الذين هم الأقرب لعهد القرآن والأفهم لمراميه ...

فاللسان الذي نزل به القرآن ليس لسان أهل الحجاز وحسب ولكنه (اللسان العربي) الذي كان لسان جميع العرب المنتشرين في جميع أنحاء

جزيرة العرب وخارجها معاً يمينها ونجدها ونهامتها وبحرينها ومانها ويمامتها وحضرموتها ثم مشارف الشام ، وصميم بلاد الشام ، وجزيرة الفرات ، وصحراء العراق ، وصميم العراق ، وهذا هو الذي كان يعنيه القرآن حينما وصف لغة القرآن باللسان العربي في آيات سورة الشعراء (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) وبالعربي في آيات سورة يوسف (إِنْ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۖ وَسُورَةٌ طه (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۖ) وسورة فصلت (كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۖ) وسورة الزخرف (إِنْ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۖ) ولقد ذكر (اللسان العربي) مقابل (اللسان الأعجمي) في آية سورة النحل هذه (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) وفي آية سورة فصلت هذه (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) ويعني هذا بكل وضوح وحسم أنه ليس هناك لسان حجازي ، ولسان غير حجازي ، وليس هناك إلا لسان واحد لجميع العرب في الحجاز وغير الحجاز وهو (اللسان العربي) . وكان هذا هو المستقر والشامل من قبل البعثة النبوية بأمم غير قصير ، وليس احتمال وجود تغاير ما في اللهجات وتفاوت ما في مدى الفهم ناقضاً لذلك ، وليست آية الثوري (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ۖ) ناقضة لذلك لأن الدعوة كانت في بدء أمرها موجهة مباشرة إلى أم القرى - مكة - ومن حولها ، وقد شرحنا هذه المسألة شرحاً نعتقد أن فيه المنع لمن أراد أن يقنع في كتابنا « عصر النبي ﷺ » وبيئته قبل البعثة ، والحدودي قراً هذا الكتاب ، ونقل عنه كثيراً ، وكان عليه أن يقف عنده ، لأنه لا يستطيع أن ينقضه ، لأنه حقيقة يقينية قطعية .

ولقد كان من المتواتر الذي بلغ حد اليقين أولاً أن النبي ﷺ كان يتصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكية ، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تكد على مكة في المواسم والأسواق ويتحدث إليهم ، ويتلو عليهم آيات القرآن ، ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال ، وهن المتواتر أن موسم الحج وأسواقه لم تكن قاصرة على أهل الحجاز وخاصة قبيل البعثة ، بل كان يقد إليها العرب من أنحاء الجزيرة وخارجها . وثانياً أن هذا المشهد ظل قائماً بكل شموله في بيئة المدينة بعد هجرة النبي ﷺ إليها بالنسبة لسكانها ولمن هم في منطقتها . ولقد أخذت وفود العرب مشركين ونصارى ومجوساً يقدون على النبي في المدينة بعد الهجرة ولا سيما بعد انتصاراته وانتشار اسمه ودعوته من اليمن وحضرموت ونجد والأحساء والبحرين ومان واليامة ومشارف الشام والشام وفلسطين وجزيرة الفرات فكان النبي يتلو عليهم آيات القرآن ويتخاطب معهم هو وأصحابه الحجازيون المهاجرون والأنصار بلغتهم التي كانت لغة القرآن بصورة طبيعية . وكان يرسل معهم قراء من أصحابه ليعلموهم القرآن ويفقهوهم في الدين ، ويتولوا القضاء بينهم وجباية زكاتهم وتوزيعها ، وكان يكتب لهم الرقاع والعهود والوصايا بنفس هذه اللغة ، ويتلقى من بعضهم الأجوبة بها ، وفي كتب السيرة نصوص كثيرة بما كان النبي يرسله ويتلقاه وهي نفس اللغة القرآنية . وثالثاً إنه كانت اتصالات مستمرة بين أهل الحجاز من ناحية وبين العرب في أنحاء جزيرة العرب الأخرى ، وفي مشارف الشام ، وصميم بلاد الشام ، وجزيرة الفرات والعراق . بدو وحضر قبل البعثة وفي مواسم الحج في الحجاز ، وفي رحلات التجارة وغيرها وكانوا يتفاهمون ويتخاطبون بلغة واحدة . وما دام الحجازيون طرفاً ، فتكون لغة التخاطب هي اللغة العربية التي نزل بها القرآن . ورابعاً لقد روي

كثير من كلام العرب قبل الإسلام ومساجلاتهم وخطبهم وشعرهم وأمثالهم ،
منه ما هو منسوب إلى حجازيين ، ومنه ما هو منسوب إلى نجديين ويمينيين
ونهاميين وشاميين وعراقيين من البوادي والحواضر بما هو مبثوث في كتب
التاريخ والأدب واللغة والتراجم القديمة كالأغاني ولسان العرب والقاموس
ومعجم البلدان والكامل والبيان والتبيين وحياة الحيوان والأمثال والأمثالي
والعقد الفريد والطبري واليعقوبي والبلاذري وابن هشام وابن سعد وأسد
الغابة ودواوين الشعراء ومختاراتها وكتب الحديث والتفسير والحراج النخ
جاءت بلغة فصلى بمائلة للغة القرآنية في مفرداتها وصرفها ونحوها وسبكها
ونظمها ومجازها وبديعها وبيانها وفنونها الأخرى . ومهما كان من ذلك
منحول ومصنوع وبخاصة بالنسبة لما قبل البعثة ، فإن فيه على كل حال
وباعتراف أشد المؤتمتين في ذلك شيئاً غير قليل صحيحاً وبخاصة بما هو
منسوب إلى رجال ونساء عاشوا في حقبة المائة سنة التي سبقت البعثة النبوية .

ففي كل هذا أدلة لا تدحض على شمول اللغة العربية الفصحى لأهل
جزيرة العرب وخارجها قبل البعثة وهي نفس اللغة القرآنية بحيث يمكن
القول بكل قوة : إن كل كلمة جاءت في القرآن ، وكل معنى ورد فيه
وكل تعبير واستعمال فيه حقيقي ومجازي وديني واجتماعي وتاريخي واقتصادي
ومعاشي وعلمي وفلسفي كان العرب في جميع أنحاء الجزيرة وخارجها
يفهمونه ويستعملونه قبل نزول القرآن من حيث الإجمال وبقطع النظر عن
السعة والضيق .

ويترب على هذا أن ما في القرآن من مختلف الصور المعاشية والاجتماعية
والثقافية والدينية تعبر عما عند الناطقين باللغة العربية القرآنية ، أي : ما
عند جميع العرب بصورة عامة . وبكلمة ثانية إن اللغة القرآنية لم تكن
لغة حجازية ، وإنما كانت لغة العالم العربي المنتشر في جزيرة العرب وما

يمجاورها من بلاد الشام والفرات والعراق : بوادها وحواضرها . ويكون بيان القرآن على نفس الشمول بطبيعة الحال ، وليس بياناً حجازياً كما يزعم الحوري ، ومن وراءه من المبشرين .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هناك أموراً إنسانية يشترك فيها كل إنسان في كل مكان وظرف من عواطف وأحاسيس وغرائز وميول ، ثم هناك مشاهد طبيعية مشتركة في كل مكان من سماء وشمس وكواكب وماء وجبال ووديان وهواء وأنهار وبحار ومعادن وقوى كونية ومظاهر كونية لا يصح أن يقال : إن ما في القرآن في صدددها إنما يعبر منها عما كان عند العرب ، أو عند العرب الحجازيين ، لأنها عند جميع الناس في كل مكان . ولكل ذلك في القرآن ماثات الصور الرائعة التي ينطوي فيها مختلف فنون الكلام والتي هي في كل ذلك في الذروة في الدقة والروعة والطلاوة والحلاوة ، وحسن الأداء والنفوذ والتأثير يصح أن تكون عالمية التأثير إذا ما نقلت إلى غير الناطقين بالعربية على وجهها ، وتثير الانبهار في نفس سامعيها .

وفي لغات الأمم المتحضرة القديمة والحديثة تعبيرات مشتركة عن مواقف ومشاعر وأحاسيس وحالات إنسانية عامة اجتماعية وأخلاقية وسلوكية وسلبية وإيجابية وفكرية وتمثيلية وجدلية وافتراضية ومجازية وتشبيهية وجدية وهزلية يصح أن تسمى عالمية . وفي القرآن ماثات الصور من كل ذلك بأسلوب يفوق أية لغة أخرى حسن أداء ، وقوة سبك ، وبلاغة ونفوذ وعمق وإصابة بما يمكن أن يلمسه المتوسطون فضلاً عن النبهاء والعلماء حين المقابلة والمقارنة .

ومن الحقائق اليقينية أن الإسلام أخذ ينتشر بين غير العرب في زمن النبي أولاً ثم في زمن الخلفاء الراشدين ، والروايات متواترة عن إسلام جماعات من الحبشة على رأسهم النجاشي في زمن النبي ، وأن ذلك كان

نتيجة لما فهموه من فصول القرآن المترجمة إلى لغتهم ، ولا يمكن أن يكون هذا قد وقع إلا من تأثير كلام الله وقوته ونفوذه في نفوسهم ، ثم اتسع نطاق الإسلام في أهل بلاد الشام والعراق ومصر وفارس والترك والبربر والنوبة والروم الخ خلال النصف الأول من القرن المجري الأول ، والمتبادر أن ذلك كان نتيجة كذلك لما فهموه من فصول القرآن المترجمة إلى لغاتهم ولا يمكن أن يكون قد وقع إلا بسبب ما كان من تأثير كلام الله وقوة نفوذه في نفوسهم ، ثم اتسع نطاق الإسلام أكثر في النصف الثاني من القرن الأول وبعده ، فعم جميع أهل البلاد المذكورة في مشارق الأرض ومغاربها ، ووصل إلى أوروبا بطريق الأندلس . والمتبادر أن ذلك كان نتيجة لسماعهم القرآن ، وتأثرهم به فهماً مباشراً أو مترجماً فصار بيانه بذلك بياناً عالمياً منذ عهده الأول ، وما يزال رغم أنف الحوري ومستشرقه المبشرين الحاقدين .

ونحن نعتقد أن كل منصف ذي ذوق بالأدب والفن وأساليب الكلام من غير العرب فضلاً عن العرب لا يسعه إلا أن ينهر من أسلوب القرآن وفنون كلامه على اختلاف أنواعها وتنوع أغراضها ويتأثر به إذا ما تعلم العربية أو ترجمت له . والحقد والغشاة هما اللذان يمنعان الحوري من ذلك بقصد إطفاء نور الله في كتابه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . ولقد عقب الحوري على ما جاء في فصله بالإضافة إلى ما قاله وعزاه إلى بعض المستشرقين قائلًا : (إن علماء القرآن رأوا في كل ذلك إعجازاً حيث يبدو أنهم رأوا الإعجاز في صناعته أكثر من روحانيته ، وهم يتكلمون عن الأولى أكثر من الثانية ، وأن التحدي إنما كان للنظم والبيان .) والحوري لا يمل من اجترار أقوال وتكرارها ، ولقد شرحنا هذه المسألة في مطلع هذا البحث شرحاً فيه الغناء والإفهام^(١) .

(١) انظر الصفحة ٣٣٧ وبعدها .

ولم ينتبه الحوري إلى ما وقع فيه من تناقضات ، ففي تعقيب يبرز قول بعض علماء القرآن بأن إعجاز القرآن في بيانه ، وطبيعي أن القائلين إننا عنوا بيانه العربي الواسع ، وليس بيانه الحجازي الضيق ، ومناقضة أخرى وقع فيها وهو يتعمس لإثبات كون بيان القرآن بياناً حجازياً . ففي موقف آخر قال هاذياً : إن لغة القرآن المكتوبة في المصحف هي لغة نجدية وهنا يقول هاذياً : إن بيان القرآن هو بيان حجازي ..

ولم ير الحوري ما يمنعه بعد ما كان منه من هراء وهذيان أن يتواقع فيها أكثر فيقول : (إن الإعجاز الحق هو في إنجيل المسيح ، لأنه روح وحياة ، فالخوف يقتل ، والروح هو الذي يحيي ، وهو إعجاز لا يضيع في الترجمة كما يضيع إعجاز القرآن إذا ما نقل من لسان إلى لسان ، لأنه إعجاز بياني وحسب ، بينما يتسجم الإعجاز الروحي مع كل لسان ، ويتنوقه كل مؤمن في كل أمة ، والبديع والبيان والصناعة اللفظية والمحسنات البديعة حرف وجسد لا تفيد كبير أمر بالنسبة للروح الذي هو حياة العقول والقلوب والدين والإيمان ، والأصل في الإعجاز إنما يجب أن يكون في الروحية لا في البيان ولا في البديع)

والحوري في هذا القول يعود مرة أخرى بدون ملل إلى نفخته السابقة ، وإلى بيت قصيده ، وهده الحيث الذي فندناه ، وأثبتنا زيفه وتمافته . فعلماء القرآن وإن اهتم كثير منهم لإبراز فنون البيان والنظم القرآني وإعجاز القرآن من هذه الناحية ، فإنهم فعلوا هذا بالإضافة إلى تقريراتهم بالإعجاز الروحاني والمحتوى أيضاً ، وهو ما قرره القرآن نفسه ثم رسول الله على ما أوردنا شواهد ، وإعجاز القرآن هو بدون ريب لروحانيته أكثر منه لنظمه وفنونه ، لأن فنون البيان والنظم هي مظهر من مظاهر ما وصلت إليه اللغة العربية التي نزل بها القرآن من شأو بليغ قبل البعثة في حين

يظل هدي القرآن وروحانيته هما الأصل والهدف والجوهر الذي عبرت عنه الآيات العديدة المكية والمدنية التي أوردناها في مطلع هذا البحث ، وهي من القوة والنفوذ والسطوع ما يخرس الحوري .

ولا يكتفي الحوري بما تقدم منه لأجل الطعن في النظم القرآني ، ونسف ما قيل من إعجازه الهياثي بقوله : إنه بيان حجازي وحسب وفق الحطة التي ترسمها والتي نهينا عليها في مطلع البحث خاب فاله ، وزهق باطله .

حيث نقل عن الجاحظ قولاً له جاء فيه : (إن الله سمى كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل ، فسمى جملة قرآناً كما سموا جملتهم ديواناً ، وسمى بعضه سورة كما سموا بعض كلامهم قصيدة وسمى مفردة آية كما سموا مفرد كلامهم بيتاً) ثم قال : وفاتهم - أي العرب والجاحظ من جملتهم - أن هذه الأسماء الجديدة منقولة عن العبرانية بطريق السريانية ، فكلمة (القرآن) من (قِرا) و (سورة) من (شورا) و (آية) من (يوت) وقد قصد من هذا تقرير كون أسماء القرآن وأوصاف أقسامه ليست عربية أصيلة .

ومن عجيب تناف الحوري أنه يعرف ويقول في غير موضع من كتبه : إن العبرانية والسريانية والعربية تشترك كلغات سامية في أصول الكلم ، وكان عليه أن ينتبه إلى أن هذه الكلمات لا يمكن إلا أن تكون العرب قد استعملوها وفهموها على مداها قبل نزول القرآن ، فصارت من اللسان العربي المبين ، وكلام الجاحظ إذا كان صحيحاً فلا يمكن أن يؤخذ به كحجة على أن كلمات (القرآن والسورة والآية) تستعمل في القرآن لأول مرة ، ولا نعتقد أنه قصد ذلك لأن علمه وأدبه وعقله أوسع من أن يظن به ذلك ، وما دام أن هذه اللغات مشتركة ، فلا يصح أن

يقال : إن اللغة العربية أخذت هذه الكلمات من السريانية والعبرانية والأصديق أن يقال : إن جذورها موجودة في كل منها ، وإنما في صيغتها القرآنية متطورة عن جذورها العربي الأصل .

- ١٢ -

وعقد الحوري فصلاً طويلاً بعنوان غريب القرآن ، ومصدره الرئيسي فيه « الإلتقان » الذي فيه فصل بهذا العنوان متفرع عنه فروع عديدة . ولقد قال في مطلع فصله : (إن في إعجاز القرآن باباً هو أقرب إلى الغرابة والتعجيز منه إلى الإعجاز مما علمه العلماء القرآن بغريب القرآن ، ويعنون ما في القرآن من مفردات وتعايير وتراكيب مستغربة التأويل) ومع أن العلماء الذين استعملوا كلمة (غريب) ينبهون على أن هذا اصطلاح فقط ، ولم يعنوا أن ما يطلق عليه يصح أن يوصف بالمتكسر أو النافر أو الشاذ ، وزعموا القرآن عن ذلك ومع أنه قرأ بدون رب استدراكهم وتحفظهم ، فإنه لم يمنع نفسه من بدء فصله بما بدأه به من سوء الأدب والتحريف والوقاحة .

ولقد انتقل الحوري بعد تلك البداية البذيئة إلى التفصيل كما يلي بيانه :

١ - لقد أورد نقلاً عن « الإلتقان » جملة من الألفاظ التي يسميها علماء القرآن بغرائب الألفاظ . وهم يقصدون بذلك الكلمات التي أولها المؤولون في بعض الآيات التي وردت فيها بغير المعنى المتبادر منها لأول وهلة . مثل كلمة (بلاه) التي أولها المؤولون في بعض الآيات بمعنى (النعمة) وكلمة (فوم) بمعنى (الحنطة) وكلمة (أماني) بمعنى (أحاديث) وكلمة (جناح) بمعنى (حرج) وكلمة (خلق الله) بمعنى (دين الله) وكلمة (الجوارح) بمعنى (الكلاب والبهائم) وكلمة (العراء) بمعنى

(الساحل) وكلمة (حناناً) بمعنى (الرحمة) وكلمة (تستأنسوا) بمعنى (تستأذنوا) ثم قال : (إن هذا الغريب مشكل في مصادره وفي مدى إعجازه ، والقرآن نزل بلغة قريش فمن أين جاءته هذه الغرائب اللفظية ، وإنه والحالة هذه قد يكون أسلوباً من أساليب التعجيز أكثر منه مظهراً من مظاهر الإعجاز .)

وأورد بعد هذا رواية تعزى إلى ابن عباس أنه قال : إنه لا يعرف معاني (غسلين) ولا (حنان) ولا (أوام) ولا (رقيم) ورواية تعزى إلى أبي بكر وعمر (أنها لا يعرفان معنى (أب)) ثم قال : (إذا كان اللسان العربي المبين لا يستبينه أهله والمقربون إلى النبي ، فكيف يكون فصيحاً في لسانه بليغاً في بيانه ، وهل يكون هذا إعجازاً في البيان أم تعجيزاً للناس .)

وهكذا يستمر في بذاته وسوء أدبه مع الغنائة والغباء في تفصيله كما بدأ بذلك مطلع فصله . فاته سبحانه يتنزه عن قصد تعجيز الذين يدعوم إليه واستعمال الكلام الغريب الذي يشكل عليهم فهم مداه ، ولقد وصف القرآن في القرآن بأنه (لسان عربي مبين) وأنه (لسان عربي غير ذي عوج) و (أن الله قد جعله عربياً لقوم يعلمون ولقوم يعقلون) ومعنى هذا أن كل ما جاء فيه كان مفهوماً سائغاً ، وليس ما روي عن ابن عباس وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم وثيقاً حتى يؤخذ كأمر مسلم به ، ويبنى عليه حكم ونتيجة ، ويتخذ ذريعة إلى الطعن في لغة القرآن ويسر فهمها ، وليس اختلاف ناويل الكلمات المروي معزواً في كتاب (الإتيقان ، إلى عهد النبي ﷺ أو عهد خلفائه الراشدين .

والخوري يعرف هذا لأنه ينقل عن (الإتيقان ، فيكون في ما يقوله سوء قصد وتحريف ، والمتبادر على ضوء وصف القرآن بالأوصاف السابقة

أن هذا الاختلاف هو متأخر عن ذلك العهد . وبعد أن أصبحت اللغة الفصيحة تعلم تعلماً بعد اتساع نطاق الإسلام ، واندماج غير العرب فيه ، وفساد السليقة العربية ، وكل هذا بقطع النظر عن أن اختلاف معاني الكلمات في مقاماتها المختلفة ليس شيئاً شاذاً أو بدعاً ، فهو أمر مألوف في جميع اللغات ، ولا يجمله الحوري الذي يبدو أنه يعرف لغات عديدة شرقية وغربية .

ومع كل هذا فالمفردات التي يوردها علماء القرآن تحت اصطلاح غرائب الألفاظ ، والتي يختلف تأويلها حسب اختلاف مقاماتها لا تكاد تصل إلى واحد من خمسمائة من كلمات القرآن حتى لو سلمنا بجميع ما أورده هؤلاء العلماء تحت هذا الباب بقطع النظر عما يصح أن يكون محل تحفظ وتوقف منه ، ولا تتحمل تضخيماً ولا تهويلاً لو لم يكن باعث ذلك سوء نية وأدب .

٢- وأورد الحوري نقلاً عن « الإتيقان » كذلك جملة مما قال علماء القرآن بأنه بغير لغة الحجاز وبأنه من لغات قبائل تميم وهذيل وأسد وغطفان وبني حنيفة ونجد وحضرموت واليمن وغسان ولخم وجذام وخزاعة وثقيف وجرم ومذحج وخثعم وقيس عيلان وكندة وطى وأنمار والأوس والخزرج وتغلب وممدان النخ ثم قال : (والمشكل الذي يستعصي حله أن القرآن نزل بلسان قريش ، فمن أين جاءت خمسون لغة من لغات العرب ، وأين والحالة هذه إعجاز اللسان القرشي المبين ، وهل هذا من رواسب الأحرف السبعة التي تفرقت في القبائل ؟) .

وهذه الأقوال وما تبعها من أسئلة كسابقاتها تم عن جهل وسوء أدب ، ورغبة في الطعن والتجريح وحسب .

فنسبة الكلمات إلى القبائل التي تنسب إليها ليست وثيقة السند المتمد

إلى عهد النبي ﷺ وما قبله ، فلا يصح أن تؤخذ كإنها حقيقة ، والقائلون متأخرون ، وبينون أقوالهم على السماع والتخمينات ، وربما على ما كان راهناً في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة حينما صارت مفردات اللغة تدون في الكتب ، وتؤخذ من أفواه أهل البادية . حتى ولو صح أن بعض هذه الألفاظ كانت مستعملة عند القبائل المعزوة إليها ، فلا يمكن أن يعني هذا أنها وردت في القرآن لأول مرة ، والوثيقة الصادقة المدونة التي وصلت إلينا هي القرآن ، وقد وصف أنه لسان النبي القرشي ، فلا بد من أن تكون هذه الألفاظ قد أصبحت جزءاً من هذا اللسان قبل نزول القرآن ، وأن يكون قوم النبي الأذنون القرشيون قد عرفوها واستعملوها قبل نزول القرآن ، فلما اقتضت حكمة التنزيل ورودها في مقاماتها وردت على هذا الاعتبار .

وتسأله عن (رواسب الأحرف السبعة) يزيد في كشف سوء أدبه ، وسوء قصده ، وغبائه وغثائه معاً ، وليس لأحاديث الأحرف السبعة أي محل لمثل هذا التساؤل الوقع ، وقد أوردناها وشرحنا مداها في آخر الفصل الأول شرحاً يغني عن التكرار ^(١) .

٣ - وأورد الحوري نقلاً عن « الإتيقان » جملة مما ذكره علماء القرآن تحت عنوان (ما وقع في القرآن بغير لغة العرب) بما قيل : إنها ألفاظ فارسية الأصل ، أو حبشية ، أو بربرية ، أو قبطية ، أو رومية ، أو هندية ، أو عبرانية ، أو سريانية . وقد بدأ بحته بهذه الجملة (ومن أغرب ما في غريب القرآن ما وقع فيه بغير لغة العرب) بما فيه مسارعة إلى كشف سوء أدبه وسوء نيته معاً .

ولقد نقل عن « الإتيقان » جملة من أقوال العلماء في صحة وصاب ما قيل من وجود ألفاظ غير عربية في القرآن ، وعدم صحته وصوابه

(١) انظر الصفحة ٧٧ وبمدها .

وتعارضه مع وصف القرآن بأنه لسان عربي مبين ، ومن ذلك قول بمنع ذلك ، لأن القرآن تحدى العرب بالإتيان بمثله ، فلا يصح أن يكون تحديم بما لا يعرفون من لغات ، وقول بجواز ذلك وكون العرب قد عربوا هذه الكلمات بالسنتهم ، وحولوها من ألفاظ أعجمية إلى ألفاظ عربية ، وصدق عليها وصف القرآن للقرآن بأنه لسان عربي مبين ، وإن التحدي للعرب لم يبق والحالة هذه بلغة غير لغتهم .

ومع أن الشطر الأول من القول الأخير هو الحق والصواب والواقع والمنطقي في هذه القضية ، فإن الحوري لم يقنع به ولم يقف عنده ، لأنه لا يطلب حقاً ولا صواباً ولا منطقاً حيث قال معلقاً : (إن الألفاظ دخيلة على العربية ، وليست أصيلة فيها ، والبلغ لا يستعمل الدخيل إذا كان في لغته غنى عنه) ثم تساءل بجحث وسوء نية (عما إذا كان الأمر اقتضى استعمالها ، لأنه ليس من لفظ عربي ينزل بمنزلتها) ثم قال : (عد إلى الألفاظ وقابلها بأمثالها العربية تجد الجواب الحق من سليقتك حيث تجد أنها جاءت من باب التعجيز لا من باب الإعجاز) . ونقل عن « الإتيان » قولاً لبعض العلماء جاء فيه : (إن حكمة ذلك أن القرآن الموجه إلى كل البشر ينبغي أن يكون فيه من كل لسان حق يصدق عليه جملة (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) فعلق على هذا قائلاً : (إن هذا المنطق أغرب من غريب القرآن الدخيل) .

والحوري في تعليقاته يصدر عن سوء نية وسوء أدب مع الغباء أيضاً حين يقول : إن ورود هذه الألفاظ في القرآن من باب التعجيز ، وإن البليغ لا يستعمل الدخيل إذا كان في لغته غنى عنه ، وإن هذا يعني أنه ليس من لفظ عربي ينزل بمنزلتها ، وحين يطلب من القارئ أن يقابلها بألفاظها ليجد الجواب الحق من سليقته وهو أنها جاءت من باب

التعجيز ، ثم يأخذ ما قاله شخص ما عن حكمة وجود كلمات أعجبية في القرآن كقضية مسلمة ويعلق عليه بكلمته الوقعة مع أنه ليس أكثر من خاطر خطر لواحد من المسلمين المتأخرين اجتهداً عابراً ، وقائل هذا القول : إما أنه يذهب إلى أن الكلمات الأعجبية تستعمل لأول مرة في القرآن للحكمة التي خطرت لباله فيكون في قوله خطأ ونقض لصفة القرآن بأنه لسان عربي مبين ، ويكون قد قرر بأن في القرآن ما لا يفهم سامعوه الأولون ، ولا يمكن أن يكون هذا من مسلم عالم عاقل ، ولما أن يكون يعرف أنها كانت مستعملة في لسان العرب قبل نزول القرآن ، فيكون منسجماً في ذلك مع القائلين بهذا القول ، ويكون تعليقه من باب الاجتهاد الفردي الذي لا يلزم أحداً ولا ينبغي أن يحسب على المسلمين ويتخذ ذريعة إلى الطعن في القرآن وفي عقول المسلمين عامة بسببه .

وبدلاً من أن يوجه الحوري إلى القارئ تلك الجملة الغوغائية التهويلية التي يطلب منه فيها الرجوع إلى سليقته ليجد الحق ويعرف أن هذه الألفاظ جاءت من باب التعجيز وهو كاذب سيء النية والأدب فيها كان عليه أن لا يتغابي عن الحق والحقيقة في الموضوع وهما اللذان سوف يجدهما القارئ إذا مارجع إلى سليقته وتروى حيث يجد أن الألفاظ الأعجبية التي عربها العرب ، وصاغوها على أوزان ألفاظهم قبل البعثة ، ووردت في القرآن كجزء من اللسان العربي بعد تعريبها هي مدلولات على مواد لم تكن من مستعملات الحياة العربية ، وعرفها العرب من أهلها حينما اعتكفوا بهم ، فاقتبسوها مع مسمياتها ، وعربوا هذه المسميات ، وأن ذلك لا يمكن أن يكون ثم إلا قبل نزول القرآن ، فلما اقتضت حكمة التنزيل ورودها في القرآن جاءت فيه على ذلك الاعتبار ، ولا يمكن إلا أن يكون سامعوا القرآن قد فهموها وتلقوها على هذا الاعتبار لذلك ،

ولم ترد في القرآن للتزويد من البلاغة ، وليس في ورودها فيه ما يسوغ الغمز من بلاغته ، ولا يكون هذا إلا بمن ساء أدبه ونيتة ، وتجرد عن الذوق أو غبي أو أحمق .

هذا مع التنبيه على أن هناك اختلافاً على الألفاظ التي يقال : إنها أعجمية حتى إنه لم يثبت عند بعضهم إلا ٢٤ ، وعند بعضهم ٢٧ وأكثر ما ثبت بعضهم ٦٠ وبما يمكن أن يكون صحيحاً من ذلك (السلسيل والسجيل والزنجيل والكافور والمشكاة والسرادق والسندس والإستبرق والياقوت والقرطاس والدينار والدرهم والقنطار والفردوس والأباريق والبيس والصلوات والحواريون) ويضاف إلى هذه الألفاظ أسماء كثيرة وردت في القرآن في أوزان عربية ولكن أصلها أعجمية على التأكيد ، وقد عربها العرب بعد أن سمعوا أخبار أصحابها واستعملوها قبل نزول القرآن وهو آدم ونوح وإدريس وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى وزكريا ويحيى وداود وسليمان ويونس وأيوب واليسع وجبريل وميكال ومالك وهاروت وماروت وطالوت وجالوت وفرعون وهامان وقارون .

وليس في هذا ما يتحمل التهويل والتهويل ، وليس فيه بدع ولا غرابة ، فكل أمة من أمم الدنيا تتصل بغيرها تأخذ منه وتعطيه ما عند كل منها من مستعملات ليست عند الآخر مع مسمياتها أحياناً ، وليس من لغة من لغات الدنيا إلا وفيها بعض ألفاظ من غيرها تسربت إليها مع مسمياتها ، والمهم في موضوعنا هو أن الكلمات القرآنية الأعجمية الأصل قد عربت وصيغت على أوزان عربية ، واستعملها العرب ، وغدت جزءاً من لسانهم قبل نزول القرآن ، فلم يعد محل للكلام عنها من باب كلام الحوري فضلاً عن غمز وتهويله .

٤ - وأورد الحوري نقلاً عن « الإتيقان » جملة مما يذكره علماء القرآن تحت عنوان (غريب الضائر) والمراد بهذا هو التنبيه على ما في بعض الآيات من كثرة الضائر ، وتباعد مراجعها مثل ما في الآية (أَنْ اِقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) فالضمير الأول عائد إلى موسى ، والثاني عائد إلى التابوت ، ومثل ما في الآية (لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ...) حيث اختلطت الضائر بين الله ورسوله ، ومثل ما في الآية (وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) فضمير فهم عائد إلى أهل الكهف وضمير منهم عائد إلى المتحدثين عنهم في الآيات السابقة الخ . ومع أنه ليس في الآيات إشكال على الفهم ، فإن الحوري لم يمنع نفسه من إساءة أدبه ، فقال : إن هذا من باب التعجيز لا الإعجاز ، ويهدف بذلك إلى الحطة التي اختطها وهي الطعن في إعجاز نظم القرآن حتى يتم له حسب ما زين له شيطانه الطعن في إعجاز القرآن نظماً ومحتوى ، وقد خاب فآله وزهق بآطله .

٥ - وأورد الحوري نقلاً عن « الإتيقان » جملة مما يسميه علماء القرآن (غريب الأفراد) وهو أن يكون للكلمة في مقام واحد معنى غير المعنى المتبادر المعتاد الذي يكون لها في المقامات الأخرى . مثل كلمة (الأسف) التي معناها المعتاد الذي تفيد آيات عديدة (الحزن) والتي جاءت في آية سورة الزخرف هذه (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) بمعنى (الغضب) . ومثل كلمة (البروج) التي معناها المعتاد التي تفيد آيات عديدة (بروج السماء) والتي جاءت في آية سورة النساء هذه (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ) بمعنى (الحصون المنيعية) ومثل كلمة (نكاح) التي هي عادة بمعنى (الزواج) وجاءت في آية سورة النساء هذه (وَابْتَاعُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) بمعنى بلوغ الرشد والاحتلام .

ومع أنه ليس بدءاً أن يكون لكلمة ما معاني مختلفة حسب اختلاف مقاماتها في الكلام وأنه ليس من محل للشك في أن العرب كانوا يعرفون هذه المعاني المختلفة ، ويستعملونها قبل نزول القرآن ، ومع أن المعاني المختلفة ليست متباعدة جداً أو متعاكسة وهي مع ذلك كلمات قليلة ، فإن الحوري علق على هذا متسائلاً عن وجه الفصاحة والبلاغة والإعجاز في هذا ، وسماه شذوذاً . وهادفاً بهذا إلى ما هدف إليه في سابقه من الطعن في إعجاز النظم القرآني على ما زين له شيطانه دون أن ينتبه إلى ما وقع فيه من غثاء وتفاهة ، بل نعتقد أنه قال ما قال وهو يعرف في قرارة نفسه أنه متهافت متمحل .

٦ - وأورد الحوري نقلاً عن « الإلتقان » جملة مما ذكره علماء القرآن تحت عنوان (الوجوه والنظائر) والمقصود من هذا ، تعدد معاني الكلمة في المقامات المختلفة ، ومن الأمثلة على ذلك كلمة (الهدى) التي أولت حسب ما جاءت فيه من مقامات بسبعة عشر معنى أو وجهاً حيث أولت بمعنى الثبات والإيمان والدين والدعاء والنبي والقرآن والتوراة والحجة والتوحيد والشهادة والإصلاح والإلهام والتوبة والإرشاد . ومثل كلمة (الرحمة) التي أولت بمعنى الإسلام والإيمان والجهة والمطر والنعمة والنوء والقرآن والنصر والمودة والسعة والغفران والرحمة ، ومن هذا الباب كلمات الروح والفتنة والقضاء والذكر والدعاء .

ومع أن تعدد معاني الكلمات في اختلاف المقامات ليس بدءاً كما قلنا قبل ، ومع أنه لا محل للشك في أن العرب كانوا يفهمون المعاني المتعددة للكلمة الواحدة حينما يكون لها ذلك قبل نزول القرآن ، وأن القرآن لم يأت بغريب عليهم ، فإن الحوري أساء أدبه مع الغباوة ، فقال معلقاً على هذه المسألة : (إن كثرة الوجوه والنظائر أقرب إلى التعجيز والغرابة منها

إلى الإعجاز) وتساءل (ومتى كان الغموض من الفصاحة والبلاغة في البيان والتبيين) هادفاً بذلك إلى ما هدف إليه في سابعه من الطعن في إعجاز القرآن النظمي على ما زين له شيطانه . رغم ما في تعليقه من غثاء وتحمّل ، ورغم ما هو متيقن منه من ذلك في قرارة نفسه فيما نعتقد .

ولقد أورد في سياق كلامه قولاً رواه عن شخص لم يذكر اسمه ، ولا الموضع الذي يرويه عنه جاء فيه (إن الرسول مضى ولم يدر ما الروح) وليس لهذا صلة بالكلام ولا مناسبة ، وإنما أوردته للتفيس عن حقه بالتطاول على رسول الله ، فض الله فاه وأخزاه ، والله يقول لرسوله (وَبَسَّالُوثِكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) فلم يكن عدم علم رسول الله بحقيقة الروح عن جهل كما أراد أن يوهمه في إيرواده ذلك القول ، وإنما هو السر الرباني الذي لا يعرفه إلا الله تعالى ، وما دام أن الله يقرّر ذلك ، فلا يمكن أن يكون ذلك القول صادراً عن مسلم صادق الإيمان ، ولا بصح أن يورد بالتالي كحجة ما .

٧ - وأورد الخوري جملة مما سماه علماء القرآن (غرائب التركيب) نقلاً عن « الاتقان » بما يتفرع عنه أنواع عديدة . منها (التذكير في مقام التأنيت والتأنيت في مقام التذكير) كما جاء في هذه الآية (هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) وفي هذه الآية (فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) وفي هذه الآية (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) وفي هذه الآية (وَلِسْلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً) ومنها (التعريف في مقام التنكير والتنكير في مقام التعريف) كما جاء في هذه الآيات (اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ) حيث نكر أحد وعرف الصمد بدون مبرر على حد زعمه وزعم من قال ذلك ، وكما جاء في هذه الآية (هَلْ أَجْزَاءُ الْإِنْسَانِ إِلَّا

الإحسانُ) والإحسان الشافي هو غير الأول فلا يجوز تعريفه على حد زعمه وزعم من قال ذلك ، ومنها (تعارض الخطاب) حيث يكون الاسم محل الفعل وبالعكس كما جاء في هذه الآية (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ) حيث يقتضي أن تكون (رازقكم) حسب زعمه وزعم من قال ذلك ، ومنها (غرائب العطف) كما جاء في آية سورة المائدة (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَى) حيث يقتضي أن تكون الصابثون في صيغة (الصابئين) على حد زعمه وزعم من قال ذلك ، وكما جاء في آية سورة الروم هذه (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ لِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَغْفِرُوا مِنْ ذُنُوبِهِ) وكما جاء في آية سورة المنافقون هذه (لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَكُنْتُ مِنَ الصَّالِحِينَ) ومنها (غرائب الأفراد والجمع) كما جاء في آيات سورة الشعراء هذه (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) وفي آية الشورى هذه (إِنَّ بَشَابِقَ الْبَرْقِ لَنُورٌ وَمَا تَلْمِزُكَ مِنْ شَرٍّ) وفي آية فاطر هذه (وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُمَاتُ) . ومنها (غرائب السؤال والجواب) حيث يأتي الجواب أحياناً متعارضاً أو ناقصاً أو زائداً أو غير المقصود من السؤال كما جاء في آية سورة البقرة هذه (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّسِ وَالْحَجِّ) وكما جاء في آيات سورة طه هذه (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا . وَأَهْوُسُ بِهَا عَلَى غَنَمِي . وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) .

وننبه على أننا لم نورد جميع الأمثلة التي أوردها الحوري لكل هذه الأنواع نقلاً عن « الإتيان » ، لأننا لم نقصد الاستقصاء وإنما قصدنا استعراض أقواله ومجملاته .

ولقد علق على كل ما أورده من أمثلة هذه الأنواع تعليقاً هاماً فقال : (إنهم أحسنوا في تسميتها بغرائب القرآن ، لأنها غريبة في أصول اللغة وفقها وبيانها ، وقد حسبوها من دلائل إعجاز القرآن ، وفاتهم أن الدين للعامة من العرب والعجم ، وإن الإعجاز اللغوي البياني خاصة الخاصة من العرب ، فكيف يتندي به عامة العرب وجميع البشر وهو فوق طاقة فهمهم ، والانسان لا يتندي بنور لا يراه) .

وفي التعليق تهويل وتهويل بالإضافة إلى سوء الأدب وسوء القصد ، وقد هدف الحوري به إلى ما هدف بتعليقاته على المواضع السابقة ، وما أراد قوله في هذا التعليق : إن هذه الغرائب الأسلوبية مما يجعل القرآن مستعصياً على عامة الناس ، ولا يمكن أن يكون ذلك من وحي الله تعالى الذي إنما يرسل رسله وينزل كتبه لهداية الناس عامتهم وخاصتهم وقريبهم وبعيدهم . فض فوه وخاب أمه ،

فالأسلوب القرآني هو أسلوب اللغة التي نزل بها ، والذي كان أهلها يفهمونه على وجهه ، وبعبارة أخرى إن هذا الأسلوب بما كان أسلوباً سائفاً عند أهل هذه اللغة بطبيعة الحال .

وتسمية الأمثلة بالغرائب هي تسمية متأخرة من أناس تعلموا العربية تعليماً بعد أن فسد اللسان العربي والسليقة العربية ، وربما لم يكونوا عرباً أصلاً ، ولا يصح أن يحسب هذا على التنزيل القرآني إزاء ما وصف به هذا التنزيل (بلسان عربي مبين) و (قرآناً عربياً غير ذي عوج) و (هدى ورحمة وذكرى للعالمين) وهذا بقطع النظر عن أنه ليس في الأمثلة التي أوردها الحوري نقلاً عن كتاب « الإتيقان » محل لطنع صائب في الأسلوب والقاعدة ، وعن أن المعاني واضحة سائفة فيها لا تسير حيرة ولا بلبلة ، ولا إشكالاً على أفهام العامة فضلاً عن الخاصة ، وبقطع النظر عن كون الذين سموها بالغرائب لم يقصدوا بتسميتهم التنبيه على شذوذ

وخلل فيها ، وإنما قصدوا التنبيه على ما في القرآن من فنون أسلوبية قد تبدو غريبة لأول وهلة .

ومع هذا فليس بما يسوغ أن يحمل القرآن حرجه إذا أشكلت بعض تراكيبه على أفاس متأخرين ، وفي الأدوار التي لم تعد العربية فيها سليقة وليس من تعارض بين ما نقرره وبين أن يتلقى أمثال هؤلاء الناس توضيح ما يمكن أن يشكل عليهم من القرآن من علماء القرآن وخاصة المسلمين ، وليس من شأن هذا أن يخل بقوة الهداية القرآنية ، ويمنع انتشار نورها في كل الأدوار ، وهو ما تحقق فانتشر الإسلام بين جميع العرب ، ثم انتشر وما زال ينتشر في مشارق الأرض ومغاربها ، واهتدى الناس من مختلف الأجناس والألوان في كل مكان وزمان ، وما يزالون يتدون بنور القرآن وأنف الحوري راغم ، وكبدته يتحرق غيظاً وحقدًا .

- ١٣ -

ولقد عقد الحوري بعد الفصل السابق الطويل فصلاً بعنوان (أساليب نظم القرآن وفنونه) وقال فيما قال : إن القرآن يبدأ بالسجع الموزون المقفى ، وانتهى بالكلام المرسل ، وأنه على كل حال فريد ، فهو نثر وليس كالنثر ، وشعر وليس كالشعر ، ومقفى وليس كقوافي العرب ، وموزون وليس كأوزانهم ، وهذا ما جعل العلماء يجمعون على أن إعجازه هو في نظمه العجيب ، غير أنهم ليسوا متفقين على ناحية الإعجاز فيه ، ولا على مدى تحدي القرآن للكفار حينما اتهموه بأنه كاهن لما رأوه يتلو سجعاً كسجع الكهان ، وبأنه شاعر حينما رأوه يتلو كلاماً شبيهاً بالشعر ، وبأنه مجنون لأنهم ظنوا أن الجن يخاطبونه ويلقون إليه على ما كان العرب يعتقدون بالنسبة إلى نوابغ الشعراء والكهان والسحرة ، ثم تحدوه بالإتيان بالمعجزات التي تشهد بصحة دعواه بأنه مرسل من الله ، وموحى إليه منه ، فلم يستطع . وقابل تحديهم بالتحدي بالقرآن ، وقال لهم : إنه

معجزته الكبرى ، وطلب منهم أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله ، ثم أعلن عجزهم عن ذلك ، وقال : (لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . كما أن العلماء لم يتفقوا على أسباب عجز الكفار عن ذلك . ثم أخذ يورد جملة من أقوال العلماء الواردة في كتاب « الإقتان » ، والتي لا نرى طائلاً في إيرادها ، وأخذ بعد ذلك يذكر أنواع الأساليب القرآنية وسور كل نوع وبخاصة المكيات ، ويركز على ما نبه عليه العلماء من مميزات كل سورة وفنونها وخواتمها وأقسامها وترصيعها ، ثم عاد فقال : إنهم على كل حال أجمعوا على أن إعجاز القرآن بنظمه ، ولم يتفقوا على ناحية بعينها فيها هذا الإعجاز ، ثم قال : (والخلاصة إن أهل العلم اختلفوا في وجه إعجاز القرآن ، وأقوالهم المتعددة المختلفة دليل على ذلك ، وإن أقوالهم ثلاثة أنواع واحد يحرص الإعجاز في وجه ، وواحد يجعل الإعجاز في وجوه عديدة ، وواحد يعلن عجزه عن وصف الإعجاز ، وجميعهم ينطلقون من مبده القرآن كلام الله وكلام الله معجز في ذاته) وأورد قولاً لابن حزم نقلاً عن « الإقتان » جاء فيه : (لم يقل أحد أن كلام غير الله معجز ، لكن لما قاله الله وجعله كلاماً له أصاره معجزاً ومنع من بمائلته ، وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره) وأورد قولاً للرافعي جاء فيه (وهل يراد إثبات الإعجاز للقرآن إلا إثبات كونه كلام الله) ثم قال غامزاً : (وهذا من حيث أصول المنطق دائرة مفرغة ، كلام الله معجز ، لأنه كلام الله ، وإعجازه أنه كلام الله .

وغز الحوري وقاحة وسوء أدب ، فمن حق المسلم أن يقول : إن القرآن كلام الله ، وإن كلام الله معجز ، وينطوي في هذا القول الذي يعجزه الحوري أن الإعجاز ليس في نظمه فقط وإنما في نظمه ومحتواه ، فهو في البيان والبلاغة والأسلوب والنظم وفنون الكلام على أروع وأفصح

وأبلغ ما يكون ، وهو في المحتوى والنورانية والهدى والروحانية والنفوذ والتشريع والمبادئ والأهداف على أسمى ما يكون أيضاً ، فهو معجز في بيانه ، معجز في محتواه ، وتحدي القرآن للكفار هو لهذا وذلك ، وإن كان للمحتوى أكثر منه للنظم على ما نهينا عليه في مطلع البحث ، وسيبقى التحدي قائماً لكل إنسان ، وسيبقى العجز عن الإتيان بمثله هو المائل أبد الآبدين رغم أنف الحوري ، وصدق الله العظيم (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) .

ويلاحظ أن الحوري عاد في آخر فصله إلى مبادئه من تكرار القول بأن علماء المسلمين متفقون على أن إعجاز القرآن في نظمه ، وكل أمرهم أنهم يختلفون في وجه هذا الإعجاز .

وقد أثبتنا في الفقرة الأولى من هذا البحث كذب الحوري على علماء المسلمين ، وأقننا الدليل من القرآن والحديث الصحيح على أن الإعجاز هو في الدرجة الأولى لمحتواه الهادي .

- ١٤ -

ولقد انتقل الحوري بعد هذا إلى المقارنة بين إعجاز القرآن والإنجيل ، فقال : إن اليهود نحدوا المسيح كما تحدى العرب محمداً ، ورد عليهم تحديمهم ، ولكن ما بين إعجاز القرآن وإعجاز الإنجيل فارق جوهري . ولقد أجمع القوم - أي : علماء المسلمين وفي هذا تكرار لأكذوبته المتهافة التي لا يبل من تكرارها - على أن إعجاز القرآن في القول الجميل مع أن هذا القول نفسه ليس عالمياً ، وإنما هو بيان حجازي محدود - وفي هذا تكرار لزمعه السابق المتهافت الذي أثبتنا زيفه - في حين أن إعجاز الإنجيل قائم في سحر البيان ومر المعجزات الشاملة معاً ، وفي حين أن

القرآن يشهد أن إعجازه كله في بيانه وفصاحته وبلاغته - وهذا كذب حريص على كتاب الله - فإن الإنجيل يشهد بأن إعجازه في القول المعجز والعمل المعجز معاً ، وليس في الإنجيل آيات محكمات وأخر متشابهات . وليس فيه غريب وغرائب ، ولا ناسخ ولا منسوخ ، وكل هذا مما يتميز به الإنجيل وإعجازه عن القرآن وإعجازه .

ونجّل لنا أن هذا هو بيت قصيد الحوري وهدفه في جميع مواضع بحثه بل في كل كتبه . ولا يسأم الحوري من اجترار وتكرار الكلام مها صار مملاً وبدا غثاً بسبيل التركيز على ما في نفسه مها كان كاذباً زائفاً ، وكل هذا ليصد بني ملته عن القرآن ، ونور القرآن ، ورسول القرآن ، ودين القرآن الذي رشحه الله ليكون دين البشرية جميعاً ، وآلى على نفسه أن يظهره على الدين كله ولو كره الكافرون . وليقيم مطية يركبها هو وأمثاله وبقرة يحلبونها ، لأنه يعلم من دون ريب أنه أهون وأعجز من أن يؤثر بكلامه على المسلمين .

وإنجيل الله الذي أنزله على رسوله وعبيده عيسى عليه السلام ، والذي نحن نؤمن به ونحترمه ليس في يدنا ، وليس موجوداً للمقارنة الموضوعية ، والأناجيل المتداولة هي من أفلام البشر ، وما فيها مما يعزى إلى عيسى عليه السلام متلقى من أفواه الرواة ، وقد اختلطت وصار فيها الغث والسمين والمتناقض والمتنع ، وهي مع ذلك تكشف عن سلبية ومحدودية إلى أبعد حدود السلبية والمحدودية ، بحيث لا يمكن أن ينعقد بينها وبين القرآن أية مقارنة موضوعية .

ولا نحب أن نتوسع في هذا ، لأن هدفنا في ما نكتب هو الدفاع عن الحق والحقيقة وشرحها بالنسبة للقرآن الذي حاول الحوري بكل قوته وذكائه أو بالأحرى غبائه تجويجه دون مبالاة بما في ذلك من غثائه ووقاحة

وسوء أدب وسوء نية وإفك وزيف وتهافت وغباء ، وندع المقارنة والحكم لكل عاقل منصف . والقرآن والأناجيل بين أيدي الناس ، ونحن على يقين بأن الحكم لن يكون كما يشتهي الحوري .

ونحن على يقين تام أن الحوري حينما يقف من القرآن مواقفها إنما ينفس عن عقدة في نفسه ، ويفش غلته بسبب ما يعرفه جميع الناس من الفارق العظيم بين أناجيله وبين القرآن . (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَاَكْذِبُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ..) وصدق الله العظيم الذي أنزل هذه الآيات في حق أمثال الحوري في زمن النبي لوقوفهم موقفاً مماثلاً لموقفه ، والتي توجه اليوم إلى الحوري ، لأنه يحاول ما حاوله أسلافه الذين رد الله عليهم هذا الرد المفحم القاضح الذي فيه تقرير لتفاهة محاولاتهم وسوء أدبهم وقصدهم .

سابعاً

صفات المسيح وأمر عليهما السلام وعقائد النصارى فبهما في القرآن

- ١ -

يتم الحوري الحداد اهتماماً كبيراً في مواضع كثيرة من كتبه لإبراز ما في القرآن من أوصاف للمسيح وأمه عليها السلام ، ومن ثناء عليهما ، وتنويه بها ، واختصاص لها حتى لكانه يريد أن يثبت أن القرآن يعترف بلاهوتية المسيح بصورة ما .

ولو كان الحوري يعترف بوحى القرآن ، ونبوذة محمد ﷺ ، لكان يمكن أن يقال : إنه يريد استخراج حقيقة لاهوتية لها للمسيح عليه السلام من كتاب أنزله الله على نبي من أنبيائه ، ووصل إلينا كما نزل ، غير أن كل كلامه في كل كتبه بعيد عن هذا الاعتراف ، وقد تبادل لنا أنه يريد بذلك إثبات نظرية أو فكرة كررها بأساليب مختلفة ، وهي غلبة السمة المسيحية على النبي محمد ﷺ ، وتأثره بها ، واستخراج اعتقاد محمد بلاهوتية المسيح ، وتسجيله ذلك في القرآن بتأثير تلك السمة . وهكذا تبلغ فيه الشطارة ، أو الصفاقة إلى هذا الحد ، من حيث إنه يتغافل عن مدى الآيات المحكمة القطعية في شخصية عيسى عليه السلام ، سواء منها المكية أو المدنية ، ويتشبث بالآيات المتشابهة ، وتأويلها تأويلاً ينسجم مع هواه على ما سوف نشرحه بعد بما هو دأب الذين في قلوبهم زيغ وهوى وموض .

- ٢ -

ولقد أورد أولاً الآيات الواردة في مريم عليها السلام ، وقد رأينا أن

نكتفي بإيراد أسماء سورها وأرقامها وهي آيات آل عمران ٣٣- ٣٧ و ٤٠ - ٤٧ والنساء ٢٥٦ والمائدة ٧٥ و ١١٦ ومريم ١٦- ٢٢ والأنبياء ٩١ والتحرير^(١).

ولقد اكتفى الحوري بشرح معاني الآيات شرحاً مريباً مع إرادته أقوال بعض المفسرين الاجتهادية التي ظنها تتوافق مع ما هدف إليه من إسباغ معانٍ قدسية على مريم ، ثم انتقل إلى تحليل الآيات بأسلوب أبرز فيه ما فيها من هذه المعاني متغافلاً عما فيها من معانٍ أخرى تضع الأمر في نصابه الحق من شخصية مريم وابنها عليها السلام ، ومتغافلاً كذلك عن أقوال المفسرين في هذه النقطة ، فقال ما خلاصته : إن أم المسيح بنص القرآن آية للعالمين في اصطفاها ، آية للعالمين في ولادتها ، آية للعالمين في حدوثها ، آية للعالمين في طهارتها وقدسيتها ، آية للعالمين في حياتها كلها وفي شخصيتها لحدوثها ، آية للعالمين في بشارتها بابنها وحبلها وولادتها ، وإنها ما من امرأة بين الملائكة والبشر أشراف منها ، وإن كل هذا قد قدر لها منذ الخلق ليتناسب مع عظمة ابنها الفريدة . وما قاله (إن جملة (وصدقَتْ بكلمات ربها وكتبه) في آية التحريم تقرأ أيضاً (وصدقَتْ بكلمات ربها وكتبه) ويعني هذا أن في الآية شهادة بإيمانها بكلمة الله التي هي كناية عن المسيح ، وبكتابه الذي هو الإنجيل) . وأورد الحديث الذي أوردناه قبل المروي عن النبي ﷺ وجاء فيه : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها ، واقروا إن شئتم » وإنشأ عيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، كنص نبوي فيه تأكيد بأسلوب آخر لما كان من اختصاص الله تعالى مريم وابنها بعناية خاصة دون سائر البشر بسبب تلك العظمة الفريدة

(١) يحسن بالقارئ أن يقرأها من المصحف حين قراءة هذا الفصل .

ولقد أورد الحوري كذلك الآيات التي فيها ذكر المسيح عليه السلام ،
وقد رأينا أن نكتفي بإيراد أسماء سورها وأرقامها وهي : البقرة ٨٧ و ٢٥٩
وآل عمران ٤٥ - ٦٤ والنساء ١٥٦ - ١٥٩ و ١٧١ - ١٧٣ والمائدة ١٧ و ٤٦
و ٧٢ - ٧٧ و ١٠٩ - ١١٩ والتوبة ٣٠ و ٣١ ومريم ١٦ - ٣٧ والأنبياء ٦١
والمؤمنون ٥٥ والزخرف ٥٧ - ٦٥ والحديد ٢٧ والصف ٦^(١) .

وكما فعل الحوري في صدد الآيات التي ذكرت فيها مريم فعل في
صدد هذه الآيات ، فشرح معانيها شرحاً مريباً ، وأورد أقوال بعض
المفسرين الاجتهادية التي ظنها تتوافق مع ما هدف إليه .

وقد قال في بدء كلامه : إن القرآن يقرر بصورة عامة أن المسيح
آية في مولده ، آية في حدائته ، آية في رسالته ، آية في قدامته وكمال ، آية
في شخصيته ، آية في انفراده . وإن هذه الشخصية في القرآن تسمو على جميع
الأنبياء ، وإن الآيات بجملها لا يمكن إلا أن تترك في نفس القارئ
فكرة عظيمة عن سمر المسيح حتى لتخرج به عن طبقة البشر ، وتترك
الباب مفتوحاً لاعتقاد النصارى بالوهيته . ثم أخذ يحلل الآيات ، ويحاول
استخراج شواهد منها تسبغ على شخصية عيسى عليه السلام قدسية ولاهوتية
ما متوهاً أو موهماً أن ذلك مما تلهمه وتسيغه الآيات متغافلاً عما في
الآيات من نصوص محكمة فيها تضع الأمر في نصابه الحق من عبودية
عيسى عليه السلام لله ، وكونه رسولاً ونبياً من رسله وأنبيائه ، وأرسل
داعياً إلى عبادته وحده ربه ورب الناس جميعاً ، وكون ولادته إنفاً نت
بمعجزة ، وإن مثله كمثل آدم خلقه الله من تراب ثم قال له كن فكان ،
ومتغافلاً كذلك عما قاله مفسرون آخرون كثيرون من تأويلات تضع الأمر
في نصابه الحق أيضاً .

(١) ويحسن بالقارئ أن يقرأها حين قراءته هذا البحث .

وهذا موجز تعليقاته واستنباطاته وأقواله في صدد الآيات نوردها حسب الترتيب الذي أوردناها به :

١ - قال في صدد آيات البقرة ٨٧ و ٢٥٣ التي تذكر أن الله أتى عيسى الينات وأيده بروح القدس : إن الآيات تحتوي ميزتين اختص بها المسيح دون سائر الأنبياء وهما إتيان الله إياه الينات التي لا مثل لها ، وتأيتة بالروح القدس بما لم يذكر مثله لغيره من الأنبياء .

وقد فسر (روح القدس) بأنه روح الله وذاته . وأنكر تفسير المفسرين بأنه جبريل ، بل قال بسبيل إثبات رأيه : إن التأيد بالروح القدس قد اختص به عيسى وحده مع أن جبريل كان ينزل على محمد ، ولم يذكر القرآن مع ذلك أن الله أتد محمداً بالروح القدس متغافلاً في قوله عن آيات سورة النحل هذه (وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .. ١٠٠ و ١٠١) مع التنبيه أولاً على أن هذه الآيات مكية ، وآيات البقرة مدنية ، وبعبارة أخرى : إن روح القدس كان ينزل بالقرآن من الله على محمد أيضاً وبالتالي إن محمداً كان مؤيداً به منذ العهد المكّي . وثانياً على أن المفسرين حينما يفسرون روح القدس بجبريل يستندون في ذلك إلى آية في سورة البقرة تذكر أن جبريل هو الذي كان ينزل بالقرآن وهي (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .. ٩٧) ثم إلى آية في سورة الشعراء تذكر أن القرآن نزل به الروح الأمين وهي (وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ

الروح الأمين". على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عوبي (مبين...) وقالنا على أنه ليس للغوري أن يفسر (روح القدس) حسب ما يريد، ثم يقول: إن ذلك مستند إلى القرآن. فما دام أنه يذكر أن القرآن قد أيد عيسى بروح القدس، فليس له إلا أن يقبل ما عناه القرآن من هذا التعبير، والذي عناه هو ملك الله الذي كان ينزل أيضاً على محمد ﷺ. أما قوله: إن القرآن اختص عيسى من دون الأنبياء بذكر كون الله آله البينات، فهو غير صحيح ففي القرآن آيات كثيرة تذكر أن الله أتى غيره من رسله وأنبيائه البينات، وأرسلهم بالينات، ومنهم محمد ﷺ كما ترى في الأمثلة التالية:

١ - وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ .. [البقرة: ٩٢].

٢ - كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَالَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .. [آل عمران: ٨٦].

٣ - وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. [يونس: ١٣].

٤ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. [النحل: ٤٣ - ٤٤].

٥ - قُلْ إِنِّي مُبَشِّرُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ قَدَّعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .. [غافر: ٦٦].

٦ - لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ .. [الحديد: ٢٥].

٧ - وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . [الصف : ٦ - ٩] .

٢ - وقال في صد آيات آل عمران ٤٥ وبعدها وآيات المائدة ١٠٩ وبعدها: إن القرآن يقرر امتياز عيسى عن غيره منذ حدوثه بالمعجزات ، فتكلم في المهد وعلم التوراة والإنجيل ، والكتاب والحكمة ، ومنح القعدة على إبراء الأكف والأبرص وإحياء الموتى ، وخلق الطير من الطين ، والتنبؤ بالغيب ورفع الله إياه إليه

٣ - ووقف عند جملة (وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) في آية آل عمران (٤٤) فقال : إن الوجاهة هي التقدم في كل شيء في الدنيا والآخرة ، وإنما في الآخرة هي الشفاعة كما قال بعض مفسري المسعين وأنه لم يوصف أحد في القرآن بهذا الوصف ولا محمد ولا إبراهيم ، بل إن القرآن حرّم على محمد الاستغفار للكفار والفساقين ، وبين أن ذلك عبث ، فتكون الوجاهة للمسيح وحده على كل أحد ، والشفاعة أيضاً في الدنيا والآخرة بنص القرآن وهي مزية انفراد فيها دون غيره وفي هذا الكلام من التمثل وتحميل العبارات القرآنية أكثر مما نتحمل والتعسف في تفسير الوجاهة بالشفاعة ما هو ظاهر لا يخفى على أحد .

٤ - ووقف عند آية آل عمران ٤٤ التي تذكر أن الملائكة أعلنوا مريم بأن الله يبشرها بكلمة منه اسمه المسيح ، وآية النساء ١٧١ التي تذكر

أن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ، وآية سورة الأنبياء ٩١ التي تذكر أن الله نفخ في مريم من روحه ، وآية سورة التحريم ١٢ التي تذكر أن الله نفخ في فرج مريم من روحه ، فقال : إن المسلمين يعتقدون أن كلام الله هو ذاته غير منفك عنه ، وأن روح الله هو ذاته غير منفك عنه كذلك ، فيكون المسيح بشهادة القرآن والمسلمين جزءاً غير منفك عن ذات الله أيضاً ، أو صورة من صور هذه الذات ، متغافلاً في ذلك عن تقارير القرآن بأن عيسى عبد الله ورسوله ، وإن ولادته تمت بمعجزة عبر عنها بهذه الألفاظ للتقريب ، وإن الله وصف نفسه بأنه ليس كمثل شيء ، ورفضاً تأويل المفسرين المتسق مع ذلك الذين قالوا إن جملة (إذا قُضِيَ أمراً فإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) هي تفسير لكلمة الله بالنسبة لعيسى .

هـ - وقال استنتاجاً من آية (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) في سورة مريم : إن القرآن لقب المسيح بلقب (قول الحق) العظيم ذي المعنى الفخم الذي انفرد به متغافلاً أو متغافياً عن أن الآية جاءت معقبة على الآيات السابقة التي فيها قصة ولادة عيسى عليه السلام ، وقوله بأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً ، وأريد بها أن ما ورد في الآيات السابقة لها هو الحق في ما هم فيه يمترون ، محرفاً بذلك الكلام عن موضعه الحق برغم أن مدى الآيات واضح ليس فيه إشكال ولا خفاء ، ولقد جاء بعد الآية هذه الآية (مَا كُنْ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قُضِيَ أمراً فإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .. ٤٠١) التي فيها دليل حاسم على أن القصد منها هو ما ذكرناه .

ولقد وقع الحوري في تناقض وتخط ، فهو من جهة يثبت هذه الآية ويستند إليها ليعملها غير ما تحمل ، وليقول : إن القرآن يلقب المسيح

بلقب قول الحق ، وهو من جهة أخرى وفي نفس الصفحة ينكر هذا النص ، ويقول : إنه مقحم ومزيد ، فض الله فاه ، لأن هذه الآية وما بعدها تندد بمن انحرف عن حقيقة عيسى عليه السلام ولادة ورسالة التي احتوت الآيات تقريرها واختلفوا .

٦ - وقال في صدد آية سورة مريم (١٩) التي تذكر قول الملك لمريم : إنه رسول ربها ليهب لها غلاماً زكياً ، وفي صدد آية سورة مريم (٢١) التي تحكي قول عيسى عن نفسه : إن الله جعله مباركاً أين ما كان ، وفي صدد آية آل عمران (٣٦) التي تحكي قول أم مريم (وَإِنِّي أَعِيزُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) : إن القرآن ذكر ذنباً لعدد من الأنبياء والموسلين بما فيهم إبراهيم ومحمد ، وأمرهم بالاستغفار من ذنوبهم ، وحكى عنهم الدعاء بغفران خطيئاتهم ، ولكن المسيح وحده هو الذي وصف بالمبارك وبالزكي الطاهر الذي لم يذكر له إثم ، ولا علاقة بآثم ، ولم يكن للشر عليه من سلطان على الإطلاق

٧ - وقال في صدد آية سورة الأنبياء (٩١) التي أوردناها قبل ثم في صدد آيات جاءت بعد قليل منها وهي (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . ١٠٣) إن في الآيات تعليماً رائعاً عن شخصية المسيح ، فهو روح الله نفخه في مريم ، فصار مع أمه بهذا الحمل والميلاد العجيب الفريد آية للعالمين من الإنس والجن والملائكة ، ولم يقل القرآن مثل هذا في أحد من الأنبياء والمسلمين ، وإثمه هو وأمه من الأمة المصطفاة بالنبوة على العالمين ختام الذرية النبوية المصطفاة وهم مبعدون عن جهنم يودعها ما يعبد من دون الله ، وإن لهم

الحسنى في الآخرة أيضاً حيث لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتلقاهم الملائكة .
بما فيه تحميل للكلام غير ما يحمله ، واستخراج معان لا تفيده الآيات ،
وتخصيص لما هو عام لجميع الأنبياء والصالحين من عباد الله الذين ذكروا
في الآيات السابقة ، والذين جاء ذكر مريم وابنها في عدادهم وحسب ،
ولقد جاء بعد هذه الآيات عن النبي محمد ﷺ هذه الآية (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) فتغافل عنها .

٨ - وقال في صدد آية سورة المؤمنون (٥٠) : إن القرآن يعتبر
المسيح النبي الوحيد الذي جعله الله بين الأنبياء آية للناس وللعالين جميعاً ،
بما فيه تحميل للكلام غير ما يحمله ، وتغافل في التأويل .

٩ - وقال في صدد آيات الزخرف ٥٧ - ٦٥ : إن الآيات تقدر
أن لعيسى مجيئين الأول كان فيه مثلاً لبني إسرائيل ليهديهم ، والثاني
يكون قبل يوم الدين علماً للساعة ليهدي العالم أجمع . وكل هذا بما انفرد
به عيسى من بين الأنبياء ، وما يسبغ عليه معنى خاصاً .

١٠ - ويقول الحوري في صدد آيات سورة النساء ١٥٧ - ١٥٨
التي تنفي صلب عيسى وقله وتقرر رفعه إلى السماء : إن الآيات إنما تنفي
ظن اليهود بأنهم صلبوه وقتلوه بمعنى أنهم قضاوا عليه قضاء مبرماً ولاشوا
ذكره إلى الأبد ، فتقرر أن هذا هو الذي شبه لهم وتخلوه ، والذي
خيب الله أملهم فيه ، لأن الله أحياه في الحال ، ورفعته إليه ، ورأى أن
هذا التأويل يتوافق أكثر من آية آل عمران (٥٥) التي تقول (إِنْ
مُتَرَفِقٌ لِّكَ وَإِفْعَلُ لِّكَ) حيث تقرر أن الرفع هو بعد الوفاة ، ثم يعقب
على ذلك بقوله : إنه مهما يكن من مسألة موت المسيح التاريخية في القرآن
فالقرآن الكريم يشهد بأن آخرة المسيح على الأرض ختمت بمعجزة ، كما
بدأت حياته بمعجزة ، سواء أمات وقام أم لم يميت ، بل ظل حياً إلى

الأبد ، فهذا لا يقلل شهادة القرآن الإنجيل والمسيح ، فالمسيح حي وقد رفعه الله إليه ، ولا يزال حياً عند الله ، وتلك ميزة انفرد بها المسيح على جميع البشر ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، والقول : إن المسيح لم يمّت أو لم يذق طعم الموت الأكبر كسائر البشر المحكوم عليهم بالموت لا يستثنى منهم أحد أعظم من الاعتراف بموته وقيامته لو فطنوا . إنه ينقل عيسى من صف البشر الميتين إلى صف غير البشر الحالدين ، وعلى كل حال فالقرآن يشهد أن واحداً لاغير بين البشر ودون الأنبياء والمرسلين بلا استثناء وكان أقوى من الموت ، فلم يكن له عليه سلطان وهو عيسى بن مريم ، وإنه بعد أن قرب ذبيحته عن الخطايا جلس عن يمين الله إلى الأبد ، وإن القرآن بعد الإنجيل يشهد أن المسيح حي في السماء يشفع في العالمين .

وفي قول الحوري : إن القرآن يشهد أن عيسى ظل ويظل حياً إلى الأبد افتتات على القرآن ، فأية ال عمران (٥٥) صريحة بأن الله قال لعيسى : إِنِّي مُتَوَفِّيكَ . وآية المائدة (١١٧) صريحة بأن عيسى قال لله (لَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) وآية مريم (٣٣) صريحة بأن عيسى يعرف أنه ولد كبشر، وسوف يموت كبشر، وسوف يبعث كبشر . (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) .

كذلك فإن الحوري يفتت على القرآن حين يقول : إنه يشهد أن عيسى حي في السماء يشفع في العالمين ، فليس في القرآن ما يفيد هذا صراحة ولا ضمناً .

وفي تأويل الحوري لآيات النساء تعسف ومخالفة لما أجمع عليه تفسير المسلمين أهل القرآن دون أي شذوذ ، ونفي الصلب والقتل معاً يظهم والتعسف أكثر ، حيث كان يكفي أن ينفي القتل أو الموت ، ولكن الآيات

تلت ما كان متداولاً من الصلب ، ثم الموت ، وقررت ان هذا إنما كان
أمراً مختلفاً فيه قائماً على الظنون .

أما التوفيق بين آية آل عمران وآيات النساء ، فإنه ممكن بدون هذا
التأويل التعسفي ، فيصح أن يكون رفع الله لعيسى بعد توفيه بصورة عادية
وبغير طريق الصلب والقتل ، ويلاحظ أن عيسى يقول لله في آية المائدة
(١١٧) (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) وليس في هذا التعبير أية إشارة إلى قتل
وصلب ، وإنما هو تعبير عن حالة أو حادث وفاة عادية .

ورفع الله لعيسى المذكور في آيتي آل عمران والنساء يصح أن يكون
روحياً أو معنوياً ولا يقتضي حتماً أن يكون جسدياً ، ولقد ذكر القرآن
حادث رفع تكريمي لنبي آخر هو إدريس عليه السلام في آيات سورة مريم
هذه (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . وَرَفَعْنَاهُ
مَكَانًا عَلِيًّا) .

ولقد خلاص الحوري من أقواله التي فيها افتئات وتعسف إلى القول :
إن مولد المسيح الخارق قد استعود على أفكار نبي القرآن ، وملك عليه
مشاعره ، فهو يذكره في كل مناسبة ، وهو كيفما نظر إليه وجد فيه الآية
الكبرى التي ترفع المسيح فوق سائر البشر ، فهو مسيح الله ، وهو كلمة
الله ، وهو روح الله ، وهو آية الله ، وهو رحمة الله ، وهو المبارك أينما كان .
وهذا من بيوت قصائد الحوري في كل ما يكتب ويقول .

- ٦ -

ومها يكن من أمر ، فالقول الحق في موضوع عيسى وأمه عليها
السلام هو أن القرآن احتوى آيات محكمات من أم الكتاب ، وآخر
متشابهات ، وأن المحكمات هي المبادئ والأصول التي لا تتحمل تأويلات
عديدة ، ولا يشته على المرء فهمها ومدادها ، وهي الفيصل في ما احتواه

القرآن من أمور ومسائل ، وأن التشابهات هي ما تتحمل تأويلات عديدة ، وقد يشته على بعض العقول إدراك مداها ، وقد تكون بقصد التقريب والتشيل ، وينبغي أن تفهم وتفسر على ضوء المحكمات ولا يجوز العكس في حال . وما لم يمكن لعقل امرئ فهمه منها يفوض أمره إلى الله منزل القرآن دون أن يتمحل فيه بعقله الذي يمكن أن يكون مدم فهمه لها من قصور فيه ، أو من عدم العلم والاطلاع ولا يفعل خلاف هذا ويتبع المتشابه دون الحكم إلا ذو قلب زائغ ، وعقل سقيم ، وهوى مغرور بقصد الفتنة وتحريف الكلام عن موضعه ومداه الحق الحكم ، وما ورد في القرآن في صدد عيسى وأمه عليها السلام ينظر إليه في نطاق ذلك . ومنه ما هو حكم ، ومنه ما هو متشابه ، ومن الحكم ما قررته آيات كثيرة من الآيات التي أوردناها ومفادها أن عيسى بشر مخلوق ، وعبد من عباد الله ، وأمه صديقة ، وأنه نبي ورسول من أنبياء الله ورسله ، وأنه دعا إلى الله وحده ، وإلى مكارم الأخلاق ، وحذر من الشرك ، ومن الانحرافات الأخلاقية والدينية والاجتماعية ، وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة ومبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، وأن ولادته تمت بمعجزة إلهية ، وأن مثله كمثل يحيى الذي ولد بمعجزة (١) من أم عاقر وأب طاعن في السن ، وكآدم

(١) من الجدير بالتأمل أن قصة ولادة عيسى في القرآن يسبقها إشارة إلى قصة ولادة يحيى في كل سورة وردة فيها كما ترى في ما يلي :

١ - هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيْتْنَى مُمْدَقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَبْدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَانْأَمَرْتُ عَاقِرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ -

خلقه الله من تراب ، ثم قال له كن فكان ، وأن الله سبحانه ليس كمثلهم ، وأنه منزّه عن التعدد بأية صورة ، وعن التجسد ، وعن التجزء ، وعن انتقال

— مَا يَشَاءُ . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً . قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ
النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ . وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ
وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ
وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ
وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ
إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَرَجِبًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي
الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ
وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذْ قَضَى أَمْرًا
فَمَا يَكُونُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .. [آل عمران : ٣٨ - ٤٧] .

٢ - كَبِيعَ . يَذْكُرُ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى
رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ
الرَّأْسُ سِنِيًّا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ
مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا .
فَرِثْنِي وَيَرِثْ مِنْ آلٍ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . يَا زَكَرِيَّا
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا .
قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ
بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ
شِينٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَلْ -

جزء منه إلى خلق من خلقه ، وأن ما عدا ذلك هو من التشابهات التي لا يصح استخراج شيء منها ، ولا تأويلها بما يتناقض مع باقي المحكمات

- لِي آيَةٍ قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا . وَبَرَّأ بِيَوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا . وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا . وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعِلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا .. [مريم : ١ - ٢١] .

٣ - وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَةً إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ . وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابِنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .. [الأنبياء : ٨٩ - ٩١] .

وهذا التلازم يفيد أن ذكر ولادة يحيى بمعجزة جاء كتمهيد لذكر ولاد عيسى بمعجزة أيضاً أو للمقارنة أو للمماثلة أو للتلميح على أن هذا لا يليق أن يثير حيرة ولا أن يترتب عليه عقيدة منحرفة تؤدي إلى عقيدة أن المسيح جزء من الله أو صورة عنه .

من صراحة وقطعية وفصل ، وأن الحق والنص ملزمان كل ناظر في القرآن مسلماً كان أم غير مسلم أن يقف عند المحكمات ، ويلتزم بها ، لأن القرآن يقول : إنها هي أم الكتاب ، وإن على المسلم أن يعتقد أنه لا بد من أن تكون حكمة ربانية في ما ورد في القرآن من آيات متشابهة بالأسلوب الذي وردت به ، وأن يحاول فهمها على ضوء المحكمات بالتدبر المأمور به ، أو بسؤال الراسخين في العلم ، والقادرين على التدبر والاستنباط ، وأن التمسك بالمتشابهات والتركيز عليها وتأويلها بما يتعارض مع المحكمات ، كما يفعل الحوري هو زيغ عن جادة الحق ندد به القرآن ، كما جاء في آية سورة آل عمران هذه التي بينت كون المحكمات هن أم الكتاب وأن الذين يتبعون المتشابهات دونها هم الذين يكون في قلوبهم زيغ (هوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مِنْهُ أَمْ الْكِتَابِ وَالْآخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ .. ٧) .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآية نزلت كما روي في مناسبة متصلة بالخلاف على شخصية عيسى عليه السلام حيث جاء وفد من نصارى نجران اليمن ، فتناظر مع النبي ﷺ في عيسى ، فلما قرأ عليهم الآيات المحكمات

— ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة أن بشارة مريم بميسى سبقت بشارة زكريا بيهيبي في الأنجيل المتداولة حيث جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا الذي انفرد بذكر ذلك (إن مريم سألت الملك مستغربة كيف تحبل ولما لم تعرف رجلاً فذكر لها خبر حبل زوجة زكريا وهي عاقرة وزوجها طاعن في السن وقال لها : إن قدرة الله لا يمحجزها شيء .

في حقيقة شخصية عيسى ورسالته كما ورد في سورة مريم ، أبوا أن يدعوا فدعاهم إلى المباحة ، أي : ابتهاج الطرفين إلى الله بأن يلعن الكاذبين منها ، فأبوا وقالوا : ألسنت تقول إن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الله نفخ في فرج مريم ، فجلبت به ؟ فقال : بلى ، فقالوا : هذا حسنا ، فأنزل الله الآية لتقول لهم : إنكم تمسكتم بالمتشابهات التي تحتل وجوهاً عديدة في التأويل والتي قد تكون في معرض التقريب للأذهان والتعبير عن كون ولادة عيسى تمت بمعجزة ربانية ، وتركتكم الحكم الذي فيه القول الفصل في شخصية عيسى في كونه عبد الله ، وكون مثله كمثل آدم قال له كن فكان ، وأنه رسول ونبي من رسل الله وأنبيائه وداع إلى الله وحده ربه ورب جميع الناس .

ومن الجدير بالتأمل أن الحوري الحداد يكرر صنيع ذلك الوفد ، ولا يعتبر بجواب القرآن له ، ويريد أن يلبس على أبناء ملته بالقول : إن القرآن يقرم على عقيدتهم في المسيح ، وأن يصدم عن الإسلام وما فيه من الحق ، وقد يتوهم أنه إلى هذا يستطيع أن يلبس على بسطاء المسلمين ويشككهم في قرائنهم ، وبصرفهم عن محكماته ..

وهو وأمثاله يفعلون هذا في نصوص الأناجيل التي يعترفون بها ، وبالرغم مما ذكرناه من هنات وثغرات في هذه الأناجيل ، فإن فيها عشرات الآيات التي تحكي أقوالاً لعيسى عليه السلام عن شخصيته ورسالته وعن ذات الله تعالى تتطابق مع المحكمات القرآنية^(١) في تأويل هذه

(١) هذه أمثلة مما ورد في الأناجيل الأربعة من ذلك :

١ - في إنجيل متى : (أراه إبليس جميع ممالك العالم ومجدها وقال له : أعطيك هذه كلها إن خررت ساجداً لي . حينئذ قال له يسوع اذهب يا شيطان ، فإنه قد كتب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد) و (لا يستطيع أحد أن يعبد رين) و (اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره) و (ليس كل من يقول يارب يارب -

الآيات ، ويتمسكون بما في الأناجيل من آيات متشابهات مع تعارضها معني^٢ ومدى^٣ مع تلك المحكمات القرآنية ، بل ومع آيات محكمات في الأناجيل

- بدخل ملكوت السموات . لكن الذي يعمل إرادة أبي الذي في السموات (و (لا تدعوا لكم أباً على الأرض فإن أباكم واحد وهو في السموات) و (طوبى لصانعي السلام فهم أبناء الله يدعون) و (أما أنت فإذا صليت فادخل عندك وصل إلى أبيك في الخفية ، وأبوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك) و (أنتم صلوا هكذا أنا الذي في السموات تقدس اسمك . ليأت ملكوتك . لنكن مشيقتك في السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن أساء إلينا ، ولا تدخلنا في تجربة ، ولكن نجنا من الشرير آمين . فإنكم إن غفرت للناس زلاتهم يغفر لكم أبوك السماوي زلاتكم) و (لا تقشعوا بهم ، لأن أباكم عالم بما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه) و (لأن كل من يعمل محبة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي) و (أجاب يسوع وقال : اعترف بك يا أبت رب السموات والأرض) و (لكي تعلموا أن ابن البشر له سلطان على الأرض أن يغفر الخطايا) وتعبير (ابن الشر) تكرر كثيراً في هذا الإنجيل والأناجيل الأخرى والمقصود به على ما يفيد السياق أنه يعني نفسه . و (فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً . إنه لا صالح إلا الله وحده) انظر هذه الآيات في إنجيل متى في الاصحاح ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٥ و ٢٣ .

٢- في إنجيل مرقس : (من قباني فليس مقبلاً لي بل للذي أرسلني) و (أول الوصايا أن إلهنا رب واحد) انظر الاصحاحات ٩ و ١٠ .

٣- في إنجيل لوقا : (فقل لهم : إنه ينبغي أن أبشر المدن الأخرى بملكوت الله لأنني لهذا أرسلت) و (إذا صليت فقولوا : أيها الأب لنقدس اسمك) انظر الاصحاحات ٤ و ١١ .

٤- في إنجيل يوحنا (الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بـن أرسلني له الحياة الأبدية ولا يصير إلى دينونة لكنه قد انتقل من الموت إلى الحياة) و (أعطاه سلطاناً أن يجري الحكم بما أنه ابن البشر) و (أما أنا فلي شهادة أعظم من شهادة يوحنا ، لأن الأعمال التي أعطى لي الأب أن أقمها هذه الأعمال التي أنا أعملها هي تشهد بأن الأب قد أرسلني) و (فقالوا ماذا فصنع حتى نعمل أعمال الله . أجاب يسوع وقال لهم : هذا هو عمل الله أن تؤمنوا -

نفسها كما يستفاد من الأمثلة التي أوردناها في الذيل وبخاصة بما أورده الإمام ابن القيم الجوزية عزواً إلى نسخة مفقودة من إنجيل يوحنا ، لأنها

- بالذي أرسلني) و (ما من أحد يقدر أن يقبل إلي ما لم يجتذبه الأب الذي أرسلني وأنا أقيم في اليوم الآخر) و (فأجابهم يسوع وقال : إن تطيعني ليس هو لي بل للذي أرسلني) و (فقال لهم يسوع : إذا رفعتم ابن البشر فحينئذ تعرفون أنا هو وإنني لست أفضل شيئاً من عندي ، ولكن كما علمني الأب كذلك أقول) و (صاح يسوع وقال من آمن بي فليس بي يؤمن بل بالذي أرسلني) و (إن لم أت من عندي لكن الذي أرسلني هو محق ، وأنتم لا تعرفونه ، أما أنا فأعرفه لأنه هو الذي أرسلني) انظر الإصحاحات ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ ونفيه على أن في الأناجيل الأربعة آيات كثيرة أخرى من باب هذه الأمثلة .

ونعتقد أن في الأناجيل التي ضاعت أو أبيدت والتي يقال : إنها منقولة ومزورة ، آيات كثيرة أكثر صراحة وقوة . وفي كتاب دليل الحيارى للإمام ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ فقرات عديدة منقولة من الأناجيل . منها ما هو نفس ما أوردناه ، ومنها ما لم نقرأه في الأناجيل الموجودة تحت يده ، ونعتقد أنه صادق في نقله ، وتكون النسخ التي نقل عنها الفقرات التي لا توجد في الأناجيل الموجودة قد بادت أو أبيدت ، وهي أقوى وأحرص في بابها . من ذلك عزواً إلى إنجيل يوحنا عن لسان المسيح : (إن الحياة الدائمة إنما نجيب للناس بأن يهدوا أنك أنت الله الواحد الحق . وأنتك أرسلت يسوع المسيح) و (تريدون قتلي وأنا قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقول) و (إن الكلام الذي تسمعون مني ليس من تلقاء نفسي ، ولكن من الذي أرسلني) و (لست أدين العباد بأعمالهم ولكن الذي أرسلني هو الذي يبلي ذلك منهم) و (يارب قد علموا أنك قد أرسلتني وقد ذكرت لهم اسمك) و (إن الله سماني وأرسلني وأنا عبد الله وأنا أعبد الله الواحد ليوم الخلاص) و (إن الله ما أكل ولا يأكل ، وما شرب ولا يشرب ، وما نام ولا ينام ، ولا ولد له ولا يلد ولا يولد ، ولا رآه أحد) ولما سأل ربه أن يحبي الميت قال : (أنا أشكره وأحبه لك لأنك تجيب دعائي في هذا الوقت ، وفي كل وقت ، فأسألك أن تحبي هذا الميت ليعلم بنو إسرائيل أنك أرسلتني وأنتك تجيب دعائي) .

متسقة مع أهوائهم وعقائدهم التي أقرنها بحاجتهم المقدسة التي أخذت تتعقد في القرن الرابع الميلادي وبعده على ما سوف يأتي شرحه بعد .

وإنه ليتبادر لنا أولاً أن تعبير (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) الواردة في آيات النساء (١٧١) وتعبير (ونفخنا فيها من روحنا) و (ونفخنا فيه من روحنا) الواردة في آيتي سورة الأنبياء (٩١) والتحريم (١٢) هي تعبيرات اسلوبية عن الإعجاز الرباني في ولادة عيسى عليه السلام من أم عذراء بدون مس رجل ببلغة البشر ، وقد يدعم هذا أن بعض هذه التعبيرات قد ورد في القرآن في صدد خلق الإنسان الأول مثل آيات سورة السجدة هذه (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ مِّسْلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .. ٧ - ٩) وآيات سورة ص هذه (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .. ٧١ و ٧٢) وروح الله هي ذاته ، والله منزّه عن التجزؤ وانتقال جزؤه منه إلى خلقه ، وقد حسمت هذه النقطة آية سورة آل عمران (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ..) .

وفاياً لما نلح من حكمة الله التي انطوت في الآيات المتشابهات التي أسبغ فيها على المسيح وأمه عليها السلام ما أسبغ من رعاية وعناية واختصاصات وتنويهاً وصفات ، قصد تأنييس النصارى الذين كانوا يؤلفون أكثرية الكتبايين في مكة ، والأكثرية الساحقة من قبائل مشارف الشام وسكان بلاد الشام ومصر والحبشة والعراق العربي ، وشمال افريقية ،

وقطاعاً كبيراً في اليمن ، وتقريبهم إلى الإسلام ، وإشعارهم بالوحدة الفكرية والدينية ، والتقارب العقائدي بينهم وبين الإسلام ولا سيما أنهم كانوا إجمالاً دمي الأخلاق ، حسني النوايا ، ليسوا قساة قلوب ، ولا شديدي الأنانية والعصبية والمآرب كبني إسرائيل .

ولقد تحققت حكمة الله تعالى فعلاً حيث استجاب النصارى في مكة إلى الدعوة الإسلامية ، وانضوا إليها ، وآمن بها وفود جاءت من خارج الجزيرة إلى مكة ثم إلى المدينة ، ثم أقبل أهل تلك البلاد على الإيمان بها والانضواء إليها حينما حررتها جيوش الفتح الإسلامي بعد النبي ﷺ من سلطان الروم على ما مرّحناه في نبذة سابقة .

ولقد كان جلهم من اليعاقبة والناسطرة الذين يعتقدون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة مزيجية من الناسوتية واللاهوتية ، وليست ألوهية كاملة ، ولعل ما كان من الآيات القرآنية المتشابهة ما جعلهم يرون فيها تقارباً مع ما كانوا يعتقدون فاعتنقوا الدعوة الإسلامية بحافز من ذلك وكان ذلك مظهر من مظاهر تلك الحكمة الربانية في الأسلوب القرآني .

- ٧ -

ولا يقف الحوري عندما تقدم ، فقد عقد فصولاً عديدة في أكثر من كتاب من كتبه في صدد ما جاء في القرآن من عقائد النصارى بالمسيح والتثليث وتكفير القائلين بها ، وأورد كثيراً من الآيات الواردة في الأنجيل الأربعة التي ينسبها كتابها إلى المسيح للمقارنة وساق كلاماً كثيراً ملخصه أو نتيجته (أن تقرير القرآن بكفر من يقول : إن الله هو المسيح بن مريم ، وإن الآلهة ثلاثة ، وإن الله ثالث ثلاثة ، وإن هناك من كان يتخذ مريم إلهاً مع ابنها ليس موجهاً لجميع النصارى ، وإنما هو لبعض طوائفهم ، وقد استدل على ذلك بجملة) وإن لم ينشئوا عما يقولون

لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ..) في آية سورة المائدة (٧٣) التي تقرر كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة والتي سبقتها آية تقرر كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، ثم يقول : إن نصارى العرب في الحجاز لجهلهم انحرفوا عن العقيدة النصرانية الصحيحة ، فقالوا : إن الآلهة ثلاثة وهم الله والمسيح ومريم ، وإن اليعاقبة في بلاد الشام انحرفوا عن تلك العقيدة بدرهم وقالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، أما العقيدة الصحيحة التي ليس من موجب لتكفير القرآن لأصحابها ، ولا يشملهم التكفير الوارد فيه بالتالي ، فهي أن الله ثلاثة بمعنى أنه واحد ذو صفات ثلاثة ، أو أقانيم ثلاثة هي الأب والأبن وروح القدس ، وترمز إلى الله وعلمه وحياته . ويمكن أن يعبر عنها بتعبير آخر فيقال : إن الأب هو الكلمة ، وإن الابن هو الفكر أو العقل ، وإن روح القدس هو المحبة أو الصلة بين الكلمة والعقل ، وإن من الممكن أن يُقاس ذلك على ما جاء في آية سورة آل عمران (الله لا إله إلا هو الْحَيُّ الْقَيُّومُ) فإنه واحد لا إله إلا هو وهو حي وهو قيوم ، ويستمر الحوري فيقول : إن القرآن والحالة هذه على حق حينما قال (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ..) لأن القائلين عنوا أن المسيح إله آخر غير ذات الله ، وإن القرآن على حق حينما قال (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) لأن القائلين عنوا أن الذات الإلهية متعددة وهي ثلاثة ، وإن القرآن على حق حينما ندد بالذين يقولون : إن الآلهة ثلاثة ، ووصف قولهم بغير الحق وطلب منهم الانتهاء منه في آية النساء (١٧١) لأن هؤلاء قصدوا بذلك الله والمسيح ومريم ، وإن القرآن لا يقهم - كبرت كلمة تخرج من فيه وفض الله فاه - البنوة إلا تناسلية جسدية من زوج وزوجة

وهو ما نفاه عن الله في سورة الأنعام هذه (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ) وفي سورة الجن هذه
 (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) . وان كل
 ما جاء في القرآن من نفى للولد عن الله هو منصب على هذا المعنى وحسب ،
 وان القرآن على حق في حملته على نسبة الولد لله على هذا المعنى ، ولكن
 القرآن يجهل - كبرت كلمة تخرج من فيه وفض الله فاه ثانية - مدى
 مفهوم الولادة المجردة العقلية التي ينسبها الإنجيل إلى المسيح ، وكوت
 بنوته هي بنوة روحية محضة من ولادة عقلية محضة ، وكون نسبة البنوة
 إلى الله هو من نوع التفاعل الجوهرى والتسلسل العقلي وحسب ، وانه
 ليس في العقيدة النصرانية الصحيحة تعدد آلهة ، وانه على ضوء ذلك يظهر
 معنى كون الكلمة هو الله الأب ، وهو الله الابن ، وهو الله روح القدس ،
 وان الألوهية التي ينفيها القرآن عن المسيح ليست هي التي يثبتها الإنجيل
 له ، والبنوة التي يسندھا الإنجيل إلى المسيح ليست هي التي ينفيها القرآن
 عنه ، وان كل ما ينكروه القرآن ويسنده إلى النصارى يمثل الانحراف
 الذي كان عليه نصارى العرب ، وانه ليس من خلاف جوهرى بين القرآن
 والعقيدة النصرانية الصحيحة ، وأن النبي لم يكن يعرف هذه العقيدة -
 كبرت كلمة تخرج من فيه وفض الله فاه ثالث مرة- ولم يكن يعرف
 من العقائد النصرانية إلا ما كان عليه نصارى العرب الذي كان فيه
 انحراف عن تلك العقيدة ، وان تعليم الإنجيل لو وصل سالماً إليه لكان
 اعتنقه ودان به ، ثم أورد آية الزخرف (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ
 فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) كأنما يوردها كدليل على قوله أو بالأحرى على هذيانه
 المتسم في نفس الوقت بسوء الأدب والصفقة ، وقد أهمل الحورى كعادته
 الآية التي بعد هذه الآية مباشرة والتي فيها وضع الأمر في نصابه الحق

وهي (مُسَبَّحَانِ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ هُمَا يَصِفُونَ)
لأن فيها جواباً مفهماً مخزساً ، فهي تنزه الله عن الولد ، وتقيد أن الآية
السابقة لها أسلوية بسبيل استنكار القول ونفيه ، وهو ما أجمع المفسرون
عليه في تأويلها .

وفي أقوال الحوري السابقة كثير من التجهل والمفارقة والتناقض بالإضافة إلى
ما فيها من سوء أدب نحو كتاب الله تعالى ورسول الله ﷺ .

ومهما تحمل فإنه مقر بأن (المسيح) حتى في ما زعمه من مدى العقيدة
النصرانية الصحيحة هو الله نفسه ، فلا يكون القرآن مفارقاً لواقع أمر هذه
العقيدة حينما ذكر أن هناك من يقول : إن الله هو المسيح ، وإن المسيح
هو الله ، وحينما قرر كفر من يقول ذلك .

والحوري مع تحلاته لم ينكر أن مريم حبلت بالمسيح وولدت ، وأنه
عاش كإنسان وتعذب وأهين وصلب ومات من أجل فداء البشرية من
خطيئتها الأولى على زعمه . وهذه ولادة جسدية تناسلية على كل حال ،
وليست ولادة روحية عقلية محضة كما يقول ، ولم يفسر الحوري كيف
يمكن أن يكون ذلك والمسيح هو ذات الله ، واسمه صفة من صفاته ،
أو أقنوم من أقانيمه كالعلم أو الحياة أو الفكر والمحبة ، ولا كيف تجسدت
هذه الصفة ، وانفصلت عن ذاتيتها العقلية التصورية المحضة جنيئاً في بطن
مريم ، ثم ولدته إنساناً بين الناس ، وعاش وأكل وشرب ، ودعا إلى طريق
الله القويم ، وجادل وندد ببني إسرائيل وتعذب وأهين ، ثم صلب ، ودفن
بزعمه دون أن يكون كل هذا متناقضاً مناقضة صارخة مع القول : إن
بنوة المسيح لله هي بنوة عقلية محضة ، وإن الله هو المسيح ، وإن المسيح
هو الله ، وإن الله هو الأب والكلمة ، وإن المسيح هو الله وهو الابن ،
ولا مع فكرة كون ظهور الله الأب في صفة المسيح الابن في الدنيا كان

لأجل فداء البشرية من خطيئتها الأولى حتى يغفرها الله ، ولم يكن رسالة كرسالات الأنبياء تدعو إلى الله ، وتندد بالمنحرفين عن طريقه ، لا سيما وأنه لم يقل : إن قصة البشارة بالمسيح وحبل مريم به وولادتها إياه ، وحياته في الدنيا ورسالته ، وجداله مع بني إسرائيل وعذابه وصلبه وموته على زعمه من أولها إلى آخرها تخيل في تخيل ليس لها أصل من واقع ولا حقيقة . وطبعاً نحن نعرف أن المذهب الذي عليه الحوري هو أن المسيح إله كامل ، وإنسان كامل ، وأنه ظهر في الدنيا بصفته الثانية مع احتفاظه بصفته الأولى أيضاً ، ولكن هذا يزيد الأمر تعقيداً ، ولا يفسر ما تقدم ، ولا يجيب عليه ، لأن الانفصال والتجسد والتعدد والحبل بعيسى وولادته يظل قائماً وحقيقة واقعة . وطبعاً نحن نعرف أيضاً أن الحوري سرف يعتمد على القول : إننا لم نستطع أن ننفذ إلى السر الفلسفي الكامن في هذا المشهد ، ولكن هذا يكون منه تهرباً ولا يغير تلك الحقيقة والواقع في شيء .

وقد وقع الحوري في تناقض ، وهو يسمي أدبه ، ويقول : إن النبي لم يكن يعرف من العقائد النصرانية غير عقائد العرب الجاهلين الذين كانوا منحرفين عن العقيدة النصرانية الصحيحة ، فمن جهة أنه لم يكن في مكة ، بل في الحجاز نصارى عرب إلا أفراد ، وهؤلاء كانوا علماء ، ومنهم ورقة بن نوفل الذي ذكرنا خبره في مناسبة ثانية ، ومن جهة أن النصاري الذين كانوا في مكة واتصل بهم النبي كانوا فازحين إليها من بلاد الشام والروم والحبشة ، حتى إن منهم من لم يكن يجيد العربية وما يزال لسانه أعجمياً . وكان فيهم أهل علم وثقافة ، وهو ما تفيد آيات القرآن المكية وما تمسك به الحوري وقال استناداً إليه : إن النبي كان متأثراً بهم يتلقى هداه عنهم وكان كأنه واحد منهم على ما شرحناه سابقاً وقد أطنب الحوري في

التوبة بعلمهم وثقاتهم بسبيل تدعيم رأيه ، وكان عليه أن يظن ويذكر أن النبي ﷺ لا بد من أن يكون عرف منهم مختلف العقائد النصرانية ، وتعدد أحزابها ومذاهبها في بلادهم التي كانت النصرانية سائدة فيها ، ولقد كان هذا مما أشارت إليه الآيات القرآنية التي أوردناها في مناسبات سابقة ومنها ما جاء ليذكر ما كان من اختلاف الأحزاب بعد رسالة عيسى عليه السلام (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ .. الزخرف : ٦٣ - ٦٥) .

ومن تناقضات الحوري أنه بينما يقول : إن النبي لا يعرف إلا عقائد العرب الجاهلين المنحرفة يذكر في نفس الوقت اليعاقبة ويقول : إنهم هم المقصودون بالتكفير القرآني لأنهم كانوا يقولون : إن المسيح هو الله ، واليعاقبة هم غالبية نصارى أهل الشام ومصر ، ومن باهم النساطرة الذين هم غالبية نصارى العراق ، والعرب الصرخاء منهم أقلية ، وغالبيتهم من الأصول الآرامية والكنعانية والفينيقية - الكنعانية والعمورية والآشورية والكلدانية والقبطية المصرية . وهذا يفيد باعتراف الحوري أن القرآن عناهم ، ولا بد من أن يكون النبي ﷺ عرف أحوالهم وعقائدهم ، ولقد كان إلى جانب هذه المذاهب في بلاد الشام ومصر أيضاً مذهب يعرف بالملكاني يعتقد معتقوه الذين منهم الروم أصحاب السلطان في هذه البلاد وجماعات أخرى من أهل البلاد موالون لهم بأن الله المسيح إله كامل وإنسان كامل ، وهم الذين عناهم الحوري على الأرجح بأنهم أصحاب العقيدة النصرانية الصحيحة التي هو وطوائف أخرى من النصارى عليها . ومهما تأمل الحوري وتعمل ،

فإنه لا يمكن أن ينكر أنه هو وأصحاب مذهبه يعتقدون بألوهية المسيح بحيث يبدو من ذلك حقيقة كون القرآن قد احتوى صور العقائد النصرانية جميعها والتي تشترك جميعها على اختلاف في المدى والتأويل في عقيدة بنوة المسيح وربوبيته وألوهيته معاً ، وفي عقيدة الأقانيم الثلاثة التثليثية التي يكون الله على كل حال والمسيح أحدها ، وبحيث يبدو من ذلك حقيقة كون النبي ﷺ قد عرف جميع المذاهب والعقائد النصرانية ، وبحيث لا يكون أية مفارقة في القرآن حينما كثر من قال : إن الله ثالث ثلاثة ومن قال : إن الله هو المسيح بن مريم ، ومن قال : إن الآلهة ثلاثة ومن اتخذ مريم إلهاً أيضاً .

ونحن نعتقد أن تأويلات (الأب والابن وروح القدس) بالفكر والمحنة والعلم والحياة وتشبيه ذلك بما في الآية (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) هي اجتهادات متأخرة تنجا إليها الحوري وأمثاله بسبب ما يبدو في العقائد النصرانية من عقد وشذوذ وغرابة واستعالة وتناقض ، وتهرباً بما يقال : إنها عقائد وثنية تسربت إلى النصرانية بعد اعتناق الأوروبيين هذه العقيدة في القرون المسيحية الأولى ، وليس من شأنها مع ذلك أن تفسر التناقض الصارخ بينها وبين مشهد ظهور المسيح في الأرض ورسالته كإنسان على ما شرحناه آنفاً .

- ٨ -

وإنه لمن الحقائق المستفادة من المصادر المسيحية القديمة التي لا يستطيع الحوري المكابرة فيها أن النصارى الأولين كانوا مختلفين في شخصية المسيح عليه السلام ، وفي تأويل النصوص الإنجيلية ، وهو ما أشارت إليه آيات سورة الزخرف أيضاً ، وكان منهم فرق ومذاهب تنكر ألوهيته ، وتقرر أنه إنما كان بشراً نبياً ورسولاً ، ونستند في ذلك إلى نصوص إنجيلية

كانت في يدها ، وتقول عن النصوص التي يستند إليها مخالفوها في عقيدة
الوهية المسيح : إنها محرفة ، وتجد في القول بالوهية ، ولاهوتيته ، أو
كونه حقة من صفات الله ، أو أقنوماً من أقانيم الله شذوذاً عن العقيدة
الكتابية التوراتية الصحيحة التي هي وحدة الله بدون شائبة والتي كانت
المسيح يلتزم بها ، ويدعو إليها في بشاراته ، وهذا ما يفنده بمخاصة آية
إنجيل متى (اذهب بإشيطان فإنه قد كتب للرب إلهك تسجد وإياه وحده
تعبد) . وكان الخلاف يؤدي إلى مهاجمات ومنازعات بين الفرق . ولقد
كانت هذه الاختلافات كثيرة وواسعة حتى لقد ذكر المطران الدبس في
المجلد الرابع من كتابه « تاريخ سووية » أن مطران سلمينا في قبرص ألف
في القرن الرابع كتاباً فيها منذ بدء النصرانية إلى أيامه ، ومن ذكروا
للتاريخ من زعماء هذه الفرق والمذاهب في القرون الأولى الميلادي كرينتوس
الذي كان يقرر أن يسوع إنسان ولد كعامة الناس ، وحل عليه الروح
القدس بشبه حمامة عند تعميده في الأردن ، وايون الذي كان يقرر أيضاً
أن المسيح بشر أحوز الفضائل ، فاختره الله ابناً له ، وإن أمه جعلت
به بروح القدس ، ومنهم في القرن الثاني كبروكرات الإسكندري الذي
كان يقول : إن يسوع ولد من مريم ويوسف كسائر الناس ، ثم فاقهم
فضيلة ، ومنهم مرقيون الذي كان ينكر أن المسيح ولد من مريم العذراء
وكان له إنجيل مختزل من إنجيل لوقا بإسقاط فصول عديدة منه ، وكان
ينكر صحة سفر رسائل بولس ، وسفر أعمال الرسل ، وسفر رؤيا يوحنا
وهذه الأسفار من جملة أسفار العهد الجديد . ومنهم والتينوس الذي كان
يدعو إلى مذهب مزيج من العقائد المسيحية والوثنية الرومانية ، والذي
كان يحاول به التوفيق بينه وبين الأسفار . ومنهم ناسيان الذي كان له إنجيل
مختزل من الأناجيل الأربعة مسقطاً منها ما فيها من نسب المسيح إلى داود

ومنهم منتانوس الذي ادعى أنه البارقيط ومنهم توارطوس الذي كان يقول
بإنسانية المسيح وعدم تولده في الأزل من الأب . ومنهم في القرن الثالث
بولس السميساطي الذي كان بطركاً لأنطاكية وصاحب مكانة عند ملكة
تدمر ، وكان مذهبه أن ابن الله لم يكن من الأزل ، ولم يكن قبل
مريم ، بل حل فيه كلمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء ، وأنه
كان في المسيح اقنومان لله أحدهما بالطبيعة ، والآخر بالتبني ، وكان
ينكر الثالوث الأقدس . ومنهم برييل أسقف بصرى الذي كان له مؤلفات
كثيرة شاهدة بمجذبه وطول باعه ، وكان مذهبه أنه لم يكن ليسوع قيام
قبل أن يتجسد ، وأنه ابتداءً أن يكون إلهاً بعد أن ولدته العذراء ، ولم
يكن إلهاً إلا لأن الأب كان حالاً فيه حلوله في الأنبياء ، ومنهم سيناخوس
الذي كان على مذهب إبيون القائل : إن المسيح ليس إلا إنساناً ولده
يوسف ومريم ، وكان يقول : إن إنجيل متى محرف ، وكان له إنجيل
خاص ، وهو من مترجمي الأسفار إلى اليونانية . ومنهم براكسيا الذي كان
مذهبه إنكار الثالوث الأقدس والاعتقاد بأقنوم واحد وذات واحدة لله
تعالى ، وقد نشأ هذا ودعا إلى مذهبه في الأناضول واعتنق مذهب رجل
دين في الاسكندرية اسمه سايليوس ودعا إليه ، غير أن هذا كان يقول
فيما يقوله أيضاً : إن الأقانيم الثلاثة في الله متساوون ذاتاً وجوهرأ ،
ومنهم أبولينار أسقف اللاذقية ، ومن كبار ومشاهير النصرانية السوريين ،
وكان مذهبه أن المسيح أخذ جسد البشر ، ولكنه لم يأخذ نفساً بشرية ،
لأن اللاهوت ناب عنها .

ولقد ظلت هذه المذاهب والمقالات تجد أتباعاً في كل مكان فيه نصارى
في القرنين الثاني والثالث ، وفي أوائل القرن الرابع ظهر في مصر رجل
دين وعلم كبير اسمه أريوس الذي كان ينكر ألوهية المسيح ويقول :

إنه مخلوق ونبي ، وقد صار صاحب مذهب له أتباع كثيرون في مصر وخارجها ، واصطدم بمذهبه مع بطرك الاسكندرية الذي كان على رأس الفريق القائل بالوهية المسيح ، فشكاه إلى الامبراطور قسطنطين الذي كان انتسب حديثاً إلى المسيحية ، ودافع أريوس عن مذهبه ، فرأى الامبراطور عقد مجمع للأساقفة للنظر في الخلاف ، وانعقد المجمع في سنة ٣٢٥ م في نيقية ^(١) وشهد فيه نيف وألفان منهم ، وكانوا مذاهب متعددة لكل مذهب رأي في الأنجيل والمسيح ومريم والرب والشرعية مخالف قليلاً أو كثيراً الآخر ، وكان نحو سبعائة منهم متوافقين مع أريوس الذي ناضل في المجمع لإثبات رأيه من نصوص إنجيلية كانت لديه . وقد وصف النصوص التي كان يستند إليها مخالفوه بالتحريف ، ولم تستطع أكثرية المجمع أن تحل الخلاف ، وحينئذ اختصره الامبراطور ، فاختر من الأساقفة ٣١٨ كانوا متقاربين أو متوافقين مع رأي بطرك الاسكندرية الذي كان متأثراً بالفلسفة اليونانية التي كانت تمت في نفس الوقت إلى الوثنية اليونانية وكان الامبراطور أيضاً متأثراً بذلك ، فمنح الأساقفة المختارين سلطة شرعية فقرروا في صدد المسيح هذه الصيغة (إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء ، أو من يقول : إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب ، وكل من يؤمن بأنه خلق ، أو من يقول : إنه قابل للتغير ويعتريه ظل دوران) ، وظاهر من هذا أنه قرار أقلية ضئيلة من العدد الكبير من الأساقفة المجتمعين ، كل مزبته أنه مؤيد بالسلطة الزمنية الحاكمة ، ولم يكن من شأنه أن يكون حامياً مزيلاً للخلاف الذي استمر

(١) بما ذكره المطران الدبس في كتابه تاريخ سورية خبر انعقاد مجمع قبل هذا المجمع ، ويظهر أنه لم يكن بدعوة السلطات أو تحت رعايتها فرأت هذه السلطات أن تعقد مجمع نيقية بدعوة منها .

بين أصحاب المذاهب المختلفة ، يشتد حيناً ويخفت حيناً ، وظل أريوس وأتباعه من بعده من الجلمة ينشطون في سبيل تثبيت ونشر مذهبهم ، وقد تساجل النصر بينهم وبين مخالفهم ، حيث كان كلما استطاع الأريوسيون إقناع الجالس على عرش الامبراطورية ، وجلبه إلى ناحيتهم يعلو مذهبهم كما كان يخفت ويعلو المذهب الآخر كلما استطاع مخالفوهم كسب الامبراطور وجلبه إلى جانبهم .

ولقد كان خلاف بين المذاهب النصرانية في صدد الروح القدس حيث كان بعضها يقول : إنه مخلوق ، وبعضها يقول : إنه صفة من صفات الله أو صورة من صورته ، وكان على رأس الفريق الأول عالم اسمه مقلونيوس ، فانهقد من أجل ذلك جمع في الآستانة سنة ٣٨٧ فقررت أكثرية (أن روح القدس هو روح الله ، وأنه غير مخلوق ، وأن من يقول خلاف ذلك ملعون) ، ثم ثبتت أكثرية هذا المجمع عقيدة الأقانيم الثلاثة بهذه الصفة (الإيمان بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن - موجود له و متمجد ، وأن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، وثلاثة وجوه ، وثلاثة خواص ، وحادية في تثليث ، وتثليث في وحادية ، كيان واحد في ثلاثة أقانيم ، إله واحد ، جوهر واحد ، طبيعة واحدة) ولم يحسم هذا القرار الخلاف ايضاً ، فظل مستمراً في شأن روح القدس كما ظل في شأن المسيح ، وظلت الفرق متعددة متنازعة فيما بينها .

ثم تبلورت الخلافات في صدد شخصية المسيح بخاصة في القرن الخامس وبعده في ثلاثة مذاهب : الأول مذهب النسطورية نسبة إلى نسطور بطررك الآستانة الذي كان ينكر نعت مريم بأم الله ، ويقول أن المسيح لإنسان متحد مع الله بالحبة ، وأنه ابن الله بالوهبة ، وليس في الحقيقة ، وأن مريم لم تلد إلهاً ، لأن الجسد لا يلد إلا جسداً ، ولا تستطيع الخليفة أن تلد

الخالق ، بل ولدت إنساناً هو آله الله . وكان مجال انتشار هذا المذهب الأوسع جزيرة الفرات والعراق العربي . والثاني مذهب الأوطاخين ثم اليعاقبة والاسم الأخير هو الأشهر نسبة إلى رجل دين كبير اسمه يعقوب البودعي الذي كان يقرر وحدة الطبيعة في المسيح فأنجبة عن امتزاج اللاهوتية والانسوتية فيه بحيث لا يعد إلهاً كاملاً ولا إنساناً كاملاً . وكان مجال انتشار هذا المذهب الأوسع بلاد الشام ومصر . والثالث مذهب الملكانية ، وكان يقرر أن المسيح ذو طبيعتين ، فهو إنسان كامل وإله كامل ، وحينما ظهر في الدنيا ظهر بصفته إنساناً كاملاً دون أن تتعطل صفته الثانية أو ألوهيته الكاملة ، وكان هذا المذهب مذهب السلطات الرومانية الحاكمة في أكثر الظروف ، ومجال انتشاره الأوسع الامبراطورية الرومانية خارج بلاد الشام ومصر والعراق وجزيرة الفرات مع اعتناق جماعات من أهل هذه البلاد له بالإضافة إلى جماعات الجاليات الرومانية فيها من المنتسبين إلى السلطة والممارسين لها ، أو من المقيمين في البلاد على حسابهم .

والمصادر النصرانية تذكر خبر انعقاد مجامع في القرنين الخامس والسادس لمعالجة الخلافات التي كانت مستمرة ، وكانت تؤدي إلى الصدام الدموي بين أصحابها من حين لآخر ، ولكنها لم تستطع إزالة هذه الخلافات ، وظلت المذاهب الثلاثة قائمة في مجالاتها المذكورة بناوياً بعضها بعضاً ، ويضطهد بعضها بعضاً إلى زمن البعثة النبوية ، وهذا بالإضافة إلى صور عقائدية خلافية أخرى حيث كان هناك طوائف تعتقد بألوهية مريم ، وعرفت نخلتها باسم المريمية ، أو بكون الآلهة ثلاثة متمثلين في الأقانيم الثلاثة ، أو بكون الله واحداً منهم ، والاثنان أقل رتبة منه في الألوهية ، أو بكون المسيح هو الله ، أو أن الله هو المسيح بما حكاه القرآن الذي كان يحكي ما كان قائماً قبل نزوله .

ويبدو بما تقدم أن العقيدة التي يقول الحوري : إنها الصحيحة ليست هي المجمع عليه عند النصارى في الأصل ومنذ البدء ، وإنما هي بنت قرارات جمعية غير مجمع عليها ، بل غير صادرة وغير مؤيدة بأكثرية ، وإنما فرضت بقوة السلطان ، وظل جمهور كبير من النصارى خارجاً عنها رغم ما كان يتعرض له الخارجون عنها من اضطهاد السلطان الرومي وأنصار مذهبه ، وكانت أكثرية نصارى بلاد الشام ومصر والعراق الساحقة في القرون الخامس والسادس والسابع من هؤلاء الخارجين وعلى مذهبي اليعقوبية والنسطورية ، وكان يصل الأمر بينهم إلى الاقتتال على ما حكاه القرآن في آية سورة البقرة هذه (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)^(١)

وهذا بقطع النظر عن كون العقيدة التوراتية التي كان المسيح يلتزم بها ويدعو إليها هي وحدة الله تعالى بدون شائبة ، ووحدة ربوبيته بما هو متطابق مع تقريرات القرآن .

وبقطع النظر عن أنه كان من النصارى الأولين فرق عديدة يعتقدون هذه العقيدة ، وينكرون ألوهية المسيح ، ويقولون نبوته ورسالته .

(١) انظر بتفصيل لما في هذه النبذة في «تاريخ سورية» للدبس ، «ومحاضرات في النصرانية» للشيخ أبي زهرة «ودليل الحيارى» للامام ابن قيم الجوزية .

وبقطع النظر عن أن العقائد المسيحية المستقرة في صدد لاهوتية المسيح التي تنطوي آيات القرآن على صور منها إنما استقرت مؤخراً وفي الجامع التي صارت تنعقد بعد القرن الثالث الميلادي نتيجة للخلافات التي نجمت بين فرق النصارى في شخصية المسيح ولاهوتيته ، وفي النصوص الإنجيلية وفهمها على ما شرحناه بإيجاز قبل .

وبقطع النظر عما في تأويل نصوص الأناجيل المتداولة تأويلاً متسقاً مع هذه العقائد المستقرة من تجوز وتعمل .

ثم بقطع النظر عما يقرره كثير من الباحثين من أن العقيدة الثلاثية التي تكون العقيدة المسيحية المستقرة من صورها هي عقيدة وثنية قديمة ظهرت في أشكال متنوعة في أقطار متعددة في القرون القديمة وتسربت إلى المسيحية بعد المسيح بمدة ما^(١) مما لا نحب التوسع فيه ، لأننا كل ما أردناه في كتابنا هو تفنيد تحوص الحوري الحداد وأمثاله عن القرآن والنبي محمد ﷺ والرسالة الإسلامية

ومع كل ذلك فما دام أن الحوري ومن على مذهبه يقررون أن العقيدة النصرانية الصحيحة هي توحيد الله وتزويه عن الحدوث والتجزؤ والتجسد والتعدد الفعلي الحقيقي ، ويشبهون الأقاليم الثلاثة يمدى ما في آية آل عمران (الله لا إله إلا هو الحسي القيوم) ويقولون : إنه ليس من خلاف بين هذه العقيدة والعقيدة الإسلامية بالنسبة لذات الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وما دام أن جماعات من النصارى فيهم أولو علم وقسيسون ورهبان الذين التقوام النبي ﷺ ، وسمعوا منه القرآن قد عرفوا أن دعوته موجهة إليهم وقد رأوا في ما سمعوه ورأوه ما جعلهم يرون فيه الحق والنور والهدى والتطابق مع

(١) انظر إذا شئت كتاب «دليل الحبارى» للامام ابن قيم الجوزية، وانظر كتاب «عقيدة الغداء والصلب» والمغال الملحق المطبوع في مصر سنة ١٣٥٣ مثلاً .

ما يجدونه في كتبهم من صفات وبشارات ويؤمنون بالرسالة الحمديدية القرآنيدية وإن جماعات عظيمية من نصارى الشام ومصر والعراق وشمال إفريقيا تابعتهم على ما شرحناه قبل ، فإن الحجة تكون قد دمغت الحوري ، ومن يقف موقفه ، ويكون موقفهم والحالة هذه متصفاً بالتمحل والعناد والمكابرة والصد والتعطيل ، وبماثلاً لذلك الموقف الذي حكاه القرآن عن أمثال لهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَاْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) بقصد إطفاء نور الله بأفواههم فرد الله عليهم قرآناً (وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَآ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) .

فِي صَدْرِ عَالَةِ الْبُهْرَةِ وَالنَّصَارَى فِي الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ

لقد حاول الحوري الحداد في أكثر من مناسبة وبوضع من كتبه وفي سياق التعليق على آيات قرآنية عديدة إبراز كون الخلاف بين اليهود والنصارى من جهة وبين النبي ﷺ من جهة أخرى هو خلاف سياسي وطائفي للزعامة في الحجاز ، وليس دينياً ولا عقائدياً ، وليس على الإسلام والتوحيد ، لأن الوحدة الدينية كانت قائمة بين الكتابيين والمسلمين طيلة العهد المكي والعهد المدني معاً مجتمعهم التوحيد والإسلام . ومن أقواله :

(إن القرآن يرفع إلى الله ما قد يكون بينهم من خلاف عقائدي ليفصل فيه يوم القيامة أو يدعوهم إلى كلمة سواء دون إلزام لهم باتباع محمد ، وإن أهل التوراة والإنجيل والقرآن كلهم مسلمون ، أي : موحدون يؤمنون إيماناً واحداً بالله واليوم الآخر ، وإن القرآن أقر التوراة والإنجيل وأحكامها بنفس القوة التي أقر بها القرآن وأحكامه دون إلزامهم بأحكام القرآن ، وإنه أقر أمة موسى على شريعتهم ، وأمة عيسى على شريعتهم ، وأمة محمد على شريعتهم في آيات المائدة ٤٣ - ٤٨ وختم ذلك بيده جامع مانع شامل كامل أولي ونمائي - وهذه تعاليم الحوري - وهو (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ .. الآية

(٤٨) وإنه أثنى على المستقيمين الصالحين منهم ثناء فيه إقرار لهم على أمرهم وليس فيه ما يجعلهم مطالبين بالتحول عنه إلى الدين الحمدي أو يجعل ذلك ضرورياً لنجاتهم في الآخرة) .

وهذه خلاصة موجزة لأقواله . ولقد تطرقنا لشرح بعض ما فيها في المباحث السابقة ، وبيننا وجه الحق في الأمر ، غير أننا رأينا أن نفرد لذلك بحثاً خاصاً حتى يتضح الأمر ، ويكون الكلام فيه متلاحقاً .

ونقول أولاً : إن القرآن قد أقر أهل الكتاب المودين والمسلمين والمعاهدين الذين كانوا يعيشون مع المسلمين وفي سلطانهم على أديانهم وحرمانهم الطقسية والمدنية وجعل القضاء في أمورهم لأحبارهم ورهبانهم على ما تفيد آيات عديدة أوردناها قبل ومنها آية سورة المتحنة (٨) وآيات سورة المائدة (٤٠ - ٤٧) فلم يبق سبب لاصطدام وخلاف طائفي بينهم وبين النبي ثم بينهم وبين الإسلام والمسلمين إلا ما كان بالنسبة لمن كان يستجيب لتحريك أعداء الإسلام من الدول النصرانية التي طردها الإسلام من المشرق وظلت تطمع في العودة إليه ، وتحرك بعض العناصر النصرانية المغامرة للتشويش على الدولة الإسلامية ، ولا يعد ما كان من هذه الدولة من تشكيل وتأديب لهذه العناصر خلافاً طائفياً .

وثانياً : إن الحوري يستند في أقواله إلى الآيات استناداً فيه تعسف وتجزؤ وتمحل ، وبدون ملاحظة سياق الآيات وظروف نزولها ومداهم مع إهمال آيات أخرى فيها تصحيح أو تعديل أو توضيح ، ثم بدون ملاحظة كون القرآن متكاملاً يجب أخذه جميعه ، وتدعيم بعضه ببعض ، وربط بعضه ببعض ، وعطف بعضه على بعض .

يستند الحوزي فيما يستند إليه أولاً إلى هذه الآيات :

١ - "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَحَمَلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" .. [البقرة : ٦٢] .

٢ - "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَحَمَلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" .. [المائدة : ٦٩] .

٣ - "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" .. [الحج : ١٧] .

ويلحظ أن آية سورة الحج جمعت الملل الكتابية وغير الكتابية أو المؤمنين والموحدين مع المجوس والمشركين ، وكل ما فيها إيدان بأن الله تعالى سوف ينظر في أمرهم يوم القيامة ، ويقضي على كل منهم حسب موقفه في الدنيا ، وليس فيها إقرار لأهل هذه الملل على مللهم ، أو إبطال لدعوتهم إلى طريق الحق والهدى وتبشيرهم وإنذارهم ، وليس فيها بالتالي ما زعمه الحوزي من أن القرآن يؤذن بأن ما بين الكتابيين والمسلمين من خلاف عقائدي مرجعه إلى الله يوم القيامة ليفصل فيه وحسب ، والآيات التي بعدها تحتوي تفصيلاً لذلك الفصل الموعود ، وتقريراً بأنه سيكون مستنداً إلى موقف كل فريق في الدنيا من الإيمان والكفر كما ترى فيها . وهي (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . إِنَّ

الله يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يُجْلِسُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ
فِيهَا خَيْرٌ . وَهُمْ دُونَ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُمْ دُونَ إِلَى صِرَاطٍ
الْمُحِيدِ .. ١٩ - ٢٤) .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال : إن المؤمنين المقصودين في الآيات ، ثم
في الآية ١٧ هم الذين آمنوا بالقرآن والرسالة المحمدية ، وإن الكافرين هم
الذين جحدوها من أهل سائر الملل المذكورين في الآية إذا ما ظلوا على
جحودهم ومن جملتهم اليهود والنصارى .

وينطوي في هذا أن الدعوة لهم إلى الإيمان بالقرآن والرسالة المحمدية
قائمة ، ويبدو من هذا زيف تحمل الحوري وغثاته في قوله : إن القرآن
يأمر بتوك كل ملة وشأنها إلى يوم القيامة ليفصل الله في حالتها .

والقد اقتضت آيتا البقرة والمائدة حقاً على الموحدين صراحة أو تأويلاً
وهم المؤمنون بالرسالة المحمدية واليهود والنصارى ، ثم الصابئين الذين يراد بهم
فيما نعتقد الذين تركوا دين الشرك والوثنية وتقاليد الجاهلية ، واتجهوا نحو
عبادة الله وحده قبل الإسلام من نبيه العرب ، أي : صابأوا عن دين آبائهم
على ما فصلناه في كتابنا « عصر النبي ﷺ » ، ويثته قبل البعثة ، وأوردنا
دلائله . وقررتا - أي الآيتين - أن من حمل صالحاً ، فلم أجرم ولا خوف
عليهم ولا هم يحزنون ، غير أن جمهور المفسرين يقررون أن الآيتين إنما
احتوتا حكم الله قبل بعثة النبي محمد بالنسبة لغير الذين اتبعوه بعد بعثته ،
وأنهم صاروا بعد بعثته مدعوين إلى اتباعه ، وأن ما اجتوته الآيتان من
تطمين وتبشير هو بالنسبة لمن كان مستقيماً على دين اليهودية الحق قبل
عيسى ، وعلى دين النصرانية الحق قبل محمد ، ولا يشمل المنحرفين . ومن
المفسرين من قال : إن الآيتين منسوختان بالنسبة لما بعد بعثة النبي بالدعوة
القرآنية إلى جميع الناس بما فيهم اليهود والنصارى والصابئين للإيمان بالقرآن

والرسالة الحمديّة ، والانصواء إليهما ، وأنه لا يجزىء عند الله أن يبقى اليهود والنصارى والصابئين على ملهم بعد بعثة النبي وأنهم يعدون كافرين مستحقين لعذاب الله إذا لم يؤمنوا بها ، واستدلوا على ذلك بآيات عديدة بحكمة النص والمدى منها هذه الآيات :

١ - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَأَمِينُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّائِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ .. [البقرة : ٤٠ و ٤١] .

٢ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بَيْنَمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفِنَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. [البقرة : ٨٩ - ٩١] .

٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أُدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَاللَّعْنَةِ أَصْحَابِ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .. [النساء : ٤٧] .

٤ - إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

حَقًّا وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .. [النساء : ١٥١ و ١٥٢] .

٥ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا
مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ
مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
مُبِيلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. [المائدة : ١٥ و ١٦] .

٦ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى
فَتْوَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ
جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .. [المائدة : ١٩] .

٧ - قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا
بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .. [الأعراف : ١٥٨] .

٨ - لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا
مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ . وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ . وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ
وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ .
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ .
جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ..
[سورة البينة] .

ففي هذه النصوص وضع للأمر في نصابه الحق مجسم بحيث يكون أهل الكتاب وغير أهل الكتاب من سائر الملل مدعوين إلى الإيمان بالقرآن والرسالة المحمدية ، ويكون أخذ آيتي البقرة والمائدة لخدمتها دون هذه الآيات ، والتمسك بهما غير سليم من وجهة النظر القرآنية .

ولقد فهم اليهود والنصارى وغيرهم من آيات القرآن المكية والمدنية أنهم مدعوون إلى الإيمان بالقرآن والرسالة المحمدية ، وسجل القرآن المكي والمدني إيمان طوائف كثيرة منهم ، وبنوع خاص شهادة أهل الكتاب بأن القرآن ورسالة محمد من الله ، وأنها حق عرفوه على ما شرحناه في المناسبات السابقة فغدا الأمر محسوماً .

وسورة البينة بخاصة مهمة في هذا الباب ، فقد انطوى فيها تقرير لما كان عليه الذين كفروا برسالة النبي ﷺ من أهل الكتاب والمشركين من انحراف بصورة عامة عن طريق الله القويم ، وتقرير بأنهم كانوا يعلقون التحول مما هم عليه إلى أن تأتيهم بينة من الله ، فنبههم إلى ذلك على لسان رسول يتلو عليهم كتاباً منه فيه بيان لطريقه القويم ، وبيان لواقع أمرهم بعد ذلك . فقد جاءتهم البينة التي ينتظرونها وعلقوا عليها اهتداءهم وتحولهم مما هم عليه عليها متمثلة بالقرآن ورسول الله محمد ﷺ ، ولكنهم ظلوا على حالتهم من الاختلاف والانحراف بعدها أيضاً مع أن الذي أمروا به هو عبادة الله وحده حنفاء مستقيمين على ذلك غير منحرفين عنه ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهذا هو الطريق القويم ، والدين الحق ، وبناء على ذلك ، فالذين يظنون على كفرهم بالرسالة الجديدة من أهل الكتاب والمشركين يكونون شر البرية ، ويكون لهم في الآخرة الخلود في نار جهنم خلافاً

لذين آمنوا بها وعملوا الصالحات ، فإنهم هم خير البرية ، ولهم في الآخرة
الخلود في الجنان . وهذا هو مصير كل من يخشى ربه .

- ٣ -

ولقد زعم الحوري أن المقصودين من أهل الكتاب في سورة البينة هم
اليهود ، بل إنه يحاول أن يزعم أن حملات القرآن وإنذاراته على أهل
الكتاب هي في اليهود وحسب ، وهو زعم لا يستند إلى دليل في السورة .
ولا ندري ما يريده بهذا الزعم ، ولعله يريد أن يتشاطر ويقول لأهل ملته
إن القرآن لا يتعرض للنصارى دعوة ولا إنذاراً ولا تكفيراً ، فإذا كان
هذا مراده ، فهو فيه مخادع مضلل ، وإذا كانت آيات عديدة في القرآن
قصدت حقاً بتعبير (أهل الكتاب) اليهود وحملت عليهم وأنذرتهم ، فإن
في القرآن آيات عديدة فيها تنديد بالنصارى المنحرفين عن العقيدة الصحيحة
في عيسى عليه السلام ، ونعتهم بالكفر وإنذارهم إذا لم ينتهوا بعذاب الله
الآليم ، ودعوتهم إلى التوبة إلى الله واستغفاره ، والانتها عن غلوهم وانحرافهم
وآيات أخرى فيها خطاب موجه لليهود والنصارى معاً بأن محمداً رسول الله
قد جاءهم بين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب ، وما نوه من
أوامر الله ، وأنه جاءهم بكتاب مبين ونور يهدي به الله من اتبع رضوانه
سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه مما أوردنا نصوصه في
مناسبات سابقة ^(١) . وهو يعرف هذا ، ويعرف أيضاً أن وفداً من نصارى
نجران جاء إلى المدينة ، وناظر النبي وبقي مصرأ على كفره بالرسالة المحمدية ،
ودعاه النبي إلى المباحة والدعاء إلى الله أن يلعن الكاذبين مما شرحناه
كذلك في مناسبة سابقة ، وهناك حديث رواه مسلم عن أبي هريرة عن

(١) آيات سورة النساء ١١١ و ١١٢ و ١١٣ والمائدة ١٢ - ١٩ و ٦٥ - ٧٧

و ٨٣ - ٨٥ والتوبة ٢١ - ٢٤ وريم ٣٠ - ٤٠ والزخرف ٥٧ - ٦٦
والصف ٦ - ٩ .

النبي ﷺ قال « والذي نفس محمد بيده لا يسمع في أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » والحديث متساوق مع مضمون السورة ، ولم يكن إذ ذاك دعوى من نوع دعوى الحوري وأمثاله حتى يقال : إن الحديث اختراع للرد عليها .

— ٤ —

هذا . ولقد أراد الحوري الشاطر أن يظهر تناقض القرآن بزعمه — كبرت كلمة تخرج من فيه — فقال : إن القرآن جعل اليهود شر البرية في السورة ، وكانوا قبل خمس سنين خير البرية حيث وصفهم بقوله (إني فضلتكم على العالمين) .

والحوري في هذا يكرر زعمه الكاذب الذي فندناه ، وهو أن اليهود هم المقصودون في جملة (أهل الكتاب) في سورة البينة ، ويتغافل عن كون جملة (شر البرية) ليست للذين كفروا من أهل الكتاب فقط ، أو حتى على زعمه لليهود فقط ، بل هي « للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين عامة » .

وإلى هذا فإنه يغالط أيضاً ، ويسيء أدبه عن قصد في الموضوع الذي ينتقده حينما يريد أن يوهم أن القرآن أورد جملة (إني فضلتكم على العالمين) جاءت في معرض الثناء على اليهود ليرز تناقض القرآن في قوله عنهم على حد زعمه (شر البرية) . فجملة (إني فضلتكم على العالمين) لم ترد بسبيل الثناء على اليهود ، وإنما وردت في آية من سلسلة طويلة في سورة البقرة استغرقت نحو مائة وست وثلاثين آية (من الآية ٤٠ إلى الآية ١٧٦) فيها تنديد بني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ والموجودين في المدينة ، لكفرهم برسالة النبي والقرآن المصدقين لما معهم ، ودعوة لهم إلى الانصياع للحق ، وتذكير بما كان من نعمة الله السابقة على آبائهم ، وإنذار رهيب لهم بلعنة

الله و غضبه ، وربط بين انحرافاتهم الأخلاقية والدينية ، وانحرافات آباءهم
الأولين أيضاً ، وهذه بداية السلسلة التي فيها جملة (وأني فضلتكم على العالمين)
(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ ذُكِّرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَيَأْتِي قَارِهُونَ . وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآبَائِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَيَأْتِي قَاتِقُونَ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ
تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ ذُكِّرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعْيِنُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ . وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . (٤٠ - ٥١) .

ومما في السلسلة أيضاً هذه الحلقات :

١ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي

السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَوَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ .. [٦٣ - ٦٦] .

٢ - ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ
قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهَا الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا
يَشَقُّقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِيطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أَفَتَسْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بَكُمْ
وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ مَحَبَّرْتَهُ مِنْ
بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .. [٧٤ و ٧٥] .

٣ - فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ
هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَتًّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ بِمَا كَتَبَتْ
أَيْدِيهِمْ . وَوَيْلٌ لَهُمْ بِمَا يَكْتُمُونَ .. [٧٩] .

٤ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا
جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ
وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ
فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا
جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ . يَتَّبِعُوا
أَشْرَارًا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى
غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَبِكُفْرُونِ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ
الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ

الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنْشَرْنَاهَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. [٨٧ - ٩٣] .

وسلسلة سورة البقرة التي أوردنا هذه الحلقات منها ليست الوحيدة في وصف انحراف بني إسرائيل السابقين والمعاصرين ، وأخلاقهم وكفرهم ، والتنديد بهم ، وتسجيل لعنة الله عليهم وغضبه بسبب مواقف الكيد والمكر والعصيان والدسائس التي وقفوها ، ففي سورة آل عمران والنساء والمائدة والأعراف سلاسل أخرى في ذلك أيضاً نكتفي بذكر أرقام آياتها تقادياً من التطويل وفي الآيات ٨٦-١١٢ و ١١٨-١٢٠ و ١٨٦-١٨٨ من سورة آل عمران و ٤٤-٥٦ و ١٥٣-١٦١ من سورة النساء و ١٢-١٣ و ٤١-٨٣ من سورة المائدة و ١٦٠-١٦٩ من سورة الأعراف بحيث يبدو من كل هذا أن معظم ضمائر الخطاب عائدة إلى أسلاف بني إسرائيل المعاصرين ، وانه ليس من تناقض بين تقارير القرآن ، وأن جملة (إني فضلتكم على العالمين) التي يوردها الحوري لإبراز التناقض ، والتي ما في معناها في آيات أخرى مكينة مثل آيات سورة الدخان هذه (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُشِينِ . مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيّاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاكُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ .. ٣٠-٣٣) وآيات سورة الجاثية هذه (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ يَتْنَاتٍ مِنَ الْأُمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً يَنْهَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ..

(١٦ و ١٧) ليست في حق بني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ ، أو في حق أجيال عديدة قبلهم ، وإنما هي في حق بني إسرائيل في ظرف قديم استقاموا فيه لفترة قصيرة حين بعثه موسى عليه السلام ، وهو ما عبرت عنه آية سورة الأعراف هذه (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ .. ١٣٧) وآيات سورة السجدة هذه (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .. ٢٣ و ٢٤) ثم انخرقوا خلقياً ودينياً على ما ذكرته آيات سلسلة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأعراف حتى لقد بدأ انخراطهم عقب نجاتهم من فرعون على ما حكته آيات في سورة البقرة وآيات في سورة الأعراف ، ثم استمروا في انخراطهم إلى زمن النبي ﷺ ، فاستحقوا على ذلك حملات القرآن التي منها ما فيه تأذن الله تعالى (ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) كما جاء في آية سورة الأعراف (١٦٧) ، وصاروا يصرارهم على الكفر بالرسالة الحميدة والقرآن من ثمر البرية مع أمثال لهم أصروا مثلهم على الكفر ، وإن ضمير المخاطب ليس إلا أسلوباً أريد به ربط حاضر انخراط بني إسرائيل المعاصرين للنبي بانخراط أسلافهم الذي حكته الآيات بما هو بارز بقوة فيها ، وبحيث يبدو من كل ذلك أن الحوري إنما اقتطع جملة من آية من سلسلة طويلة متغافلاً عن قصد حتماً عن بقية السلسلة ، وعن آيات أخرى فيها وضع للأمر في نصابه الحق ، وهو ما اعتاده هو وأمثاله لإبراز ما في نفوسهم من ضغينة وهوى ، وما أرادوه من كيد ونجويج مها كان فيه من زيف وتخريف وتخريف وسوء أدب وطوية لا يمكن أن يخفى .

ولقد قال الحوري فيما قاله : (إن موقف الإسلام النهائي من أهل الكتاب هو إخضاعهم للدولة الإسلامية لا للدين الإسلامي ، وأورد آية التوبة هذه كدليل على صحته هذه (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ...) .

وفي هذا مغالطة ، فأولاً إن المأمور بقتاله وإخضاعه منهم هم المعتدون ، وليسوا جميع أهل الكتاب على ما شرحناه قبل ، وثانياً إن الآية لا تعني أن أهل الكتاب غير مدعوين إلى الإسلام ، وإنما جاءت لتقرير موقف المسلمين من الأعداء منهم ، وهو قتالهم إلى أن يخضعوا ويؤتوا الجزية إذا شأوا الاحتفاظ بدينهم ، لأن القرآن والنبي لم يهدفا من حيث المبدأ إلى إخضاع الناس للإسلام بمعنى إكراههم عليه بالقوة ، سواء أكانوا كتابيين أم غير كتابيين ، والدعوة قائمة لهم جميعاً ومستمرة في نطاق مبدأ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن دون إكراه مع التبشير والإنذار ، ولم يجعل الله ورسوله سبيلاً للمسلمين على من لا يستجيب إلى الدعوة إذا كان كافاً يده ولسانه عن الإسلام والمسلمين ، فهو لاء يتروكون وشأنهم مع بقاء الدعوة لهم للانضواء للإسلام بجموية وبدون إكراه قائمة مستمرة .

ومن الآيات التي يسوقها الحوري آيات سورة آل عمران هذه (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آيَاتِ النَّبِيِّ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُمُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ

الْعَالِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ .. (١١٣ - ١١٥) .

وقد قال : إنها في صدد رهبان النصارى ، ولها أفضل مديح لرهبان
عيسى ومتابعيهم .

ويجوز أن يكون قوله صحيحاً ، ويجوز أن لا يكون ، فمن الجائز أن
تكون حكمة التنزيل اقتضت ذكر حالة رهبان النصارى ، أو طائفة من
النصارى لتقارن بينها وبين انحرافات اليهود الأخلاقية والدينية التي حكمتها
سلسلة طويلة قبل هذه الآيات عدد آياتها أربعون أي من الآية ٦٩ إلى
الآية ١١٢ ، ومن الجائز أن يكون أريد بها استثناء فريق من اليهود
أنفسهم كانوا صالحين مستقيمين ، وقد قال هذا غير واحد من المفسرين ،
وبما جاء في تفسير ابن كثير في صدد ذلك : « والمشهور عند كثير من
المفسرين التابعين نقلاً عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في من آمن
من أحوار اليهود ، وقد يدعم هذا آية في آخر السلسلة التي سبقت الآيات
هذا نصها (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ..) .
ويلحظ أن الآيات التي نحن في صدها وصفت الطائفة المستثناة المنوه بها
بأنهم يأمرون بالمعروف ، ونهون عن المنكر ، وهذه الآية أثبت على المسلمين ،
لأنهم يفعلون ذلك بما فيه توافق يقوي ذلك التدعيم .

هذا من جهة عائدة الآيات ، وفي من عنته ، وإذا صح ما رواه المفسرون
عن ابن عباس ، وما تقوم القرائن على صحته ، فلا يكون إشكال ، لأنها
تكون احتوت ثناء على جماعة من أهل الكتاب من اليهود آمنوا بالنبي
والقرآن وانضوا إليها ، وإذا لم يصح ، وأريد أخذ الآيات على ظاهرها ،
أو حتى على ما قاله الحوري الحداد من كونها ثناء على رهبان عيسى ،

وبسبيل المقارنة بينهم وبين اليهود ، فإنها تكون قد نزلت المقارنة بين المستقيمين والمتعرفين وحسب في ظرف خاص ، ولا تصح أن تكون دليلاً على كون النصرانية وحدها مجزئة عن النصارى بعد بعثة النبي ، وعلى أنهم غير مدعوين وغير مطالبين بالإيمان به والانضواء إليه ، فهذا أمر محسوم بالآيات العديدة المكية والمدنية التي أوردناها في الفقرة (٢) من هذا البحث ، والتي تدعو جميع الناس ومن حملتهم أهل الكتاب إلى ذلك وتقرر كفر غير المستجيبين واستحقاقهم الخلود في النار .

وفي سورة النساء آيات مهمة يحسن سوقها في هذا المقام وهي (إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .. ١٥٠ و ١٥١) ومحمد رسول من رسل الله وأنبيائه وخاتمهم ، وقد حكى آية الصف السادسة أن عيسى بشر به ، وحكى آية الأعراف ١٥٧ أن اليهود والنصارى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، ونوهت بالذين يتبعونه ويؤمنون به ويعزرونه وينصرونه ، فلا يصح ليهودي ولا نصراني أن يقول : إن ديني مجزئ لي عند الله في العهد الإسلامي من وجهة النظر القرآنية التي يريد الحوري أن يستند إلى بعض النصوص القرآنية لمخالفتها .

- ٧ -

ولقد وقف الحوري عند آيات سورة آل عمران هذه (إِذْ قَالَ اللَّهُ لِبَاسِي إِيَّايَ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فَمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة .

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أَجْرَهُمْ . والله لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .. ٥٦ و ٥٧) فقال : إن في الآيات
شهادة بأن الذين اتبعوا عيسى إلى يوم القيامة هم ناجون ، وفوق الذين
كفروا به ، وإن الحكم يوم القيامة بينهم هو على الإيمان بالمسيح وعدمه .

وظاهر الآية يفيد أنها في صدد من آمن وكفر في مواجهة عيسى
عليه السلام وحسب ، وقد يدعم هذا الآيات السابقة لهذه الآيات وهي
(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ فَحَمَزَ أُنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .
رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .
وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ تَخِيرُهُ الْمَاكِرِينَ) .

على أن من المفسرين من فرضوا أن يكون مدى الآيات مستمراً
أيضاً ، فقالوا : إن الذين وعدم الله بأن يكونوا فوق الذين كفروا ، هم
الذين اتبعوا عيسى ، واستقاموا على رسالته الصحيحة قبل بعثة النبي محمد ،
ثم آمنوا بالنبي محمد ، لأن هذا من مقتضى واجب اتباع عيسى ، لأن
القرآن حكى قوله : إنه جاء مبشراً برسول من بعده اسمه أحمد ، كما جاء
في الآية السادسة من سورة الصف ، ولأن صفات محمد الرسول النبي الأمي
مكتوبة في التوراة والانجيل ، وأهلها مدعوون إلى اتباعه حينما يبعث كما
جاء في الآية (١٥٧) من سورة الأعراف .

وهذا التفسير سائغ وسديد في حالة صحة الفرض ، وليس من مانع
لذلك . ولقد اطلع الحوري عليه ، فلم يعجبه ، وأنكره ، وقال : إنه
مفروض ، وقوله هو المفروض ، لأنه لا يصح تفسير غيره للآيات إذا ما جعل
حكمها مستمراً ، والقرآن متكامل يوضح بعضه بعضاً ، ويتم بعضه بعضاً ،
ويعطف بعضه على بعض ، والاستناد إلى بعضه والاحتجاج به دون مراعاة
ما فيه من توضيح وإتمام غير سليم ، ولا يجنح إليه إلا المتمحلون ، وهذا

ديدن الحوري . ولقد فهم النصارى القرآن على وجهه ، فأمن جبهة من لقوا
النبي ﷺ منهم ، وسمعوا القرآن في مكة ، ثم في المدينة على ما حكته
آيات عديدة ، ثم اتسع نطاق هذا الإيمان فيهم حتى شمل معظمهم في بلاد
الشام ومصر والعراق بعد النبي على ما شرحناه قبل لزمحق باطل دعوى الحوري .

- ٨ -

ومما يستند إليه الحوري آيات سورة آل عمران هذه (إِنَّ الدِّينَ
عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
صَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ
اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَهْ سَلِمْتُمْ فَإِنْ
أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ .. ١٩ و ٢٠) ويقول : إن كل ما طلبه محمد من أهل الكتاب
هو إعلانهم الإسلام ، وكون دينهم الإسلام ، وليس اتباع دينه وشرائعه ،
والآيات تقرر أنهم يكونون مهتدين بهذا الاعلان المطلوب منهم ، ولقد كان
أنبياءهم وآباؤهم وهم أنفسهم مسلمين بنص القرآن .

وفي هذا مغالطة من الحوري ، ففيه أولاً إغفال لما في القرآن من
دعوة صريحة لأهل الكتاب إلى الإيمان بالنبي والقرآن على ما مر شرحه ،
وحينما يؤمنون بالنبي والقرآن يكونون بطبيعة الحال من أتباعها ، وملزمين
بشرائعها . وفي الآيات نفسها صراحة بأن أهل الكتاب كانوا مختلفين في
مدى الإسلام الواجب عليهم التزامه تبعاً لاختلافهم في تأويل ما عندهم من
كتب بسبب ما كان من مآرب لهم وبغبي فيما بينهم ، وحينما يأمر الله تعالى
رسوله إذا ما حاجبوه بأن يعلن أنه قد أسلم وجهه هو ومن معه لله ،
وبأن يسألهم هل هم مستعدون لأن يفعلوا مثله ، فإنما يكون ذلك دعوة
لهم إلى الإسلام الصحيح الذي جاء هو ليصحح الانحراف الذي ارتكسوا

فيه ، وبالتالي ، فليكن ذلك دعوة لهم إلى اتباعه ، لأنه هو الذي جاء
بالإسلام الصحيح المبرراً من الانحراف الذي وقعوا فيه .

- ٩ -

وقول الحوري : إن الخلاف بين النبي واليهود والنصارى ليس دينياً
ولا عقائدياً متهاًف من نواح أخرى أيضاً .

فأولاً : إن القرآن يقرر نبوة النبي ورسالته ، وصدق الوحي القرآني ،
وكونه رسولاً إلى أهل الكتاب ، ويدعوم إلى الإيمان به وبالقرآن كما جاء
في آيات كثيرة أوردناها في مناقبات سابقة .

فعلم الإيمان بالنبي محمد ورسالته ، وبالقرآن المنزل عليه من الله تعالى
هو خلاف ديني وعقائدي .

وثانياً : إن القرآن يقرر أن عيسى عليه السلام نبي ورسول من أنبياء
الله ورسله ، وأن الله آتاه الإنجيل فيه هدى ونور ، وأن أمه طاهرة
حديقة نشأت برعاية الله ، وبُشِرت بابنها تحبل به بكلمة الله وبدون مس
رجل ، واليهود ينكرون ذلك ، ويكفرون برأله عيسى والإنجيل ، ويقذفون
أمه ويهتونها كما حكى ذلك القرآن ، فصار الخلاف بينهم وبين الرسالة
الإسلامية القرآنية خلافاً دينياً وعقائدياً .

وثالثاً : إن القرآن يقرر أن اليهود قالوا إن عزيراً ابن الله ، ونفى
ذلك ، وقال عنهم بسبب قولهم هذا (يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا)
في آية سورة المائدة ٣١ فصار الخلاف بينهم وبين النبي والقرآن خلافاً
دينياً وعقائدياً .

ورابعاً : إن القرآن يصف بالكفر من يقول : إن الله هو المسيح ابن
مريم ، أو إن الله ثالث ثلاثة ، وينهى عن القول إن الآلهة ثلاثة ، وينفي
ذلك ، كما ينفي كون المسيح ابن الله بأي معنى ، ويقرر أنه عبد من عباد

الله ، ونبي ورسول من أنبيائه ورسله ، وأنه دعا إلى الله وحده ربه ورب
الناس جميعاً ، وحذر من الشرك به ، وأنذر المشركين بالنار ، كما جاء في
آيات عديدة أوردناها في مناسبات سابقة . فكل من يقول بتلك الأقوال
وكل من لا يؤمن بما يقرره القرآن بالنسبة لشخصية عيسى ورسالته ، وبما
يحكيه عن لسانه ، ومن جملة ذلك تبشيره برسول من بعده اسمه أحمد
ولا يؤمن بهذا الرسول يكون من وجهة النظر القرآنية الإسلامية على
خلاف ديني وعقائدي مع المسلمين .

خامساً : إن النصارى يعتقدون اليوم بعقيدة صلب المسيح كفساد
خطيئة آدم التي تسلسلت في ذريته ، ولتخليص البشرية من آثارها ، والقرآن
يقول أولاً أن الله تعالى قد تاب على آدم من خطيئته كما جاء في هذه الآيات :

١ - فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .. [البقرة : ٣٧] .

٢ - فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ
فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى .. [طه : ١٢١ و ١٢٢] .

وثانياً : إن القرآن ينفي صلب عيسى وقتله كما جاء في آيات سورة
النساء هذه (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا
فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا
قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا ..) (١) .

(١) الحوري يتمحل في هذه الآيات ليستخرج منها كونها في صدد نفي ملاماة
ذكر عيسى وليست في صدد نفي قتله وصلبه وقد تصدينا لتمحله وفندنا في مناسبة سابقة .

وتأثلاً : إن القرآن يقرر أن وزر كل ذنب لا يكون إلا على مقترفه
 فردياً فحسب كما جاء في آيات عديدة منها آية سورة الأنعام هذه (وَلَا
 تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْنَهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)
 وآيات سورة النجم هذه (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ
 الَّذِي وَفَّى أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ
 إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنْ تَعْبِيَهُ سَوْفَ يَبْصُرُ نَوْمَهُ مِيزَانَهُ الْجَوَارِ
 الْأَوْفَى .. ٣٦ - ٤١) .

وفي كل ما تقدم ينطوي نفى استمرار خطيئة آدم والتصاقها وتسلسلها
 في ذريته ونفى عقيدة الغداء وصب المسيح التي يعتقدوها النصارى . ويكون
 الخلاف بينهم وبين النبي والقرآن والمسلمين دينياً وعقائدياً .

وهذا بقطع النظر عما يقرره كثير من الباحثين المحققين من أن فكرة
 الغداء لتخليص البشرية فكرة وثنية قديمة تسربت إلى العقيدة النصرانية
 مؤخراً ، ثم بقطع النظر عما يلاحظه كثير من الملاحظين من عقد وآراء
 غريبة في هذه الفكرة على الوجه الذي يعتقدوه النصارى بما لا يمكن أن
 يفهم له أية حكمة ربانية ، وبما يتمثل كما يقوله بعضهم في سكوت الله
 سبحانه ورضائه عن اندماغ أجيال البشرية من لدن آدم إلى عهد المسيح
 بما فيهم الأنبياء والرسل بالخطيئة . وتفكيكه مؤخراً في وسيلة يجمع بها
 صفة العدل التي يتصف بها والتي توجب معاقبة المخطئ . وصفة الرحمة التي
 يتصف بها والتي تجعله يعفو عن المسيئين والمخطئين ، واهتدائه بعد أمـد
 طويل إلى أن يكون ذلك في تقديم ابنه الذي هو ذاته بطريقة حلوله في
 بطن امرأة من ذرية آدم وتجسده بجنين في رحمها وولادته كولد معصوم
 من جميع معاصي بني آدم وعيشه زمناً مع الناس إنساناً يأكل ويشرب ،
 ويتلذذ ويتألم كـائر البشر ، ثم يسخر لنفسه أعداء ليصلبوه ويقتلوه أفظع

قتلة بعد أن يهينوه ويعذبوه أشد إهانة وعذاب حتى لم يمنع نفسه من الفرع والحزن والضراعة بأن لا يشرب كأس هذه الإهانة ، ولا يتعذب بهذا العذاب إن أمكن تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولأنه يتجه سؤال في هذه المناسبة من اخوري وأمثاله عن حالة البشر بعد الفداء المزعوم ، فهل أصبحوا متطهرين من الخطايا بالمرة ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب ، فهل يكون الناس جميعهم في ذلك سواء ؟ وما هي جدوى الإيمان والعمل الصالح ، أو ضرر الكفر والعمل السيئ والحالة هذه . وإذا كانت البشرية تظل مسؤولة عن خطاياها فما هي جدوى عملية الفداء ؟ ثم ما هو معنى وحكمة ومحصل ما امتلأت به الأنجيل المتداولة من أخبار نشاط المسيح عليه السلام في التبشير ، داعياً إلى الله تعالى والإخلاص له حاضراً على الأخلاق الكريمة ، والأعمال الصالحة على مختلف أنواعها ، جاعلاً خلاص الناس ورضاء الله عنهم ودخولهم في ملكوت السموات منوطاً بذلك محذراً من الانحرافات الخلقية والدينية ، مندداً بالمتعرفين من رجال الدين وغيرهم ، منذراً إياهم بسخط الله والشقاء الأبدي ما دام هدف ظهوره هو فداؤه جميع البشر بدمه وتخليصهم من الخطيئة ؟ ..

ولا ينقض ما تقدم ما يقوله الخوري وأمثاله : إن حادث الصلب وقيام المسيح بعد موته حياً وكون ذلك وقع لأجل فداء البشرية وتخليصها من الخطيئة قد ورد في الأنجيل المتداولة ، فهذه الأنجيل قد كتبت بعد عيسى تسجيلاً للروايات والأقوال المتداولة ، وليس ما يمنع أن يكون ما سجل فيها خلافاً للوقائع والحقائق . والكيفيات والظروف المذكورة فيها متناقضة متباينة ، وفيها ما يدل على أن الأوهام والخيالات قد لعبت دوراً كبيراً فيها بما يمكن أن يلح به كل من يتمعن فيها ويقابلها مع بعضها ، وليس ما يمنع أن يكون طراً عليها تبديل وتحوير ، وليست هي بعد كل

ما كتب عن حياة عيسى . وقد ثبت أنه كان هناك أناجيل كثيرة بادت أو أيدت ، كما رويت أقوال عن رجال المذاهب الأولين بتعريفات وقعت في ما كان متداولاً منها وهذا ما أدى إلى تعدد المذاهب في شخصية عيسى وحياته ورسالته ، وقد بقي أو أبقى ما فيه انسجام مع العقائد المستقرة في الجامع مؤخراً ، وهذا فضلاً عن أن في الأناجيل المتداولة عبارات قد تفيد أن رؤية عيسى وهو مصلوب وحيناً قام لم تكن يقينية ، فضلاً عن أن عبارات القداء والخلص في هذه الأناجيل قابلة لتأويلات أخرى حيناً ينعم النظر فيها وفي سياقها . ولقد كانت بعض المذاهب والمقالات النصرانية القديمة تنكر صلب المسيح على ما يستفاد مما جاء في المجلد الرابع من تاريخ سورية للطران الدبس استناداً إلى بعض المصادر النصرانية القديمة ، كما كان بعضها ينكر أن خطيئة آدم وخواء سرت إلى ذريتهما ويقول : إنها لم تضر إلا نفسيهما وحسب على ما جاء في المجلد نفسه .

والقرآن يقول : إنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه ولم يقتلوه يقيناً ، وإنما شبه لهم ، وإن الناس في هذا الأمر في شك وخلاف ، وأكثرهم يصدرون عن الظن دون اليقين كما جاء في آيات سورة النساء هذه (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .. ١٥٧ و ١٥٨) حيث ينطوي في الآية إلماع إلى أن مسألة صلب عيسى عليه السلام ليست يقينية عند جميع النصارى في زمن نزول القرآن امتدأ إلى ما قبل ذلك بطبيعة الحال وإن منهم من كان يشك فيها أو ينفيها .

وفي هذا نقطة أخرى في الموضوع يبدو بها الخلاف بين الرسالة الإسلامية القرآنية وبين العقيدة النصرانية المستقرة دينياً وعقائدياً أيضاً .

ولقد حاول الحوري أن يستخرج من آيات النساء هذه أنها ليست نافية لحادث الصلب ، وإنما هي نافية لما كان اليهود أرادوه من صلب عيسى وقتله وهو ملاشاة ذكره في الوجود ، وإن هذا هو الذي شبه لهم . وقد ذكرنا محاولته هذه في نبذة سابقة ، وفندناها وبيننا ما فيها من تعمل .

- ١٠ -

ويستند الحوري في كون القرآن أقر التوراة والإنجيل وأحكامها ، وأنه لم ينسخها إلى الآيات ٤٢-٤٧ من سورة المائدة ويحمل ما جاء قبلها وبعدها وله صلة بالقضية والموقف الذي نزلت الآيات فيها ، لذلك رأينا أن نورد السلسلة كاملة وهي هذه (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِمَحَرِّقُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَالُونَ لِسَعْتِ إِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَقُولُونَ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَعْفَضُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا

وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ، وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ^(١) فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا

(١) مما قاله المؤلفون والمفسرون في مدى جلة (ومهيماً عليه) أنها في معنى الشهيد والرقيب والضابط بالنسبة للكتب المنزلة السابقة التي يتداولها أهل الكتاب ، وهذا مستلزم من فحوى الجملة أيضاً ، ويكون القرآن والحالة هذه من وجهة النظر الإسلامية ضابطاً ورقبياً على ما يتداوله أهل الكتاب من كتب يسبونها الى الله تعالى . فاجاء فيها من أسس ومبادئ وتلفيذات مطابقتها لما جاء في القرآن من ذلك أو غير متناقض معه فيجوز أن تكون نسبتته الى الله صحيحة ، وما كان غير متطابق أو ما كان متناقضاً ، فلا تكون نسبتته الى الله صحيحة ، ويكون قد طرأ على الكتاب الذي فيه ذلك تبديل أو تحريف . وما جاء في القرآن ولم يكن في الكتب المتداولة في أيديهم المنسوبة الى الله تعالى فيكون ما جاء في القرآن هو الحق ، والعقيدة الإسلامية هي الإيمان إطلاقاً بما أنزل الله من كتاب ، وبوحدة المصدر والأهداف الرئيسية التي تجمع بين كتب الله المنزلة على أنبيائه وبين القرآن كما جاء في آيات سورة الشورى هذه (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا

أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ مِمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ
 جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً
 وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ
 مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .. المائدة :
 . (٤٨ - ٤١)

فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ
 يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفْقَهُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى
 أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ
 لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِبِّبٍ . فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَاسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا
 تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ
 لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
 لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْزِي بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .. ١٥ و ١٤)
 وَآيَةُ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ هَذِهِ (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي
 هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ
 إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَلَآ هُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ
 مُسْلِمُونَ .. ٤٦) وَآيَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ هَذِهِ (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
 أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ
 لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . ١٣٦) .

وهذه السلسلة نزلت على ما اتفق عليه الرواة وتلهم صحته فعوى الآيات في قضية رفعت إلى النبي ﷺ ليقتضي فيها ، وكان لليهود يد أو ضلع في الموقف ، أو كانوا طرفاً في القضية على اختلاف الروايات ، وفيها من حيث الإطلاق إقرار لليهود والنصارى بأن تكون أحكامهم في قضاياهم الخاصة وفقاً للتوراة والإنجيل إذا شأوا مع التنويه بما في التوراة والإنجيل من نور وهدى ، أما إذا أرادوا أن يتحاكموا لدى النبي فحكمه يجب أن يكون وفقاً لما أنزل الله عليه وحسب ^(١) .

وظاهر من هذا أن القضية التي نزلت فيها الآيات هي في صدد حالة كان اليهود فيها محتفظين بديانتهم نتيجة للبداية القرآني العام الذي يسمح لمن يريد أن يحتفظ بدينه ويعيش مع المسلمين بسلام ما دام لا يعادهم ولا يهد يداً ولساناً بأذى إليهم . وقد جاء ذكر الإنجيل وأهله من قبيل الاستطراد والتعميم في الموقف المشابه . وبعبارة أخرى إن الآيات نزلت في صدد قضية قضائية إن صح التعبير وقعت وتقع أمثالها مع اليهود والنصارى الذين يكونون في كنف السلطان الإسلامي وليست كما توهمه الحوري أو أراد أن يوجه في صدد إقرار لليهود والنصارى وكتايبها في عهد الإسلام وعدم نسخها على اعتبار أن ذلك مجتزأ لهم عن الإسلام ومنج لهم في الآخرة عند الله ديناً وعقيدة ، ويظل اليهود والنصارى مدعوين إلى

(١) لصوص الآيات صريحة أولاً أن على اليهود والنصارى أن تكون أحكامهم في قضاياهم إذا تحاكموا فيما بينهم وفقاً للتوراة والإنجيل وحسب . وقد يعني هذا أن للسلطان الإسلامي أن يلزم الدين في كنفه منهم بأحكام التوراة والإنجيل وعدم السماح لهم بالخروج عنها . وثانياً إن المسلمين مقيدون بالشريعة الإسلامية التي يمثلها القرآن وسنة النبي وحسب وليسوا ملزمين بشرائع الكتب السابقة وإن ما ذهب إليه بعضهم من قول (إن شرح ما قبلنا شرع لنا) خير سديد ، بل هو منقوض بصراحة الآية الأخيرة من السلسلة . والله أعلم .

الإيمان بالنبي والقرآن ، والانضواء إلى شريعتهما إذا ما أرادوا النجاة الأخروية ديناً وعقيدة من وجهة النظر القرآنية والإسلامية على ضوء الآيات التي أوردناها في الفقرات العديدة من هذا البحث وغيره .

وفي سورة المائدة التي وردت فيها الآيات التي نحن في صددنا آيات فيها توضيح أكثر لهذه النقطة وهي هذه (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَبِّحِينَمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ . يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيُزِيدَنَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مُطْفِئِينَ وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .. (٦٥ - ٦٨) .

وجمهور المفسرين يفسرون جملة (وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ) وجملة (وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) في الآيتين ٦٦ و ٦٨ بأن ذلك يعني القرآن ، فهو منزل لجميع الناس ومن جملتهم أهل الكتاب ، والشرط الأخير من الآية الأخيرة يدعم ذلك التفسير .

ومحصل الآيات والحالة هذه دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالقرآن والرسول المنزل عليه بالإضافة إلى التزام ما في التوراة والإنجيل من مبادئ ، وإقامتها على وجهها الحق ، وإيدان لهم بأنهم ليسوا على شيء من الحق والهدى وضمان النجاة عند الله ما لم يفعلوا ذلك ، فإن فعلوا كفر الله عنهم سيئاتهم ، وأدخلهم جنات النعيم ، ويسر لهم أسباب الرزق من كل صوب .

والآية الأولى تؤيد أيضاً صحة تفسير المفسرين ، وصحة هذا المحصل ، حيث
تطلب منهم أن يؤمنوا ليكفر الله عنهم سيئاتهم ، ويدخلهم جنات النعيم ،
والمقام لا يتحمل معنى للإيمان المطلوب منهم إلا الإيمان بالقرآن والرسول
المنزّل عليه .

وبعض المفسرين يذكرون بالإضافة الى ذلك التفسير وجهاً آخر للجملةتين
وهو أنها قد تعنيان ما في التوراة والإنجيل من مبادئ انخرقوا عنها
وحقائق أنكروها ، ومن جملة ذلك صفات النبي ﷺ التي ذكرت آية سورة
الأعراف ١٥٧ أنها مكتوبة في التوراة والإنجيل ، وتطالبهم بالتزام تلك
المبادئ والحقائق ، ولا يخلو هذا من وجاهة ، ولا يخرج محصله عن المحصل
السابق كما هو واضح .

وظاهر من هذا أن الآيات تقور أن الخلاف بين النبي وأهل الكتاب
ليس سياسياً وطائفيّاً كما يزعم الحوري ، وإنما هو ديني وعقائدي أيضاً .
وفي الآية الأخيرة تنبيه للنبي ﷺ إلى واقع كثير من أهل الكتاب ،
وهو أن ما أنزل الله إليه قد زادهم غيظاً وكفراً ، وتوعد إليه بأن لا يتم
بموقف الكافرين منهم . وقد يكون هذا هو ما استند إليه الحوري في قوله :
إن الخلاف كان سياسياً ، ولكن هذا ليس هو كل شيء ، فانخرقوا عن
مبادئ التوراة والإنجيل وأحكامها ، وإنكار ما فيها من حقائق هما متصلان
بالدين والعقيدة على كل حال .

وعلى كل حال فإن أهل الكتاب المدعوين إلى الإسلام والإيمان بالقرآن
وبرسالة محمد إذا ما استجابوا وانضوا إليها يصبحون ملتزمين بالقرآن والسنة ،
أو بكلمة أخرى بالشرائع والأحكام والقواعد الإسلامية المنبثقة عنها كالمسلمين ،
ولا يكونون محتفظين بصفتهم الدينية السابقة .

ولقد قلنا : إن آيات المائدة (٤٣ - ٤٧) قد أجازت لأهل التوراة والإنجيل الذين يحتفظون بديانتهم ، ويكونون في كنف السلطان الإسلامي بالتقاضي وفاقاً للتوراة والإنجيل إذا شاؤوا ، وإن ذلك هو نتيجة المبدأ الإسلامي العام بأن لا إكراه في الدين ، ويجوز حسن التعامل والتعايش بين المسلمين والذين يريدون الاحتفاظ بدينهم من غير المسلمين ومن حملتهم أهل الكتاب إذا ما كانوا كافين عن الإسلام والمسلمين أيديهم وألسنتهم . وهذا يسمح بالاستطراد إلى حالة مماثلة ألمع إليها القرآن وهي إجازة تبادل الطعام بين المسلمين وأهل الكتاب ، وإجازة تزوج المسلم بالكتابية حيث جاء هذا في آية سورة المائدة هذه (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمَنْعَصَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَنْعَصَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ . إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصَيْنَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ... ٥) .

والمقام لا يتحمل إيراد ما روي وقيل في أسباب وظروف نزول الآية ، ولا إيضاحات أخرى حول مداها ، ونكتفي بالتنويه بحكمة التشريع البليغة فيها فنقول : إن القرآن ما فقه يقرر وحدة المصدر والمهدف والمبادئ التي تجمع بين المسلمين وأهل الكتاب ، ويوجب على المسلمين احترام كتبهم المنسوبة إلى الله وأنبيائهم ورسولهم فجاء هذا التشريع الخاص بهم دون المشركين والوثنيين المستمد من كون الكتائين مؤمنين بالله ورسوله على كل حال خطوة مهمة في سبيل توطيد الناس والتواتق والتعايش والتعامل والتقارب عملياً بينهم وبين المسلمين .

وما جاء في هذا البحث بما في ذلك النقطة التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة يظهر عناية القرآن الكبيرة بأهل الكتاب ، وحرصه الشديد على هدايتهم للإسلام ، وتصحيح ما وقعوا فيه من انحراف وشقاق ، وجمعهم مع المسلمين تحت راية كتابية جديدة مصدقة لما بين يديها . ولقد علم الله أن هذا مطلب حق وصدق ، وواجب التحقيق ويمكن التحقيق معاً . ولتحقيقه فوائد عظيمة للإنسانية جميعها التي احتوت الدعوة الإسلامية كل أسباب خيرها وسعادتها ورفقها ونجاتها وكرامتها في الدنيا والآخرة .

ولقد ألمنا بهذا الأمر في الفقرة (١٠) من النبذة أولاً من الفصل الثاني ، وشرحنا ما كان من حالة اليهود والنصارى قبل الإسلام وما هناك من أسباب وموجبات ميسرة لاندماجهم فيه ، وما كان من فوائد عظيمة محتملة لانتشار الإسلام دين الله بذلك وما احتواه القرآن من دعوتهم إليه ، وما كان من استجابة كثير منهم في حياة النبي ﷺ إلى الدعوة ، وما كان من استمرار استجابة معظم من كان منهم في بلاد الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا والأندلس بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . وما كان من رغبة بعضهم في الاحتفاظ به فكان له ما أراد ، وكون تلكؤ من تلكأ إنما كان المآرب والمنافع التي غلبت على أحبارهم ورجبانهم ، فانبروا إلى الصد عن الإسلام في زمن النبي كما ذكره القرآن . وقد استمر هذا أيضاً في مختلف حقبة التاريخ لنفس الدوافع والحوافز ، فنكتفي بهذه الإشارة دون التكرار .

وتظل الدعوة القرآنية موجبة بكل مداها وأهدافها إلى اليهود والنصارى لفلاحهم وخلاصهم ، ثم لقيام جبهة كتابية موحدة تحت راية الإسلام ، وقرآن الإسلام ، وسنة نبي الإسلام لتحمل مشعل الهداية والأخوة والسلام ،

والطمأنينة للإنسانية جميعها ، ولا سيما في هذا الظرف الذي يدير جماهير
الناس ظهورهم للدين ، ويستشري فيهم الالحاد والفساد الخلقي والاجتماعي ،
وتطفئ المادة والتفكير فيها على المشاعر والأفكار ، لما لن يكون له علاج
ناجع إلا بذلك .

ولأنه لما يحز في النفس ، ويشير فيها للاشمزاز أن يتكرر ما وقع في
زمن النبي ﷺ وبعده ، فينبغي الحذري الحداد وأمثاله من الأخبار
والرهبان من آن لآخر ليناثروا هذه الدعوة ، ويصدوا ملهم والإنسانية
عن الاستجابة إليها بما يثيرونه من شبهات باطلة ، ويثيرونه من مسائل
زائفة ، ويرسلونه من أقاويل كاذبة ، ويعمدون إليه من تمحلات ومماحكات
متهافة ويجرؤون عليه من افتراءات وتطعات وسوء أدب حكي القرآن
ما وقع مثلها من طواغيت المشركين والكتائبين في مواجهة النبي ﷺ ،
وردها عليهم برود قاصمة قارعة مفحمة ، بقصد إطفاء ما في هذه الدعوة
من هدى ونور ، وحق ومبادئ ، وأحكام وخطوط ، وتلقيبات وحلول مرنة
تستجيب لكل مطلب ، ولكل جنس ولون ونحلة في كل ظرف ومكان ،
وتضمن للإنسانية جميعها السعادة والسلامة والطمأنينة والأخوة والحربة
والمساواة^(١) فيعطلون ذلك العلاج الناجع لما استشري في الناس من الالحاد
والفساد ، ويكونون بذلك كأسلافهم موضع تنديد القرآن .

ولن يحققوا ما أرادوه ، لأن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره
الكافرون ، ولأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على
الدين كله ولو كره المشركون .

والحمد لله رب العالمين

(١) فصلنا كل ذلك في الجزء الأول والثاني من كتابنا الدستور القرآني والسنة

النبوية في شؤون الحياة .

تنبية واعتذار

قد نكون استعملنا بعض الألفاظ القاسية في ردودنا على الحوري الحداد ، وتفنيدنا لمزاعمه ، وحقاً لقد أمرنا الله تعالى في القرآن أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، ولكنه استثنى الذين ظلموا منهم كما جاء في الآية (٤٦) من سورة العنكبوت هذه (وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) وأي ظلم أشد على المسلم من زعم الحوري وأمثاله منهم أن القرآن غير موحى من الله ، وزعم وقوع تحريف ودس وزيادة عليه ، ونسبة ذلك إلى الرسول وأصحابه لمآرب سياسية ، ثم من الإيغال في تجريب رسالة محمد الآلية والقرآن الالهي وصدقه وتدوينه وحفظه تجريباً فيه الوقاحة والصفاقة والكذب بدافع من الحقد والهوى والعمالة ، والتصميم على الصد عن الإسلام ، وقرآن الإسلام ، ونبي الإسلام وهدمهم . فضلاً عن هذا فإن الحوري لا يتورع في ثنايا كتبه عن توجيه كلمات قاسية بذينة إلى علماء المسلمين ومؤلفيهم حينئذ يرام يسوقون أقوالاً وأفكاراً تخالف مزاعمه وأفكاره ودعاويه الزائفة المتهافنة .

كتب للمؤلف

- ١ - التفسير الحديث
- ٢ - القرآن المجيد
- ٣ - الدستور القرآني
- ٤ - عصر النبي
- ٥ - سيرة الرسول
- ٦ - المرأة في القرآن والسنة
- ٧ - الاسلام والاشتراكية
- ٨ - القرآن واليهود
- ٩ - القرآن والضمان الاجتماعي
- ١٠ - حول الحركة العربية الحديثة
- ١١ - تركيا الحديثة
- ١٢ - بواعث الحرب العالمية الاولى
- ١٣ - مختصر تاريخ العرب والاسلام
- ١٤ - دروس التاريخ العربي
- ١٥ - دروس التاريخ المتوسط والحديث
- ١٦ - دروس التاريخ القديم
- ١٧ - دروس في فن التربية
- ١٨ - مشاكل العالم العربي
- ١٩ - تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم
- ٢٠ - الوحدة العربية
- ٢١ - عروبة مصر قبل الاسلام وبعده
- ٢٢ - تاريخ الجنس العربي
- ٢٣ - العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي
- ٢٤ - مأساة فلسطين
- ٢٥ - جهاد الفلسطينيين
- ٢٦ - الجذور القديمة لاجداث بني اسرائيل
- ٢٧ - القرآن والملحدون